



جامعة محمد الخامس بالرباط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
Université Mohammed V de Rabat
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

مركز دراسات الدكتوراه:

الإنسان و المجال في العالم المتوسطي

تكوين الدكتوراه:

الفكر الإسلامي المعاصر وقضايا المجتمع والبيئة في العالم المتوسطي

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب، بعنوان:

صناعة التميز وتنمية المهارات في السيرة النبوية

من إعداد الطالب الباحث:

إبراهيم أحتشاو

أعضاء لجنة المناقشة:

- د. العربي بوسلهام / رئيسا كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط
د. محمد خروبات / مشرفا..... كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش
د. عبد الرزاق الجاي / مشرفا.....كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط
د. أحمد البوكيلي/ عضوا.....كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط
د. بثينة الغلبزوري / عضوة..... كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط
د. محسن بنزاكور / عضوا..... كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجديدة

2018 - 2019 م / 1439-1440 هـ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

(وَلِتُصْنَعَ عَلٰی عَيْنِيَّ)

- سورة لهُدٰ: الآیة 39 -

إهداء:

إلى صاحب السيرة؛ الحبيب المصطفى



...

شكر و تفكير :

بعد شكر الله تعالى على نِعْمِهِ وَمِنِّهِ الكبرى. أتقدم بجزيل الشكر ووافر الامتنان إلى والدي العزيزين وإخوتي الذين راعوا انشغالاتي بالبحث ووفروا لي المناخ المناسب لإتمام هذا العمل، وإلى كل الأفراد والمؤسسات التي شاركت ببصمتها في هذا العمل؛ وأخص بالذكر:

—مشرفي الفاضل الأستاذ الدكتور: محمد خروبات

الذي أخذ بيدي منذ أولى سنواتي الجامعية ولا يزال، وأرشدني إلى طريق البحث الأكاديمي، والذي كانت لتوجيهاته الحكيمة وملاحظاته النيرة الدور الكبير في نجاحي وتقديمي في مشواري.

—مشرفي الفاضل الأستاذ الدكتور: عبد الرزاق الجاي

الذي تفضل بقبول الإشراف علي، والذي كان قدوة لي في الحكمة والنبيل والأخلاق الحسنة التي يتصف بها ويشهد له بها الجميع.

—السيد رئيس تكوين الدكتوراه، الأستاذ الدكتور العربي بوسلهام

الذي نذر حياته لخدمة الباحثين وتكوينهم، والذي تشرفت بالتعلم منه، والتتلمذ على يديه، منذ أن حلت بهذه الكلية العامرة، فاستفدت من خبراته وتجاربه العميقة في الحياة الجامعية الشيء الكثير.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لباقي السادة الأفاضل أعضاء المناقشة الذي تفضلوا بقراءة هذا العمل وإبداء ملاحظاتهم العلمية الهادفة.

فאלلهم اجز اللميع عني خير الجزاء؁ وأطل يا رب في عمرهم؁ واجعلهم منارة للباحثين يقتفون آثارهم ويستضيئون بنورهم.

ولا يفوتني في الختام أن أتقدم بشكري إلى المؤسسات الأكاديمية والعلمية؁ والتي وجب علي شكرها من باب الاعتراف لأصحاب الفضل بفضلهم.

فأشكر في بدايتها مؤسستنا الجامعية كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط؛ على احتضانها لي وعلى تكويني والدفع بي نحو التميز والنجاح في مشواري العلمي الأكاديمي.
كما أتقدم بالشكر للمكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط؛ على توفيرها المناخ الملائم للبحث والإطلاع؁ وكذا توفرها على مختلف الكتب والمنشورات التي أسعفتني في إنجاز أطروحتي.

ثم لمؤسسة رزان للدراسات الإستراتيجية حول الأسرة والمجتمع؛ على إسهامها الكبير في تكويني في مجال البحث العلمي؁ وتوفيرها لي كل متطلبات البحث.

والحمد والشكر لله أولاً وآخراً.

مقدمة:

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وجعله في الأرض خليفته المستخلف فيها، والمصلح بهديه، فأشخص له من بني البشر نبيه محمد بن عبد الله قدوة مثلى، يبين له ما نُزِّل عليه، ويصنع التميز في كل مناحي الحياة الدنيا والآخرة، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وبعد؛

فقد شغلت دراسة شخصية الإنسان اهتمام العديد من الدارسين والباحثين المهتمين في العلوم الإنسانية، وذلك باعتباره يشكل العنصر الفعال في المنظومة الكونية، أو بمعنى فلسفة المنظومة الإسلامية؛ كونه الكائن المستخلف في الأرض والمسؤول عن أمانة الكون.

وعلى الرغم من الزخم الكبير لإنتاجات هذه العلوم والمعارف، وما رافق ذلك من نظريات ورؤى مختلفة، إلا أنها لم تستطع النهوض به إلى المستوى المأمول. ولعل هذا الإخفاق راجع إلى المقاربات التي اعتمدها أولئك في دراستهم للإنسان وملكوناته، فكانت نظرياتهم تلك محاولات عرجاء، أفقدت الإنسان صورته الحقيقية، فعطلت وظيفته في تعيير الأرض وتبوؤ مقام الاستخلاف والقيادة.

وبناء على هذه النظريات حاول مجموعة من الباحثين الأجانب في البداية أن يُخرجوا فنّاً ينمي الذات الإنسانية ويطور من فعالية أدائها، وينشد في الإنسان التميز والنجاح في حياته الدنيا، فسار على نهج أولئك مجموعات متتالية من الباحثين، ترجموا تلك النظريات واجتروا ما لاكته ألسن الغربيين، فحاكوا في محاولاتهم تلك النظريات وأنتجوا ما يطلق عليه بـ "التنمية الذاتية"، هذا الفن الذي انبثقت عنه جملة من المباحث التي تطفو اليوم في الساحة التربوية؛ كصناعة التميز، وتنمية

المهارات... إلخ، فكانت الحاجة إلى تفقد التراث الإسلامي، والعودة إلى مصادره الصحيحة أمراً محتماً، من أجل صياغة نظرية شاملة ومستوفية لمتطلبات هذه الشخصية في صناعتها، ثم تأهيلها لصناعة التميز وتنمية المهارات.

من هنا انبثقت الفكرة، فحضت أنقب وأعين تلك الدراسات والنظريات المختلفة التي طرحها الآخر، محاولاً إنتاج نموذج إسلامي شامل لصناعة التميز وتنمية المهارات، وذلك من خلال المجتمع الإسلامي الأول الذي فصلت فيه السيرة النبوية أبعاداً لصناعة الإنسان، وخطوات صناعة التميز وتنمية المهارات لديه.

هذا؛ وقد اخترت لهذا البحث الذي أضطلع بإخراجه وفق ما ذكر عنواناً وسمته بـ:

"صناعة التميز وتنمية المهارات في السيرة النبوية".

1 - أهمية الموضوع:

تكمن أهمية البحث في هذا الموضوع في أهمية تنمية المهارات، ودورها في صناعة التميز، وفي ضرورة ربط سيرة الإنسان اليومية بالسيرة النبوية، والتأسي بصاحبها بمحاكاة تصرفات المجتمع النبوي المتميز، للاستفادة منها في هذا المجال، باعتبارها نموذجاً تطبيقياً لصقل مهارات الحياة لدى الصحابة الذين برعوا وتميزوا في مختلف المجالات الحياتية (الفكرية والسلوكية...).

كما أن أهميته تنبع من مدى استفادة مجال التنمية البشرية من السيرة النبوية ومن باقي العلوم الإسلامية، فسيبل تحقق نخضة الأمة رهين بتحقيق الصناعة المثالية للتميز بين أفراد المجتمع والمنبثقة من التربة الإسلامية.

2 - إشكالية البحث وأسئلته:

تقوم أساسيات وقواعد التنمية الذاتية على جوانب معينة في صناعة شخصية الإنسان، وتغفل الجوانب الأخرى المكونة لشخصيته، فنتج عن هذا التجزيء تكوين صورة مبتورة وجافة؛ مبتورة لكونها لم تُعرّف الإنسان بحقيقته الكاملة التي خلقه الله عليها، وجافة لأنها غيّبت مكون الوحي الذي حدد أبجديات هذه الصناعة قبل وجود الإنسان على وجه هذه الأرض.

ورغم انتشار الحديث عن التنمية الذاتية وكثرة الاهتمام بها من لدن المؤسسات الرسمية وغير الرسمية، العلمية وغير العلمية... إلا أننا نلاحظ أنها لم تحقق المراد.

ويحاول هذا البحث معالجة هذه الإشكالية من خلال الإجابة على الأسئلة الآتية:

- ❖ ما هي أسس وقواعد التنمية الذاتية، وما فلسفتها ومرجعيتها في صناعة الإنسان؟؛
- ❖ هل تناولت السيرة النبوية أسس التنمية الذاتية، وهل هي نفس الأسس المعروفة اليوم أم أنها مختلفة؟؛
- ❖ على ماذا تقوم فلسفة المنظومة الإسلامية في صناعة الشخصية الإنسانية، وما أساسيات هذه الصناعة ومقوماتها المغيبة في بعض الدراسات؟؛
- ❖ هل نستطيع أن نقدم نموذجاً كاملاً للتنمية الذاتية، نؤصل له من خلال السيرة النبوية؟؛
- ❖ وهل يمكننا أن نستخلص من المجتمع النبوي منهجاً واضح المعالم في موضوع صناعة التميز وتنمية المهارات الحياتية، بما يعود على مجتمعنا المعاصر بالخير ويحقق التميز داخل صفوف أفراده؟.

3 - لمواقع البحث في الموضوع:

أولاً: الدوافع الذاتية

- الشغف العلمي الكبير بمجال السيرة النبوية والحديث الشريف، وذلك منذ خطواتي الأولى من بداية مشواري الأكاديمي، تأثراً بمحاضرات ومؤلفات مشرفي الفاضل الأستاذ سيدي محمد خروبوات.
- رغبتني في تقوية وتعزيز واجب المحبة تجاه صاحب السيرة؛ حبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.
- قناعتي العلمية بأنه يمكن التوصل إلى كثير من الحقائق من خلال المزج بين ما تزخر به السيرة النبوية من صور التميز وتجلياته، وما توصلت إليه الدراسات والأبحاث الجادة في مختلف العلوم والمعارف -بتعدد لغاتها- بخصوص النظريات الحديثة حول التنمية الذاتية.

ثانياً: الدوافع الموضوعية

- فشل المقاربات الوضعية والمجردة من الوحي في الظفر بمنظومة كاملة شاملة لمختلف جوانب الكائن الإنساني، وبالتالي فشلها في صياغة صناعة نموذجية للتميز وتنمية المهارات.
- الانتشار الكبير لدورات التنمية البشرية وتطوير الذات في الساحة الإسلامية، والتي غالباً ما يحاكي فيها أصحابها التجارب الغربية، ويقلدونها تقليداً أعمى؛ سواء في المناهج أو الوسائل أو الطرق...
- ندرة المؤلفات التي تؤصل لموضوع صناعة التميز وتنمية المهارات من خلال العلوم الشرعية عموماً ومن السيرة النبوية خصوصاً.

4 - أهداف البحث:

يصبو هذا البحث في مجمله إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، من أهمها:

للم التأصيل لفن التنمية الذاتية من خلال السيرة النبوية، وبيان سبق هذه الأخيرة في تطرقها

لتنمية المهارات الحياتية وصناعة التميز داخل صفوف المجتمع النبوي المتميز.

للم التعريف بالمنظومة الإسلامية في دراستها لأساسيات صناعة الإنسان، وبيان المقومات

التي تضطلع بصناعة الشخصية الإنسانية.

للم نشدان التميز وصناعته عبر مختلف مجالات الحياة، ولا سبيل لذلك إلا بعيش الحياة

وفق الرؤية النبوية المثالية، والتي تمثل السيرة النبوية تفصيلا لمختلف جزئياتها ومكوناتها.

للم تصحيح التمثلات الخاطئة المكوّنة عن السيرة النبوية، والتي تُعرّفها بأنها مجرد تدوين

لتاريخ الغزوات والمعارك التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم.

5 - منهج البحث:

لتحقيق الأهداف المتوخاة من البحث، والإجابة عن الأسئلة المطروحة والإشكالات العالقة

حرصت على سلك منهج يسعفني في تحقيق المطلوب.

ونظرا لكون البحث يضم شقًا نظريًا وشقًا تطبيقيًا انتهجت في كل شق المنهج المناسب لدراسة

فصوله ومباحثه.

أ. منهج الدراسة النظرية للبحث:

اتبعت فيه المنهج الوصفي؛ وذلك فيما يتعلق بالجهاز المفاهيمي لموضوع البحث: (صناعة الإنسان، صناعة التميز، تنمية المهارات...) من حيث وصفها في مؤلفات التنمية الذاتية، وعلوم التربية، وعلم النفس التربوي... فعدت لمعانيها اللغوية والاصطلاحية وحددت المراد منها، كما وصفت توظيف الوحي - بشقيه - لهذه المفاهيم.

ب. منهج الدراسة التطبيقية للبحث:

- المنهج الاستنباطي:

بما أن الشق التطبيقي من البحث يقوم على اعتبار نصوص السيرة النبوية هي أساس استقراء ملامح التميز وتحليلات تنمية المهارات، اعتمدت فيه المنهج الاستنباطي لاستنباط هذه الملامح والتحليلات، فضلا عن ما تتطلبه هذه النصوص من شواهد ونماذج أخرى تعضدها استقيتها من الدراسات والأبحاث داخل الحقول المعرفية الخادمة لموضوع البحث.

- المنهج التحليلي:

وظفته في تحليل نصوص السيرة ومواقف النبي عليه السلام وأصحابه الميامين في ضوء مبادئ ونظريات التنمية الذاتية وباقي الحقول المعرفية الداعمة، وربط هذه النصوص بالواقع المعيشي اليوم.

6 - الدراسات السابقة:

إن الباحث في الدراسات المؤلفة حول هذا الموضوع، والتي يتحقق فيها اجتماع كل من مُكوّن "صناعة الإنسان"، ومكون "صناعة التميز"، ومكون "تنمية المهارات"، داخل مجال "السيرة النبوية" ليحد -إلى حدود كتابة هذا البحث- ندرة في التأليف، وذلك وفق الرؤية التي عاجلت بها الموضوع.

وقد بحثت طيلة مدة إنجازي لهذا البحث فوفقت على بعض الدراسات والأبحاث؛ منها ما قلّص بؤرة الضوء على بعض جوانب بحثي، ومنها ما تقاطع مع البحث في جُزئيةٍ من جزئياته.

ومن الدراسات التي عاينتها:

أ - [التميز في ضوء السنة النبوية -دراسة موضوعية-]، للباحثة مها أبو النمر، رسالة لنيل

درجة الماجستير في الحديث الشريف ، تحت إشراف الدكتور زكرياء صبحي زين الدين، كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة، سنة 2011م، في 262 صفحة:

تناولت الباحثة -في دراستها لموضوع التميز في ضوء السنة النبوية- مختلف الجوانب: فتطرقت إلى دعوة السنة النبوية إلى التميز وبيان منهج السنة في اكتشاف المتميزين، ثم ختّمت بحثها بعرض ميادين التميز المختلفة من خلال السنة النبوية.

ومن خلال عنوان الرسالة يظهر أن بحث الطالبة مركز على التميز فقط، دون تناول المهارات ولا الإشارة إليها في ثنايا البحث.

ب - [صناعة التميز وتنمية المهارات في السنة النبوية]، (أعمال الندوة العلمية الدولية
السادسة التي عقدت بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي في الفترة بين 23-25 أبريل
2013م) في جزأين:

اقتصرت مقالات الجزء الأول من الكتاب على عرض منهج النبي صلى الله عليه وسلم في
اكتشاف الموهوبين والمبدعين، وكذا الحديث عن البيئة الداعية للتميز، فضلا عن ذكر بعض المهارات
المهمة في المجال التعليمي (كال حفظ والتذكر والاستنباط الفقهي...).

وفي الجزء الثاني من الكتاب ثمة مجموعة من المقالات التي تتقاطع مع بعض مباحث ومطالب
بجثني (كتوظيف الذكاء العاطفي ومراعاة الحاجات النفسية للطفل في السنة النبوية، وأيضا بعض
مهارات تكوين الأسرة المتميزة في ضوء السنة النبوية...).

ولم تتطرق مقالات الكتاب بجزأيه لصناعة التميز من خلال السيرة النبوية، ولا إلى الحديث عن
مهارات الحياة (مهارات صناعة الذاتية وصناعة المجتمع) كما عرضتها، ناهيك عن إغفالها لصناعة
الإنسان وبيان أساسياته ومقوماته.

ج - [التنمية الذاتية - تأصيلها الإسلامي وتطبيقاتها في دولة الإمارات العربية

المتحدة-]، للباحثة الشيخة فاختة بنت سعيد آل نهيان، وهي رسالة لنيل درجة الماجستير،
تحت إشراف الدكتورة حياة البرهامي، جامعة محمد الخامس أبو ظبي، ط1 - 2017م، في
253 صفحة:

يتلخص موضوع بحث الطالبة في ثلاثة فصول: الأول؛ حول التنمية الذاتية: مفهومها وتأصيلها
وأهميتها. والثاني؛ حول منهج الإسلام في التنمية الذاتية. ثم الثالث بعنوان: التنمية الذاتية وتطبيقاتها
في دولة الإمارات العربية المتحدة؛ بيّنت فيه الطالبة الباحثة مجموعة من مبادرات بعض المؤسسات
والوزارات والهيئات في مجالات التنمية داخل المنطقة.

كما سلطت الباحثة الضوء على ما وسمتُ به مبحثي الأول من الفصل الأول بـ "صناعة الإنسان"، وهذا هو التقاطع الوحيد الذي نشترك فيه

ويختلف الباحثان في: أن بحث الطالبة لم يعرض لصناعة التميز ولا إلى تنمية المهارات ولا إلى تجلياتها في السيرة النبوية.

كما عثرتُ -إضافة إلى هذه المؤلفات- على بعض المقالات ذات الصلة بموضوعي، والتي اقتصرْتُ على دراسة بعض جزئيات بحثي، وقد استفدت منها كثيرا في صياغة تصميم شامل لبحثي، يستوعب كل الجزئيات التي تطرقتُ إليها هذه المقالات، أقتصر على ذكر اثنين منها:

﴿مقال: [صناعة التميز وتنمية المهارة: الآليات والمحفزات في ضوء السنة النبوية]، محمد إسماعيل الديهي، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة أسيوط، العدد 46- أبريل 2013م.

﴿مقال: [التميز في صناعة الأهداف وتحقيقها في ضوء الهدى النبوي]، لخالد محمد محمود الشрман، ضمن مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية بغزة، العدد الثاني- يوليو 2015م.

والناظر إلى كل الدراسات السابقة التي تم عرضها -سواء الرسائل الجامعية منها، أو الندوات العلمية، أو المقالات المفردة- يجد أنها أُجزّت خلال السنوات الثمانية الأخيرة (أي؛ ابتداء من سنة 2011م إلى اليوم)، وإن دلَّ هذا على شيء فيدُلُّ على أن البحث في الموضوع يتسم بالجدّة، وأن الكتابات فيه نادرة. وأرجو أن يُشكّل بحثي هذا إضافة نوعية للمكتبة الإسلامية، وإسهاماً مقبولاً في التأصيل للموضوع من خلال السيرة النبوية.

وبعد عرض الدراسات السابقة وبيان أوجه التقاطع والتباعد بينها وبين بحثي، يمكن إجمال ملامح الجدة والانفراد التي ميّزت هذا العمل، والتي لم تجتمع في الدراسات السابقة. وتتجلى في:

- أولاً: تأسيسه على رؤية المنظومة الإسلامية، وبنائه على تصور شامل يراعي دراسة مختلف المجالات المتدخلة في تربية الإنسان وصناعته (كمجال القدوة، ومجال القيم، ومجال الأسرة...) وذلك قبل الحديث عن صناعة التميز وتنمية المهارات في السيرة النبوية.
- ثانياً: اختيار السيرة النبوية مجالاً للاستنباط بدل السنة النبوية- وإن كان المصطلحان مترادفين في المعنى اللغوي- فيفصل بينهما خيط دقيق؛ إذ العلاقة بين السيرة والسنة هي العلاقة بين النبي الملتزم والنبي المشرع، فالسيرة النبوية تجسيد وتمثيل للمبادئ النظرية السامية التي تضمنها القرآن، وتصرفات الرسول عليه السلام تطبيق عملي والتزام دقيق بتعاليم الإسلام وبمجموع أحكامه وقضاياه المستمدة من القرآن الكريم والمقررة في السنة النبوية¹.
- ثالثاً: استفادته من التقاطعات بين العلوم والتكامل بين المعارف واللغات المختلفة. فكان للمزج بين هذه العلوم والمعارف وبين السيرة النبوية إضافة نوعية في إخراج نموذج شامل؛ مُتَّفِقُ الفكرة، ومُتَّعِدُّ الرؤى.
- رابعاً: كونه يجمع العناصر والجزئيات المتناثرة في الدراسات السابقة في بحث واحد.

7 - صعوبات البحث:

كلّفتني هذا البحث الكثير من الوقت، فبلغت قصارى جهدي في عملية مسح الدراسات والأبحاث ذات الصلة بالموضوع، والاطلاع عليها، والاستفادة من مناهجها، ومن الموضوعات التي

¹ - للتوسع أكثر في كشف العلاقة بين السيرة والسنة واستجلاء ما بينهما من العموم والخصوص، يُرجع إلى:
 - مقال: "علاقة السيرة النبوية بالسنة"، عبد الهادي الخليلي، (مجلة الواضحة الصادرة عن مؤسسة دار الحديث الحسنية، العدد 8- مطبعة الأمنية، الرباط). رابط النسخة الإلكترونية:

تطرقت إليها، فضممت موضوعاتها إلى بحثي، وعالجتها وفق رؤيتي ومنهجيتي في البحث،
وحسب مناسبتها لمباحث ومطالب البحث.

ولا يفوتني أن أسجل هنا؛ الدعم الكبير الذي تلقينته من أستاذي ومشرفي الدكتور محمد
خروب، وكذا من أستاذتي الفاضلة الدكتورة بثينة الغلبزوري، وذلك بتوفيرهما لي مجموعة من
الدراسات والأبحاث التي تعدُّ عليَّ الحصول عليها من شبكة الإنترنت ومن داخل الوطن.
فجزاهما الله خير ما يجزي به المحسنين على دعمهما المتواصل والمنقطع النظير.

8 - خُصَّة البحث:

فرضت طبيعة الدراسة أن يُقسَّم البحث إلى بابين: فجعلت الأول بمثابة إطارٍ نظريٍّ لصناعة
التميز وتنمية المهارات، وجعلت الثاني بمثابة الإطار التطبيقي لصناعة التميز وتنمية المهارات في
السيرة النبوية.

أما الباب الأول فقسمته إلى فصلين:

وسمَّيْتُ الفصل الأول بـ "أساسيات صناعة الإنسان ومقوماتها"، وقسمته إلى مبحثين اثنين، كل
مبحث يضم مطلبين؛ خصصت المبحث الأول لدراسة صناعة الإنسان داخل المنظومة الإسلامية
من حيث المصطلح والأساسيات، فشرعت في شطره الأول في تتبع دلالات مصطلح "صناعة
الإنسان" ومعانيه قبل نزول القرآن، وبعد نزوله، ثم تداول المفهوم عند العرب. وفي شطره الثاني
عرضت أساسيات هذه الصناعة في منظومة الوحي، وحددتها في ثلاثة مجالات؛ مجال التربية الروحية
والنفسية، ومجال التربية العقلية والقلبية، ثم مجال التربية الجسمية. أما المبحث الثاني فكان الحديث
فيه عن مقومات صناعة الإنسان؛ وهي مقوم القدوة، ومقوم القيم، ثم مقوم الأسرة، فخصصت

مطلباً لدراسة كل مقوم؛ أما المطلب الأول فتناولت فيه حقيقة القدوة وأهميتها في صناعة التميز، كما بينت فيه صفات القدوة الحسنة. وأما الثاني فجعلته للتعريف بمفهوم القيم وبيان أهميتها في صناعة الإنسان وكذا الحديث عن منظومة القيم في الإسلام. ثم ختمت الفصل بمطلب ثالث أفردته لمقوم الأسرة، حيث تطرقت فيه إلى مفهوم الأسرة في اللغة وتعريفها عند السوسيولوجيين وعلماء النفس وبينت أدوارها ووظائفها في صناعة الإنسان، ثم بينت في آخر المطلب ما للتخطيط الأسري من دور وفعالية في نجاح مؤسسة الأسرة وعرضت بعض متطلباته، فانطلقت من التنمية الأسرية وأشارت إلى بعض مجالاتها، ثم تحدثت عن المناخ الأسري الملائم لصناعة الإنسان في كنفه والمناسب لصناعة التميز بين صفوف أفرادها.

أما الفصل الثاني من الدراسة النظرية فعنوانته بـ " إستراتيجية صناعة التميز وتنمية المهارات"، قسمته أيضا إلى مبحثين، كل واحد منهما يضم مطلبين. ففي المبحث الأول جعلت حديثي عن صناعة التميز، بينت في شطره الأول تأصيل المصطلح التميز ودلالات إطلاقه، ففصلتُ في أصل المصطلح في لغة العرب، ثم توظيف المصطلح عند التربويين، كما جردت معاني التميز داخل منظومة الوحي. وأفردت المطلب الثاني لوضع إستراتيجية التميز ورسم خريطته التي ستوجه دراسة صناعة التميز في الشق التطبيقي، وجعلت هذه الاستراتيجية على ثلاث مراحل متسلسلة؛ مرحلة الإعداد القبلي، ومرحلة الاختمار والتخطيط، ثم مرحلة الإشراف والتحقق. وكما أفردت هذا المبحث الأول من هذا الفصل لصناعة التميز فإنني أفردت المبحث الثاني منه لتنمية المهارات من حيث المصطلح والإستراتيجية أيضا، قسمته بدوره إلى مطلبين؛ الأول في تأصيل المصطلح ودلالات إطلاقه والثاني في عرض إستراتيجية تنمية المهارات التي سيتأسس عليها الشق التطبيقي أيضا، وقرعتُ مطلب الاستراتيجية إلى ثلاثة فروع؛ الأول في تحديد مهارات صناعة الذات، والثاني في ذكر مهارات التعامل مع الآخر، ثم الثالث والأخير في بيان مهارات صناعة المجتمع.

هذا فيما يخص الإطار النظري لصناعة التميز وتنمية المهارات، وقد حرصت على جعل الباب الثاني بمثابة مرآة للباب سابقه، حيث تُشكّل كل جزئية بداخل الشق التطبيقي عرض تجليات وتطبيقات الجزئية نظيرتها في الباب النظري.

وسيرا على تحري المطابقة بين البابين، كسرتهُ بدوره إلى فصلين؛ جعلت مبحث الفصل الأول لعرض تجليات الصناعة الربانية للشخصية النبوية، ثم جرد ملامح صناعة الإنسان في سيرته صلى الله عليه وسلم، وخصصت المبحث الثاني لبيان مقومات صناعة الإنسان وتجلياتها في السيرة النبوية؛ فبخصوص مقوم القدوة عرضت فيه الصناعة الربانية لنموذج الاقتداء (صلى الله عليه وسلم)، ثم بينت ملامح الصناعة النبوية للقدوات. أما مكون القيم فاخترت الحديث فيه عن قيمتين اثنتين، عليهما تقوم معظم القيم الكونية والاجتماعية، الأولى قيمة الحق؛ فاستنبطت تجلياته ومعانيه المتناثرة

في السيرة (الحق بمعنى الصدق في القول والعمل، وباعتباره نقيض الكذب والخيانة، والحق بمعنى

الوفاء بالعهد)، والقيمة الثانية تتجلى في المسؤولية؛ درستها بدورها من خلال السيرة النبوية، باختلاف معانيها ودلالاتها (المسؤولية بمعنى الأمانة، وبمعنى التضحية، وبمعنى المروءة). وفي المطلب الثالث والأخير فأفردته لصناعة مقوم الأسرة، بينت فيه في البداية فلسفة اختيار الشريك داخل السيرة النبوية، ثم نثيتُ بعرض تجليات التنمية الأسرية داخل السيرة، وبينت مجالات هذه التنمية؛ سواء في تنمية العلاقة فيما بين قطبي الأسرة، أو في تنمية العلاقة بين الزوجين والأبناء، ثم ختمت المطلب بعرض ملامح المناخ الأسري الناجح، مستنبطاً إياه من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

وختمت الباب التطبيقي بالفصل الثاني الذي يشكل جوهر البحث ويجب على معظم أسئلة البحث، فوسمته بـ "صناعة التميز وتنمية المهارات من خلال السيرة النبوية"، جعلت مبحثه الأول للحدوث عن استراتيجية صناعة الأهداف في السيرة النبوية من خلال حدث الهجرة، والثاني لعرض تجليات إعمال تنمية المهارات الحياتية داخل المجتمع النبوي. فالمبحث الأول قسمته إلى مطالب ثلاث، يشكل كل واحد منها خطوة للتقرب نحو الأهداف المنشودة، فوسمت الأول بـ "أهمية الإعداد القبلي والتدرج في صناعة الهدف"، والثاني بـ "دور التخطيط والقيادة الرشيدة في صناعة الهدف"، ثم وسمت الثالث بـ "وسائل صناعة الأهداف في السيرة النبوية". وختمت الدراسة التطبيقية بمبحث أخير جعلته لعرض تجليات تنمية مهارات الحياة من خلال السيرة النبوية، وسرت على تتبع المهارات نفسها التي عرضتها في الشق النظري من البحث، قسمتها إلى ثلاثة أقسام، كل قسم يشكل عنواناً لمطلب؛ الأول في مهارات صناعة الذات، تناولت فيه كل من مهارة الذكاء الوجداني، وإدارة الوقت، والتعلم الذاتي. والثاني في مهارات التعامل مع الآخر، تناولت فيه مهارة التواصل ومهارة العمل الفريقي ثم مهارة التنوع وقبول الآخر، أما المطلب الثالث والأخير فخصّص لعرض تجليات إعمال مهارات صناعة المجتمع من خلال السيرة النبوية، حددت منها أيضاً ثلاث

مهارات؛ الأولى؛ مهارة الانتماء والمواطنة، والثانية مهارة الحفاظ على البيئة والموارد، ثم الثالثة والأخيرة في صناعة مجتمع المعرفة.

وأنهت البحث بخاتمة ضمت مجموعة من النتائج المتوصل إليها من خلال البحث، وكذلك الإجابة على أسئلته، ثم عرضت بعض التوصيات.

كما ذيلتُ البحث بقائمة للمصادر والمراجع المعتمدة، راعيت في وضعها الترتيب الألفبائي وبيان المعلومات الكاملة عن النسخ المعتمدة (من اسم الكتاب، ومؤلفه، ومحققه - إن وُجد -، ودار النشر، وبلد النشر، ورقم الطبعة وسنة الطبع). ثم ختمته بفهرس مفصل لموضوعات البحث.

فما كان من توفيق وسداد في هذا العمل فمن الله، وما كان فيه من نقص أو تقصير أو زلل فمني، والإنسان مُعَرَّض لكل ذلك، وحسي أي بذلت قصارى جهدي في هذا البحث، وإن هي إلا محاولة باحث ألقى بدلوه في بئر العلم والمعرفة، يروم الإسهام في مُخرجات التكوين الأكاديمي. فالله المستعان على ما أروم تحقيقه، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الباب الأول:

الإكهار النظرى لصناعة التميز وتنمية المهارات

الفصل الأول: أساسيات صناعة الإنسان ومقوماتها

- المبحث الأول: صناعة الإنسان داخل المنظومة الإسلامية: "المصطلح والأساسيات"
- المبحث الثاني: مقومات صناعة الإنسان

الفصل الثاني: إستراتيجية صناعة التميز وتنمية المهارات

- المبحث الأول: صناعة التميز: "المصطلح والاستراتيجية"
- المبحث الثاني: تنمية المهارات: "المصطلح والاستراتيجية"

تمهيد:

لعل القارئ يتساءل عن تصديري لهذا الباب بـ"صناعة الإنسان" مع أنّ عنوان البحث يهتم بالدرجة الأولى صناعة التميز، بيد أنّ الناظر في الدراسات النفسية والأبحاث المعنية بـ"صناعة التميز" يجد أنّها _ في معظمها _ تغفل الانطلاق من أسسّ متين، من خلاله يتم إعداد أرضية مُحصّل من خلالها غلة التميز، وهذه الأرضية تتمثل في "الإنسان" قبل الحديث عن التميز وصناعته، فالتميز بمنزلة الارتفاع بالنسبة لبناء الإنسان، ولا يستقيم بناء بدون أسّ، كما لا يسمو أي ارتفاع ما لم تكن قاعدته متينة ومحكمة الصنع.

فالدافع الذي جعلني أُصدّر صناعة التميز بصناعة الإنسان داخل المنظومة الإسلامية: أولاً اقتناعنا التام بأن الإنسان هو قطب الرحي في الوجود بأكمله، إذ لا يوجد لا في ماضي الإنسان ولا في حاضره ولا في مستقبله من هو أهم منه، فالإنسان أهم من علومه، وأهم من حقوقه، وأهم من الأشياء الموجودة حوله. ثم إن الخالق جل وعلا أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحاً يفتح به كل أبواب العالم، وطلسماً يفتح به كنوز خلاق الكون. وثانياً؛ وقوفنا على فشل العلوم والنظريات في صناعة الإنسان، وفي التعبير عن إنسانيته حق تعبير.¹

أضف إلى ذلك، أن الغاية الأسمى للمنظومة الإسلامية هي صناعة الإنسان، وتكوينه، وصياغته في قالب يتماشى ومعطيات الوحي الرباني؛ صناعة تبرز فيها كل خصال البذل والعطاء المثمر، وتزيد وعي الإنسان بأهميته في الكون والحياة، ليُخرج منه إنساناً متميزاً يصنع التميز ويغير مسار التاريخ.

من أجل هذا، آثرت أن أتناول في مفتح هذا الباب أساسيات صناعة الإنسان، والوقوف عند

¹ - خلاصة في نقد الفكر الطبيعي، قراءة في كتاب "الطبيعة" مع مقالة في بناء الإنسان عند بديع الزمان النورسي، محمد خروب، (مقالات علمية- رقم: 2، المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، ط1- 2002م)، صص: 66-67. بتصرف.

مكونات الشخصية الإنسانية، واحدا واحدا، مع ارتباطها ببعضها أولا، ثم علاقتها بالوحي الذي يوجهها نحو القبله الصحيحه ثانيا.

إن لتحليل عناصر الشخصية الإنسانية في ضوء الوحي دورا مهما في إعادة صياغتها؛ صياغة تضطلع إلى تحقيق التميز وإخراج الإنسان إخراجا سويا في كل عناصره المكونة لشخصيته؛ بقلب مُدرك، وبعقل مُسدّد، وبنفس مُروّضة تواقه للكدر والبذل الإيجابي، وبجسم قوي يضم بين جنبيه روحا ربانية تسمو به لأعلى مراقي التميز، وتؤهل صاحبها لتبوؤ مقام القدوة، حتى يصير بعمله وتصرفه الملموس مرآة لفكره وجوهره المعنوي.

وتأتي الخطوة الثانية - بعد التعرف على أساسيات صناعة الإنسان - لبيان المقومات ذات العلاقة بصناعة الإنسان، ويتعلق الأمر بكل من مكون القدوة والقيم والأسرة، بحيث سنبين معاني مفاهيمها أولا، ثم أهميتها في صناعة الإنسان وتهيئته لبلوغ مقام التميز ثانيا.

وقبل الخوض في التميز ورسم استراتيجية وخريطة لصناعته أردفنا في البحث مكونا لصيقا بالتميز؛ هو مكون المهارات الحياتية، هذا الأخير الذي يشكل الأدوات والمفاتيح التي تُشرّع الباب أمام التميز وفضائه.

وبهذه المنظومة المتسلسلة والمرتبطة المكونات نكون قد أسسنا للإطار النظري لموضوع البحث، والذي نستشرف من خلال الباب الثاني عرض ملامح صناعة التميز وتنمية المهارات الحياتية في السيرة النبوية وفق التصميم والخطوات المعتمدة في الشق النظري.

الفصل الأول: أساسيات صناعة الإنسان ومقوماتها

قبل الشروع في تناول حقيقة صناعة الإنسان، وقبل الكشف عن أساسيات ومكونات هذه الصناعة، وجبت الإشارة إلى أننا نروم من هذه الدراسة إعادة صياغة الشخصية الإنسانية خارج دوائر الاتجاهات المادية المحضة، والمتجردة من الإقرار بوجود القوى الغيبية التي تمتلك الإنسان وترجم وجوده وكماله، وإنما داخل دائرة الوحي الذي كان له قصب السبق في صياغة شخصية الإنسان السوية وإخراجها إخراجاً يليق بمقامها المكرم، ويسير بها نحو صناعة التميز.

المبحث الأول: صناعة الإنسان داخل المنظومة الإسلامية "المصطلح الأساسي".

المطلب الأول: صناعة الإنسان "مفهوماً"

سنعرض معاني ودلالات مصطلح "الصناعة" وقرنه بـ"الإنسان" قبل نزول القرآن، كما سنتتبع تطور المصطلح عند العرب من خلال معاجم اللغة القديمة وكذا المعاصرة. وفيما يلي بيان ذلك.

الفرع الأول: مفهوم "صناعة الإنسان" قبل نزول القرآن

قبل نزول القرآن الكريم لم تعرف أقوال العرب اقتراناً لمصطلح الصناعة بالإنسان، إلا ما نُدِر ذكره في أشعار الشعراء في العصر الجاهلي.

جاء في ديوان الشاعر الجاهلي عمرو بن الطفيل (50 ق.هـ - 11هـ) قوله:

سُوِّدُ صَنَاعِيَّةٌ إِذَا مَا أوردوا ××× صَدَرَتْ عُتُومَتُهُمْ وَلَمَّا تَحَلَّبَ.¹

فلفظة "صَنَاعِيَّةٌ" تعني أن القوم يصنعون المال (الإبل والماشية) ويُسمَّونه ولا يسقون ألبان إبلهم الأضياف،² فصناعتهم للماشية تتجلى في تربيتها وتكوينها حتى تتجمع .

ويقول حسان بن ثابت في حق قومه مادحا لهم:

أَهْدَى لَهُمْ مَدْحِي قَلْبٌ يُؤَاوِرُهُ ××× فيما يجب لسانُ حائكُ صَنَعُ.

" لسانُ حائكُ صَنَعُ " أي: حاذق. ³ ولا شك أن الحذق من سمات المتميز في أدائه وعمله، وما هي إلا تحصيل لصناعة وافية متكاملة.

من خلال النموذجين المختارين من الشعر القديم يتبين لنا أن دلالة توظيف مصطلح الصناعة فيهما لا تخرج عن معاني: التربية، التملك، التكوين، ثم الحدق والتفنن في الأداء.

الفرع الثاني: "صناعة الإنسان" في القرآن الكريم

من خلال العودة إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وتتبع مشتقات الجذر اللغوي لمادة "صنع" نجد أنه تكرر ذكرها في كتاب الله إحدى عشر مرة⁴؛ موضعان منها فقط أُسند فيهما لفظ الصناعة إلى الإنسان، كلاهما وردا في سورة طه (لِئْتَصِنَعَ، اصْطَنَعْتُكَ).

¹ - ديوان عامر بن الطفيل، (تحقيق: هدى جنهوتشي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1-1418هـ)، ص: 71.

² - تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، (تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1-2001م)، 215/3.

³ - ديوان حسان بن ثابت، (تحقيق: علي مهنا، دار الكتب العلمية- بيروت، ط2-1414هـ)، ص: 153.

⁴ - ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، (مطبعة دار الكتب المصرية- مصر، 1945م)، ص: 415.

يقول الحق جل وعلا في شأن موسى عليه السلام لما صار بين يدي فرعون وأهله : (وَأَلْفَيْتُ

عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي)¹، أي لثرتي ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك²، ويقال: اتخذته لي على عيني، أي: على ما أردت وهويت³.

فالصنع في الآية جاء بمعنى التربية والرعاية، "ومنه يقال لمن أنعم عليه أحد نعمة عظيمة: هو صنيعه فلان"⁴. أي: هو تربية فلان ومن صنعه وتنميته ورعايته.

الورود الثاني لمادة "صنع" جاء في نفس السورة، وحول نفس الشخصية؛ حيث خاطب رب العزة نبيه موسى عليه السلام قائلاً: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)⁵، أي: اخترتك لإقامة حجتي، وجعلتك بيني وبين خلقي حتى صرت في الخطاب عني والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم"⁶. وهذا يجسد عمق مفهوم الاستخلاف في الأرض، وكذا ما يترجم حقيقة التميز.

فقد شبه الله تعالى اختيار موسى للمحبة والرسالة والتكليم والتكريم... بمن يختاره الملك للمهام الجليلة، لما يرى فيه من المقومات والحاصل الحميدة، لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه⁷، وهذه المقومات والحاصل هي التي تترجم معاني التميز لدى علماء التنمية البشرية؛ وتتجلى في المواهب والكفاءات والمؤهلات العقلية والذهنية...

1 - سورة طه: الآية 39.

2 - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري، (دار الكتاب العربي - بيروت، ط3 - 1407هـ)، 63/3.

3 - مجاز القرآن، أبو عبدة، (تحقيق: محمد فواد سرگين، مكتبة الخانجي - القاهرة، 1381هـ)، 19/2.

4 - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (الدار التونسية للنشر - تونس، 1984 هـ)، 218/16.

5 - سورة طه: الآية 41.

6 - معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، (تحقيق: عبد الجليل عبده شليبي، عالم الكتب - بيروت، ط1 - 1408هـ)، 365/3.

7 - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، (دار الفكر المعاصر - دمشق، ط2 - 1418هـ)، 206/16.

فمن خلال الموضوعين الواردين يظهر أن ثمة علاقة متصلة وحيط رابط بين صناعة الإنسان في منظومة الوحي وبين صناعة التميز، إذ لا يتحقق التميز ما لم تتحقق صناعة الذات المشربئة للتميز، والمؤهلة لتمثيل مبدأ الاستخلاف في الأرض أحسن تمثيل.

الفرع الثالث: تداول مفهوم "صناعة الإنسان" عند العرب

جاء في تهذيب اللغة للأزهري (370هـ) معنى صناعة الإنسان مقابلاً لمفهوم "الإخراج"، فيقال: فلان صنيعه فلان إذا خَرَّجَهُ¹، ولفظ الإخراج هذا يدل عليه قوله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)²، فهذه النخبة من الأمم شُهد لها بالتميز عن باقي الأمم، وبالخيرية على من سواها، اصطفاها الخالق جل وعلا لتقوم باستخلافه في الأرض.

تقول العرب: صَنَعَ الجارية إذا رباها، وتصنيعها لا يكون إلا بأشياء كثيرة وعلاج³، وامرأة صناعٌ ورجل صَنَعٌ إذا كانا حاذقين فيما يصنعانه، وفرسٌ صنيع إذا صنعه أهله بحسن القيام عليه⁴. ونجد في المعاجم المعاصرة [صَنَعَ] بمعنى: عَلَّمَ وأَدَّبَ وهَدَّبَ... وصَنَعَةٌ بمعنى: فنٌّ وبراعة وحذق ومهارة⁵، و[صنع ولده] إذا ربّاه وتولى توجيهه في جميع أطوار حياته⁶.

1 - تهذيب اللغة، 24/2.

2 - سورة آل عمران: الآية 110.

3 - تهذيب اللغة، 24/2.

4 - مقاييس اللغة، ابن فارس القزويني، (تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ)، 313/3.

5 - تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دوزي، (نقله إلى العربية وعلق عليه: محمّد سليم النعيمي و جمال الخياط- وزارة

الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة الأولى (من 1979م - 2000م))، 472/6.

6 - معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (عالم الكتب،

ط1- 1429هـ)، 1322/2.

من خلال ما سبق؛ يمكننا القول أن دلالات ومعاني مفهوم صناعة الإنسان عند العرب يمكن تلخيصها في: تربية الإنسان ودراسة تكوينه الداخلي والخارجي؛ بتهديب نفسيته، وتنمية قدراته العقلية ومهاراته، ثم استثمارها في جميع أطوار حياته تحت ضوء الوحي الرباني، لإخراج أ نموذج متميز يضطلع بمهمة الاستخلاف في الأرض، ويسمو نحو مقام تحقيق التميز.

إلا أننا لا يمكننا الإحاطة بكنه وعمق هذه الصناعة الإنسانية ما لم ننتقل من فهم مكوناتها، فوجب تفكيك مقومات هذه الصناعة ودراستها، حتى نقف عند الصورة المترجمة لهذا الكائن المكرم المتميز.

المطلب الثاني: أساسيات صناعة الإنسان في منظومة الوحي

لما أدرك الإنسان أهميته في الوجود انصبت عليه البحوث والدراسات؛ كل من موقعه؛ فالتربوي من جهة علوم التربية، والسوسيولوجي من ناحية العلوم الاجتماعية، وعالم النفس من حيث دراسة نفسيته وسر أغوارها محاولة لفهم هذا الكائن وتشخيص أمراضه، ناهيك عن علماء التاريخ والجغرافيا والبيولوجيا الذين أدلوا بدلوهم أيضا في بئر الإنسان العميقة.

غير أن هذه جميعا جزأت الإنسان، كل تيار أو مذهب تناوله في جزء، ولم تفلح نظريات هذه التيارات في تقديم صورة حقيقية ومعقولة عن إنسانية الإنسان بما فيها الحركة الإنسانية HUMANISME التي ظهرت في أوروبا لرد الاعتبار للإنسان في إنسانيته، بل لم تفلح هذه التيارات كلها حتى في التعبير عن المفهوم الحقيقي لإنسانية الإنسان تعبيرا دقيقا ومعقولا¹.

وقد قدّم بعض المفكرين المحدثين والمعاصرين المسلمين تصورات معرفية وثقافية للإنسان بشكل عام والإنسان المسلم بشكل خاص ضمن مشروع حضاري يهدف إلى التخلص من قيود النظريات

¹ - خلاصة في نقد الفكر الطبيعي، قراءة في كتاب "الطبيعة" مع مقالة في بناء الإنسان عند بديع الزمان النورسي، مرجع سابق، ص: 65.

الغربية... من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: محمد الغزالي، وإقبال، ومالك بن نبي، والفاروقي، وعلي شريعتي، وبيجوفيتش، وجارودي، والمسيري، وطه عبد الرحمن، وعبد الحميد أبو سليمان، وغيرهم. فهؤلاء تجمعهم مدرسة فكرية واحدة تستعيد صورة الإنسان بطبيعته الاستخلافية المزدوجة المادية/الروحية التي توظف مناهج مركبة¹.

إن قرن الصناعة بالإنسان داخل المنظومة الإسلامية يفيد أن هناك هندسة كاملة لهذه الشخصية، ومقاصد ساوية بين يدي هذه الصناعة لكي يُخرج هذا الإنسان خلقا سويا؛ عابدا لله عز وجل، معانقا لسبيل الرشد. وليس هذا في حالة الأفراد فحسب، وإنما في حالة الإجماع أيضا، حيث إن الله جل وعلا يقول: (كُنْتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)²، ولفظ الإخراج هذا هو المقصد الأسمى من هذه الصناعة.

يقول الباري جل وعلا: (الذِّمَّةُ أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَفَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ) ^١ ثم جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ^٢ ثُمَّ سَوَّيْنَاهُ وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَجَعَلْنَا لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ^٣، فمن خلال الآيات يتبين أن الخالق يبيِّن مقتضيات ومكونات هذه الصناعة المتقنة، فلزم منا لكي نفهم حقيقتها أن نعرف حقيقتها ورصد العلاقة فيما بينها، ثم بيان مدى الترابط الحاصل بينها وبين الوحي تعصيذا وتكميلا.

¹ - معالم صورة الإنسان بين المرجعيتين الإسلامية والغربية، هيئة التحرير، (إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر،

المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة 24، العدد 95، شتاء 1440هـ/2019م)، ص: 8. بتصرف

² - سورة آل عمران: الآية 110.

³ - سورة السجدة: الآيات 6-8.

وتبرز أيضا هذه المقننات في مثل قوله تعالى: (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْفَوِيَّ الْأَمِينُ)¹.

فهي قوة غير مقتصرة على بُعد واحد، بل هي قوة في العقل والقلب، قوة في الروح والنفس، قبل القوة في الجسم.

من أجل هذا؛ آثرنا البحث في هذه الجوانب التي تترجم حقيقة الكائن البشري الذي نروم صناعته، ونحن مقتنعون بأنه يمكننا التوصل إلى كثير من الحقائق من خلال هذه الطريق.

الفرع الأول: التربية الروحية والنفسية

إن مقارنة الفلسفة الإسلامية لمسألة الروح تُعري مواطن النقص التي تعترى الأبحاث التي غيّبت الوحي في دراستها لهذا المكون داخل منظومة صناعة الإنسان، وتبين ما لدراسة هذا الموضوع داخل قبة الوحي من امتياز وتفرد. إذ تتضح أهمية ودور الدراسة المؤيدة بالوحي عن باقي الدراسات المفروغة منه في هذا الصدد.

والملاحظ في الدراسات النفسية الغربية إهمالها لدور الروح في بناء الشخصية، مع أن الحاجة إلى النمو الروحي أقوى من الحاجة إلى أي نوع من أنواع النمو الأخرى، وما تصديرتنا لهذا المبحث بمكون الروح إلا إيماننا بأن حقيقة الإنسان الجوهرية تتجلى في كونه روحا لا جسدا، "إنه أعظم بكثير مما تتصوره مدارس المادة بوصفه قطعة من جماد، لا تختلف عن غيرها إلا بوظائفها العضوية"².

حيث إن الفكر الإنساني الأول قد اقتنع لأمد طويل بفكرة وجود إنسان غير محسوس داخل قلب الإنسان ودماعه، يؤثر في سلوكه وفي حالته النفسية، وقد نسب الفكر اليوناني في القرن

¹ - سورة القصص: الآية 26.

² - الإنسان روح لا جسد "بحث في العلم الروحي الحديث"، رؤوف عبيد، (دار الفكر العربي، ط2-1966م)، ص: 40.

الخامس قبل الميلاد هذه الحالة النفسية إلى شيء غير مرئي أطلقوا عليه مصطلح النفس أو الروح.¹ ورغم إقرار الفكر اليوناني بوجود قوة غير محسوسة داخل الإنسان، إلا أنه حار في تسميتها؛ أهي الروح أم النفس؟

فالكلام عن وجود هذه القوة المبهمة بداخل الإنسان لا جدال فيه، إذ لا يستقيم تعريف الإنسان بمجرد القالب الظاهر، مع إغفال حقيقته الكبرى، " فلا يصح أن نعرف درة ثمينة بصندوق من طين يحتويها إلى حين، كما لا يصح أن نعرف طائراً جميلاً بقفص من عظام بالية يغلق عليه سبيل الانطلاق، فيرى بعض الباحثين أن الإنسان _ وهو يمثل الذات الواعية الناطقة فينا _ محض روح، أما الجسد المادي فهو المظهر الخارجي الذي به نتعارف إلى حين، فلا صلة له بتعريف هذه الذات ولا هو ملكٌ لها؛ بل هو ملكٌ للأُمّة الأرض التي منها جاء وإليها يعود². والذي عليه جمهور العقلاء أن "الإنسان هو البدن والروح معاً، وقد يطلق اسم أحدهما دون الآخر بقريئة"³.

وأمام هذا الجدل في تعريف حقيقة الكائن الإنساني نطرح التساؤلات الآتية:

ما حقيقة هذه الروح التي حار الكثيرون في تعريفها؟ وهل ثمة فروقات محددة بين كل من الروح والنفس، أم أنهما إطلاقان اثنان يراد منهما الدلالة على شيء واحد؟

العنصر الأول: مفهوم الروح

مهما حاولنا تقديم محاولات لتعريف "الروح" لن نقف عند حقيقتها الكاملة، ولن نعرفها تعريفاً قاطعاً يُجلي حقيقتها المطلقة، ذلك أن "الروح روح الله، وليست روح البشر التي هي النفس"⁴، وما

1 - مبادئ الصحة النفسية، صالح حسن الدايري، (دار وائل للنشر والتوزيع- عمان، ط2-2010م)، ص: 10 .
2 - الإنسان روح لا جسد، صص: 44-45.
3 - الروح "في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة"، ابن قيم الجوزية، (دار الكتب العلمية - بيروت، (د.ت.))، 1/178 .
4 - مقال "الروح والجسد في القرآن الكريم"، حسن حنفي، (مجلة عالم الفكر-العدد4، المجلد37، أبريل 2009م)، ص: 8.

كان من أمر الله لا يعرفه حق المعرفة إلا الله.

وقد حاول العلماء قديما وحديثا أن يعرفوا الروح بتعريفات تقرب ماهية هذا الجوهر الرباني؛ فمنهم من عرّفها بأنها "جسم علواني، نوراني، خفيف، حي، متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد"¹، أو هي تلك "النفخة من روح الله التي تتمثل في الجانب الروحي للإنسان، كما تتمثل في الوعي والإدراك والإرادة، وفي كل القيم والمعنويات التي يمارسها الإنسان"². فالروح حسب التعريفين هي الأصل الذي تشعّب عنه كل القدرات والملكات التي يتميز بها، وإن جهلنا حقيقتها في ذاتها.

يقول طه عبد الرحمن: "الروح قبس ملكوتي فينا، ولو أننا لا نعلم حقيقتها في ذاتها فإننا نعلم وجودها في آثارها... إذ لا أحد بوسعه أن ينكر أن جسمه يأوي أمرا ليس من جنس جسمه، أي ليس من جنس العالم الذي يأوي جسمه. وإذا تبث هذا لزم أن يكون هذا الأمر الذي يثوي فيه ورد عليه من عالم مباين لهذا العالم، والحال أن هذا العالم المباين هو الذي اختص باسم (عالم الملكوت)، يترتب على هذا أن التربية متى تعلق بهذا الأمر الملكوتي تعيد إليه حياته، استطاعت أن تهيمن على كلية الإنسان في المسلم"³.

وتعلّق التربية بهذا الأمر الملكوتي يقتضي ربط الإنسان بمصدر هذا الأمر (أي بخالقها)، وإلا ستكون تربيتنا لهذا الكائن وصناعتنا له تفتقر للكثير من المعاني، لكن للأسف تجد الكثير من الآباء والأمهات المخولة لهم مسؤولية الصناعة الروحية لدى الأبناء، تجدهم في سعيهم لربط أبنائهم بخالقهم وتنمية جانبهم الروحي يnehجون وسائل ويؤمنون بأفكار وقناعات تدمر هذا الجانب،

¹ - الروح، لابن القيم، 1/178.

² - دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب، (دار الشروق- القاهرة، ط10-1414هـ)، ص:44.

³ - من الإنسان الأبتى إلى الإنسان الكوثر، طه عبد الرحمن، (جمع وتقدم: رضوان مرحوم، المؤسسة العربية للفكر والإبداع - بيروت، ط1-2016م)، صص: 51-52.

وتنشئ جيلا ضعيفا إيمانيا.

ولعل الطريق السوي لصناعة هذا الجانب المهم في حياة الطفل يتجلى في توجيهه وإرشاده إلى الله، وذلك بتحفيز الدافعية الذاتية لديه، فُتُنَمَّى فيه عاطفة التعلق بالخالق المتفضل واستشعار نعمه عليه أن كرمه وخلقه في أحسن تقويم، وأن جعله متميزا ومتفردا عن غيره... فهذا يرتفع تقديره لذاته ويتسلح بالإيجابية، ويصبح حريصا على التقرب من ربه وشكره، وبالتالي يترجم ذلك سلوكا إيجابيا وأخلاقا حسنة تجاه نفسه وتجاه محيطه الأسري والاجتماعي.

ولا غرابة أن نلفي في كتاب الله أن المميزين هم الذين يشملهم الخالق بتأييد بروح منه،
(﴿وَلَيْكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾)¹. وبهذا تعني الروح "التأييد المعنوي والطاقة الخلاقة في الإنسان لتحقيق غاياته وأهدافه؛ هي القدرة على العمل والاستمرار التي تتولد مع العمل نفسه (...). أي الدافع الحيوي في الإنسان للحركة والنشاط والتحقق"².

تعدد قوى الإدراك لدى الإنسان بالرغم من مكانة بعضها وأهميتها عن بعض إلا أنه ينبغي التحرز من فصلها عن مصدرها الأصلي (الروح)، أو عن القلب باعتباره محلا لها.

وتتجسد معاني الروح شيئا فشيئا في عملية الخلق؛ الخلق الإنساني الأول (خلق آدم)، بنفخ الروح فيه بعد تسويته من الطين، (ثُمَّ سَوَّيْتُهُ وَنَبَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ)³، وأسجد له الملائكة من عظمة الخلق الإنساني وكماله، قال تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَبَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحٍ فَفَعُّوا لَّهُ،

¹ - سورة المجادلة: جزء من الآية 21.

² - الروح والجسد في القرآن الكريم، ص: 9.

³ - سورة السجدة: جزء من الآية 8.

سَلَجِدِينَ¹، فالروح كمال الجسد²، وبها يكتسب هذا الحياة والحركة بعدما كان مجرد قالب جامد يفتقر إلى الحياة والحيوية، ف "العقل يوجب ألا يكون للجسم حياة حتى ينفخ فيه ذلك الروح الذي هو في تجاويف الجسد"³.

فإذا تبيننا أهمية الروح يصير الاهتمام بالجانب الروحي في صناعة الإنسان في مقدمة الاهتمامات.

لقد أدرك المفكر بديع الزمان النورسي أن التوجه إلى روح الإنسان هو توجه إلى ماهيته وصلبه، توجه إلى كنهه وحقيقته (...). صحيح أن الروح كائن لطيف، وجوهر غير جسماني خفيف لا يجري عليه الفساد، لكنها إذا كانت في جسم فاسد تتضايق بالفساد، وترجو الخلاص قبل الميعاد، لكن مع ذلك لها فعلٌ في الجسد، ولها عملٌ في الذات (...). ثم إنها تضطرب بسبب البعد عن الله، وبسبب الوحشة حين تحس بأنها غريبة عن الأعراض، وذلك حين تكون الأعراض فاسدة. يختار النورسي تذكيرها بالتوجه إلى الخالق الفاطر الذي إليه ترجع الأمور، وهنا يصبح للروح عملٌ تجاه القلب والعقل، وهو تخليصهما من كل الأدران.⁴ فهي بهذا المعنى ذلك "العامل المؤثر الأول في ردود أفعال الجسد والعقل والمشاعر"⁵.

ولما كان للروح دور فعال في الذات، وكذا في التأثير على مختلف مقومات الشخصية الإنسانية دعا "ديفيد باول" إلى صناعة ذكاء الروح؛ ويقصد به "قدرة الروح على انتقاء أفضل ما يمكن أن يقوم به الجسد من أفعال، والتركيز على أفكار معينة داخل العقل، بالإضافة إلى اختيار طريقة تفسير

¹ - سورة ص: الآية 71.

² - الروح والجسد في القرآن الكريم، صص: 9-10.

³ - الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم السهيلي، (تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1 - 2000م)، 98/3.

⁴ - قراءة في كتاب "الطبيعة" مع مقالة في بناء الإنسان عند بديع الزمان النورسي، صص: 74-75.

⁵ - ذكاء الروح، ديفيد باول، (قسم الترجمة بدار الفاروق - مصر، ط1 - 2010م)، ص: 11.

مناسبة¹.

إن الناظر في الدراسات النفسية الحديثة يجد أن أغلبها يطلق لفظ "الروح" فيقصد به "النفس" أو العكس، إذ ثمة خلطاً بين المكونين يلزم الدارس لهذا الموضوع أن يكون على بينة من هذا الإطلاق الموحد على شيئين قد يبدوان في الظاهر أنهما سيان، والحقيقة غير ذلك.

وقد لخص الإمام السهيلي² الخلاف الوارد في هذه المسألة، وانتصر للرأي القائل بوجوب التفريق بين المكونين، وبنى ترجيحه لهذا الرأي على الآخر بـ"أن الله خلق آدم وجعل فيه نفساً وروحاً؛ فمن الروح عفافه وفهمه وحلمه وسخاؤه ووفاءه ومن النفس شهوته وطيشه وسفهه وغضبه ونحو هذا"³.

ويمكننا اختصار ما مرّ معنا في إدراكنا بأن مستقر الروح في أعماق النفس؛ فهي تمثل ماهية الإنسان الحقيقية، وليصل الفرد إلى هذه المرحلة الروحانية من الإدراك، ما عليه إلا أن يهدأ ويلاحظ جسمه وانسياب الأفكار في عقله وتقلب مشاعره وأحاسيسه وأفكاره... ذاك هو الرقيب الروحاني الذي يراقب أفعاله، وهو أيضاً بر الأمان الذي طالما سعينا حثيثاً للبحث عنه في دوامة الحياة⁴.

وفي ختام حديثنا عن الروح يمكننا القول بأن الإنسان داخل المنظومة الإسلامية يحيا بروحين: روح حسية وأخرى معنوية.

فالروح الحسية هي التي من أمر الله، والتي بها تحي كل المخلوقات، أما الروح المعنوية فهي المتمثلة في الوحي، قال تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي

¹ - ذكاء الروح، ص: 11.

² - هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي الأندلسي (ت581هـ)، صاحب كتاب "الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام".

³ - الروض الأنف، 97/3.

⁴ - ذكاء الروح، ص: 408. بتصرف

مَا أَلْكِتَبُ وَلَا إِلَا يَمُنُ وَلَا يَكُ جَعَلْنَهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا¹.

فالجسد يستجيب لكل الحركات ما دامت الروح تجري بداخله، وحين يموت الإنسان يصير جثة هامدة راقدة لا حركة فيها، ولا تستجيب لمتطلبات الحياة، لأن محركها (الروح) قد فارقتها.

وكذلك القرآن مع الإنسان فإنه روح معنوية؛ فإذا لم يستجيب له الإنسان في أوامره ونواهيه، ولا يتدبر آياته، فإنه يموت ميتة معنوية، لأن قلبه فارق القرآن، وأصبح منشغلا بغيره، حينها يصير ضمن عالم أموات القلوب، فلا يستجيب لأمر ولا لنهي.

هذه الومضات تبصرنا بأول ما ينبغي للباحث في صناعة الإنسان أن يستسيغه في الشخصية الإنسانية، إذ بمعرفته لإطلاق لفظ الروح يُعيّنه على امتلاك أدوات الصناعة الذاتية؛ صناعة تُمكن صاحبها من الرقي عبر منازل صناعة التميز.

العنصر الثاني: مفهوم النفس

عادة ما يجمع اللغويون بين المفهومين فيذكرون أحدهما وهم يقصدون الآخر. وقد اختلف العلماء فيما بين النفس والروح من اتصال وانفصال، وأرجحها أن "الجسد وعاء يحتوي على النفس والروح معا، والنفس موطن الخير والشر، لذلك تُعاقب على ما اقترفته من شر وتُجازى على ما حصّلتها من خير، وتبقى طوع الإنسان"² لقوله تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ بِأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ فَدَأْبَ مَسْ زَكَّيْنَاهَا ﴿٩﴾ وَفَدَّ حَابَ مَسْ دَسَّيْنَاهَا ﴿١٠﴾)³.

¹ - سورة الشورى: جزء من الآية 49.

² - قراءة في الشخصية الإسلامية من خلال السيرة النبوية، مصطفى بن عمر المسلولي، (منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر- أكادير، (د.ت)). ص: 74.

³ - سورة الشمس: الآيات 7-10.

إن للتربية النفسية دورا كبيرا في صناعة الإنسان، ذلك أن النفس البشرية وجب أن تبادر إلى استبانة وجهتها وقبلتها عن طريق الإرادة التي منحها الله للإنسان واختصه بها، (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ)¹ ولما وصل الحديث إلى الإنسان ألقينا لونا من التشعب (وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ)²، كذلك قوله تعالى في سورة الشمس: (وَالشَّمْسِ وَضُحِيِّهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّيَهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّيَهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَيْهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّيَهَا ۝٦) ³، فقد جاءت كل من الشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض مُعَرَّفَةً، ولما وصل السياق إلى الإنسان جاء بسياق النكرة (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيَهَا)⁴، لأن الإنسان هو المكلف بإضافة "ال" المكلفة بالاختيار، لكي تبرز هذه النفس في موطن (يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)⁵ وأن تعدل عن الموطن الآخر (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)⁶.

فلا يقل الجانب النفسي عن دور الجانب المادي للإنسان. ويتمثل الجانب النفسي في إشباع الحاجات العضوية والغرائز الفطرية، وذلك وفق تعاليم منظومة الوحي الرباني.

1 - سورة الحج: جزء من الآية 18.

2 - سورة الحج: جزء من الآية 18.

3 - سورة الشمس: الآيات 1-6.

4 - سورة الشمس: الآية 7.

5 - سورة الفجر: الآية 30.

6 - سورة يوسف: جزء من الآية 53.

لقد فتح الوحي للإنسان آفاقا بعيدة لاستشراف صناعة ذاتية مثالية ما إن سلك سبيل الهداية ومجاهدة النفس، بإلزامها بالمعروف وتجنّبها المنكر. فهذه المجاهدة للنفس تفضي إلى سموها نحو الارتقاء والتميز في مختلف المجالات، وعلى مختلف الأصعدة، سواء فيما بين الإنسان وأخيه الإنسان أو فيما بينه وبين خالق الإنسان.

وقد رسم القرآن الكريم منحنيات النفس وبيّن مكامن القوة ونقاط الضعف، فقال: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)¹، فكان للمتميزين الأوائل في المجتمع الإسلامي أن التقطوا هذه الإشارات، وكان لِيُخَلِّفِهِمْ أن أهملوها وغيروا وجهتهم نحو الغرب، فحرموا من ضياء الشمس، حتى أصابهم ما أصابهم من التخبط في دياجير التخلف والتقهقر، فانعكس ذلك سلبا على صورة الإنسان المسلم المعاصر.

وقد يؤثر محيط الإنسان أيضا ووضعيته الاجتماعية والمادية والثقافية في نفسيته، فينعكس ذلك على شخصيته بالسعادة أو الشقاء (...)، ومن أهم المشاكل المؤثرة على نفسية الإنسان: الفراغ الروحي وضعف الإيمان اللذان لا يساعدان الإنسان على الخروج من أزماته الاجتماعية والمادية، مما يجعله عرضة للحقد والأمراض المختلفة².

من خلال ما سبق؛ يتضح لنا أن الروح جوهر مستقل، وحقيقة عامة لا يمتلكها أحد، أو هي ذلك الجسم النوراني الطاهر واللطيف الذي ليست له صفات النفس، وعلامة هذا الطهر أنها تصعد إلى ملكوت الله بعد توقف الجسد عن الحركة، فالروح روح الله، أما النفس فمتعلقة بإرادة الإنسان؛ فيتفقان باعتبار طبيعتهما غير المحسوسة، ويتباينان من حيث نسبتتهما إلى المالك.

ومن خلال الجدل الحاصل في علم النفس الإنساني بين كل من الروح والنفس، نجد أن هناك

¹ - سورة العنكبوت: جزء من الآية 69.

² - قراءة في الشخصية الإسلامية من خلال السيرة النبوية، ص: 88.

جدلية أخرى سال حولها مداد كثير؛ ويتعلق الأمر بمفهومي العقل والقلب في علاقتهما ببعضهما من جهة، وبيان أوجه التعاضد والإكمال بينهما وبين الوحي الرباني من جهة أخرى.

الفرع الثاني: التربية العقلية والقلبية

قبل الفصل بين قوى الإدراك لدى الإنسان (العقل والقلب) آثرنا أن نقف عند هذا الازدواج الذي تميزت به هندسة صناعة الإنسان داخل منظومة الوحي. ذلك أن "الفصل بين العقل والقلب في الخطاب المُعلَّمَن أدى إلى تجزئة مدارك الإنسان، فأدخل العقل في مسار قطع أسبابه وضيق آفاقه، جاعلا قانونه هو الإحساس الوجداني، والحق أن الإنسان يُدرك الأشياء بكل جوارحه دفعة واحدة في تعاضد بينها"¹، وفي الوقت نفسه يحدث أن يجد الإنسان نفسه عُرضة لمواقف يتوجب عليه فيها تحكيم العقل، بينما تمر به مواقف أخرى يحتاج فيها إلى تحكيم القلب، وبأي حال لا يمكنه الاستغناء عن أحدهما على حساب الآخر؛ فبدون قلب يعيش الإنسان بلا مشاعر كالحجر الصلد، وبدون عقل يكون المرء منفلتا بلا رادع ولا ضابط إيماني أو خلقي، والواجب أن يكون في شخصية المسلم توازن بين العقل والقلب، بحيث يؤدي كل واحد منهما وظيفته التي خلقه الله من أجلها"².

وبدهي أن القلب تغلب عليه العواطف، وأنه عُرضة للتقلب من حين لآخر، ومن حالة لأخرى، فوجب الاستعانة بشيء يعصمه، وهذا عمل العقل الذي يعقله ليعتصم بخالقه.

ونظرا لقصور القوى الإدراكية لدى الإنسان يرى طه عبد الرحمن أن المسلم يلزمه لبناء الإنسان الجديد -غير الإنسان الإمعة- أن يتحرر من الضيق العقلي، وأخذه بمبدأ أطلق عليه: مبدأ ازدواج

¹ - من الإنسان الأبتري إلى الإنسان الكوثر، ص: 50.

² - قراءة في الشخصية الإسلامية من خلال السيرة النبوية، ص: 70.

قوى الإدراك لدى الإنسان، ذلك أن كل واحدة من هذه القوى عبارة عن قوتين اثنتين¹. فالسمع سمعان، (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)²، كما أن البصر بصران، (وَتَرِيهِمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)³. فهاتان قوتان اثنتان؛ إحداهما خارجية لا تُدرك إلا ظاهر الأشياء، والأخرى داخلية تدرك جوهر الأشياء وباطنها.

على هذا وجب "ترويض عقل المتعلم المسلم وتربيته على أن يزدوج بعقل ثاني يؤسس ما أدركه عقله الأول، مستمداً هذا التأسيس من الأصل نفسه الذي انقطع عنه عقله، أي: القلب"⁴. وقد جاء ازدواج العقل بالقلب لدى الإنسان صريحاً في قوله تعالى: (أَبْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)⁵، وهذا الازدواج نفسه ذكره الزمخشري عند معرض تأويله لقوله تعالى: (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ بُرْعًا)⁶، قال: فارغا صفرًا من العقل، والمعنى: أنها حين سمعت بوقوع ابنها في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش، وذلك أن القلوب مراكز العقول⁷. ألا ترى إلى قوله تعالى: (فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)⁸، فأشار إلى أن القلوب هي العقل⁹.

¹ - من الإنسان الأبتى إلى الإنسان الكوثر، ص: 55.

² - سورة الأنفال: الآية 21.

³ - سورة الأعراف: جزء من الآية 198.

⁴ - من الإنسان الأبتى إلى الإنسان الكوثر، ص: 55.

⁵ - سورة الحج: جزء من الآية 44.

⁶ - سورة القصص: جزء من الآية 9.

⁷ - الكشاف، 3/395.

⁸ - سورة الحج: جزء من الآية 44.

⁹ - التحرير والتنوير، 17/288.

فمتى حصل هذا الازدواج في عقل الإنسان حصل الاتساع والانفتاح على فضاء أوسع ممّا ألقه، ففتفتح معه دوائر الإدراكات لآيات من ورائها معان سامية وآفاق ملكوتية لا قبيل للعقل الضيق بها. لقد طرح رجال الدين المسيحي - من قبل - مبدأ ازدواج القوى "العقلية القلبية"، فجعلوا القلب بمثابة الحلقة المكملة للعقل، والسبيل نحو إدراك الحقيقة، يقول بليز باسكال: "نعرف الحقيقة ليس بالعقل وحده بل بالقلب أيضا"¹. بل إنهم أعطوا الامتياز للقلب في مجال الإيمان بالله والبرهنة على وجوده، ذلك أن "للقلب حججه التي لا يعرفها العقل"².

فما حقيقة كل مكون من مكوني هذا الازدواج؟

العنصر الأول: مفهوم القلب

اختلف العلماء في تعريفهم للقلب؛ فمنهم من عرفه باعتباره حقيقة وجوه الإنسان، وهناك من عرفه باعتباره عضوا ماديا محسوسا يحتويه جسم الإنسان.

فقد عرف ابن فارس القلب بالمعنى المعنوي؛ أي جوهر الشيء ولبه وخالصه، جاء في مقاييس اللغة: "القاف واللام والباء [قلب] أصل صحيح يدل على خالص الشيء وشريفه"³، فهو تلك "اللطيفة الربانية المترجمة لحقيقة الإنسان"⁴. وجاء أيضا في العين: "القلب مضغة من الفؤاد معلقة

¹ - خواطر، بليز باسكال، (ترجمة: إدوارد البستاني، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع- بيروت، ط1-1972م)، ص: 97.

² - العبارة مترجمة عن الصيغة الفرنسية:

"Le cœur a ses raisons que la raison ne connaît pas"

- خواطر، ص: 67.

³ - مقاييس اللغة، [باب القاف واللام وما يتلثهما]، 17/5.

⁴ - التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، (دار الكتب العلمية- بيروت، ط1-1403هـ)، ص: 178.

بالنياط"¹.

وسُمِّي القلب قلبا لكثرة تقلبه من حين لآخر، ومن حالة إلى أخرى. ومنه قول الشاعر:

ما سمي القلب إلا من تقلبه ××× والرأي يصرف والإنسان أطوار².

أما المفكر بديع الزمان النورسي فقد عرفه بأنه مرآة الصمد، وأراده أن يبقى على فطرته وألا يتغير حتى لا يتعدد ويتنوع، ولكي يكون كذلك بسط له الدواء في حقيقة الشهادة، وفي حقيقة التسييح، وفي حقيقة التحميد، وفي حقيقة التكبير... وحقيقة هذا الزاد بالنسبة للقلب كحقيقة توقف حياة الإنسان المادية على الهواء والماء والغذاء والضياء.³

إن الحقيقة التي يجب تأكيدها هنا، هي أن كلا من العقل والوجدان والإرادة مستقرها ومستودعها القلب بمفهومه القرآني، وهو مفهوم جليل... فهو جوهر الإنسان، وهو الجزء العاقل في الشخصية الإنسانية. إن القلب هو الواصل بين العبد وربّه، وهو الواصل بين الوحي والعمل الإنساني الصالح من جهة، وبين العمل الإنساني الصالح والخلق الكوني من جهة أخرى.⁴

ولما كان القلب مركز العقل وعقله الثاني، وقوة من قوى الإدراك المزدوجة لدى الإنسان (القلب والعقل)، فلن تتبين لنا حقيقته الوافية وماهية الكاملة إلا بمعرفتنا بالمكون الثاني الذي يكمله.

¹ - العين، الخليل الفراهيدي، (تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال - (د.ت.))، باب القاف واللام والباء، 170/5.

² - المرجع نفسه، 171/5.

³ - قراءة في كتاب "الطبيعة" مع مقالة في بناء الإنسان عند بديع الزمان النورسي، ص: 80-81. بتصرف

⁴ - مقال "العلم والمعرفة في رؤية القرآن للعالم ودلالاتهما على مفهوم مجتمع المعرفة"، محمد بريمة إبراهيم، (جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2014)، ص: 31. بتصرف

العنصر الثاني: مفهوم العقل

تتميز الشخصية الإسلامية عن غيرها بأنها شخصية عقلية، يتبوؤ فيها العقل مقام القيادة والتوجيه، ويسيطر على عواطف الفرد وتصرفاته، وكذا طريقة تفكيره. فهو مقياس الفضائل والردائل، وهو مناط التكليف الذي فُضِّل به الإنسان ومُيِّز عن باقي الكائنات.

وقد سُمِّي عقلا " لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي يجبسه " ¹، أو كما قال العسكري " العقل هو العلم الأول الذي يزجر عن القبائح، ويمنع صاحبه عن الوقوع في القبيح " ². ويقول الغزالي: " اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته، ودُهِل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقا على معان مختلفة، فصار ذلك بسبب اختلافهم " ³.

وقد جعل الإمام الغزالي معاني العقل أربعة؛ "الأول: الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم (...)، الثاني: العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات (كالعلم بأن الاثنین أكثر من الواحد)، الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال؛ فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل في العادة (...). فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا، الرابع: أن تُعرَف عواقب الأمور، وتُقَمَّع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سُمِّي صاحبها عاقلا " ⁴.

فمعاني العقل عند الغزالي أشبه ما تكون بسلسلة متصلة، أو بمراحل متتالية للتربية العقلية؛ فالأول فطرة ربانية، وهبة يهبها الخالق لكل إنسان منذ ولادته، أما الثاني والثالث فيحصلهما

¹ - لسان العرب، أبو الفضل بن منظور، (دار صادر، بيروت، ط3-1414هـ)، مادة [عقل]، 458/11.

² - الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، (تحقيق الشيخ بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي، ط1-1412هـ)، 83/1.

³ - إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، (دار ابن حزم- بيروت، ط1-1426هـ)، ص: 100.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 101.

الإنسان عن طريق الاكتساب، من خلال التجارب والممارسة القلبية العاقلة، ويأتي النوع الرابع كثمره وحصيلة للمراحل السابقة، فقله " ... فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً" يشير إلى القوة في العقل التي أشرنا إليها سابقاً (القوي الأمين).

إن هذه القوة في العقل هي الغاية المثلى في التربية العقلية، ولا يمكن بلوغ هذه الغاية إلا إذا كان العقل عقلاً مسدداً، وهو كما يعرفه طه عبد الرحمن "العقل المتشبع بالعمل الشرعي والذي تلبس بمقاصده، حتى كأنه عقل الشرع عينه، بحيث يكون الشرع مؤسساً لنفسه بنفسه، وهو كمال التأسيس"¹.

فما أحوج الأبحاث في مجال التنمية البشرية إلى هذه الحلقة المكملة للتأسيس في مجال التربية العقلية؛ حيث يتعاضد العقل بالوحي من أجل صياغة وإخراج عقلٍ مُسدّد كامل وقوي. من هنا يمكننا التساؤل حول أوجه هذا التعاضد بين كل من العقل والشرع، وعن نظرة الوحي للعقل باعتباره قوة إدراكية مجردة؟

العنصر الثالث: جدلية العقل والوحي داخل الثقافة الإسلامية

على الرغم من طاقات العقل الكبيرة إلا أنه يبقى محدوداً وناقصاً؛ مفتقراً للوحي الذي يكمله وينير طريقه، فقد وُجد العقل ليحكم داخل دائرة المادة المحسوسة، فإذا ما أُقحم في العالم ما وراء الطبيعة والمادة مجرداً إلا وتقاذفته الأمواج خارجاً.

إن العقل البشري كلما عرف حجمه ووظيفته ومجالاته يبدع وينتج، وكلما حاد عن ذلك زلّ وتاه وبدّد قواه وطاقاته دون جدوى².

¹ - من الإنسان الأبتري إلى الإنسان الكوثر، ص: 26.

² - قراءة في الشخصية الإسلامية من خلال السيرة النبوية، ص: 72.

إن المتأمل في آيات الوحي ليجد أنه "يربط دائما بين السمع (الشرع) والعقل بما يجعل أحدهما يسد مسد الآخر دلالة ووظيفة"¹ كما جاء في الآيتين الكرمتين: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)²، (وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَقَانَتْ تَسْمِعُ الضَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)³.

يقول الراغب الأصفهاني حول ثنائية العقل-الشرع: "اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس، والشرع كالبناء، ولن يغيغي أس ما لم يكن بناءً، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساً. وأيضاً؛ فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر من داخل (...). وهما متعاضان متحدان"⁴.

لقد بين المفكر طه عبد الرحمن مدى استيعاب العالم الديني للسلوك العقلي، وأن هذا الأخير جزء لا ينفصل عن الأول، يقول في هذا الصدد: "يشكل التدين في حياة المسلم الطريق نحو تحقيق ذاته نفسها في الوجود، بحيث يوجد المسلم في الدين وجوده في العالم، بل لا عالم للمسلم غير دينه؛ وإذا صح أن الدين هو عالم وجود المسلم صح معه أيضاً أن سلوكه العقلي إنما هو جزء من هذا العالم الديني، ومعلوم أن الجزء لا يكون أساً يبني عليه الكل، فيلزم أن العقل مهما اتسعت أطرافه وتقلبت أطواره يظل واحداً من عناصر أخرى يشتمل عليها هذا العالم الديني الفسيح الذي لا تنفذ حقائقه."⁵

إن ضرورة التكامل بين العنصرين (العقل والوحي) في مجال الإيمان صارت ملحّة، ليس في الدين

¹ - من الإنسان الأبتى إلى الإنسان الكوثر، ص: 49.

² - سورة الملك: الآية 11.

³ - سورة يونس: الآية 42.

⁴ - تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين، الراغب الأصفهاني، (دار مكتبة الحياة- بيروت، ط1-1983م)، 73/1.

⁵ - من الإنسان الأبتى إلى الإنسان الكوثر، ص: 26.

الإسلامي فحسب، بل في باقي الأديان السماوية؛ فلو نظرنا إلى الدين المسيحي نجد أنه بدوره لا يقبل الانفراد باعتماد المعقول، لذلك جعل الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال كلا من العقل والوحي -وأضاف العادة- أسباباً للإيمان، يقول: " للإيمان أسباب ثلاثة؛ العقل والعادة والوحي. إن الدين المسيحي الذي ينفرد باعتماد المعقول لا يقبل في عداد بنيه الحقيقيين، من يؤمنون بمعزل عن الوحي، ولا يعني هذا أنه ينفي العقل والعادة، بالعكس: ولكن يجب على الإنسان أن يفتح ذهنه للبراهين ويثبتها فيها بالعادة"¹.

إن مهمة العقل داخل الثقافة الإسلامية تتحدد في التعاون لا الجدال، وقد اشترط بديع الزمان النورسي في هندسته لبناء الإنسان في العقل مبدأ التعاون، لأن قانون الحياة يدل على التعاون لا الجدال، ومن هنا يبحث على الأول وينهاه عن الثاني، لأن الأول أساس العمارة والعبادة والاستخلاف والأمانة، أما الجدال فهو أساس ضياع هذا كله، فهو سبب الفرقة والتمزق والتشتت، ألم يكن طرد إبليس من الرحمة أساسه الجدال؟²

إن معنى التعاون الذي نص عليه النورسي يوحى على معنى "العقل المسدد" الذي طرحه طه عبد الرحمن؛ أي العقل المسدد بالوحي والمتعاون معه، فيسير سيره وينهج سبيله.

خلاصة القول؛ تحدثنا عن دور التربية الروحية في صناعة الإنسان، وما للتحليل النفسي من تأثير في تغيير الشخصية الإنسانية، وبيننا ما لفصل قوى الإدراك عن بعضها من تجزيء للشخصية الإنسانية، وبالتالي انعكاس هذا التجزيء على سير الإنسان وهو يسلك مدارج التميز.

وكل ما سبق الحديث عنه كان حول لطائف وقوى معنوية غير محسوسة؛ بقي أن نتطرق إلى الجانب المحسوس في الإنسان (الجسم)؛ فهو القالب الذي يجمع هذه العناصر ويلمها في شكل

¹ - حواطر، ص: 90.

² - مقالة في بناء الإنسان عند بديع الزمان النورسي، للدكتور محمد خروبوات، مرجع سابق، ص: 85. بتصرف

صناعة مادية مشاهدة في العالم المحسوس؛ به نتعارف ونتواصل، وعن طريقه نؤدي أدوار تلك القوى الخفية بداخلنا.

الفرع الثالث: التربية الجسمية

تُشكّل التربية الجسمية إحدى دعائم صناعة الإنسان ومن اهتمامات الوحي التي رعاها في تربية الإنسان. فالجسم داخل المنظومة الإسلامية وسيلة لأداء الشعائر وتحليلات الروح؛ فهو "أداة الشهادة بالصوت واللسان، والصلاة بالحركات، والزكاة باليد، والصيام بالمعدة، والحج بالقدمين"¹. والجسم يعين الإنسان على الكد والمجاهدة فيما فرضه الله عليه من حقوق وواجبات وآداب، ف"المؤمن القوي، خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف..."². يقول محمد فؤاد عبد الباقي معلقاً: "ففي هذا احتمال المشاق في ذات الله تعالى وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلباً لها ومحافظتها عليها"³.

وما وصف ابنة شعيب لموسى عليه السلام بـ"القوي" إلا لما رآته فيه من "قوة على رفع الحجر الذي كان لا يُقلُّه أقل من عشرة أنفس لسقي غنمها"⁴.

فكما تدلّ معاني القوة المذكورة في الآية على القوي في عقله وفي نفسه... تدل أيضاً على "القوي في بدنه"⁵. فبماذا تنفع باقي القوى وقوة البدن مفقودة؟ بل؛ أنى للبدن السقيم أن يترجم

¹ - الروح والجسد في القرآن الكريم، ص: 10.

² - صحيح مسلم " المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم "، مسلم بن الحجاج، (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (د.ت.))، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، 2052/4، ح: 2664.

³ - صحيح مسلم، 2052/4 (الحاشية: شرح فؤاد عبد الباقي).

⁴ - معاني القرآن، 141/1.

⁵ - تفسير القرآن (اختصار تفسير الماوردي)، العز بن عبد السلام، (تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم - بيروت، ط1-1416هـ)، 487/2.

القوى الداخلية النشطة ويستجيب لها؟.

إن صناعة الإنسان في منظومة الوحي تتم داخل تركيبة كاملة ومتكاملة، لا يُستغنى فيها عن مُكوّن على حساب الآخر؛ فهي هندسة مترابطة، ومصفوفة تشد عناصرها في بعضها كالبنيان المرصوص. إذ الفصل فيها بين الجسم والعقل والنفس غير ممكنة، لأن من كان ضعيف البدن لا يستطيع توظيف عقله توظيفاً صحيحاً، كما لا يمكن لروحه أن تُدرك التوازن المطلوب بين هذه المكونات. من أجل هذا؛ أوجب الإسلام على المربين مسؤولية التربية البدنية، لينشأ الأولاد على قوة في البدن، وسلامة في الجسم.

إن مظاهر عناية الإسلام بالجانب البدني للإنسان كثيرة ومتعددة لا يسع المقام للتأصيل لها، ومنها: العناية بالنظافة والطهارة؛ ولا غرابة أن يكون أول ما أنزل على الطاهر المعصوم من القرآن أمره له تعالى بالتطهر، فقال: (يَأْتِيهَا الْمُدْتِرُّ ﴿١﴾ فَمُ بَأَنْذِرُ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ بِطَهْرٍ ﴿٤﴾¹. فقولُه "وثيابك فطهر" دلالة على أنه "مأمور بالطهارة الحقيقية لثيابه إبطالا لما كان عليه أهل الجاهلية من عدم الاكتراث بذلك (...). والطهارة لجسده بالأولى (...).، وتقديم [ثيابك] على فعل [طهّر] للاهتمام به في الأمر بالتطهير"². وفي ذلك إشارة إلى أن الحرص على الطهارة بمعنيها المادي والمعنوي صار من القواعد الأساسية لصناعة الإنسان، فلا يسمو الإنسان نحو التميز إلا إذا كانت طهارته المادية المتجسدة في مظهره انعكاساً لطهارة روحه الباطنية.

ومن ملاحظة الجانب الجسمي للولد أيضاً أن يلاحظ المرابي في الولد النفقة الواجبة عليه من غذاء مفيد ومسكن صالح (...). حتى لا يتعرض جسمه للأسقام، وتنهك بدنه الأوبئة والأمراض (...). وأن يلاحظ القواعد الصحية التي أمر بها الإسلام من مأكّل ومشرب ومنام (...). وأن

¹ - سورة المدثر: الآيات 1-4.

² - التحرير والتنوير، 29/297-298.

يلاحظ تعويده على ممارسة الرياضة (...) لينشأ الولد على القوة في الجسم والقوة في الإرادة والقوة في العدة والاستعداد¹. وفي كل ما ذُكر أدلة وحث قوي من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ليس هذا موطن ذكرها والتوسع فيها.

وقد اهتم أرسطو في دراسته للنفس الإنسانية بالتربية الجسمية إلى جانب التربية العقلية للإنسان، وقد ركّز على الجانب الجسدي وأهميته في إيجاد التوازن في جميع مجالات الحياة. وهو أول من أشار إلى المقولة المشهورة: "العقل السليم في الجسم السليم"، وهذا هو أساس الصحة النفسية السليمة². فالبدن مطية، والمطية إذا لم يُرفق بها لم تصل براكبها إلى مبتغاه، فينبغي له أن يرفق ببدنه الذي هو راحلته، ولا ينقص من قوتها فتتقص قوته³.

إن اقتصار القوة على البدن وافتقادها في جوهر الإنسان يعود سلبا على صاحبها؛ فلا تنفع القوة في الجسم والروح عليله، فقد "ورد لفظ الجسم مرتين في القرآن الكريم؛ الأولى: بمعنى سلب؛ عندما يدلُّ على الظاهر دون الباطن (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ)⁴، والثانية بمعنى إيجابي؛ إذا ما فُرنت بالعلم، جمعا بين الجسد والروح، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ بِصُطْبِئِهِ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ)⁵. فالروح موطن العلم، والجسد أداة العمل⁶.

تبيّن لنا من خلال ما سلف أن الوحي ينظر للإنسان نظرة كلية متكاملة؛ فالجسد هو وشائج

¹ - تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله ناصح علوان، (دار السلام، القاهرة، ط21-1412هـ)، 703/2-704.

² - مبادئ الصحة النفسية، ص: 13.

³ - آراء ابن الجوزي التربوية: دراسة وتحليلا وتقويما ومقارنة، ليلي عبد الرشيد عطار، (منشورات أمانة للنشر، ميرلاند- الولايات المتحدة الأمريكية، ط1-1419هـ)، ص: 261.

⁴ - سورة المنافقون: جزء من الآية 4.

⁵ - سورة البقرة: جزء من الآية 245.

⁶ - الروح والجسد في القرآن الكريم، ص: 10.

اللحم والدم، وهو المطالب بحفظ الحياة على الأرض؛ احتياجاته الطعام والشراب والمسكن والكساء، ورغبته الغريزية النسل والتكاثر. أما العقل فيعقل تصرفات هذا الجسد ويوجهه توجيها رشيدا، لكي يستجيب للنوازع الفطرية التي قد تختارها النفس البشرية بدون سابق تحكم ولا عقاب، وقاعدته القلب الذي يمثل مركز التصرفات والعمليات، وهو المتحكم في تصرفها. وتأتي تلك الطاقة الربانية الكبرى التي لا يؤمن بها العقل المادي المجرد، والتي لا تتجلى للعيان بالمعنى المحسوس؛ وهذا لا يعد مسوغا للكفر بها ولا ذريعة لإنكارها، فهي التي تعطي للكائن البشري معنى وتميزه وتسمو به نحو الارتفاع على الدوام، فمهمتها الاتصال بالحقيقة الكبرى لهذا الكون، فتقتبس منه النور الذي لا تراه الحواس، وبهذا النور الملوكوتي تستطيع أن تسمو لتُسهم في تحقيق هدف الحياة من التميز لدى الكائن البشري.

وبعد استجلاء أساسيات صناعة الشخصية الإنسانية وبيان مكوناتها التي تترجم حقيقة الإنسان بقي أن نبين في المبحث الثاني من هذا الفصل دور كل من مكون القدوة والقيم في صناعة الإنسان، وذلك باعتقادنا أن الإنسان داخل الكون خُلق ليتعارف مع الآخر ويشاركه وجوده؛ تأثيرا وتأثرا، واعتقادنا أيضا أن هذا الكائن بطبعه هو كائن اجتماعي في حاجة إلى قدوة يتأسى ويقتدي بها في حياته.

من جهة أخرى؛ اعتبار قيمة الإنسان باعتبار قيمه الذي يمتلكها ويتصرف في سلوكياته وفقها. من هنا فالحاجة إلى مكوني القدوة والقيم لا يقلان أهمية في صناعة الإنسان الجديد، وبالتالي تأهيله لخوض بحر التميز وتبوؤ مقامه الرفيع.

المبحث الثاني: مقومات صناعة الإنسان

كثر الحديث في مجال التربية والتعليم عن أسلوب التعليم بالقدوة، كما اشتد النقاش داخل الدراسات والأبحاث التربوية عن دعوة منظومة التربية والتعليم إلى ترسيخ منظومة القيم في وجدان المتعلم، كما تتفق كل هذه المجالات وتتطافر مختلف الحقول المعنية بإعداد الناشئة وصناعة شخصياتهم على اتخاذ مؤسسة الأسرة النواة الرئيسة لصناعة القدوة وترسيخ القيم لدى الفرد.

من هنا تصير الحاجة إلى هذه المقومات ضرورة ملحة في صناعة الإنسان وصناعة التميز لإخراج صياغة كاملة لحقيقة الكائن الإنساني، ولتأهيله وتهيئته لمقام التميز الذي ننشده.

لذلك؛ خصصنا المبحث الثاني من هذا الفصل لتناول أهمية هذه المقومات وبيان حقيقتها ودورها في إخراج الإنسان إخراجاً سويًا يؤهله لتبوؤ مقام التميز.

المطلب الأول: مقوم القدوة

تعتبر القدوة من الوسائل المهمة جداً في التربية والتعليم، كما تُعدُّ داخل المنظومة الإسلامية إحدى السُّبل الناجعة في الدعوة إلى الله وجذب الناس إلى الدين وامتثال أوامره وكذا اجتناب نواهيه، وتتجلى أهميتها في أن الإنسان بطبعه يميل إلى التأثر بالفعل والسلوك أكثر مما يميل إليه بمجرد الكلام والقول.

ولمَّا تحتله القدوة من مكانة في التأثير على الآخر بعث الله الأنبياء والرسل، ولم يكتف عز وجل بمجرد إنزال الكتب والرسالات.

ولعل انتشار الإسلام واختراقه لجل بقاع الأرض لم يكن ليحدث لولا تميز القدوات الطيبة للمسلمين، والتي تبهر أنظار غير المسلمين وتحملهم على اعتناقه بناءً على مواقف وتصرفات تلك القدوات التي تنفس في عملها عبق الوحي.

ولما كان هذا المقام -مقام القدوة- بهذا القدر من الأهمية والتأثير في شخصية الإنسان آثرت أن أجعله إحدى المكونات المتدخلة في صناعة الإنسان أولاً ثم صناعة التميز ثانياً، ولعل تعييني القدوة إحدى الأسس الرئيسية التي بني عليها هذا البحث كان لدافعين اثنين:

الدافع الأول؛ أن حاجة الراغب في التميز للقدوة كحاجة الضال في الدياجير لبؤرة الضوء؛ بها يسير السالك لدرب التميز سيرا سوياً، يحاكي في سيره أفعال وتصرفات المقتدى به. ومن جانب آخر؛ فالتميز داخل في مفهوم القدوة، وهو عنصر من عناصر دلالاتها مهما تنوعت على مجالات تحققها تلقينا وتلقياً. إذ هو أول ما يشترطه العاقل الواعي فيمن يدعى إلى الاقتداء به.

الدافع الثاني؛ أن مقام القدوة هو مدار السيرة النبوية؛ حيث إن هذه الأخيرة ما هي في حقيقتها إلا سيرة حياة لقدوة مثالية وأ نموذج حي؛ متمثل في شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم.

بهذا؛ يعتبر هذا المقوم من أولى المقومات التي لا يستغنى عنها، سواء قبل تحقق التميز أو بعده، فيصير بذلك وسيلة وغاية؛ وسيلة تعين الصاعد في مراقبي التميز على بلوغ مرتبته، وغاية حقيقة التميز؛ أي اعتلاء مقام القدوة والقيادة.

فإذا تبث هذا؛ أستشرف من وراء هذا المطلب الإجابة على الأسئلة الآتية:

- ما دلالات مفهوم القدوة وما حقيقتها؟

- أية أهمية تحتلها داخل حقل صناعة الإنسان وصناعة التميز؟

- ما صفات تميز القدوة الحسنة عن غيرها؟

الفرع الأول: حقيقة القدوة وأهميتها في صناعة التمييز

قبل الشروع في بيان أهمية القدوة ومدى الحاجة إليها في حياة الإنسان لا بد أن نعرض أولاً دلالات ومعاني المفهوم لغة واصطلاحاً.

العنصر الأول: "القدوة" مفهوماً

لو عدنا إلى معاجم اللغة العربية نجد أن مادة "قدو" تدل على "الأصل الذي انشعب منه الاقتداء، فيقال: فلان قدوة إذا كان يُقتدى به. وفلان يتقذى بفرسه أي يلزم به سنن السيرة.¹

وجاء في لسان العرب² أن القدوة تدل على ثلاثة معانٍ:

1- ما تسنتت به

2- الأسوة

3- التقدم؛ يقال فلان لا يقاديه أحد ولا يماديه أحد ولا يباريه أحد ولا يجاربه أحد، وذلك إذا

برز في الخلال كلها.

فالناظر في المعنى الأولى يلحظ أن ثمة علاقة بين كل من القدوة والسنة، فهذه الأخيرة تعني

الطريقة والسيرة، حسنة كانت أو سيئة، قال تعالى: (وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمْ

إِفْتَدَاهُ)³. فَبِهِدَاهُمْ: أي؛ فَبِسُنَّتِهِمْ وَسِيرَتِهِمْ، اِقْتَدَاهُ⁴.

¹ - العين، باب القاف والبدال و (واي)، 195/5.

² - لسان العرب، فصل القاف، 171/15.

³ - سورة الأنعام: جزء من الآية 91

⁴ - تفسير البغوي، أبو محمد الحسين بن الفراء البغوي، (تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط

1-1420هـ)، 142/2.

فأمر الله تعالى رسوله أن يقتدي بسنن وسير السابقين من الأنبياء والرسل.

والمعنى الثاني للقدوة في اللسان جاء مقابلاً لمفهوم "الأسوة"، وقد ذُكرت في القرآن الكريم مرفوقة بصفة الحسن، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)¹.

ومنه؛ فالقدوة يمكن أن تكون حسنة كما يمكن أن تكون سيئة، وقد ورد لفظ الأسوة في السيرة النبوية في غير ما موضع؛ ومثال ذلك ما جاء في حديث هرقل مع أبي سفيان: "لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله"²، والتأسي بقول شخص يعني الاقتداء به.

أما المعنى الثالث من معاني "القدوة" في لسان العرب (التقُّم) على وزن التفعُّل، فهو من قبيل التميُّز؛ فالذي لا يقاديه أحد ولا يماديه أحد ولا يباريه أحد ولا يجاربه أحد وبَرَزَ في الخلال كلها لا يمكن أن يكون إلا متميزاً. وهذا المعنى هو ما يجسد معنى القدوة الحسنة ويمثلها أحسن تمثيل، على خلاف المعنيين السابقين اللذين يمكنهما أن يدلّاً على القدوة بمعناها الفضفاض؛ الحسنة منها والسيئة.

من هنا يمكننا القول أن التقُّم والتميُّز معنيان مناسبان لأن يُلحقا بمفهوم القدوة، إذ هما من صفات المقتدى به، ومن خصائصه المميزة التي تجعل أهلاً لتقلد هذا المقام الجليل القدر.

وفي الاصطلاح؛ غالباً ما يتم التعبير عن القدوة بـ "الأسوة".

يقول الرازي: "الأسوة: ما يؤتسى به مثل القدوة لما يقتدى به، يقال: هو أسوتك، أي أنت

¹ - سورة الأحزاب: الآية 21

² - صحيح البخاري، بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، 8/1، ح: 7.

مثله وهو مثلك"¹.

وهناك من عرّفها بكونها: " الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسنا وإن قبيحا وإن سارًا وإن ضارًا"².

فنقول عن الفرد أنه قدوة إذا كان "يُقْتَدَى بِهِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَيُتَعَزَّى بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ"³.

فلاحظ أن المعنى الاصطلاحي للقدوة لا يختلف والدلالات اللغوية لها، حيث نجد أن حقيقتها لا تخرج عن معاني: السنة، السيرة، الطريقة، الإتياع، والأسوة.

هذا؛ فيما يتعلق بـ"القدوة" بمعناها العام، أما سياقها في هذا البحث فيسير في تفصي النوع الحسن منها (أي القدوة الحسنة)، والتي يمكن أن نعرفها بكونها "المثال الواقعي للسلوك الخلقى الأمثل، وهذا المثال الواقعي قد يكون مثالا حسيا مشاهدا ملموسا يقتدى به، وقد يكون مثالا حاضرا في الذهن بأخباره وسيره، وصورة مرتسمة في النفس بما أثر عنه من سير وقصص وأبناء من أقوال وأفعال"⁴.

وإذا تبين لنا ما تحمله لفظة "القدوة" من معاني لغوية ودلالات اصطلاحية لنا أن نتساءل عن أهمية القدوة ومدى الحاجة إليها في صناعة التميز ثم في صناعة القدوات الحسنة. وهذا مدار الحديث في العنصر الثاني من هذا المبحث.

¹ - تفسير الرازي، [مفاتيح الغيب، التفسير الكبير]، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط3-1420هـ)، 518/29.

² - روح البيان، إسماعيل أبو الفداء الخلوئي، (دار الفكر - بيروت، د.ت)، 476/9.

³ - تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن]، أبو عبد الله محمد شمس الدين، (تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2-1384هـ)، 155/14.

⁴ - الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن الميداني، (دار القلم - دمشق، ط5-1999م)، 214/1.

العنصر الثاني: الحاجة إلى القدوة وأهميتها في صناعة التميز

أولاً: حاجة الإنسان إلى القدوة

لا يمكن للإنسان في أية محطة من محطات حياته أن يستغني عن القدوة، لأنه بدونها لا يستطيع أن يتوق إلى التميز، فيبقى بدونها مشدوداً إلى الأسفل؛ إلى غرائزه وشهواته وأنانيته وضيق أفقه، وبالتالي يستسلم إلى نفسه الأمانة بالسوء، ويخلص في اتباع هواه، وما إن ينظر إلى الأعلى حتى يشترئب إلى التميز، أي؛ كلما استطاع أن يفجر طاقاته التي سيكتشفها ويندهش منها، وكلما استعان بمحاكاة من فاقه علماً وعملاً وتجربة كلما كان إنساناً آخر.

ومن فطرة الإنسان أنه - في كل مرحلة من مراحل حياته - دائماً ما يقوم بصنع قدوة وأ نموذج يتصف بمجموعة من السمات والخصائص ويستجيب للتصورات والمتطلبات التي يفتقر إليها الإنسان في مرحلة ما من مراحل عمره؛ ففي مرحلة الطفولة مثلاً: نجد أن الطفل الصغير - بحكم ضعف خبرته في الحياة وقلة معرفته - يحتاج إلى الاتكال على شخصية أخرى، قد تكون في البداية شخصية الأب أو الأم أو المعلم، ثم بعد ذلك تتحول إلى شخصية أخرى يتعرف عليها من خلال واقعه المعيشي ويحاكيها في حياته.

ومن طبيعة الإنسان الاجتماعية أنه لا يستطيع أن يبدأ من الفراغ، بل يتكل على قيم وخبرات وتجارب سابقة لأناس سبقوه في مجال من المجالات، قد تكون شخصية تتفق معه في المبدأ والتصور نفسه، فينطلق من ذات الأسس والأخلاقيات والقيم التي يبني عليها الإنسان رؤيته، فإذا كان لديه طموح معين فإنه يجد في الحياة أشخاصاً سبقوه، يشاركونه في الطموح ويتقاسمون معه، فيحاول أن ينسج خيوط شخصيته على منوال طريقتهم، وأن يسير على خطاهم، دون أن يكون هذا إلغاءً لشخصية المقتدي، بل على العكس؛ ف"النأسي هو طريق التربية القويم"¹، فلا يُتصوَر أن الإنسان

¹ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م)، 59/2.

مستقل تماما، فهو كائن اجتماعي بطبعه، يحتاج لمخالطة الآخرين تأثرا وتأثيرا، فهذا جزء من شخصيته التي تُسهم التنشئة الاجتماعية في نحتها وصناعتها.

ويمكن تلخيص التأثير الجماعي على الفرد في "جاذبية الجماعة لعنصر التقليد والمحاكاة الذي يوجد عند الأفراد، وكذا عنصر المنافسة الذي يعتبر من خصائص الجماعة، فضلا عن رغبة الأفراد في تقدير الآخرين ومحبتهم له، وهذا الدافع لا يتحرك إلا في وسط الجماعة"¹.

لا بدّ من الإشارة إلى أن العمل بالقدوة لا يُعدُّ إلغاء لاستقلال الإنسان في نظره وتفكيره وعقله... بل هي تعزيز لهذا الجانب من جهة الاستفادة من الآخرين، وهي قضية أساسية ومحورية في حياة الإنسان، إلا أن للقدوة وجهها سيئا كما لها وجهها حسنا، ولا أدلّ على ذلك من أننا نجد معظم شبابنا اليوم يصنعون قدوات نمطية خاصة بهم في كل تفاصيل حياتهم؛ بدءا من التأسّي بهم في طريقة كلامهم ونوع لباسهم إلى كل ما يتعلق بطريقة عيشهم.

إن هذا المعنى المزوج للقدوة يجعل منها قسمين؛ فقد تكون في الاتجاه الصحيح وقد تكون أيضا في الاتجاه الخطأ، لكن الاتجاه السليم لاقتداء المسلم المتميز هو طريق الأنبياء، وعلى رأسهم نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم ومن تبعه على هذا الطريق من الصحابة والتابعين وكل من سار على هذا النهج الذي رسمه النبي القدوة صلى الله عليه وسلم.

ولما كانت القدوة بهذه الازدواجية، لم يغفل الإسلام تغطية هذا الجانب المهم في صناعة الإنسان لبلوغ رتبة التميز، فوجّهه إلى اختيار القدوة الأنموذج التي يصلح اتخاذها في كل تفاصيل حياته، ذلك أن "الطريق إلى الله لا يُسلّك إلا بالافتداء"²، وقدوة البشرية جمعاء في سلك هذا

1 - الأخلاق الإسلامية وأسسها، لعبد الرحمن الميداني، 213/1.

2 - تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان]، نظام الدين النيسابوري، (تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1-1416هـ)، 115/3.

الطريق هي التي تكفل الخالق بصناعتها فقال: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ)¹.

فحاجة الإنسان لنموذج يحاكيه مطلب فطري واجتماعي في شخصية الإنسان، من هنا تحتل القدوة مكانة عظيمة، وتلعب دورا مهما في صناعة الإنسان أولا وفي صناعة التميز ثانيا، فبدونها لا تكون للإنسان رسالة ولا قضية ولا وجهة، بل لا تكون لحياته معنى من الأساس.

ثانيا: دور القدوة في صناعة التميز

إن الراغب في التميز داخل منظومة الوحي يجد نفسه ضمن ثلاث دوائر متداخلة ومتحدة فيما بينها، تحدد وجود الإنسان وتكسب وجوده معنى، بل لا مناص لأي إنسان؛ مسلما كان أو غير مسلم أن يعيش خارج هذه الدوائر، وهذه الدوائر هي:

1. دائرة التصورات

2. دائرة الذات

3. دائرة الآخر

فالدائرة الأولى تتمثل في تصور الإنسان للكون ونظرتة له ، أي؛ اعتقاده بشيء ما يعتنقه، ويؤمن به، ويمثل له الحجة والبرهان الدال على وجوده، ونعني هنا في المنظومة الإسلامية تصور المسلم بأن للكون خالقا؛ هو المنشئ له والهادي إلى سواء السبيل، فيتشبت بهذه العقيدة الصحيحة ويتحلى بالصفات الحميدة والأخلاق الحسنة وكذا كل المعارف والهاديات الذي جاء بها الوحي المرشد والمتمثلة في قدوة الخلق محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

أما الدائرة الثانية فتتجلى في الإيمان بالذات والثقة بالنفس ، مع استساغة حقيقة الوجود التي

¹ - سورة الأحزاب: جزء من الآية 21.

هي الاستخلاف في الأرض، وإعمال القوة الكامنة بين جنبي كل فرد؛ من مهارات وقدرات ومواهب... لتحقيق المطالب العليا والأهداف المرجوة لدى كل إنسان في حياته.

ثم دائرة ثلاثة تكمن في **العلاقة مع الآخر**، تأثيراً وتأثيراً، أي؛ الاستعانة بالآخر في صناعة شخصية مميزة والتأثر به، ولا يكون ذلك إلا بالتأسي بمن هو أعلى مرتبة وأرفع مكانة منه في أي جانب من جوانب التميز، لكي يتحصّل التأثير في الآخر بالأقوال والأفعال والتصرفات، وهذا التأثير لا يصدر إلا عن من بلغ مقام القدوة.

ومن رحمة الله بالبشر أنه لم يكتف بجعل سر صناعة التميز في الجانب الإرشادي (الوحي)، ولم يدع الإنسان يتخبط في القراءة والفهم والتحليل بارتجال أمام الوحي المرسل، وإنما زكى هذا الجانب بآخر عملياً تطبيقياً قابل للمعاينة والمشاهدة، فأشخص لهم الأنبياء وفي خاتمهم نبينا محمد الأسوة الحسنة، كما وجّه عز وجل خاتم الأنبياء نحو الاقتداء والتأسي بمن قبله من الأنبياء فقال: (﴿وَتَلِيكَ

الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ بِيْهِدِيْهِمْ إِفْتِدَاءً¹، فحدّد البارئ جل وعلا طريق التميز النبوي وأمر رسوله

بسن سنن من سبقوه من الأنبياء والرسول.

ومن مهمة المسلم في الأرض أن يقتفي آثار الأنبياء والمرسلين؛ فمسؤوليته جسيمة، إذ مبدأ الاستخلاف يفرض عليه أن يُسيّر هذا العالم وأن يُوجهه، وألا يكتفي بالتقليد الارتجالي ومسايرة الأهواء.

يعتقد محمد إقبال أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار، وليس سير الركب البشري حيث اتجه وسار؛ بل خُلق ليوجه العالم والمجتمع والمدينة، ويفرض على البشرية اتجاهه، ويملي عليها إرادته؛ لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين؛ ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهه؛ فليس مقامه

¹ - سورة الأنعام: جزء من الآية 90

مقام التقليد والإتباع، إن مقامه مقام القيادة، ومقام الإرشاد والتوجيه، ومقام الأمر الناهي¹.

وتجدر الإشارة أن ثمة تمايزا واختلافا بين الإقتداء وبين التقليد، يقول تعالى مبينا الفرق بينهما:
(وَإِذَا فِئَلٌ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا
أَوَّلُوا كَانِ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)²، يقول الإمام الرازي: "وهو رد على أصحاب التقليد (...). فالإقتداء إنما يجوز بالعالم المهتدي، وإنما يكون عالما مهتديا إذا بنى قوله على الحجة والدليل، فإذا لم يكن كذلك لم يكن عالما مهتديا، فوجب أن لا يجوز الإقتداء به"³.

فقد أمرهم عز وجل باتباع الوحي والتمسك بالقدوة الحسنة التي تعينهم على فهمه وتمثل آياته فجنحوا إلى العدول عن ذلك إلى اعتناق سير آبائهم (القدوة السيئة) وتقليدهم بغير علم ولا هدى.

إن مجرد الإقتداء لا يُسعف السالك في درب التميز من بلوغ مقامه، بل وجب تعيين القدوة المثالية المناسبة؛ أي الشخص الذي يمتلك الصفات المناسبة التي تؤهله لاعتلاء مقام القدوة. وهذا ما عمد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في صناعته للقدوات عبر مختلف مجالات الحياة، وسيأتي بيان ذلك في الفرع الثاني من هذا المطلب إن شاء الله.

الفرع الثاني: صفات القدوة الحسنة

لا تكون القدوة أهلا للاقتداء والتأسي بها إلا بجملة أوصاف تمنحها تلك الرتبة، أهمها: تشبعها بالعلم وتمثل الوحي في الواقع المعيشي، ثم ترجمة هذا الوحي وهذا العلم إلى عمل تطبيقي قابل للمعاينة والمشاهدة، أضف إلى ذلك الصبر على الأذى والثبات على المبدأ، فضلا عن استشعار القدوة جسامة مسؤولية هذا المقام.

¹ - رواه إقبال، أبو الحسن علي الندوي، (دار الفكر - دمشق، ط1 - 1960م)، ص: 56.

² - سورة المائدة: الآية 106

³ - تفسير الرازي، 448/12.

العنصر الأول: تمثل الوحي والتشبع بالعلم

لا يستقيم وصف الفرد بالقدوة داخل المنظومة الإسلامية وهو يعيش فراغا في تمثل أوامر الوحي، وهذا التمثل لا يحصل إلا باتباع ما أمر الله تعالى به في كتابه الكريم، ثم السير على خطى نبيه عليه الصلاة والسلام، والذي خلفته السيرة النبوية عن حياة نبي الله عليه السلام، فوجب استحضار ذلك كله في حياة الأنموذج المتقلد لمقام الاتباع.

وأول ما تجدر الإشارة إليه في تطبيق أوامر الوحي اشتراط: العلم قبل القول والعمل؛ إذ بدون العلم لا يصح الفعل التعبدي، وبدونه لا يترعب المقتدى به على مقام القدوة، قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)¹، فجعل العلم قبل توحيد شرطاً، فضلا عن كونه السبب الأول في خشية الله، قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)².

من خلال الآيتين نستنبط بعض صفات القدوة التي تشترط فيها قبل الاقتداء والتأسي بها، ويتعلق الأمر بالتشبع بالعلم النافع، والذي يفضي إلى سلامة المعتقد، ثم تحقيق عنصر الخشية، فمن افتقدت فيه هذه الصفات لا يستقيم تبوؤه مقام القدوة.

يقول عز وجل في اختيار القدوة الصالحة: (فَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا)³، أي عليما يعلم علما دقيقا.⁴ ومعلوم أن وصف الخبرة لا يمكن تحصيله إلا بعد علم ضليع في أي تخصص ومجال.

أما الشرط الثاني؛ فيتجلى في الاتصاف بالأخلاق والتحلي بآداب التواصل، لما في ذلك من أثر

1 - سورة محمد: جزء من الآية 20.

2 - سورة فاطر: جزء من الآية 28.

3 - سورة الفرقان: جزء من الآية 59.

4 - زهرة التفاسير، محمد بن أحمد أبو زهرة، (دار الفكر العربي، د.ت)، 5307/10.

في الآخر المختلف، إذ القدوة يجب أن تكون المرآة العاكسة لشخصية المسلم الحق، ولذلك زكى الله عز وجل رسوله في هذا الجانب، فقال عنه: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)¹، وبذلك وصفته أم المؤمنين أيضا فقالت لما سئلت عن خلقه: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"²، فقد لخصت رضي الله عنها أخلاقه صلى الله عليه وسلم في كلمة (القرآن) لما يحمله بين طياته من أسس وأصول الأخلاق المثالية الكاملة.

إن عنصر الأخلاق من أهم الأمور المهمة في مجال القدوة، ذلك أنه من خلال العلاقات الاجتماعية يقوم الفرد بتكوين صورة في مخيلته عن الآخر الذي يتقاسم معه البيئة الاجتماعية، هذه الصورة يزيكها في البداية عامل الأخلاق والمعاملة الحسنة، قبل النظر في العلم والخبرة... من أجل هذا؛ جعل الله عز وجل نبيه فوق درجة الخلق العظيم، ولأن البيئة الداعية للتميز حينئذ تفتقر إلى أخلاق مثالية رفيعة بما تلين القلوب وتصفو الخواطر وتبرد الشحناء، وبالتالي؛ فوجودها تنوق النفس لمحاكاة صاحبها، وتطمح في الوصول إليه.

العنصر الثاني: العمل بالعلم

إن ما يحدد طبيعة النموذج القدوة ويبين حقيقته هو عمله بما يعلم، بل إن قوله بما يعلم وما يعمل لا يكفي، إذ عمله بما يعلم يستوجب منه أن يمارس كل حركاته وسكناته بذلك العلم الذي يحمله، لأن الإنسان المقلد لا يعمل بما يسمع بقدر ما يؤثر فيه ما يشاهده من قدوته في احتكاكه معه.

وعمل القدوة بالعلم فيه فائدتان: الأولى من أجل بيان أن ذلك العمل في مقدور أي فرد، وأنه لا تطاله استحالة، وأن بإعمال الإرادة والعزم في النفس تيسر المحاكاة.

¹ - سورة القلم: الآية 4.

² - مسند أحمد، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، 183/42، ح: 25302.

الثانية: تزكية القدوة في مقامه، وبيان استحقاقه وجدارته في اعتلائه وسموه ذاك. فالعمل هو ما

يزكي القدوة لا القول.

ومن المشاهد في مجال التربية أن كثيرا من الناس يرون بعض الأمور مستحيلة الوقوع، لأنهم لم

يعالجوا قدراتهم للقيام بها، فإذا شاهدوا غيرهم يفعلها، أخذوا يطوعون قدراتهم حتى يكسبوها

المهارات المطلوبة لذلك العمل، بالمعالجة والمحاكاة والتدريب¹.

ومن السيرة النبوية صور كثيرة نابضة، تعرض لنا مدى فعالية التطبيق العملي الحي للعلم، وتؤكد

نجاحته بدلا عن الاقتصار على الخطاب التلقيني المجرد.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه حديثا طويلا في تمام قصة الحديدية، يبين ما للتطبيق العملي

للأوامر النبوية من نجاعة في الامتثال، وما له من الإعانة على اتباع القدوة، وذلك لما قال صلى الله

عليه وسلم لأصحابه: «قُومُوا فَأَحْزُوا ثُمَّ احْلُوا»، قَالَ [راوي الحديث]: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ

حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَثْمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ

النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ

بُذْنَكَ، وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُذْنَهُ، وَدَعَا

حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ

بَعْضًا عَمَّا².

من خلال هذه القصة تتبين لنا أهمية القدوة العاملة بالعلم؛ "فقد دعا رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى أمر وكرره ثلاث مرات، وفيهم كبار الصحابة وشيوخهم، ومع ذلك لم يستجب أحد

لدعوته، فلما قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخطوة العملية التي أشارت بها أم سلمة

¹ - الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن الميداني، 1/215.

² - صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، 3/193، جزء من

الحديث رقم: 2731. وانظر السيرة النبوية لابن كثير، 3/335.

تحقق المراد، فالقدوة العملية في مثل هذه المواقف أجدى وأنفع¹.

وقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على تعليم أصحابه العبادات بالتطبيق المشاهد، لا مجرد وصفها بالكلمات، فصلى بين أيديهم وقال لهم: "صلوا كما رأيتموني أصلي"²، فحاكوا رضي الله عنهم صلاته بالصفة الفعلية التي أداها بها، ثم نقلوها لنا بالرواية عبر الشق القولي من السنة النبوية. وكذلك الشأن بالنسبة لباقي المناسك، فقال عليه السلام: «خذوا عني مناسككم»، فتولى بيانها بفعله³، ورأى أن التعليم بالفعل أوضح في المعاني من القول.

وهذه المعاني يكفي أن تُرى- من خلال صحبة هذه السيرة- ليس علما يتابع أو يدرس أو يؤلف أو يحاضر، لكن من خلال المعاشة العملية والوقوف في ميادينها، مستشعرا معانيها ملتصقا بمبانيها معبرا عن تطبيقاتها، بشمول وتكامل وامتداد. والحق أن هذا هو أحد مضامين الهدف المرجو من وراء دراسة السيرة النبوية الشريفة⁴.

لقد امتاز الجيل الأول بمعاينته لتصرفات الرسول الأكرم وتحركاته المبنية على الوحي، ويتنفس به، ويجيا به في كل شؤون حياته. وهذا الجيل قام بنقل تلك الصور الحية فضلا عن تفصيل القرآن الكريم لمعظمها، فكون ذلك كله سيرة ذاتية لأنموذج الاقتداء، تجسدت في كل ما صح عنه عليه السلام، وبمحاولة استقراء كتب الحديث الشريف نجد ما يسعفنا لاستحضار سيرته صلى الله عليه وسلم.

العنصر الثالث: الصبر على الأذى والثبات على المبدأ

¹ - السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد محمد الصلّابي، (دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط7-1429 هـ)، ص: 681.

² - صحيح البخاري، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام، 86/9، ح: 7246.

³ - شرح السنة، البغوي، 184/7.

⁴ - السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، عبد الرحمن الحجي، (دار ابن كثير- دمشق، ط1 - 1420 هـ)، ص: 474.

لعل أية عملية تتطلب التغيير من حالة إلى أخرى تعترضها صعوبة كبيرة، وتزداد الصعوبة أكثر لما يتعلق الأمر بإعادة صناعة الإنسان، إذ أول ما يجب أن يتسلح به القدوة في هذا المجال الصبر على الأذى والثبات على المبدأ.

فهذه الصفة تعد من الصفات التي تشتد الحاجة إليها في كل من عُيّن إماماً أو قائداً أو قدوة للناس؛ وكذلك الثبات على المبدأ، أي؛ أن يكون للإنسان موقف ثابت لا تزعه عنه الأهواء ولا مختلف التيارات الجارفة. فكما يكون للقدوة مُعجِبون ومُحبِبون، فكذلك لها أعداء يثبطون الهمم العالية، وينخرون في شخصية المقتدى به، تقليلاً من قدره، ومحاولةً للاستهزاء به.

فلا يجد القدوة أمام هذه الثورة إلا الصمود في وجهها صموداً باسلاً يكشف عن ثبات الحقيقة التي يدعو إليها. وما من نبي إلا جعل الله في عزمته من الثبات ما تزول منه الجبال؛ موقف راسخ، ملءه الحزم والتصميم والإقدام يريد أن يفتح قلوباً مغلقة، وأن ينفذ إلى ضمائر مظلمة وفي نفسه قوة لا تقهر وإرادة لا تنثني¹.

والحديث عن الصبر يطول ويطول، سيما وإن تعلق الأمر بتقلد المسؤولية، ولنا في رسولنا عليه الصلاة والسلام أسوة في هذا المجال، وذلك باستحضار ما مرَّ به من مواقف وأحداث تستوجب الجلد والصبر على الأذى، بشقيه؛ المادي والمعنوي.

وتزداد الحاجة إلى الصبر كلما تجشم القدوة خوض يَمّ التغيير والثورة على المألوف، وقد سجّلت كتب السير مظاهر صبر أنبياء الله المرسلين وتحملهم تبعات تبليغ رسالتهم.

وقد ذكر الراهب ورقة بن نوفل هذا الأذى وبين ألوانه لما جيئ بالنبي صلى الله عليه وسلم إليه،

¹ - النبوة اصطفاً وقدوة، أحمد مختار البزرة، (الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، طبعة السنة الثانية-1390هـ)، ص: 194.

قال: "جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكدبته ولتؤذنبته ولتخرجنه ولتقاتله"¹، فألفى في حياته صلى الله عليه وسلم كل هذه الأنواع من الأذى؛ حيث كُذِّب، وأُوذِيَ، وأُخْرِج، ثم قُوتِل. وما كان له إلا أن يصبر صلى الله عليه وسلم حتى جاء الفتح من عند الله.

العنصر الرابع: استشعار ثقل المسؤولية

من صفات القدوة الصالحة الإحساس بواجب المسؤولية الملقاة على عاتقيه، إذ تصرفاته المختلفة داخل حياته لا تخص شخصه فحسب، بل هي محط أنظار المقتدين به، فوجب مراعاة هذا الارتباط العلائقي في كل تحرك وكل جزئية بشخصيته.

إن الناظر في طبيعة العلاقة بين تقلد المسؤولية وبين تبوؤ مقام القدوة يجد أنها علاقة متكاملة؛ علاقة بين الشرط والمشروط؛ فتزيد مسؤولية الفرد كلما تقلد مقام القيادة وتبوأ منزلة الإمامة في أي مجال. ولا يصير الفرد قدوة ما لم يتحمل هم الرسالة المنوطة به، فهو قائد سفينة التغيير وصناعة الإنسان، ولو عدنا إلى مسؤولية الأنبياء المرسلين نجد أنهم بذلوا جهداً إيجابياً في حياة الأمة، إذ كان شغلهم وهمهم الوحيد أن يحتفظوا بالدين صافياً خالصاً لا ينفصلون عنه في صغيرة أو كبيرة من شؤون دنياهم أو آخرتهم حتى لا يرتدوا إلى الانحطاط وبالتالي الإخفاق في أداء الأمانة الملقاة على عاتقهم.

والمأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يجد أنه عليه الصلاة والسلام كان يستشعر ثقل هذه المسؤولية منذ نزول جبريل عليه في أول وهلة، جاء في السيرة قوله صلى الله عليه وسلم لخديجة: لقد خشيت على نفسي، أي: خشيت ألا أنهض بأعباء النبوة وأن أضعف عنها، ثم أزال الله خشيته وورقه الأيد والقوة والثبات والعصمة، وقد قيل إن خشيته كانت من قومه أن يقتلوه، ولا غرو فإنه بشر يخشى من القتل والإذابة الشديدة ما يخشاه البشر، ثم يهون عليه الصبر في ذات الله كل خشية

¹ - الروض الأنف، 2/265.

ويجلب إلى قلبه كل شجاعة وقوة، وقد قيل في معنى الخشية أقوال غير هذه¹، وقد ذكر ابن حجر منها: العجز عن حمل أعباء النبوة، وعدم الصبر على أذى قومه².

إن مهمة الأنبياء السامية تتجسد في خشيتهم من أن يتعد أتباعهم عن سبيل الدعوة ومن أن يتراجعوا عن سيرة الوحي، خوفا من انتهاء الحياة على غير شريعة الله، ولذلك كانت دعوة سيدنا إبراهيم أبناءه أن يتمسكوا بالدين حتى آخر رمق، قال تعالى: (وَأَوْصِي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ)³.

فاستشعار حسامة المسؤولية من لدن القدوة تزكية له ولكانته، ومن أجل مكانة هذه القدوة جعل الله العذاب مضاعفا لمن تربع على هذا المقام ولم يلزم سنن الوحي، فقال في شأن قدوات المؤمنات: (يَلْسَأَنَّ اللَّيْسَاءُ النَّسِيءَ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِقَلْبِ حَشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضْلَعُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)⁴.

وفي الحديث الصحيح أنه "يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرِجَاهِ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ أَمْرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأَكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ"⁵.

من هنا يتضح أن مسؤولية القدوة مزدوجة؛ تنطلق من واجب الدعوة بالقول وتشتد في

¹ - الروض الأنف، 270/2.

² - فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، (محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت، 1379هـ)، 24/1.

³ - سورة البقرة: الآية 131.

⁴ - سورة الأحزاب: الآية 30.

⁵ - صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، 121/4، جزء من الحديث: 3267.

جانب العمل بالقول.

إن المسؤولية التي نحاول بيانها ليست مسؤولية فرد اتجاه الآخرين فحسب، بل الرسالة المحمدية تتعدى هذا الضيق في رؤيتها لمقام القدوة إلى أخذها بالقدوة الجماعة، ولعل هذا الاعتبار ما جعل الأمة الإسلامية تكتسب مسؤولية الشهادة والأمانة، قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)¹، وكذا؛ ما جعلها تنال صفة الخيرية، قال جل وعلا: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)².

فأمة القدوة إذن "أمة من شجرة مباركة طيبة لا شرقية ولا غربية تولى وجهها شطر المسجد الحرام، فلا تدور في فلك أحد، بل تدور في فلكها الأمم، لأنها منحت دور الشهيد في تنفيذ شرع الله، والقائم بهذه المهمة لا يستوحى من غيره، ولا يقبل خضوعاً، ولا تبعية، ولا تتم له الرسالة إلا بالاستقلال عن المؤثرات الغربية، وبامتلاك قوة التأثير والتوجيه"³.

ولا تكتسب القدوة -فرداً كانت أو جماعة- قوة التأثير والتوجيه إلا بتحمُّل المسؤولية التي حملها أبوها الأول منذ بدء الخليقة، وافتقارها لهذا المبدأ يزيل عنها هذه المكانة السامية المتمثلة في الاقتداء والاتباع.

إن العالم يتطلع في هذا العصر المضني إلى أمة تتحمل الواجب المقدس في الدفاع عن الإنسان وإخراجه من الظلام إلى النور؛ أمة تستطيع بما فيها من دخر روحي، وما عندها من قيم إلهية أن

1 - سورة البقرة: جزء من الآية 142.

2 - سورة آل عمران: جزء من الآية 110.

3 - النبوة اصطفاً وقدوة، أحمد مختار البزرة، ص: 198-199.

تكون أرقى بني الإنسان فكرا وشعورا، وأنبه غاية وهدفا، وأقدره على تسلم القيادة في معمم الأخطار. هذه الأمة يجب أن تصير قدوة، ولا تصير قدوة إلا إذا عرفت في تاريخها مثلا يقتدى به، فريدا من البشر؛ كاملا في إنسانيته، في حبه الخير وبغضه الشر، لا عوج في طريقته ولا انحراف في شخصيته، تجده كتلة من المعاني الخالدة المتجسدة كلمات وعمل وتنظيم. إذا اتبعته أمته، وتبنت أهدافه ورفعت شعاره، وانطلقت في دروب سيرته صارت حياتها أشبه شيء بحياته¹.

لقد بينت السيرة العطرة الصناعة النبوية لقدوات البشرية بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وعرضت صناعته لهذه النماذج التي أخذت زمام القيادة والتغيير بعد رحيله صلى الله عليه وسلم. وسنعرض صور الصناعة الربانية لنموذج الاقتداء وكذا الصناعة النبوية لقدوات المتميزين في الباب الثاني من هذا البحث.

وإذا تبينت لنا حقيقة القدوة وأهميتها في صناعة الإنسان وصناعة التميز بقي أن نبين المكون الآخر المترجم لحقيقة الإنسان المتميز والمتجسد في مكون القيم. وفي المطلب الثاني بيان ذلك.

¹ - النبوة اصطفاة و قدوة، أحمد مختار البرزة، ص: 9.

المطلب الثاني: مقوم القيم

الفرع الأول: مفهوم القيم

بالعودة إلى معاجم اللغة العربية منذ نشأتها نجد أن الجذر [قيم] يدل على:

القيمة بمعنى: ثمن الشيء بالتقويم¹. قال أبو صخر:

تلك الهوى ومئى نَفْسِي ورغبتُها ... فكيف أهوى خليلاً غير ذي قيم². أي: الخليل الذي ليس

له قيمة وثمر.

والقيمة: واحدة القيم، أو ما يقوم مقام الشيء. ومنه يقول ابن بري لكعب بن زهير:

فهم ضربوكم حين جرتم عن الهدى ... بأسيافهم حتى استقمتم على القيم.

وقال حسان بن ثابت:

وأشهد أنك عند المليك ... أرسلت حقاً بدني قيم³.

والمتصفح لمعاجم اللغة العربية المعاصرة يجد أنها تكمل المعنى اللغوي للجذر [قيم] كما جاء في

القواميس السابقة.

فنقول عن شيء لا قيمة له: أي؛ لا ثمن، لا يقدر بثمن. وكذلك شيء تافه لا يساوي شيئاً⁴.

أما المعنى الاصطلاحي لمفهوم القيم فيتجلى في : "الفضائل الدنيوية والخلقية والاجتماعية التي

1 - العين، باب القاف والميم، 233/5.

2 - الجيم، باب من القاف، 90/3.

3 - لسان العرب، فصل القاف، 500/12.

4 - تكملة المعاجم العربية، (ق و م)، 422/8.

تقوم عليها حياة المجتمع الإنساني¹.

ويمكننا القول أن القيمة هي: إيمان (قناعة) الإنسان بأهداف مقدسة (أو مشروعة) تعطيه معايير للحكم على الأشياء والأفعال بالحسن والقبح أو بالأمر والنهي².

وإذا كانت القيم تمثل قناعات الإنسان الدينية والخلقية والاجتماعية... وإيمانه بأهداف مشروعة تمكنه من الحكم على الأفعال بالحسن والقبح قصد إصلاح نفسه وعلاقته بالآخر، وكذا صناعة مجتمع مثالي، فإننا نجد تأصيلاً قوياً لهذا المعنى من خلال السنة النبوية الشريفة.

عن معاذ بن جبل أنه قال: يا رسول الله، أوصني. قال: "اتق الله حيثما كنت أو أينما كنت". قال: زدني قال: "أتبع السيئة الحسنة تمحها". قال: زدني. قال: "خالق الناس بخلق حسن"³.

فتقوى الله من القناعات الدينية، كما أن إتباع السيئة الحسنة داخل في الحكم على الأفعال بالحسن والقبح قصد الإصلاح، ومعاملة الناس بخلق حسن يفضي إلى مثالية العلاقة بالآخر وصناعة مجتمع صالح وإيجابي.

إن الحديث السالف الذكر يؤسس لمبدأ القيم بمعناه العام؛ سواء القيم المرتبطة بالشخصية الإنسانية في ارتباطها بالخالق، أو في علاقتها مع الآخر، أو أثناء عملية الاندماج الاجتماعي.

خلاصة القول عن مفهوم القيمة أنها الوصف الذي يكتسبه الباعث على إنجاز فعل من الأفعال، بحيث يسد حاجة من حاجات الإنسان الضرورية أو الكمالية، أو من حيث يُطلب كوسيلة لتحقيق غاية أخرى، أو من حيث يعد تحقيقه مطلوباً لذاته. فهناك إذن المنفعة، وهناك

¹ - معجم اللغة العربية المعاصرة، (ق و م)، 1878/3.

² - مقال "صناعة التميز وتنمية المهارة: الآليات والخفزمات في ضوء السنة النبوية"، محمد إسماعيل الديهي، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة أسيوط (العدد 46- أبريل 2013)، دار المنظومة، ص: 275.

³ - مسند أحمد، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، (تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1- 1421 هـ)، تنمة مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل، 381/36، ح: 22060.

اللذة والمتعة، وهناك الرضا النفسي وراحة الضمير. وأسمى القيم ما يعد منها مرغوبا فيه لذاته¹.

وإذا تحدد هذا؛ فمبدأ القيم الذي نحاول معالجته في البحث يتدخل وبشكل كبير في صياغة وصناعة شخصية الإنسان وبالتالي في صناعة التميز.

الفرع الثاني: أهمية القيم في صناعة الإنسان

تتأثر أفكار الإنسان وتصوراتهِ ومشاعره وسلوكياته بشكل كبير بقيمه التي يتبناها ومعتقداته التي يعتقد بها. ذلك أن القيم تتدخل في صناعة شخصية الإنسان وتؤثر عليها، بل وتوجهها نحو الوجهة المتوافقة وتلك القيم.

يقول ديفيد بول: "القيم شيء مهم يمنحنا قوة خاصة، ويشكل أهمية كبيرة في حياة كل منا. إننا نستمد من القيم قوتنا، ولذلك، إننا نؤمن بها ونحترمها وندافع عنها، فهي تضفي على حياتنا معنى وقيمة. وفضلا عن هذا، تؤثر القيم في سلوكنا وتصرفاتنا. ومن ثم، في استطاعتنا أن نفهم سلوك شخص معين من خلال السعي إلى فهم القيم التي يؤمن بها"².

تتجلى قيم الفرد في سلوكياته وأخلاقه، ومن خلال هذه الأخيرة يمكننا معاينتها وتشخيصها، وبذلك ترتبط القيم بأخلاق الفرد، حيث يوزن قدره بقدر القيم التي يتبناها ويتصرف بها في حياته. ذلك أن الفرد الذي كان في يوم من الأيام يساوي أمة، ويساوي ألفا، ويساوي عشرة، ويساوي اثنين، تهبط قيمته عندما يضعف إيمانه فيصبح العشرة من أمثاله في ميزان الله لا تقابل واحدا، بل بالألف، بل بالمليون... بل تصبح الأمة كلها لا تساوي شيئا عند الله، ومن ثم تصبح القيمة عنصرا

¹ - منظومة القيم المرجعية في الإسلام، محمد الكتاني، (منشورات الرابطة المحمدية للعلماء، دار أبي رراق للطباعة والنشر- الرباط، ط2-2011م)، ص:15.

² - ذكاء الروح، ديفيد بول، (ترجمة قسم الترجمة بدار الفاروق- مصر، ط1-2010م)، ص: 210.

فعالاً من عناصر التميز.¹

ففي القيم قيمة إضافية لشخصية الإنسان وللمجتمع ككل، وبدونها لا قيمة للإنسان ولا للمجتمع، كما أنها مولد الطاقة الذي يحرك الشخصية الإنسانية نحو وجهة التميز، والتفرد عن كل من يفتقد هذه الطاقة، وبها توزن المنظومة الأخلاقية للمجتمعات.

في هذا السياق تنبأ المفكر الألماني أوزوالد شبنجلر (Oswald Spengler) في كتابه "أفول الغرب" بالمآل الكارثي الذي يهدد كثيراً من المجتمعات نتيجة اندحار وتراجع مجموعة من القيم التي عاشت عليها كالحرية والمساواة والأخوة.²

كما لا يمكننا إثبات المسؤولية الأخلاقية للإنسان ما لم يكن سلوكه هادفاً، وما لم ينطو على الرغبة في تحقيق قصد معين من سلوكه.

وقد أسهم في اندحار هذه القيم في عصرنا الحاضر سيطرة مد العولمة والانتشار الرهيب لوسائل التكنولوجيا الحديثة، مما أفقد الإنسان المسلم جزءاً من هويته الدينية نتيجة ظهور قيم أخرى فرضت نفسها ونحت القيم المرجعية الإسلامية جانبا.

وبالتالي؛ فأهمية القيم داخل حقل التربية والتعليم وصناعة الإنسان تزيد أكثر في حضور هذه التحديات، فلا مناص إذن من الرجوع إلى منظومة القيم الإسلامية والكونية حتى نعيد صياغة شخصية الإنسان الجديد وفق المقومات الناجعة.

الفرع الثالث: منظومة القيم في الإسلام

تمثل القيم مجموعة من الأحكام التي تحدد اتجاهاتنا تجاه مجموعة من المعاني، مثل: الشجاعة

¹ - مقال "صناعة التميز وتنمية المهارة: الآليات والمحفزات في ضوء السنة النبوية"، مرجع سابق، ص: 276-277.

² - منظومة القيم المرجعية في الإسلام، محمد الكتاني، مرجع سابق، مقتطف من تقديم الدكتور أحمد عبادي، ص: 5.

والنظام والجمال والكرم والإيثار والإيمان...

ويتم ترسيخ هذه القيم من طرف مختلف المؤسسات الاجتماعية، كالأُسرة والمسجد والمدرسة والإعلام والمجتمع، ونظراً لكثرتها وتشعبها قام علماء التربية والتنمية الذاتية إلى تقسيمها وتصنيفها إلى مجالات متعددة.

فهناك قيم دينية تتجلى في اهتمام الفرد وميله لما وراء العالم الظاهري (كالإيمان بالغيب...)، وقيم اجتماعية تتمظهر في اهتمام الفرد وميله لغيره من الناس (المؤاخاة، الإيثار، الشكر...)، وأخرى كونية تتمثل في مبادئ الفرد التي يؤمن بها والتي تشكل أسس الكون الفسيح (كالأمانة، والصدق، والعدل...)، كما أن هناك قيم جمالية تترجمها تصرفات الفرد الصالح المتشبع بقيم الجمال (كالمحافظة على البيئة، الطهارة...)¹.

كما نجد أن مفكري الغرب يعزون تصنيف القيم إلى ثلاثة حقول، وهي: الجمال والحق والخير. وقد تضاف إليها قيمة رابعة تسمى القداسة أو المقدس.²

وفي الدين الإسلامي تشكل منظومة القيم المرجعية الجهاز القيمي الذي اعتمده هذا الدين في بناء عقيدته وشريعته، وتحدد منظوره للحياة ومسؤولية الإنسان اتجاه الكون بمختلف مكوناته. وقصدنا من اعتبار هذه القيم منظومة هو "بيان العلاقة العضوية بينها كلها؛ إذ لا تتحقق الغاية منها إلا بتفاعلها المحكم فيما بينها، بوصفها آليات يحرك كل منها الآخر، فإذا تعطلت إحداها أدت إلى تعطيل الأخرى أو بالإخلال بها، أو تخلف نتائجها"³.

¹ - مهارات الحياة وبناء مجتمع المعرفة، يحيى علي زهران، (المكتبة العصرية للنشر والتوزيع - مصر، ط1- 2012م)، ص:107. بتصرف

² - منظومة القيم المرجعية في الإسلام، ص: 15.

³ - المرجع نفسه، ص: 10.

وسنبين فى الفصل التطبيقى الضرورة التى تطبع القيم الإنسانية المرجعية من وجهة النظر

الإسلامية كما يحددها القرآن الكريم وكما تجسدها السيرة النبوية العطرة.

المطلب الثالث: مقوم الأسرة

تطرقنا فيما سبق إلى أساسيات صناعة الإنسان، كما بيننا المقومين اللذين لا يمكن لهذه الصناعة أن تقوم إلا بهما، ونستعرض في هذا المطلب المقوم الأساس في هذا الفصل؛ مقوم الأسرة، أو: المؤسسة الأولى المضطلة بصناعة الإنسان وتربيته، ودفعه نحو تنمية مهاراته وصناعة التميز. وقد يتساءل القارئ عن المقصد من إقحامنا مقوم الأسرة ضمن المقومات المهمة في صناعة الإنسان، والحق؛ أي فكرت ملياً قبل الشروع في وضع التصميم المناسب لفصول الباب ومباحثه، وبدت لي جملة من المقاصد وراء إدماجي هذا المقوم ضمنها، منها:

- كون الأسرة المؤسسة الأولى المُصنَّعة للتمييز؛ باعتبارها الحاضن الأول للكائن الإنساني والساهرة على صناعته وتجنيدته بمهارات الحياة منذ نشأته، ورعايته في كل أطوار حياته.
- اعتبار لحمة الأسرة مصدراً متنوعاً لصناعة التميز؛ بحيث تتفاعل فيها مختلف أقطاب الكائن الإنساني (الرجل، المرأة، الطفل)، وبالتالي تجميع منظومة التميز من خلال الأدوار المتنوعة والمختلفة الروافد.
- مركزية مؤسسة الأسرة داخل المؤسسات المجتمعية؛ إذ بصلاحتها وتميزها يصلح المجتمع ويتميز، وبفسادها واندحارها يفسد ويندحر.
- تبني المنظومة الإسلامية لفكر شامل لكل جوانب الإنسان وحياته، وقيام هذه المنظومة على فلسفة تغذي كل متطلبات هذه الجوانب، وكون الأسرة إحدى المؤسسات الموكل إليها مسؤولية تغطية هذه الجوانب يتطلب منا دراستها وفق تخطيط دقيق وبناء نظرة مستقبلية لحياة الفرد بين أحضانها.
- أن الأسرة النبوية شهدت نزول الوحي، وعايشت تطبيقه عن كثب، من خلال معاينة تصرفات خير الخلق محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم مع أفراد أسرته، فكان لهم

من السابق إلى التمييز والتفرد ما لم يكن لغيرهم، لذا، سيكون لتغيب دراسة هذا الجانب في السيرة النبوية شرح واضح وفراغ صارخ في البحث.

لهذه الأسباب وغيرها، آثرت أن أثري البحث بتطريقي إلى الجانب الأسري وبيان أهميته ودوره المؤثر في صناعة الإنسان، فجعلت الحديث في هذا المطلب عن الأسرة؛ بعرض تعريفاتها من زوايا مختلفة، وبيان أدوارها في صناعة الإنسان، وعن التخطيط الأسري ومتطلباته التي يجب العلم بها واستساغة فلسفتها.

الفرع الأول: مفهوم الأسرة وأدوارها في صناعة الإنسان

لقد انكبت مختلف العلوم الاجتماعية والنفسية على دراسة هذا مفهوم الأسرة، وانفتحت جميعها على اعتبارها المؤسسة المضطلة بصناعة الشخصية الإنسانية وإخراج الفرد إخراجاً يستجيب لحياة مثالية في ظل المتغيرات والتحديات التي تواجهه اليوم.

وسيرا على هذه الرؤية الكاملة والتي لا يمكننا تحصيلها إلا بتقاطعات العلوم ومختلف الحقول المعرفية، سأعرض لمفهوم "الأسرة" من خلال الجانب اللغوي، والجانب الاجتماعي، ثم الجانب النفسي.

العنصر الأول: حول مفهوم الأسرة

أولاً: "الأسرة" لغةً

جاء في تهذيب اللغة للأزهري: "الأسرة؛ الدرع الحصينة"¹.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: أُسْرَةُ الرَّجُلِ عَشِيرَتُهُ الْأَدْنَوْنَ.²

أما ابن الأثير فعرف لفظ "الأسرة" بقوله: "عَشِيرَةُ الرَّجُلِ وَأَهْلُ بَيْتِهِ لِأَنَّهُ يَتَّقَوْنَ بِهِمْ"³.

فمن خلال التعريفات السالفة يتبين لنا أن المعنى اللغوي لـ"الأسرة" يدل على معاني ودلالات

عميقة: الدرع، الحصانة، العشيرة، الأهل، القوة.

إن الأسرة هي الوضع الفطري الذي ارتضاه الله تعالى لحياة الناس منذ فجر الخليقة وفضله لهم،

¹ - تهذيب اللغة، [باب السين والراء]، 43/13.

² - المرجع نفسه، 44/13.

³ - النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، (تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية

- بيروت، ط 1399هـ)، [أسر]، 48/1.

واتخذ من الأنبياء والرسل مثلاً، يقول سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً)¹.

ثانياً: مفهوم الأسرة عند السوسيولوجيين

يعرف "H.J.Locke" و "E.W.Burgess" الأسرة في كتابهما "The Family" بأنها: جماعة من الأفراد تربط بينهم رابطة الدم أو التبني ويعيشون في منزل مستقل ، يتواصلون فيما بينهم عبر تفاعلاً مستمراً ، كما يؤديون أدواراً اجتماعية خاصة بكل واحد منهم باعتباره زوجاً أو ابناً ، أما أو أختاً، بحيث يتكون نتيجة ذلك ثقافة مشتركة².

أشار التعريف إلى مجموعة من العناصر التي كونته، نذكرها كالاتي:

- جماعة من الأفراد: والجماعة يجسدها ثلاثة أفراد فما فوق (زوج، زوجة، ابن/أو ابنة).
وأن ما دون ذلك لا يعتبر أسرة (كجهالة الأب مثلاً...).

- رابطة الدم أو التبني: رابطة الدم حاصلة في الأسر المكونة من زوج وزوجة وأبناء، أما التبني في الإسلام فلا يُدخِل المتبني في مؤسسة الأسرة، لقوله صلى الله عليه وسلم:
"الولد للفراش، وللعاهر الحجر"³.

- يتواصلون فيما بينهم عبر تفاعلاً مستمراً: فالتواصل مكون ضروري وأساس داخل

¹ - سورة الرعد: جزء من الآية 39.

² - Burgess,E, and Locke, H : The family from tradition to companion ships, New york, 1950, PP: 7-9.

نقلا عن: الزوجان والعلاقات الأسرية، قرطي فائزة، (رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية - قسم علم الاجتماع، جامعة وهران، 2015-2016)، ص: 11.

³ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي، (تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي محمد عبد الكبير البكري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، 1387هـ)، 178/8. ح: 20.

الأسرة، إذ به يحصل التوافق بين الزوجين أولاً، ثم بينهما وبين الأبناء ثانياً. -
يؤدون أدواراً اجتماعية خاصة بكل واحد منهم: للأسرة مجموعة أدوار يتقاسمها أفرادها؛
كلٌّ من موقعه ومقامه، وبهذه الأدوار تتحدد المسؤوليات وتتضح الواجبات لكل فرد
داخل المؤسسة.

ووفقاً لتعريف " Murdock " للأسرة، هي: عبارة عن جماعة اجتماعية تتميز بمكان إقامة
مشترك، وتعاون اقتصادي ووظيفة تكاثرية لعلاقة جنسية يعترف بها المجتمع¹.

فالتعريفان اتفقا على اعتبار الأسرة لحمة اجتماعية يجمع بين أفرادها عيش واحد، وثقافة
مشتركة. هذه اللحمة يُتَبَّهها حصول التواصل بين أفرادها، ويجمع شملها الاتفاق والتفاهم بينهم.

ثالثاً: الأسرة من منظور علم النفس

للأسرة أهمية كبرى في حياة الفرد من حيث نموه وتصوراتهِ الذهنية ونماذج السلوك، إنها المعمل
النفسي الذي ينال فيه الطفل أول قسط من التربية التي ترافقه آثارها طوال حياته²، إنها حقل إشباع
الحاجات الضرورية التي يتم تجاوزها إلى إشباع الرغبات النفسية اللاشعورية وفسحة للتخلص من
الدوافع التدميرية والقلق الاضطهادي عبر علاقة نفسية لاشعورية تحكم شخصية الفرد تحكم
شخصية الفرد في المستقبل³، وعليه؛ فإن الأسرة التي تقوم على وعي بوظائفها ومسؤولياتها، تعمل
على تلقين أبنائها روح المسؤولية واحترام الأنظمة الاجتماعية واحترام معايير السلوك والقيم، من
أجل ذلك ينبغي التعامل مع أسس القيم المرغوبة اجتماعياً على أنها سلوكيات صحيحة، ينبغي

¹ - Murdock, G .P. « social organisation », New york, 1949. P.1

نقلاً عن: الأسرة المتغيرة في مجتمع المدينة العربية: دراسة ميدانية في علم الاجتماع الحضري والأسري، عبد القادر القصير (دار
النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت، ط1- 1999م)، ص: 35.

² - التشريعات الاجتماعية العمالية والأسرية، محمد شفيق، ص: 2-9.

³ - الرغبة والامتنان، ميلاني كلاين، غاليمار، 1968، ص: 25

التعامل معها بثبات لترسخ مقومات هذا النظام، وهذا يستدعي من الراشدين أن يكونوا قدوة ونموذجا للسلوك المقبول في هذا المجال من خلال تعاملهم مع أطفالهم¹.

يبدو أن الأسرة التي لا تعرف استقرارا وتوازنا تخلق بيئة غير سليمة لنمو الطفل مما ينتج عنه اختلالا على المستوى النفسي والاجتماعي نتيجة شعوره بالقلق والخوف مما يؤدي إلى إنتاج سلوكيات واضطرابات نفسية واجتماعية تنعكس سلبا عليه وعلى محيطه. فالسلوك السوي هو نتيجة مناخ سليم داخل الأسرة وقيام الوالدين بأدوارهم التربوية وواجباتهم اتجاه الأبناء من خلال توفير الشروط المادية والمعنوية لنمو سليم يؤهل الفرد للاندماج في المجتمع، بيد أن وجود الصراعات داخل الأسرة ينتج آثارا نفسية مؤلمة وقلقا اضطهاديا يؤدي حتما لظهور سلوكيات عدوانية مضادة للنظام الاجتماعي، لهذا يربط علماء النفس بين التوتر داخل الأسرة وبين أنماط من السلوك تعكس عدم توفر الأمن النفسي عند الطفل وعدم اتزانه انفعاليا².

إن سيادة الحرمان داخل الأسرة من الحب والحنان نتيجة الرفض أو الإهمال يخلق اضطرابات من قبيل الشعور بالعزلة، القلق التوتر، الحساسية المفرطة، القلق الاضطهادي، الإحباط، كلها سمات لشخصية مضطربة نتيجة عدم قيام الأسرة بوظائفها كما هي.

وعليه؛ يتوجب على الأسرة إشباع الحاجات البيولوجية والنفسية والاجتماعية لأفرادها لخلق شخصية سوية متوازنة نفسيا، وإلا سيؤدي ذلك إلى بناء شخصية أنانية متسلطة وعدوانية أو خجولة اتكالية منطوية على ذاتها³.

¹ - مقال "تشكيل نظام القيم"، جليل شكور، (مجلة القيم الثقافية النفسية، العدد 8، 1991م)، ص: 53.

² - علم النفس الاجتماعي، أحمد عبد العزيز سلامة وعبد السلام عبد الغفار، (دار النهضة - القاهرة، 1970م).

³ - أنظر: مقال " مفهوم الأسرة وأنماط التغيير الاجتماعي: مقارنة سوسيوولوجية، سيكولوجية"، إبراهيم السهلي، (أعمال الندوة العلمية الدولية: [الاجتهاد والتجديد في قضايا الأسرة في السياق الكوني: سؤال الثابت والمتغير]، منشورات مؤسسة رزان للدراسات الإستراتيجية حول الأسرة المجتمع، مطبعة شمس برانت - الرباط، ط1 - 2019م).

العنصر الثاني: أدوار الأسرة في صناعة الإنسان

يشير عالم الاجتماع الأمريكي "روبرت مكايفر" أن الأسرة كانت تعتمد كلياً على نفسها في تقديم الوظائف المهمة والتي تنقسم إلى قسمين: أساسية وثنائية.

فمن بين الوظائف الأساسية: إنجاب الأطفال وتربيتهم، تنظيم العلاقات الجنسية بين أبناء المجتمع...

أما الوظائف الثانوية، منها: تلبية الحاجات الاقتصادية، التربوية، الثقافية، والدينية ... ومع التغيرات الاجتماعية للمجال العام بعد التصنيع أصبحت الأسرة لا تختص إلا بأداء الوظائف الأساسية، أما الثانوية منها فتكفلت بها الدولة¹.

إن الحديث عن أدوار الأسرة داخل المنظومة الإسلامية حديث عن المؤسسة الأولى التي باستطاعتها صناعة الإنسان منذ السنوات الأولى من حياته، بل منذ ولادته. فهي أدوار تتقلدها الأسرة من باب المسؤولية الملقاة على عاتقهم، وقد دعا صلى الله عليه وسلم إلى تحمل هذه المسؤولية، وخاطب مختلف الفئات المجتمعية، ومنهم الآباء والأمهات قائلاً: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»².

ويستوجب الإسلام من الآباء وأولياء الأمور حسن تربية الأبناء والحفاظ على فطرتهم السليمة لكل مولود، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن صناعة الأسرة للأفراد، وأنها يمكن أن تتحول إلى عكس الصناعة الفطرية والجبليية. قال صلى الله عليه وسلم: " كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه

¹ - الزوجان والعلاقات الأسرية، مرجع سابق، ص: 44.

² - صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، 31/7، ح: 5200.

يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجانسه¹.

إن المنظومة الإسلامية لتحت على ضرورة الحفاظ على الفطرة الإنسانية النقية، فقد خلق الله سبحانه وتعالى عباده حنفاء ويجب الحفاظ على الفطرة التي خلق الله الناس عليها، يقول تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ فَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا)².

وينخلق الاهتمام الإسلامي بالتربية إدراكاً لأهميتها في تشكيل الشخصية والحفاظ على الفطرة أو تشويهاها وضياع أثرها.³

إن التقهقر والتنمر الذي أصاب الأسرة المعاصرة اليوم أدى إلى تخليها عن الوظائف والأدوار الثانوية التي تحدث عنها " مكايفر ". إذ لا يقتصر دور الأسرة داخل المجتمع في الإنجاب والتكثير من الذرية ما لم تتولى بنفسها القيام بوظائف وأدوار أخرى، نذكرها كالاتي:

- التربية والتوعية: وعادة ما تكون هذه المهمة منذ السنوات الأولى من عمر الفرد؛

فخلالها تتم التربية على الدين والأخلاق والقيم، كما يتم نقل التواصل الفعال واكتشاف طرقه وآلياته ووسائله، وكذا اختيار الرفقاء والأصدقاء المناسبين، فضلاً عن الأدوار المتعلقة بالنفقة وتوفير المأكل والمشرب والملبس... الخ.

- التوجيه والإرشاد: ويكون في المرحلة ما بعد البلوغ، إذ يصير تدخل توجيه الفرد أثناء مرحلة المراهقة وإرشاده أمراً تفرضه الضرورة، وكذا تدخل الأسرة وتقديم النصح

¹ - صحيح البخاري [الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه]، محمد بن إسماعيل البخاري، (تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط1- 1422هـ)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، 100/2، جزء من الحديث: 1385.

² - سورة الأعراف: جزء من الآية 172.

³ - علم النفس التربوي، محمد مصطفى زيدان ونبيل السمالوطي، (دار الشروق - مصر، ط3 - 1415هـ)، ص: 8.

والاختيار عندما يتعلق الأمر باختيار الشريك قبيل زواج الأبناء إذا دعت الضرورة.

وفي إطار سردنا لوظائف الأسرة يمكن القول أن الأسرة إطار اجتماعي يفتح للفرد عينيه في هذا العالم ويزوده بعناصر التنشئة والتكوين والأمان وهي عناصر ذات مظاهر وجدانية، عقلية، سلوكية... لا بد من تفاعلها لتحقيق النضج¹.

وتُسمى هذه الوظائف والأدوار داخل الحقل السوسولوجي بـ"التنشئة الاجتماعية Socialization"؛ وهي من أهم العمليات الاجتماعية وأخطرهما شأنًا في حياة الفرد، لأنها الدعامة الأولى التي تركز عليها مقومات شخصيته. وتبدأ هذه العملية منذ ولادة الطفل، فهو في بداية وجوده في الحياة لا يعدو أن يكون بناء بيولوجيا يتضمن مجموعة من الدوافع والاستعدادات، وهنا تقوم الأسرة بدور هام وأساسي في إكسابه خصائص مجتمعه حيث تعلمه لغة الجماعة وعاداتها وأعرافها وتقاليدها وعقيدتها وآدابها، وتتعاون الجماعات الأخرى (جماعات المدرسة والمسجد واللعب ومختلف الهيئات التي ينتمي إليها الفرد...) مع الأسرة حيث تكمل وظيفتها في التنشئة الاجتماعية².

الفرع الثاني: التخطيط الأسري ومتطلباته

على الرغم من المكانة السامية التي تحتلها الأسرة داخل المجتمعات، ورغم الدعوات المكثفة من لدن المناهج التشريعية السماوية والوضعية بحماية هذه البيضة، إلا أننا نلفي تصدعا كبيرا أحدث شرخا داخل هذه المؤسسة أفضى في النهاية إلى تفكك منظومتها.

ولعل هذا التصدع الذي لحق هذه اللبنة الأساس في البناء المجتمعي يعود سببه إلى تيار العولمة

¹ - الطفل المغربي وأساليب التنشئة الاجتماعية بين الحداثة والتقليد، محمد مصطفى قباج، (سلسلة دفاتر في التربية، منشورات رمسيس - الرباط، 1997م)، ص: 7-8.

² - علم النفس التربوي، مرجع سابق، ص: 11.

الجارف، والذي حاول طمس مكانة هذه المؤسسة، مما أدى إلى ظهور أنماط جديدة من الأسر نتيجة الهامش الكبير للحريات الفردية¹، في المقابل نقف على الأرقام المهولة لنسبة الطلاق وعدم التوافق الزوجي داخل معظم الدول الإسلامية، مما أدى إلى عزوف الأفراد عن الزواج وفتور الرغبة في تكوين أسر.

إن مرجع الخلل الذي أصاب مؤسسة الأسرة لا يعود إلى القواعد الشرعية أو القوانين التشريعية النازمة لمسائل الأسرة، بل سببه يعود بالدرجة الأولى إلى جهل الزوجان بتلك القواعد والقوانين، وعدولهم عن تطبيقها والالتزام بما جاء فيها، ثم بعدهم عن الإستراتيجية المنظمة للحياة الأسرية. فالخلل إذن يتعلق بتصوير الأفراد لفلسفة الزواج وتكوين الأسر.

من هنا تصير الحاجة إلى بناء تخطيط محكم ووضع إستراتيجية متبعة تسير عليها الأسر لتحقيق التوافق الزوجي أولاً، ثم لضمان الأمن الأسري والتميز داخل المجتمع ثانياً، تصير من الأولويات التي يجب أن تشكل قاعدة متينة لبناء هذه المؤسسة، ودستور محكم ينظم العلاقة بين قطبيها، سواء قبل الزواج أو بعده، ونحن مقتنعون أن من شأن التخطيط الأسري تحقيق التوافق النفسي والاجتماعي للأبناء والحفاظ على القيم الأسرية المتينة، وسيسهم -إيجاباً- لا محالة في مواجهة التحديات المعاصرة التي تعيق استقرار الأسرة اليوم.

ويعرف التخطيط الأسري بأنه " عملية عقلية تسبق تنفيذ الأعمال المتعلقة بشؤون الزواج والأسرة، وتُعنى بتحديد الأهداف الأسرية، والاستعداد وبذل الأسباب المشروعة لمواجهة متطلبات

¹ - ظهرت أنماط جديدة بدل نمط الأسرة الفطري والمعروف، وذلك بمعظم الدول الغربية ذات المرجعيات التحررية، من بين هذه الأنماط: ظاهرة "المساكنة" أو "التعايش" (Domestic partnership) والتي تقوم على اتفاق بين شريكين يختاران العيش والسكن تحت سقف واحد بلا عقد ولا ميثاق.

- أنظر: مقال "ظاهرة الأمهات العازبات بين سؤال الثابت والمتغير داخل السياق الكوني: المجتمع المغربي والإيطالي نموذجين"، إبراهيم أحتشاو وجهاد فوزي الكرامي، (أعمال الندوة العلمية الدولية: [الاجتهاد والتجديد في قضايا الأسرة في السياق الكوني: سؤال الثابت والمتغير]، مرجع سابق.

مستقبلية، من أجل تحقيقها، في سبيل الفوز بالحياة الأسرية الطيبة في الدنيا والآخرة... أو بمعنى آخر محاولة تشكيل صورة لمستقبل الأسرة، توافق مبادئ الزوجين وتطلعاتهما وأهدافهما المشروعة، وكذلك تحديد الوسائل والأساليب الملائمة لتحقيقها بالطريقة المثلى¹.

ونظرا لاختلاف الاستراتيجيات المتعلقة بالتخطيط الأسري، لا يمكننا وضع تخطيط معين، لكننا سنشير - في هذا الشق النظري- إلى ثلاثة عناصر مهمة، وجب أخذها بعين الاعتبار، واستساغة معانيها وفلسفتها. هذه العناصر إذا ما استبصرها الزوجان كان لتخطيطهما الأثر المثمر والناجع. وهذه العناصر هي: التنمية الأسرية، اختيار الشريك، ثم المناخ الأسري.

العنصر الأول: في التنمية الأسرية

إن أولى المؤسسات الجديرة ببذل الجهد في تنميتها مؤسسة الأسرة، ذلك أن تنمية المجتمع ترتكز في الأساس على تنمية الأسرة باعتبارها اللبنة الأولى في البناء المجتمعي، فيكون لتنميتها تنمية للمجتمع.

تشكل تنمية الأسرة مجالا رئيسيا هاما من مجالات التنمية، لما تؤديه الأسرة المستقرة معنويا وماديا، من دور رئيس حيوي في بناء المجتمع المتماسك المستقر؛ وهي تمثل وحدة اقتصادية واجتماعية وثقافية وبشرية أساسية فيه؛ بحيث يمكن أن تسهم الأسرة بإيجابية وفعالية في تقدمه وتنميته؛ في مقابل ما قد تستنزفه الأسر غير المستقرة والمفككة، من موارد المجتمع وطاقاته، معرقة بشكل أو بآخر الجهود التنموية فيه².

يقول "ستيفن آر كوفي" في هذا الصدد: "إنني أثق تمام الثقة في أن الأسرة هي لبنة المجتمع،

¹ - التخطيط الأسري من المنظور التربوي الإسلامي، كيان محمد البرغوثي، (جمعية العفاف الخيرية- الأردن، ط1 -

2006م)، ص: 29. بتصرف

² - المرجع نفسه، ص: 34.

وأسمى إنجازاتها هو ما نَسَمَى لتحقيقه فيها. وأومن أيضا بأن أفضل عمل يؤديه أي شخص هو ما يفعله في محيط أسرته... فتلك العلاقات الإنسانية - مع الزوجة أو الأبناء - هي أهم استثماراتكم في حياتكم، وعندما تأتي خاتمة أحدكم، فلن يندم على فوات فرصة، أو ضياع صفقة، أو بطلان حجة، بل سيندم على مُضي الوقت دون الجلوس إلى زوجة، أو طفل، أو أب... إن نجاحنا كمجتمع لا يعتمد على ما يحدث داخل البيت الأبيض، بل ما يحدث داخل بيوتكم أنتم¹.

وحري بالذكر أن عملية التنمية في أي مجتمع لا يمكنها أن تتم إذا ما لم تستند أساسا إلى تنمية الأسرة أولا بوصفها المؤسسة الأولى التي بمقدورها تأدية مختلف الوظائف والمهام الاجتماعية التي يفرضها الجانب العلائقي للفرد داخل المجتمع.

فالأسرة هي الصورة المصغرة للمجتمع الكبير، بصلاحتها يصلح المجتمع، وبفسادها يفسد أفرادها، إنها المحطة التأهيلية لانخراط الفرد في مجتمعه.

إن تحقيق التنمية الأسرية يقوم على محورين أساسيين:

أولهما؛ قيام المجتمع بمؤسساته المتعددة بدوره نحو تنمية الأسرة والمحافظة على وحدتها وتماسكها، وتمكينها من القيام بوظائفها؛ من خلال توفير الحاجات الأساسية، المادية والمعنوية، للأسرة ولأفرادها، وتقديم ما يلزم من رعاية وخدمات لتحسين معيشتهم ونوعية الحياة والعلاقات المتبادلة بينهم، إلى جانب المساعدة في إشباع حاجاتهم الروحية والنفسية، وحاجاتهم إلى الأمن والاستقرار والطمأنينة في الحاضر وعلى المستقبل؛ وكذلك من خلال تمكين الفرد، رجلا كان أو امرأة، من القيام بواجباته ومسؤولياته، وإعداده لأداء وظائفه وأدواره الأسرية والاجتماعية والإنتاجية،

¹ - العادات السبع للأسر الأكثر فعالية، ستيفن آر كوفي، (مكتبة جرير - السعودية، ط7-2010م)، ص 3 . بتصرف

وتزويده بالمعارف والمعلومات والمهارات اللازمة¹.

ثانيهما؛ قيام الفرد، رجلا كان أم امرأة، بتنمية ذاته، والسعي الجاد الدائم، الهادف لإصلاح نفسه وإعدادها معنويا وماديا ليتمكن من الوفاء بالتزاماته ومسؤولياته في أسرته الحالية أو المستقبلية، وفي سبيل ذلك يجتهد في الاستفادة مما يقدمه المجتمع، بمؤسساته المتعددة، من الخدمات والرعاية المتصلة بشؤون الأسرة والبيت؛ والبحث الدائم عن الفرص الأفضل المتاحة لتحسين وضع الأسرة وأحوالها اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وتربويا... والسعي نحو تحقيق الصلاح والسكينة والاستقرار، وتوجيهها الوجهة التي يراها متفقة مع قيمه ومبادئه، ومتلائمة مع أهدافه وغاياته السامية².

والمأمل في هذين المحورين يجد أنهما يرتبطان بالمسؤولية المشتركة المتبادلة داخل الأسرة المسلمة، انطلاقا من قاعدة "كلكم راع"، والتي سنفصل فيها القول في الجانب التطبيقي للتنمية الأسرية إن شاء الله.

العنصر الثاني: في اختيار الشريك *

بعد تأهيل الأسرة للفرد وتكوينه لعملية الاندماج الاجتماعي يجد نفسه في تطلع إلى معالم الحياة بعد تنميته لشخصيته، فيزيد وعيه ويتأثر بالمحيط الذي يعيش فيه، ويوسّع في شبكة علاقاته خارج المجال العائلي مما يفتح له مجال تعارف مختلف خاصة بعد انخراطه في المجال المهني، فيشعر بهويته المستقلة، مما يدفعه إلى التفكير في الزواج.

فكيف تقتحم فكرة الزواج فكر الفرد وتثير لديه الرغبة في بناء أسرة؟

¹ - التربية والمجتمع والتنمية، محمد الخوالدة وآخرون، ص: 207 . بتصرف. نقلا عن: التخطيط الأسري من المنظور التربوي الإسلامي، مرجع سابق، ص: 34-35.

* يعتبر عنصر اختيار الشريك العنصر الأهم ضمن عناصر التخطيط الأسري، فهو الحلقة الأولى من حلقات التخطيط، فإذا ما أحسن الفرد اختيار شريكه، حصل الوفاق بينهما، وبالتالي لن يجدا صعوبة في تسيير سفينة الأسرة.

² التخطيط الأسري من المنظور التربوي الإسلامي، ص: 35-36.

يجيبنا "Kaufmann" عن هذا السؤال بقوله: "لأن الفرد يصبح واعيا بأنه أصبح إنسانا آخر... فيريد التقدم نحو مستقبل مع أبنائه، حيث تكوّن لديه الفكر الأسري الوثيق بمشروع الإنجاب، والشعور بالأبوة"، أو ما يطلق عليه بـ (Projet Parental)¹.

بعد اقتناع الفرد بإلحاح الرغبة في تكوين أسرة، وبعد إحساسه بقدر كاف من النضج يُشعره بالقدرة على استقلاليته، يُطرح سؤال آخر: هل ينفرد الفرد بقراراته الفردية في تكوين أسرته أم تتدخل عناصر أخرى تشاركه في القرار؟

يوضح Kaufmann أنّ "العلاقة الزوجية تُبنى كما يتمناها ويتصوّرها الفرد أن تكون وليس بموجب أنّه خُلِق لهذه العلاقة، ولهذا يقوم الفرد ويواجه الأوضاع التي تخالف معتقداته الفكرية أين سيّخذ القرارات الفردية، فمرحلة الشباب ليس مرحلة تغيير الأدوار فحسب وإنما هي مرتبطة بالقرارات الناضجة التي يتخذها مقابل موقف معيّن، وهي مرحلة إعادة إنشاء الذات... تؤهّل الفرد إلى تخطيط مستقبل نابع من اختياره الشخصي"².

ويبين C.Camilleri في موضوع اختيار الشريك داخل الأسرة الخطوط العريضة للتطوّرات التي اقتحمت المجال العام أين تبلورت الفوارق الطبقية والعرقية والثقافية بموجب الحراك الاجتماعي المهني والجغرافي، والتي غيّرت بذلك من طريقة تفكير الأسرة في اختيار الشريك وعلاقات التفاعل بعد الزواج بين الزوجين والوالدين³.

كما طرح DUJARDIN-LACOSTE النمط التربوي التقليدي لكل من الفتى والفتاة

¹ - Kaufmann J-C, sociologie du couple, (1ère édition, PUF, 1993), p: 84.

- نقلا عن: الزوجان والعلاقات الأسرية، ص: 12.

² - Kaufmann J-C, sociologie du couple, p: 63-64.

- نقلا عن: الزوجان والعلاقات الأسرية، ص: 29.

³ - Jeunesse, famille et développement, essai sur le changement socio culturel dans un pays de tiers monde (Tunisie), CAMILLERI Carmel, centre de recherche scientifique, France (1973).

ضمن الأسرة الأبوية وأثرها على العلاقات الزوجية قبل الزواج وبعده . ووضح بذلك واقع العلاقات الزوجية بدءاً من اختيار الشريك إلى غاية فترة ما بعد الزواج، حيث يسلط الضوء على علاقة الأم بابنها ومضمون علاقتها بالكنة¹.

إن انخراط الوالدين في عملية اختيار الأبناء لشريك حياتهم ثابتة في معظم المجتمعات، لا سيما الإسلامية منها. ولعل هذا يدخل ضمن أدوار الأسرة في الحرص على حسن اختيار الفرد لرفيقه في الحياة الأسرية. وسنبين في الباب التطبيقي - من خلال السيرة النبوية- الأثر الإيجابي لتدخل أولياء أمور الأفراد في مسألة اختيار الشريك، وكذا الضوابط والشروط التي جعلتها المنظومة الإسلامية معياراً لاختيار شركاء الحياة.

العنصر الثالث: في المناخ الأسري

نقصد بعنصر المناخ الأسري الثقافة الأسرية، أو الروح الأسرية التي تمتزج فيها مجموعة المشاعر والأحاسيس والتفاعل بين أفراد الأسرة، أي؛ شخصية الأسرة، عمقها، خصائصها، ثم نضج العلاقات فيها.

ويعرفه ستيفن آر كوفي بـ"الطريقة التي يتعامل بها أفراد الأسرة مع بعضهم البعض، وكيف يشعرون تجاه بعضهم البعض، إنه الروح والمشاعر التي تنمو من الأنماط الجماعية التي تميز التفاعل الأسري، وهذه الأمور مثل قمة جبل الجليد الراسخ تحت الماء، تظهر فوق كتلة غير مرئية من المعتقدات والقيم"².

فهي ثقافة تربية تُمكن أفراد الأسرة من الإقبال بصدق وإخلاص على العيش الجماعي فيما بينهم، والتصرف ثم التفاعل بنجاح وفق تلك القيم والمبادئ.

1 - الزوجان والعلاقات الأسرية، مرجع سابق، ص: 7.

2 - العادات السبع للأسر الأكثر فعالية، ص: 23

ولعل أول مفتاح لولوج الأسرة لهذا المناخ هو الانتقال من مفهوم "أنا" إلى مفهوم "نحن" داخل الثقافة الأسرية، ذلك أن الأسرة ما هي في الحقيقة إلى مجتمع مصغر ينبغي تغييب الأنانية بداخله. يقول ستيفن موضحاً هذا المفتاح: "وما الأسرة إلا تجربة جماعية، وعقلية التعامل بضمير الجمع "نحن" وبالتأكيد، فإن التحرك من "أنا" إلى "نحن"، من إلغاء الاعتماد على الذات إلى الاعتماد بالتبادل – هو ما أعتقد أنه من أكثر جوانب الحياة الأسرية تحدياً وصعوبة... فعندما تنبع سعادتك من سعادة الآخرين ستدرك حتماً أنك تحركت من "أنا" إلى "نحن"... وما لم تضع أسرتك على رأس أولوياتك، فإن هذا التحرك لن يحدث. وكثيراً ما يعني زواج اثنين مجرد إقامتهما معاً تحت سقف بيت واحد، دون وجود روح أو مشاعر تربطهما، لأن التحرك من الاعتماد على الذات إلى الاعتماد بالتبادل (التعاون) لم يحدث".¹

ويميز "إيميل دوركايم" العلاقات الأسرية على أنها بنية اجتماعية مكونة من تفاعل مجموعة من أجزاء لا تتجزأ، تحمل نفس المعتقدات والأفكار والآراء، تكوّن بذلك العقل الجمعي، وهي موجودة قبل وجود الفرد، مما يفسر أنّ الحياة الاجتماعية لم تبدأ بالفرد بل بأفراد، والحياة ترتقي بعوامل اجتماعية وليست فردية"².

فإذا ما انتقلت الأسرة من محطة الأنا الفردية إلى مجتمع "نحن" يصير حينها المناخ الأسري مناسباً للتنشئة وتكوين السلوك لدى الناشئة. وهذا مفتاح ثانٍ من الأهمية بمكان. يؤثر المناخ النفسي لدى الأبوين بدرجة كبيرة في نفسية الطفل الذي يعيش بين كنفه والديه.

¹ - العادات السبع للأسر الأكثر فعالية، ص: 23-24.

² - الزوجان والعلاقات الأسرية، ص: 50.

- يوضّح لنا دوركايم معنى هذا التفاعل مبرزاً مثلاً في هذا الصدد حيث يقول: "إن الأفراد يتفاعلون فيما بينهم كتفاعل أجزاء المركّب الكيميائي للماء H₂O حيث أن الأكسجين يتفاعل مع اثنين من الهيدروجين ليكونون مركباً لا يتجزأ".

- علم الاجتماع: الكتاب الأول، عبد الباسط محمد حسن، (المدخل، دار غريب، بدون تاريخ)، ص: 16.

ويؤكد علماء التحليل النفسي أهمية الخبرات الأسرية الأولى في سلوك الصغير، واتجاهاته، فقال "فرويد" إن الأبوين المريضين بالعصاب اللذين يبالغان في حماية الصغير، ويغرقانه في الحب يوقضان فيه "الاستعداد لأمراض العصاب"، كما أبرز "فليجل" أن الوالدين المبالغين في الشدة أو في العناية يجعلان الطفل قتالياً، ليس فقط بإزاء والديه، بل نحو كل من له سلطة الكبار... كما أظهرت الدراسات أهمية الدور الذي تلعبه علاقات الأسرة المبكرة¹.

إن إشاعة كل من ثقافة الجماعة "نحن"، وكذا العمل على تقوية الجانب النفسي للفرد داخل مؤسسة الأسرة من شأنه صناعة مناخ أسري يضمن سير سفينة الأسرة سيراً سوياً ويحمي ركبها جميعاً من التفكك والاعتزال والعقد النفسية القاتلة.

خلاصة القول؛ إن وعي الأفراد المقبلين على الزواج بأهمية التنمية الأسرية، ووقوفهم على المواطن التي تحتاج الإسهام التعاوني وبذل الجهود المشترك، وكذا توفيقهم إلى حسن اختيار شركائهم والاستشارة - في ذلك - مع مؤسسة الأسرة التي يحيوا فيها، فضلاً عن تبصيرهم بالمناخ الأسري الذي يجب أن يوفره داخل بيت الزوجية... كل ذلك من شأنه أن يمهد لتخطيط أسري قويم، وبناء إستراتيجية متبعة وموصلة لبر الوفاق والتميز الأسري، وبالتالي الإسهام في صلاح المجتمع، ونشر ثقافة أسرية تحارب الجهل، وتضاد المد الجارف للعوامة والذي لحق مؤسسة الأسرة فأحدث فيها تفككا وتصدعا مقلقا.

¹ - سيكولوجية العلاقات الأسرية، محمد بيومي خليل، (دار قباء، القاهرة - د.ط 2000م)، ص: 12.

الفصل الثاني: إستراتيجية صناعة التميز وتنمية المهارات

في هذا الفصل بينت وفصلت مختلف المفاهيم المكونة للصناعتين، كما حددت فيه حدود البحث النظري الذي سيتأسس عليه الشق التطبيقي، وذلك بوضع الإستراتيجية الموصلة لصناعة التميز، كما بينت حقيقة المهارات وأنواعها عند علماء التربية والمهتمين بعلم النفس التربوي ووجاهة التنمية البشرية، وأشارت إلى دورها في صناعة التميز، ووسائل تنميتها لدى الفرد.

إن الحديث عن "التميز" و "المهارات" حديث يتسم بالاستغراق إذا ما لم يتم تحديد زوايا المعالجة، وتعيين محاور الدراسة التي نروم استسقاء ملامح تطبيقاتها من السيرة النبوية في الشق التطبيقي من هذا البحث.

لذا؛ فالقارئ الكريم سيجد في مبحثي هذا الفصل الخريطة والإستراتيجية المعينة على فهم ما سنركز عليه، كما سيقف على الزاوية التي سنسلط عليها الضوء في هذا العمل.

وإن هي إلا اجتهادات ومحاولات للمزج بين الرؤى المختلفة؛ رؤية المهتمين بالتنمية الذاتية، رؤية علماء النفس، رؤية علماء التربية، ثم رؤية المنظومة الإسلامية حول موضوعي صناعة التميز وتنمية المهارات.

المبحث الأول: صناعة التميز: "المصطلح والاستراتيجية"

بات التميز من المواضيع التي ارتكزت عليها الأنظار في عصرنا الراهن، لما له من تغيير كبير وملحوس في نهضة المجتمعات ورفيها. وقد اتخذت الدراسات والأبحاث الحديثة تصول وتجول باحثة عن نظرية كاملة وفعالة في صناعة التميز، فأنتجت محاولات مبتورة، ووجهات نظر يخالف بعضها بعضا، حتى صار السالك لهذا الدرب -طريق التميز- كالحيران؛ يلفي نفسه وسط خضم من الدورات والتكوينات المختلفة الطرق والأساليب، والمؤلفات الكثيرة المؤلفة حول هذا الموضوع، سواء العربية منها أو الأجنبية.

ولعل من ملامح هذا البتر في ما ذكرنا يرجع إلى تمظهرين اثنين: الأول؛ الاقتصار -في صناعة التميز- على تسليط بؤرة الضوء على جانب من جوانب الشخصية الإنسانية، والعدول عن اعتبار الشخصية الإنسانية مكونا واحدا متماسكا، يضم قوى إدراك مجتمعة يُكمل بعضها بعضا، وترجم حقيقة هذا الكائن. والثاني؛ الانطلاق من الفلسفة المادية الحداثية النافية لكل ما وراء العقل الإنساني، وبالتالي قطع الصلة بين الإنسان وخالقه، مما يفوّت على الباحث الكثير من الحقائق المهمة في كمال الصناعتين.

من أجل هذا؛ جعلت هذا المبحث (صناعة التميز) حلقة مكملة للحلقة سابقته، وذلك وفق رسم خريطة لاستراتيجية صناعة التميز؛ إستراتيجية تؤهل الفرد العادي للارتقاء عبر سُلّم التميز، مُستمداً الخطوات والمراحل من الدراسات الحديثة والحادة في مجال التنمية البشرية، ومستعينا في ذلك بِنُورِ الوحي الدال على صناعة التميز منذ المجتمع الإسلامي الأول المتميز.

وبداية؛ سيكون حديثي عن مصطلح "التمييز"؛ من حيث التأصيل اللغوي، ثم من حيث دلالات إطلاقه في الدراسات التربوية الحديثة، فضلا عن الاستفادة من معانيه المبتوثة بين صفحات الوحي المعجز، والتي إن لم تدل عليه رسما فقد حدثنا عنه بتوظيف ألفاظ ودلالات توحى عليه في كثير من المواطن.

المطلب الأول: "التمييز": التأصيل ودلالات الإطلاق

الفرع الأول: أصل مصطلح "التمييز" في لغة العرب

لم يعرف توظيف العرب القدماء لمفهوم التمييز أو اشتقاقاته إطلاقها إياه على معاني التفوق وبدو الفضل بين الآخرين، إلا أن ثمة تقارب في العلاقة بين ما عرّفوه به وبين الإطلاق الراهن.

إن الناظر في المعاجم اللغوية القديمة يجد أن الفعل "ماز، يميز" يعني فصل الشيء بعضه عن بعضه، وأن "الميز" يدل على التمييز بين الأشياء¹. ويقال: "مَيَّرَ من غيره" إذا فُضِّلَ عنه². و "ماز الشيء" فضَّله على غيره³.

ف"الميز" ها هنا يعني مجرد الفصل بين شيئين والتمييز بينهما.

وفي القرآن الكريم وردت اشتقاقات الفعل "ماز، يميز" في أربعة مواضع، من خلال ثلاث صيغ⁴:

¹ - تاج العروس من جواهر القاموس، محمد الزبيدي، (تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د.ت.))، 340/15.

² - تكملة المعاجم العربية، 140/10.

³ - معجم اللغة العربية المعاصرة، 2144/3.

⁴ - [يَمَيَّرُ] ذكرت في موضعين: في قوله تعالى: (حَتَّى يَمَيِّرَ أَلْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) (سورة آل عمران: الآية 179)،

والثانية في قوله تعالى: (لِيَمِيرَ اللَّهُ أَلْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) (سورة الأنفال: الآية 37).

- [تَمَيَّرُ]: في قوله تعالى: (تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْعَيْظِ) (سورة الملك: الآية 8).

الأولى بصيغة [يَميز] وقد جاءت بمعنى الفصل بين شيئين ، والثانية بصيغة [تَميز] ووظفت في سياق التفرق، والثالثة بصيغة [امتازوا] بمعنى الانفراد.

كما يجد الباحث في المعاجم أن اشتقاقات الفعل تدلُّ أيضاً على التفرد والتحزب والتنافس. يقول الإمام الزبيدي: "تَمَيَّزَ القوم وامتازوا: صاروا في ناحية وانفردوا. والتمايز: التحزب والتنافس"¹. والتفرد من سمات وخصائص التمييز؛ حيث يتفرد بالقدرة والمؤهلات والمواهب... التي تجعله متحزبا عن المجموعة، أما التنافس فيترجم حقيقة التمييز، وهو الآلة المحركة لصناعة التمييز، مصداقا لقوله تعالى: (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)²، وهي الآية التي ختم بها الله عز وجل الحديث عن أحوال المتميزين؛ أحوال المقربين الأبرار في نعيم الجنة. فبين القرآن موطن التنافس من أجل التمييز وحدده.

أما في معاجم اللغة المعاصرة فنلمس بعض الإضافات الحديثة التي تُعني المعنى الاصطلاحي للعبارة وتقويه، فـ"التَّمَيُّز" داخلها يفيد الشهرة والبراعة، و"التَّمَيُّز" يطلق على المتفوق الممتاز، وعلى كل متغير الخواص والعناصر، أو الشخص المشهور والذائع الصوت... كما يدل "التَّمَايز" على الاستقلال بميزة³، وعلى "تمكين شخص أو جماعة من القيام بعمل دون سواهم، أو هي (صفة التمايز) صفة لأعلى المراتب الأكاديمية"⁴.

ولعل ما دل عليه المفهوم من خلال المعجمين المعاصرين هو كنه وجوهر هذا البحث.

= [امتازوا]: في قوله : (وَامْتَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) (سورة يس: الآية 58). أنظر: المعجم المفهرس

لألفاظ القرآن، ص: 685.

¹ - تاج العروس، 340/15.

² - سورة المطففين: جزء من الآية 26.

³ - تكملة المعاجم العربية، 140/10-141.

⁴ - معجم اللغة العربية المعاصرة، 2145/3.

وجاء في مفردات الراغب أن "التمييز يقال تارة للفصل، وتارة للقوة التي في الدماغ؛ وبها تستنبط المعاني. ومنه يقال: فلان لا تمييز له¹.

لقد كشفت المعاجم العربية-قديمها وحديثها- عن دلالات المفهوم، واتضح أن ثمة تأصيل للمفهوم المتداول اليوم من خلال لغة العرب.

من هنا، نتساءل كيف عرّف التربويون مصطلح "التمييز" في أبحاثهم الحديثة؟ ومن أين استمدوا قوة دلالاته؟

الفرع الثاني: توظيف المصطلح عند التربويين.

يظن غالب المشتغلين في علوم التربية وفنون الصناعة الذاتية اليوم أن مصطلح "التمييز" ظهر أول ما ظهر في اصطلاح الاقتصاديين والإداريين كقيمة تنافسية لأجل الربح، مع استبعاد تام للتفكير في القيم الدينية؛ حيث تسعى الشركات من خلال استراتيجية التميز إلى اعتماد مبدأ التفوق على منافسيها في السوق، من حيث جودة السلع كما وكيفا، ومن حيث جودة الخدمات التي تُقدّمها. ويرجع بعض الباحثين السابق إلى كشف قوانين التميز إلى خبيرين من خبراء الاقتصاد، ويتعلق الأمر برجلي الأعمال الأمريكيين "توم بيترز" وزميله "روبرت ووترمان" حينما أصدرتا كتابهما "البحث عن التميز"² سنة 1982 كردة فعل لتفوق الشركات اليابانية³.

¹ - المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، ط1-1412هـ)، ص: 783.

² - "In Search Of Excellence" (lessons from america's best-run companies) 1982, Thomas J. Peters & Robert H. Waterman, JR. HarperBusiness Essentials, First Edition published 2004.

³ - مقال "مبدأ التميز وأهميته في فهم الخطاب النبوي وتطبيقه"، محمد نصيري، (ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية السادسة بعنوان: [صناعة التميز وتنمية المهارات في السنة النبوية]، والتي انعقدت بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي (أيام: 23-24 أبريل 2013م)، 190/1. بتصرف.

وفي إطار الوصول إلى تعريف أكثر شمولية، برزت محاولات عديدة لتعريف المتميزين.

وقد حاول مكتب التربية الذي شكلته الجمعية الأمريكية القومية للتربية بواسطة مجموعة من المرين المتقدمين وضع تعريف شامل للتميز، وذلك عن طريق تقريرهم المشهور الذي أصدره منذ سنة 1918م¹، عرفوا فيه الأشخاص المتميزين بـ "أولئك الأفراد الذين يقومون بأنشطة وأداءات تعكس قدراتهم الذهنية العالية وتتسم بالإبداع، وقد تكون هذه الأنشطة والأداءات ذهنية أو فنية، أو أعمالاً قيادية، أو أكاديمية دراسية"².

وبالسفر عبر مؤلفات المهتمين بمجال التنمية البشرية نجد أن تعريف التميز عند إبراهيم الفقي - مثلاً- يتجلى في: " إدراك قدرات الإنسان غير المحدودة، واستخدامها كما يجب أن تستخدم؛ فإننا نستطيع -حينئذ- أن نحقق أهداف حياتنا وأن نعيش أحلامنا، بل وتكون رحلة حياتنا مليئة بالسعادة وراحة البال"³.

وقد نقلت الباحثة مها أبو النمر- في رسالتها- عن الدكتور أديب محمد الخالدي تعريفاً للتميز، حيث عرّفه بأنه "تلك القدرة غير العادية، أو الاستعداد العقلي العالي لدى الفرد، وهذه القدرة أو ذلك الاستعداد إما أن يكون موروثاً أو مكتسباً، عقلياً كان أو بدنياً"⁴.

وهناك من عرفه بـ "التفوق على الأقران، والظهور على الأتراب، بكمال الصفات التي ترفع المرء

¹ - تقرير مكتب التربية بعنوان:

«Cardinal princip of secondary education: A report of the commission on the reorganization of secondary education, Appointed by the nation education association Bulletin, 1918, NO.35. »

² - أنظر كتاب: المهوبة والإبداع: طرائق التشخيص وأدواته المحوسبة، تيسير صبحي، (دار التنوير العلمي للنشر والتوزيع- عمان، ط1-1992م)، ص:18.

³ - أيقظ قدراتك واصنع مستقبلك، إبراهيم الفقي، (دار الراية- سوريا، ط1-2008م)، ص:19.

⁴ - التميز في ضوء السنة النبوية (دراسة موضوعية)، مها أبو النمر، (رسالة لنيل درجة الماجستير في الحديث الشريف- كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة، 2011م/ 1432هـ)، ص: 3.

وتعلي شأنه، فتجليه من بينهم وتظهره عليهم، بحسن سمته وهديه الفذ، وخلقِه وسلوكه المرموق، وبشخصيته الإسلامية المتميزة"¹.

هذا؛ وتعدد التعريفات التي وُضعت للتمييز، ويُقصد بها معنى من معانيه، والمُطَّلَع على أبحاث التنمية الذاتية؛ العربية منها والأجنبية يجد أن ثمة مصطلحات كثيرة تتقاطع و مصطلح "التمييز" وتتداخل معانيها مع معانيه، وتتماهى بعض صفاتها العامة مع بعض صفاته. ومن هذه المصطلحات - التي قُرِنَتْ بالشخصية الإنسانية- على سبيل المثال لا الحصر: الشخصية المثمرة، الشخصية التسويقية، الشخصية العبقرية، الشخصية المتفوقة عقلياً، الشخصية الموهوبة... ثم عبارات أخرى أجنبية تحمل في حدّها معنى من معاني التميز.

وسنورد تعريفات مقتضبة لكل واحد منها، حتى نقف عند نقاط التشابه وكذا مواطن الاختلاف بينها وبين مصطلح "التمييز".

العنصر الأول: الشخصية المثمرة

يعود هذا الإطلاق إلى عالم النفس الألماني "إريك فروم" في كتابه "الإنسان بين الجوهر والمظهر"، حيث عرف الشخصيات المثمرة بـ"الشخصيات القادرة على تنشيط مقومات الحياة في كل ما تلمسه أيديهم، ويخلقون ملكاتهم ومواهبهم وقدراتهم، فيبعثون الحياة في غيرهم من الأشخاص وفي الأشياء"². ثم يُفرِّق إريك فروم بين الشخصية المثمرة والشخصية التسويقية، فهذه الأخيرة هي التي يفتقد صاحبها معنى وجوده والمغزى من تميزه ذلك؛ فيكون عمله متشعباً بإرضاء نفسه فقط، ولا

¹ - أبنأونا بين الإبداع والموهبة والتمييز، عبد الرحمن بن علي الدوسري ، (سما للتوزيع والنشر - القاهرة، ط1-2017م)، ص: 177. وتجدر الإشارة أن أول من وضع هذا التعريف بالصياغة نفسها الدكتور مازن بن عبد الكريم الفريح (مدير مركز ناصح للاستشارات الأسرية بالسعودية) في مقال له نشره على موقع مركزه، بعنوان: "كيف تجعل ابنك متميزاً؟" - قسم المقالات/ التربية الأسرية. (الموقع الإلكتروني: www.naseh.net).

² - الإنسان بين الجوهر والمظهر، إريك فروم، (ترجمة سعد زهران، سلسلة عالم المعرفة 140، أغسطس 1989م)، ص: 83.

يتعدى انتقاله ومشاركته مع الآخرين.

يقول إريك فروم: "هم - أصحاب الشخصية التسويقية - أناس لا هدف لهم سوى أن يتحركوا وأن يقوموا بأفعال بأعلى درجة من الكفاءة، وإذا ما سئلوا لماذا يجب أن يتحركوا بمثل هذه السرعة، ولماذا يجب أن يفعلوا أفعالاً بأعلى درجة من الكفاءة، فإنهم لا يجيبون إجابة مقنعة، وإنما يقدمون تبريرات مثل: "من أجل خلق فرص عمل أكثر"... فهم لا يهتمون اهتماماً واعياً على الأقل بالقضايا الفلسفية أو الدينية مثل: لماذا يعيش الإنسان؟، أو لماذا ينتهج طريقاً في الحياة دون آخر¹.

فالتمييز عند الشخصية التسويقية تميز تسويقي، الهدف منه خلق فرص ومراتب تقتصر على خدمة شخصية صاحبها بما يخدمها في الحياة، دون مراعاة المقصد الأسمى من التميز، والذي يتجلى في تقاسم النفع ومشاركته مع الآخر، وهذا يناهز ما رسمه الوحي للتمييز والتفوق في أي مجال من مجالات الحياة.

فالتمييز داخل قبة الوحي تميز متعدي، ينفذ إلى الآخر ويقبل التقاسم وشيوع النفع وسط الآخرين.

ولعل من أمثلة الشخصية التسويقية في المنظومة الإسلامية ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في أحوال الذين قد يظهر لمن عاصرهم في الحياة الدنيا أنهم تميزوا عن الأقران ببعض ما كانوا يقومون به، وظهر في الحياة الأخرى أنهم تميزوا ليقال أنهم كذلك، وقد كان لهم ذلك، وجزاهم الله بما استحقوا.

جاء في السيرة النبوية أن الناس تفرقوا عن أبي هريرة، فقال له نائل أهل الشام: أيها الشيخ، حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: نعم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا،

¹ - الإنسان بين الجوهر والمظهر، ص: 140.

قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"¹.

فقد تحدثت السيرة النبوية عن الشخصية التسويقية باسم "الرياء"، وتبين أن أي تميز خالي من تعدي النفع للآخر ومن احتساب الأجر والثواب عند الله تميز صوري لا أكثر، فهو تميز يراد منه تسويق شخصية صاحبه لكي يظهر - فقط - بالصورة التي أرادها.

العنصر الثاني: مصطلح "Eudaimonia"

بالعودة إلى المعجم الأمريكي "أوكسفورد" نجد أن مصطلح "Eudaimonia" ظهر أول ما ظهر لدى اليونان، ويُعرّفه أرسطو بأنه التعبير عن "أفضل الممارسات النشطة لسلطة الروح الفاضلة بما يتفق مع العقل"².

وقد عرفتة الموسوعة الحرة بنسختها الإنجليزية بعد تفكيكه بـ "التميز"، جاء فيها أن مصطلح

Eudaimonia يعني:

¹ - صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسُّمعة استحقَّ النار، 3/1513، ح: 152،

² - Oxford Reference : "Eudaimonia", (www.oxfordreference.com).

It's a greek word, it consists of the words: "eu" (good) and "daimonia" (spirit), it translated as "excellence".

Eudaimonia was (based on older greek tradution) used as the term for the highest humain good, and so it is the aim of practical philosophy... To consider (and also experience) what is really is, and how it can be achieved.¹

فهي عبارة يونانية مركبة من كلمتين: (جيد: eu) و (روح: daimonia)، أي الروح الجيدة، وترجم كذلك كمقابل لكلمة "تميز". وقد استعمل هذا المصطلح -حسب التقاليد اليونانية القديمة- للدلالة على الأشخاص الأعلى خيرية، للنظر في حالتهم وكذلك لتجربة تلك الحالة، لمعرفة صفاتهم التي هم عليها حقاً، والبحث عن أساليب تحقيقها في غيرهم.

إن مصطلح "الروح الجيدة" الذي وظفه أرسطو له صلة أشد وثوقاً بالهدف المرجو وراء صناعة الإنسان الذي سبق وأن بيناه، فضلاً عن ما يحمله هذا المصطلح من كونه وُظف كمقابل لمفهوم "التميز" كما جاء صريحاً في التعريف.

وبالنظر إلى مفهوم "الروح الجيدة" ومقارنتها بما مرّ معنا مع مفهوم الروح، وأنها تعني الحياة التي تضفي على الجسم حركية ودينامية، بل هي حقيقة الكائن الإنساني إذ بدونها لا يمكن وصف الإنسان بصفة إنسانية. فإذا تبث هذا؛ تبين لنا أن الجيد من تلك الروح هو ما يُعبّر عنه اليوم بالتميز، فتم إلحاق هذا الأخير بالإنسان، ولأن الإنسان ما هو في حقيقته إلا روح تسري داخل كيانه سيران الدم في العروق، والماء في النبات أطلق أرسطو لفظ الجودة على الروح، للتعبير عن جودة الشخصية المحتضنة لتلك الروح.

¹ - The free encyclopedia, (<https://en.wikipedia.org/wiki/Eudaimonia>).

العنصر الثالث: الشخصية العبقرية

العبقرية مصطلح قديم ظهر في الكتابات الإغريقية القديمة، وشاع استخدامه في العصور التي تلت ذلك، وكان استخدامه محددًا في معناه، وذلك في إطار ما كان معروفًا ومتداولًا في ذلك الوقت، من معلومات غير طبيعية في التكوين العقلي للفرد. استخدم هذا المصطلح في القرن الثامن عشر ليدل على تلك المَلَكة التي يستطيع صاحبها عن طريقها أن يصل إلى اكتشافات جديدة في ميدان العلم، أو إلى إنتاج أصيل في مجال الفن... كما استخدم هذا المصطلح في القرن التاسع عشر، غير أن استخدامه في هذه المرة كان أوسع من استخدامه فيما سبق، إذ كان يقصد به "العباقرة" الذين ورثوا طاقات عقلية ممتازة، واستطاعوا عن طريقها أن يحققوا لأنفسهم شهرة واسعة ومركزًا مرموقًا في مجال من المجالات¹.

فالعبقرية لها اتصال بالموهبة كما سنرى، وتدخل ضمنها الوراثة في الطاقات العقلية... غير أن التميز لا يتطلب بالضرورة عامل الوراثة، إذ كل فرد يمكنه التميز في مجال من المجالات دون الحاجة إلى وراثته عن والديه وأجداده.

العنصر الرابع: الشخصية المتفوقة عقليًا

يرتبط التفوق العقلي بالأداء العالي لعقل الفرد، والذي يُميّز من خلاله بين المتفوق وغيره. وقد عرّف علماء التربية المتفوق عقليًا بكل من "وصل في أدائه إلى مستوى أعلى من مستوى العاديين في مجال من المجالات التي تُعبّر عن المستوى العقلي والوظيفي للفرد، بشرط أن يكون ذلك

¹ - التفوق العقلي والابتكار، عبد السلام عبد الغفار، (دار النهضة العربية و دار غرب للطباعة- القاهرة، (د.ت.))، ص: 26-27. بتصرف.

المجال موضع تقدير الجماعة¹.

وهناك من عرفه بأنه "مفهوم ثقافي يُقصد به ارتفاع في مستوى الأداء في مجال من المجالات العقلية، وتحدد الجماعة مدى الارتفاع الذي إن وصل إليه الفرد في أدائه اعتُبر متفوقا عقليا، كما تحدد الجماعة نوع المجال الذي يُعتبر فيه الامتياز تفوقا عقليا"².

من خلال التعريفين نجد أنه يُشترط في كليهما شرط تدخل الجماعة، وذلك في موضعين: الأول؛ يتعلق بالمجال الذي تحدده الجماعة، وتعتبر فيه التفوق العقلي تميزا، والثاني؛ تحديدها أيضا لسقف الارتفاع الذي يُعدُّ تجاوزه تفوقا عقليا.

وبهذا يصير مصطلح "التفوق العقلي" مصطلحا قاصرا عن تمثيل مصطلح التميز، هذا الأخير الذي يتسم بالعموم والسعة، وتصنعه الإرادة القوية من الداخل، دون الاقتصار على العوامل الخارجية (المحيط...) وإن كان لها ما لها من دور في صناعته.

فقصور مصطلح "التفوق العقلي" يتمظهر في تقييدتين: تقييده بالجماعة المتحكمة في اعتباره من عدم اعتباره، ثم تقييده بكونه تميزا مقتصرًا على قوة واحدة من قوى الإدراك لدى الإنسان (العقل).

العنصر الخامس: الموهبة / الشخصية الموهوبة

شهد النصف الثاني من القرن العشرين ظهور مصطلح "الموهبة" أو "الموهوب" أواسط علماء التربية وعلم النفس، وكان توظيف المصطلح للدلالة على التفوق والمتفوقين.

وقد انتشر استخدام "الموهبة" في الدراسات الأجنبية بمعان مختلفة:

¹ - المتفوقون عقليا: خصائصهم، اكتشافهم، تربيتهم، مشكلاتهم، عبد الرحمن سيد سليمان وصفاء غازي أحمد (مكتبة زهراء الشرق - القاهرة، ط1-2001م)، ص: 13.

² - التفوق العقلي والابتكار، ص: 39.

- التفوق العقلي (الذكاء والتحصيل).

- الإبداع (الأصالة والمرونة والطلاقة).

- المواهب الخاصة في مجال معين (الفنون، الآداب...)¹.

ويعرف الدكتور عبد السلام عبد الغفار الموهوبين بـ "أصحاب المواهب الذين تفوقوا في قدرة أو أكثر من القدرات الخاصة، إلا أن الاستخدام الأصلي لهذا المفهوم قُصد به من يصلون في أدائهم إلى مستوى مرتفع في مجال من المجالات الأكاديمية التي تعتبر فيما مضى بعيدة الصلة عن الذكاء"².

لقد كان معظم المهتمين بالتربية يصنفون الأشخاص الموهوبين باعتماد ارتفاع نسبة الذكاء لديهم، فوصفوها بالمعيار الرئيسي والوحيد الذي يميزهم عن غيرهم، إلا أن الدراسات اللاحقة كشفت أن الموهبة أوسع بكثير من أن نعرفها بمجرد توفر الشخص على نسبة معينة من الذكاء. لذلك يرى جوزيف رونزولي في مقاله "كيف نصنع الموهبة؟" أن "الموهبة تحتاج إلى إعادة تعريف، لتشمل ثلاثة عناصر: الذكاء فوق المتوسط، ومستويات عالية من الالتزام بالمهام، ثم مستويات عالية من الإبداع"³.

فعلاقة الموهبة بـ "التميز" هي علاقة الخاص بالعام، أو هي بمثابة نسبة الجزء إلى الكل؛ فصفات الموهوب من صفات الشخص المتميز لا محالة، إلا أن التباين الحاصل بين المصطلحين يكمن في اعتبار الموهبة - عند بعض الباحثين - متعلقة بالعامل الوراثي، "ويؤيد هذا التوجه الدراسات الفسيولوجية التي تؤكد أن الإنسان الموهوب يرث من آبائه جسمه وُحدده، ومقداراً من الذكاء الذي

¹ - المتفوقون عقلياً: خصائصهم، اكتشافهم، تربيتهم، مشكلاتهم، ص: 11. بتصرف

² - التفوق العقلي والابتكار، ص: 29-30. بتصرف.

³ - "What makes giftedness ? Reexamining a definition", By: JOSEPH S.Renzulli- in Phi Delta Kappan 60, No3 (November 1978), p: 81.

هو جزء من الموهبة وليست الموهبة كلها"¹.

وقد أكد واقع المتميزين أن الشخص المتميز لا يشترط فيه أن يكون موهوبا بالضرورة، فهو إنسان عادي كغيره، أخذ بزمام الجدية والمثابرة، ويملك إرادة قوية للنجاح وإثبات الذات، ويبدل غاية في الجهد، للوصول إلى أهدافه وتحقيقها. فهو مستمر البحث والسعي نحو إيجاد الطرق والأساليب التي تنمي مهاراته وترفع من أدائه.

فالتميز إذن عبارة عن مجموعة من القدرات التي تنمو بشكل مقصود ومنظم، دون تطلب وجود عوامل وراثية خاصة، ودون الاعتماد على قدرة معينة.

وقد حدد الدكتور زكرياء الشريبي مجموع هذه القدرات² في:

- القدرة على رؤية الاحتمالات التي لا يراها الآخرون.
- القدرة على التصرف بهذه الاحتمالات بطريقة غير عادية.
- القدرة على التغلب على العوائق في فترة زمنية مناسبة.
- إصدار استجابة مادية أو بدنية موفقة.
- المساهمة في المجتمع بسلوكيات متوافقة ومناسبة، بطريقة مؤقتة أو دائمة.

ومجموع هذه القدرات هي التي تكون المعنى الكامل لمفهوم التميز الذي نروم معالجته من خلال هذا البحث.

¹ - مقال "اكتشاف المواهب وتنمية المهارات في السنة النبوية"، محمد زرمان، مقال ضمن أعمال الندوة السادسة بدبي، مرجع سابق، ص: 31.

² - أطفال عند القمة: الموهبة والتفوق العقلي والإبداع، زكرياء الشريبي ويسرية صادق (دار الفكر العربي- القاهرة، ط1- 2002م)، ص: 31.

العنصر السادس: حول مصطلح "صناعة التميز"

رأينا في مبحث "صناعة الإنسان" أن معاني الصناعة في المعاجم العربية تدور حول المهارة والحذق في إخراج الشيء وإجادته وإحسانه... وما اعتبارنا التميز صناعة في هذا المبحث إلا كونه لونا من الحرف، له قواعده، وفنونه، ومهاراته، وأساليب تحقيقه... تماما كمن يشتغل بصناعة من الصناعات المزاولة في حياة الفرد، فيلزمه إحكام مبادئها ومهاراتها.

حقيقاً أن الصناعة -بمعناها العام- تدل على مهارة يدوية ومادية ملموسة، غير أن المُطَّلِع على عناوين المؤلفات العربية الأولى يجد بعضاً من أمثلة اقتران مصطلح "الصناعة" بغير المادي والملموس؛ فقد ألف ابن قدامة البغدادي (337هـ) كتاب "الخراج وصناعة الكتابة"، وكتب ابن جنبي (392هـ) "سر صناعة الإعراب"، وجاء بعدهما أبو هلال العسكري (395هـ) بكتاب "الصناعتين" الذي يقصد بهما الكتابة والشعر.

فإذا كان توظيف مصطلح (الصناعة) سابقاً في مؤلفات النحويين واللغويين القدماء، فأحرى به أن يُوظَّف في مواضيع العصر الراهنة.

هذا؛ وقسم ابن خلدون الصنائع إلى قسمين: "إلى ما يختص بأمر المعاش (...). وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع (...). فمن الأول الحياكة والجزارة والنجارة... ومن الثاني: (...) الشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك"¹.

ولا شك أن التميز داخل في النوع الثاني من الصناعة (أي ما يختص بالأفكار)، فكل ما يختص بأفكار الإنسان يعتبر من خاصياته، وما التميز في بدايته إلا تصور لفكرة، ورعايتها وتنميتها حتى تصير هدفاً محققاً.

¹ - تاريخ ابن خلدون "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، عبد الرحمن بن خلدون الاشبيلي، (تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر - بيروت، ط2-1988م)، 502/1.

وبهذا يقصد بالتركيب "صناعة التميز" أبعاديات خلق التفوق والنجاح ورسم خطواته في مجال من المجالات، فلا شك أن أية صناعة تقوم على مفاتيح واستراتيجية مرسومة تتبع لتحقيق الأهداف من تلك الصناعة.

الفرع الثالث: معاني التميز في منظومة الوحي

إن حديثنا عن موضوع التميز داخل منظومة الوحي حديثٌ عن هندسة ربانية شاملة، محكمة الصنع، وواضحة المعالم، تجعل طريق التميز من خلالها يكتسب طابع الإعجاز والدقة من حيث الطرق والأساليب وكذا الاستراتيجية الموضوعية لتحقيقه.

من هنا نؤكد أن فن التنمية البشرية داخل منظومة الوحي يكتسي تأييداً ربانياً وسندا إلهياً، يكاد غير المعتقد بالله وبوجوده أن يجرم من هذا المدد العلوي، (أَبَمَسَ يَمْشِ مَكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)¹. فلا يمكن مقارنة ما أنتجته العقول البشرية البعيدة عن فلسفة الوحي في صناعة التميز بتلك المسددة بالوحي، بل تقاس كل النظريات الحديثة بما يوافقها ويتفق معه.

وإذا كانوا يُعرفون التميز بأنه القدرات العقلية، والتفكير الابتكاري، والاستعداد الأكاديمي، فضلاً عن القدرات القيادية والمهارات الفنية والحركية... وجعلوا الشخص المتميز من وصل في أدائه إلى مستوى أعلى من مستويات العاديين... فإن التميز داخل دفتي الوحي إيمان بالله أولاً، وعزو نتيجة التميز إليه، والاستعانة به والتوكل عليه.

حقيق أن كل ما عرفوا به التميز هو المطلوب، لكنه لا يُعدُّ الأساس المعتمد عليه في صناعة التميز اقتصاراً واكتفاءً.

¹ - سورة الملك: الآية 23

إن خلو الوحي من مشتقات الجذر [ميز] لا يدل بالضرورة على خلو الوحي من التمييز ومن الدلالة عليه، فصفحاته زاخرة بالدعوة إليه وبحكاية واقع التمييزين الذي سجله القرآن. وسنورد بعضاً من تلك العبارات والألفاظ التي وظفها الوحي للدلالة على "التمييز"، وتحققت في جيل التمييزين من خلال مآثرهم ومناقبهم المحفوظة.

العنصر الأول: مفهوم "السبق"

يحدثنا القرآن الكريم في سورة فاطر عن المصطفين من عباد الله ويُصنّفهم حسب درجة تقربهم من الله وتميزهم في حياتهم، وقد جعلهم على ثلاثة أقسام: الظالم لنفسه، والمقتصد، ثم السابق بالخيرات. قال الباري جل وعلا: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكُتُبَ الَّذِينَ إِصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)¹.

فالمسألة ليست أن نكون فقط مقتصدين وإنما سابقين؛ قال تعالى: "فمنهم ظالم لنفسه" وليس هذا ما نبحت عنه قطعاً، ثم قال: "ومنهم مقتصد" وليس هذا طموحنا أيضاً، "ومنهم سابق بالخيرات"؛ هذا هو التمييز والمبتغى "ذلك هو الفضل الكبير".

فالسابق داخل قبة الوحي هو الذي سبق غيره في أبواب الخير والأعمال الصالحة، وهو خير الثلاثة.²

قال كعب الأحرار في شأن هؤلاء (السابقون بالخيرات): "تماست مناكبهم ورب الكعبة، ثم

¹ - سورة فاطر: الآية 32.

² - فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، (دار ابن كثير - دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت، ط1-1414هـ)،

401/4. بتصرف

أعطوا الفضل بأعمالهم"¹.

وقوله "ياذن الله" تنبيه على عزة منال هذه الرتبة، وصعوبة مأخذها (أي: بأمره وعلمه وتوفيقه)، وقيل أن قوله تعالى: "ذلك هو الفضل الكبير" أي: السبق إلى الخيرات².

فنعنت رب العزة "السبق بالخيرات" بالفضل الكبير، كما قيّد هذا الاستباق بتوفيقه وأمره، وهنا يتجلى ما لحسن عبادة الله وجميل التوكل عليه، ثم الاستعانة به من تأييد وتوفيق رباني، فوجب على كل من يروم التغيير والتميز أن يتسلح بالتعلق بخالقه ليعينه على تحقيق هذه المكانة والدرجة الرفيعة. يقول رشيد رضا في شأن السبيل الذي يتحقق به هذا الاستباق: "فالسابق بالخيرات من يزيد على التقرب بالنوافل، والتكامل بالفضائل، والجمع بين التعلم والتعليم، والتأديب والتأديب، حتى يكون إماما للمتقين، فهذه درجة المقربين"³.

فتميز أولئك بالسبق تميز مزدوج؛ تميز في الدنيا بما سجله عنهم الوحي، وتميز في الآخرة بقربهم من الله واتباعهم لرسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٢﴾ وَتُؤْتِيهِمُ الْأَمْقَرُونَ ﴿١٣﴾).⁴ وقد بين عز وجل طريق تحقيق هذا التميز، فقال: (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)⁵،

فهو ليس مجرد إتيانها، ولكن المسارعة من أجلها والاستباق نحوها، كما أمر البارئ جل في علاه

¹ - تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، محمد بن جرير الطبري، (تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1-2000م)، 466/20.

² - فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب الحسيني البخاري، (المكتبة العصرية بصيدا- بيروت، ط1-1992م)، 248/11.

³ - تفسير المنار، 369/11.

⁴ - سورة الواقعة: الآيتان 12-13.

⁵ - سورة البقرة: جزء من الآية 147.

بالتنافس فيها (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَاهِسُونَ)¹.

ومن يتفقد سيرة رسولنا الأكرم صلوات ربي وسلامه عليه يقف عند ملامح هذا الاستباق ومظاهر هذا التنافس بين أصحابه الميامين، فقد كان لتلك الصفوة المميزة السبق في كل خير، وكانوا يطلبون المعالي في كل أمر، لا يرضون بالدون، ولا يكتفون بالقليل، لا توسط بينهم، لهم الصدر دون العالمين أو الموت²، فقد أخذوا بزمام التميز، تحت لواء قائدهم الأعظم محمد بن عبد الله الذي يقول: "إن الله يحب معالي الأمور وأشرفها، ويكره سفاسفها"³.

العنصر الثاني: مفهوم "الإحسان"

نجد في القرآن الكريم أن مفهوم "الإحسان" من الكليات الشرعية التي يصلح توظيفها للتعبير عن معنى التميز أو على جانب منه.

وقد نبّه إلى هذا التأصيل الدكتور محمد ناصيري من خلال مقاله الذي شارك به في ندوة صناعة التميز بدبي، فنص في مقدمة مقاله أن القيمة المضافة لمقاله -بالمقارنة مع بعض الأعمال السابقة التي بحثت في التميز وصناعته في السنة النبوية- : تأصيله لمفهوم التميز، سيما الوشائج التي أقامها بينه وبين كلية الإحسان الشرعية، يقول في هذا الصدد: "...وأحسبه (أي التأصيل) سبقا في حدود

¹ - سورة المطففين: جزء من الآية 26.

² - أصل هذه العبارات أبيات للشاعر أبو فراس الحمداني في العصر العباسي وهو يفخر بنفسه ويقومه :

ونحن أناس لا توسط عندنا xxx لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تھون علينا في المعالي نفوسنا xxx ومن يخطب الحسنة لم يغلها المهر

أعزّ بني الدنيا وأعلي ذوي العلا xxx وأكرم من فوق التراب ولا فخر.

أنظر: الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، (تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي - دار الجليل، بيروت، الطبعة الثالثة، (د.ت.))، 185/1.

³ - المعجم الكبير، سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبري، (تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي - مكتبة ابن تيمية، القاهرة،

الطبعة الثانية، (د.ت.))، من حديث فاطمة بنت الحسين عن أبيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، 131/3.

علمي، والتدقيق في العناصر المكونة للمفهومين قصد تيسير التنزيل"¹.

وقد اعتمد في تأصيله على ما تناوله الإمام الغزالي في الإحياء ضمن أبواب المعاملات، وتخصيصه بابا للإحسان، فاستنبط من سياقه الدلالة على قصد التمييز في المعاملات، وبه عرّف الإحسان².

والإحسان لغة كما يعرفه الشريف الجرجاني هو: "فعل ما ينبغي أن يُفعل من الخير"³.

ويعضد هذا التأصيل المماثلة التي جعل من خلالها العسكري "الرفعة في الدرجات" مرادفاً لكثير الإحسان"، يقول: "فأما قوله تعالى: (رفيع الدرجات) فهو كقوله: كثير الإحسان"⁴، كما فرّق بين الإحسان والنفع، ذلك أن "النفع قد يكون من غير قصد، والإحسان لا يكون إلا مع القصد"⁵.

فمن خلال هذه الفروقات نستشف من مفهوم الإحسان معاني الرفعة في الدرجات التي هي من خصائص ومميزات المتميز. كما نجد أن الإحسان يتعدى مجرد النفع والعطاء إلى ضرورة وجود القصد والهدف من ذلك النفع والعطاء، ثم وجود الإرادة القوية والرغبة الملحة في ممارسته وتحقيقه، وهذا هو جوهر التمييز الذي ندندن حوله.

إن ما يقرب بين كل من الإحسان - باعتباره كلية شرعية - والتمييز ليس تشاركهما في المعنى اللغوي للإحسان فحسب، بل إن الاصطلاح الشرعي له أيضاً يُفصح عن مدى اعتباره وجهاً قوياً من أوجه الدلالة والتعبير عن التمييز.

بالنظر إلى حديث جبريل الذي رسم معالم الإحسان، ثم بالنظر إلى حال أولئك المميزين من الرعيّل الأول نجد أن كل واحد منهم ابتغى رتبة الإحسان قبل رتبة الإيمان، ولم يكتف برتبة الإسلام.

¹ - أنظر: مقال "مبدأ التمييز وأهميته في فهم الخطاب النبوي وتطبيقه"، مرجع سابق، 1/188.

² - نفسه.

³ - التعريفات، ص: 12.

⁴ - الفروق اللغوية، 1/184.

⁵ - المرجع نفسه، 1/193.

قال تعالى: (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)¹. فالتميز من يتبغي الارتقاء في كل شيء، ولا يكفي بمجرد المنزلة العادية.

ولعل المتأمل في الآيتين القرآنيتين (الذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن

طِينٍ)² و (صُنِعَ اللَّهُ لِدَيْهِ أَتْفَعُ كُلَّ شَيْءٍ)³، يتضح له جلياً ما للاحسان والإتقان من تماهي

في المعنى، ويتضح معه أيضاً أن الإتقان وجه من وجود التمييز.

يتبين لنا من النقول الآتية أن الفعل يعتبر إحساناً إذا ما تحققت فيه ثلاثة شروط⁴:

- وقوعه وفق أوامر الشرع، فمن التزمها أتقن.

- وقوعه زيادة على حد العدل الواجب في ذلك الفعل، لأن الزيادة على الواجب بما

يتحقق الأحسن، وهنا يكون مزيد الإتقان وساحة التباري. قال تعالى:

(لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)⁵، وقال: (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

الْمُتَنَاهِسُونَ)⁶.

- توفر العزم المنافي للفتور لإمضاء المعلوم المبتكر الظاهر النفع، وإلا انقطعت

المنافسة، قال عليه الصلاة والسلام: "أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل"⁷.

¹ - سورة البقرة: الآية 111.

² - سورة السجدة: الآية 6.

³ - سورة النمل: جزء من الآية 90.

⁴ - أنظر مقال "مبدأ التمييز وأهميته في فهم الخطاب النبوي وتطبيقه"، مرجع سابق، 192/1-193. بتصرف.

⁵ - سورة الملك: جزء من الآية 2.

⁶ - سورة المطففين: جزء من الآية 26.

⁷ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، 540/1، ح: 782.

وبعد هذه الجولة بين المفاهيم والمصطلحات المختلفة، لعل شهية القارئ تفتح وتشرّب للتطلع على أبعاديات صناعة التميز الذي نؤصل له ونبين فضله ومكانته في الدارين، كما يأمل الحالم بهذه المنزلة بتبوئه فضل السبق والاستباق، والعمل بمبدأ الإحسان لكي يكون من المقربين.

فكيف السبيل إلى التميز؟ وما مراحل تنزيله وتفعيله في حياة الفرد؟

المطلب الثاني: إستراتيجية صناعة التميز

إن التميز باعتباره صناعة شريفة ومطلوبة في حياة الإنسان يقتضي منا رسم طريق قويم يوصل إليه؛ يُمكنُ سالكه من بلوغ أهدافه في الحياة وتحقيقها.

ولا شك أن هذه الصناعة ستكون ذات صلة بالصناعة سابقتها (صناعة الإنسان) استمداداً وإمداداً، مستمدة من الأصل المعجز، وممتدة بدءاً من مقومات صناعة الإنسان، ومستقبة من الدراسات المعاصرة التي عاجلت الموضوع.

إنني - وأنا أرسم خريطة التميز - في هذا المطلب لست أدعي بذلك السبق في طرح الفكرة، لكنني سأحاول قدر المستطاع وضع استراتيجية مستقبة من بعض الأبحاث المعاصرة الجادة، وممزوجة بأدوات ووسائل صناعة الشخصية الإنسانية داخل الوحي، فالقصد وضع استراتيجية تُسعف الباحث وتمكنه من صناعة التميز وتسدّ فضوله، وترضي قناعاته بأن لا مفر للمشتغل بهذا الفن من التكامل المعرفي بين تأصيل التميز من الوحي، واهتمام الوحي به، وبين الطرق والأساليب المستوردة من الدراسات الحديثة حول تنمية الذات وصناعة التميز.

هذا، وقد جعلت استراتيجية التميز على ثلاث مراحل متسلسلة ومتكاملة، سأسرد الإطار النظري لمقومات كل مرحلة والمفاتيح اللازمة لتحقيقها، على أن أعرض لتطبيقات كل مرحلة من خلال السيرة النبوية في الباب الثاني من هذا البحث، وتتجلى هذه المراحل في:

الفرع الأول: مرحلة "الإعداد القبلي".

في المرحلة الأولى سأحاول الإجابة على سؤالين مهمين في مجال التنمية البشرية، منهما ينطلق الفرد لتهيئة البيئة المعينة على التميز. وهما: من أنا؟ وماذا أريد؟

ففي السؤال الأول نستحضر المعنى من الوجود الإنساني، من مبدأ الاستخلاف إلى تحقيق الذات، ثم تحويل الوجود الإنساني العادي إلى وجود حقيقي وفعال.

أما السؤال الثاني فينطلق من تبني "فكرة"، وبتصورها وامتلاكها ثم تنميتها والعمل من أجلها، فبهذا يعرف الفرد ماذا يريد، دون إغفال ما للإرادة القوية من دور فعال في وضع أول لبنة من صرح التميز وصناعته.

العنصر الأول: التساؤل الوجودي "من أنا؟"

يخال المتبع لفقرات البحث نفسه أمام ضرب من الأسئلة الفلسفية الفضفاضة، والتي قد تصيب المتسائل بالتيه في متاهات الوجودية، إلا أن الأمر غير ذلك، فالجال الذي يحتضن السؤال يبرره، والسياق الذي نتساءل من خلاله يفرضه.

إن الاكتفاء بالإجابة عن السؤال داخل ديننا الإسلامي بأن حقيقة كل فرد والمغزى من وجوده هو التمتع بحياة يحياها على شاكلته، ويعبد الله على هواه، ليضمن تقاسمه والمسلمين اللقب هي إجابة يتيمة تفتقر لمعاني الوجود كما حددها الخالق جل وعلا.

نقول هذا إيماناً بأن ارتقاءنا عبر سُلّم التميز رهين بانتقالنا من الحياة العادية نحو الحياة الإيجابية، أو اختيارنا بأن نرضى بالبقاء مع الضعفاء والمستضعفين في قواهم ومقوماتهم، أولئك الذين ينزلون ضيوفاً إلى الحياة ثم يودعونها دون أن تشعر بهم، ودون أن تشهد لهم بوجودهم وترك بصمتهم فيها، فوجودهم كما عدمهم في هذه الحالة.

كثيرا ما تتردد على ألسنة مدربي تطوير الذات قصة "السيد عادي"؛ تلك القصة الساحرة التي تحكي واقع "شخص عادي؛ ولد من أب عادي وأم عادية، وترى تربية عادية، ودخل الجامعة فتخصص في تخصص عادي، وتخرج منها بتقدير عادي، ثم توظف السيد عادي وظيفة عادية، وتزوج فتاة عادية، وأنجب أطفالا عاديين... إلى أن توفي السيد عادي بعد رحلة حياتية عادية، لا فرق فيها ولا فريد، لم يحاول أبدا أن يفعل أي شيء، طلب من الحياة القليل، ودفعت الحياة ثمنه"¹. فمن لم يزد على الحياة شيئا يكن هو الزائد عليها كما يقال، وحياة السيد عادي ليست لائقة بحياة إنسان يعيش الحياة فرصة واحدة.

لا يختلف اثنان في أن الوجود الإنساني داخل هذا الدين الذي نعتقده ونؤمن به مرتبط أشد ارتباط بفحوى هذا الوجود، والمتمثل في مبدأ الاستخلاف الذي من أجله خلق الله الإنسان بعد خضوعه له بالعبادة والطاعة، وقبوله أمانة الاستخلاف. فقله تعالى: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

خَلِيفَةً)² يتحتم بعده وضع خريطة واضحة المعالم، ربانية المصدر، واضحة الأهداف، يسلكها

خليفة الله في الأرض، يكون بعمله وتصرفه في مقام التبليغ عن رب العباد.

ولا يمكننا الحديث عن الاستخلاف في صفوف الأفراد العاديين غير المؤثرين في الحياة ومجرياتهما؛ فالاستخلاف يقتضي بلوغ منزلة رفيعة، ومكانة عالية من التميز والرقي، يجني من خلالها المجتمع قيمة إضافية، تصلح بها أحواله، ويتعدى تميز أولئك إلى غيرهم، ولا يقتصر على خدمة أهدافهم الشخصية وتحقيقها.

ولعل هذا ما يشير إليه عالم النفس الألماني إريك فروم حين يقول: "هناك أناس لا هدف لهم

¹ - دليل التدريب القيادي، هشام الطالب، (سلسلة التنمية البشرية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1-1995م)، ص: 270. بتصرف.

² - سورة البقرة: جزء من الآية 29.

سوى أن يتحركوا وأن يقوموا بأفعال بأعلى درجة من الكفاءة، وإذا ما سئلوا لماذا يجب أن يتحركوا بمثل هذه السرعة (...) فإنهم لا يجيبون إجابة مقنعة، ولا يهتمون اهتماما واعيا على الأقل بالقضايا الفلسفية أو الدينية، مثل : لماذا يعيش الإنسان؟، أو لماذا ينتهج طريقا في الحياة دون آخر؟¹.

إن هذا الوجود الفعال لدى المسلم لا يتأتى إلا باعتزازه بذاته، واستشعار مكانته في الوجود، كما لا يتحقق ما ذكرنا إلا بالارتقاء الروحي والكمال النفسي والاطمئنان القلبي... المتمثلين في سمو العلاقة بين الفرد وخالقه، وما سارت الأمة إلى خالقها من هذا الطريق إلا وسلكت طريق المجد والصدارة بين باقي الأمم.

فالاعتزاز بالذات هو السبيل لتحقيق الوجود الفعال والمثمر، وتحقيق الذات لا يُدرك إلا بـ"الثورة والانقلاب على نمط حامل من الوجود المنطقي، وبهذا المعنى يصبح تحقيق الذات هو الأشمل والأكمل على النجاح الشامل والقوة النفسية والاستقلال النفسي"². ومن مقتضيات تحقيق الذات مراعاة التوازن النفسي والتكامل في الشخصية، ثم التحكم الكامل فيها وفي سلوكها وطموحها، "وتحقيق الذات يقتضي جهدا وكفاحا، لأن حكم النفس يقتضي حدا أدنى من الإرادة، أو الاستعداد للقيام بالأعمال الإرادية المدروسة، وما من أحد على أديم الأرض إلا ويحمل في نفسه وفي طيات ذاته هذا الاستعداد"³.

فبمعرفة كنه الذات البشرية وما تنطوي عليه من أسرار هو السبيل لتحقيق الوجود الفعال والمثمر، يقول عاطف عمارة: "إذا نظرت في نشاطك النفسي وفي أفكارك التي تحكم حياتك ستعرف من أنت، وهذه المعرفة هي نقطة البداية في إعادة صياغة الوجود الفعال"⁴.

1 - الإنسان بين الجوهر والمظهر، ص: 140.

2 - أسرار الشخصية المؤثرة، عاطف عمارة، (الحرية للنشر والتوزيع- القاهرة، ط1-2003م)، ص: 18.

3 - المرجع نفسه، ص: 16. بتصرف

4 - أسرار الشخصية المؤثرة، عاطف عمارة، ص: 29.

كما أن الإجابة عن السؤال الثاني [ماذا أريد؟] يتوجب الانطلاق من معرفة الذات واستساغة وجودها، لإضفاء الفعالية على هذا الوجود وجعله إيجابيا مثمرا.

وهنا يجب أن يتذكر المرء أن الوجود الفعال المؤثر هو ذلك الذي تقوده "فكرة" أو "هدف" نهائي، يتمحور الوجود الشخصي حوله، وكلما كان الهدف عظيما كان الوجود أعظم قوة وفعالية وتأثيرا وعمقا، وهذا الهدف هو الذي نستمد منه قوتنا الداخلية ونشاطنا النفسي الفعال المؤثر¹.

إذ لا بد من وجود هدف واضح ومحدد على مستوى الفرد، والهدف يسمو دوما على المصالح والغايات الشخصية؛ لأنه يؤدي إلى إثارة الحماس للعمل، وغياب الهدف من حياة الكثير من شبابنا اليوم هو الذي أنتج جيلا متكاسلا متواكلا، يرى الأفق بعيدا ولا يفكر بخلق ظروف ملائمة للتغيير².

بعد معرفة الذات وتحقيق الوجود الفعال يصبح الفرد على أهبة الاستعداد لمعرفة ماذا يريد، ويحدد أهدافه التي تعلق شغفه بها.

العنصر الثاني: التساؤل الشغفي "ماذا أريد؟"

إننا بحاجة لهدف نُكْرَس من أجله قوانا الداخلية والخارجية في حياتنا، بحاجة إلى نقطة مركزية تدور حولها كل جهودنا، وتكون أساسا لكل قيمنا الفعالة، نحن بحاجة لهذا الهدف لجعل طاقاتنا تتكامل في اتجاه واحد، ولكي نتجاوز وجودنا المنعزل بكل ما يكتنفه من شكوك ومخاطر، ولكي نُشبع حاجتنا لأن يكون لحياتنا معنى.

لذلك فإن ما يحدد الإجابة على السؤال (ماذا أريد؟) هما منطلقان اثنان: الأول؛ يتحدد في

¹ - المرجع نفسه.

² - التنمية الذاتية: تأصيلها الإسلامي وتطبيقاتها في دولة الإمارات العربية المتحدة، الباحثة الشبيخة فاخترة بنت سعيد آل نهيان (رسالة ماجستير تحت إشراف: دة. حياة البرهاتي، جامعة محمد الخامس أبو ظبي - ط1، 2017م)، ص: 54.

الإرادة القوية للفرد، والتي تُمكنه من تحديد هدفه، وتجعله يخوض في تصور فكرته، وبالتالي تنزيلها على الواقع. أما المنطلق الثاني فيتجلى في الفكرة أو الموضوع الذي يشغل حياة الفرد ويأسر فكره، ويسميه الباحثون في مجال التنمية البشرية بالشغف أو الوله.

إن الشغف بفكرة يقتضي الاهتمام بها والتركيز التام عليها، ولنا في سيرة قدوتنا صلى الله عليه وسلم المثال الجلي في ذلك كما سنبين في الإطار التطبيقي من هذا المبحث.

المنطلق الأول: الإرادة

قبل البدء وجب على الفرد أن يعرف ماذا يريد، فإذا كان له هدف قوي متماسك في الحياة، فمعنى ذلك أنه يملك فعلا قوة الإرادة اللازمة لتحقيق هذا الهدف. وإذا كان يملك "عادة- الإرادة" في هذا الاتجاه، فإن لها طريقة لتوجه نفسها في اتجاهات أخرى¹.

فالإرادة هي المُحرِّك الأساسي لتحويل شغف الفرد في الحياة إلى صورة مشهودة على أرض الواقع، وكل فرد مُكَنَّ من هذه القوة الداخلية المتجسدة في بُعد الإرادي، و"كل إنسان يحمل بين طيات نفسه معاني الإرادة، ولكن كثيرا من الناس تُكَبِّله قيود العجز، وأغلال التثاقل في الأرض، فيجهل ما يسكن في جوانبه من معاني الهمة"².

وقد قسم خبراء التربية وعلماء النفس الإرادة إلى قسمين؛ إرادة البدء، ثم إرادة الاستمرار. ونحن أحوج في هذه المرحلة إلى النوع الأول منها، مع ضرورة الحاجة إلى النوع الثاني في ما سيأتي من مراحل التميز.

فإرادة البدء هي الشرارة الأولى لإعلان بداية تصور الفرد للفكرة، إذ "بمجرد أن يبدأ عملا يسهل

¹ - أسرار الشخصية المؤثرة، ص: 57-58.

² - مقال "من هدي النبي صلى الله عليه وسلم في صناعة المبدعين واكتشاف المتميزين"، محمد ورداني عبد الراضي، أعمال الندوة السادسة بدبي، مرجع سابق، ص: 110. بتصرف.

استمراره، كما لا تجد إنسانا بعدما بدأ عملا لا يلبث أن يتوقف عنه"¹.

المنطلق الثاني: الولع بفكرة

لا شك أن المتميزين هم في الأصل بشر أمثالنا، يتقاسمون معنا كل شيء، ويتشاركون مع الآخرين كل مقومات صناعة الإنسان (العقل، القلب، الروح، النفس، الجسم) إلا أنهم قرروا أن يكون لوجودهم معنى، وأن يكونوا في الناس شامة. وما تميزهم وانفرادهم عن العاديين إلا بتشبثهم بالثلاثية السحرية التي صنعت من كل واحد منهم النموذج المتميز في مجتمعهم، ثلاثية متسلسلة ومتكاملة؛ تنطلق من وجود إرادة قوية في البدء، تعين الفرد على تصور "الفكرة"، ثم رؤية الهدف المستقبلية المسطرة قبل البدء.

ومعرفة الفرد نقطة قوته وتحديد فكرته واتباع شغفه يجد نفسه في بداية الطريق المؤدي إلى مراقبي التميز. ويتكون الشغف لدى الإنسان بالاستجابة للنداء الداخلي للفرد، ولا يمكن له أن يتشكل ما لم يحدد الفرد فكرته التي يؤمن بها ويستهدفها.

وليس من شك في أن الشغف (أو الولع) هو أغنى ينبوع من ينابيع الطاقة النفسية، فمن أولع بالأدب أو العلم أو الفلسفة أو الاختراع... كان حريا به أن يجد الطاقة الدافعة العظمى لبلوغ ما يصبو إليه... ولا ينبع الولع في الإنسان إلا بعد أن يُحدّد أهدافه لنفسه ويعرف ماذا يريد².

ألفَ الأمريكي "إريك رايز Eric Ries" سنة 2011 كتابا بعنوان "Lean Startup"، وعنوانه هذا ترجمه إلى تقنية تقوم على كيفية تحويل فكرة إلى أرض الواقع بطريقة سهلة، وبجهد أقل.

ترتكز هذه التقنية حول الانطلاق من فكرة، في أي مجال يرغب الفرد أن يتميز فيه، وذلك بامتلاكه للفكرة في البداية واحتضانها —بعد الإيمان بها وبنجاحها—، ثم استهدافها والعمل من

¹ - مقال "من هدي النبي صلى الله عليه وسلم في صناعة المبدعين واكتشاف المتميزين"، مرجع سابق، ص: 110.

² - أسرار الشخصية المؤثرة، ص: 17. بتصرف

أجلها.

ويرى إريك رايز أن هناك ثلاث ركائز تتركز عليها أية فكرة¹:

- الرؤية Vision: وهي سبب وأساس وجود الفكرة، أو هي صورة الهدف النهائي المراد تحقيقه.
- الاستراتيجية Strategy: وتتجلى في الأساليب والأدوات المستخدمة لتحقيق الهدف (الرؤية).
- المنفعة Value: وهي النتيجة النهائية التي تتحصل من الرؤية ومن اتباع الاستراتيجية.

إن أساس هذه التقنية (أي الانطلاق من فكرة) نجده متجليا بشكل واضح في سيرة الأشخاص الذين تركوا بصماتهم في سجل تراثنا الإسلامي، ولو عدنا إلى تاريخ أولئك المتميزين الذين سطع نجمهم في الآفاق سنجد أنهم انطلقوا أول ما انطلقوا من فكرة.

الفرع الثاني: مرحلة "الاختمار والتخطيط".

ونقصد بالاختمار هنا اختمار الفكرة واستحضار الخبرات الفردية، والقدرات العقلية والجسمية، وتوظيفها من أجل العمل الجاد لتحقيق الهدف.

وأول ما ينبغي طرحه في هذه المرحلة من أسئلة: ماذا أملك؟ وماذا ينقصني؟

والتساؤل عن ما يملكه الفرد لإنجاز وإخراج فكرته، وبلوغ هدفه وتحقيقه رهين بمدى تفعيل استحضار القوى الكامنة في النفس البشرية، أي "أننا جميعا نملك تلك القوى، ولكن بدرجات متفاوتة، فهي ليست من المواهب الخاصة، على أن ظهور بعض القوى لدى بعض الناس دون سواهم من الأمور التي تتوقف على انتباه الإنسان لما يملكه من المواهب والقدرات أولا، ثم العمل الدائم على تنمية هذه المواهب والقدرات ثانيا، لأن إهمالها يؤدي إلى خفوتها وضمورها، فتظل كامنة

¹ - The lean startup, Eric ries, Grown Buisness, NewYork, 2011, p: 33.

في النفس غير محسوسة لكنها أبدا لا تفتنى ولا تتلاشى تماما، ما دام الإنسان على قيد الحياة"¹.

ومادامت هذه القوى كامنة في النفس البشرية وجب على الساعي للتميز ترويضها وإعادة استعمالها وتوظيفها لبلوغ مناله، ولا تُفَعَّل هذه القوى طوعا من تلقاء نفسها، بل للجانب الروحي وتعزيزه لدى الإنسان دور كبير في تفعيلها وفعاليتها، إذ الإيمان بالله والتعلق به يجلو البصيرة، ويقوي الثقة بالنفس، ويجفزها على العمل والبذل، كما يحميها من براثن اليأس والتقهقر.

أما السؤال الثاني "ماذا ينقصني؟" فيقتضي الوقوف عند مواطن النقص والضعف، أي تشخيص المتطلبات التي يحتاجها الفرد في مشروع هدفه.

أما التخطيط فمن الأهمية بمكان لكل راغب في تحقيق أهدافه كيفما كانت، وضمن أي مجال من مجالات صناعة الأهداف.

فالقائد المتميز هو الذي يعد استراتيجية محكمة، وتصور كامل لبلوغ هدفه على المدى البعيد، مستحضرا كل المقومات والوسائل التي سيحتاجها، وموظفا للأدوات والتقنيات المختلفة لبلوغ المراد وتحقيق المبتغى.

الفرع الثالث: مرحلة "الإشراق والتحقق".

يمكننا أن نطلق على هذه المرحلة "شرارة التميز Excellence flash" أو كما يسميها "إريك رايز" بمرحلة المنفعة²، وهي المرحلة التي تشهد الإلحاح التميزي، وفيها تولد الفكرة بعد احتضانها واختمارها.

إن إشراق التميز في هذه المرحلة لا يعني الاكتفاء بالتصفيق للنتيجة المحققة، والانصياع لحدث

¹ - أسرار الشخصية المؤثرة، ص: 19.

² - The lean startup, p: 89.

ولادة الفكرة بأيادي وقوى مكبلة، مستسلمة لكل أنواع البذل مجدداً، بل تعد المرحلة المهمة والمحتاجة لتفعيل "إرادة الاستمرار" وتقبل النقد وتطبيق التقييم الداخلي والخارجي.

فكما نحتاجنا قوة الإرادة في البداية بعد بدء تصور الرؤية، تحضر بقوة في مرحلة الإشراق لتعين المتميز على استمراريته فوق سكة التميز، وعدم التقهقر والتراجع والاستسلام لليأس والعجز المكبلين.

وكثيراً ما يدعونا ديننا الحنيف في وحيه المسطور إلى تطبيق مبدأ المداومة والاستمرارية في العمل الجاد.

بَوَّبَ الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه باباً في فضيلة العمل الدائم، "عن عقلمة قال: سألت أم المؤمنين عائشة، قال، قلت: يا أم المؤمنين، كيف كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هل كان يخلص شيئاً من الأيام، قالت: لا، كان عمله ديمة..."¹ أي يدوم عليه ولا يقطعه¹.

إن الدوام على كل ما هو خير والاستمرار عليه من أحب الأعمال إلى الله، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل".

فقد كان عليه السلام يث روح الإرادة للبدء في المبادرات، وفي الاستمرار والثبات على طريق الاجتهاد والعمل، حتى لا يترك للكسل واليأس باباً إلا ويوصده.

ونقصد بـ"التحقق" في هذه المرحلة: التيقن من مدى صحة الفكرة التي تمت بلورتها في المراحل السابقة. ويتم التحقق عن طريق أسلوبين: "أسلوب داخلي؛ أي داخل عقل الشخص المتميز،

¹ - صحيح مسلم بتعليق فؤاد عبد الباقي، كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، ح: 541/1، 783.

وأسلوب خارجي بين التميز وباقي المميزين الذي سبقوه، من أقران وزملاء في المجال وخبراء...¹.
ففي الأسلوب الداخلي يوجه المميز سهام النقد -البناء- لفكرته، فيراجع وينتقد، محاولة منه الوصول إلى الصورة المشرقة المرجوة.

وفي الأسلوب الخارجي يستعين بأقرانه في الفكرة، أي بالخبراء والقدرات في مجاله، قال تعالى:
(بَسَّطْ بِهِ خَيْبَرًا)²، وقال: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)³.

فمن خلال الآيتين يتضح لنا ضرورة الرجوع إلى القدرات، فكل مجال له خبير وقادة تعين على التميز فيه، ومن أراد النجاح في الحياة عليه أن يستشير أولي الخبرة، فالناجحون في الحياة يستشيرون الله ويستشيرون أولي الخبرة، في كل حرفة، وكل نشاط وكل قطاع⁴.

¹ - طريقك إلى التميز والنجاح: التفكير الإبتكاري والإبداعي، مدحت أبو النصر (المجموعة العربية للتدريب والنشر، القاهرة- ط2/2009م)، ص: 35. بتصرف

² - سورة الفرقان: جزء من الآية 59.

³ - سورة آل عمران: جزء من الآية 159.

⁴ - موسوعة النابلسي الالكترونية، قسم التربية الإسلامية/ علم القلوب/ الدرس: طلب العلم2، محمد راتب النابلسي، بتاريخ: 1999/04/05م، (الموقع الإلكتروني: www.nabulsi.com)

المبحث الثاني: تنمية المهارات: "المصطلح والأقسام"

لا يزال علماء التنمية الذاتية يؤكدون في أبحاثهم على ضرورة تنمية مهارات الحياة لدى الفرد، مبرزين أهميتها الكبيرة في صناعة الشخصية الإنسانية أولاً، ثم دورها الفعال في الاندماج المثمر مع المجتمع من جهة ثانية. وحديثنا عن صناعة التميز دون الوقوف عند مهارات الحياة وبيان أهميتها هو حديث مبتور وجاف؛ ذلك بأنه يفتقر لآليات وأدوات صناعة التميز.

إن تخصيصنا لمبحث خاص للحديث عن مهارات الحياة ليؤكد على ضرورة امتلاك الفرد للأدوات والوسائل التي تمكنه من ولوج باب التميز، إذ من يمتلك مزيداً من مهارات الحياة يقبل ذاته أولاً، ويحدد أهدافه وغاياته، كما ينمي معارفه وخبراته ثم يحل مشكلاته ويواجه تحدياته.

وسنقتصر في هذا المبحث على إيراد تعريفات مقتضبة لمفاهيم هذه المهارات وبيان أقسامها، كما وضعها لها علماء التربية وتنمية الذات، على أن نؤجل عرض ملامح تنمية هذه المهارات داخل السيرة النبوية إلى الباب الأخير من هذا البحث، والذي جعلناه إطاراً تطبيقياً لكل ما مر معنا في الإطار النظري.

وقبل التفصيل في أنواع هذه المهارات نصدر هذا المبحث باستجلاء ماهية مصطلح "تنمية المهارات" أولاً، على أن نخصص المطلب الثاني منه للتفصيل في أقسام المهارات وأنواعها.

المطلب الأول: "تنمية المهارات الحياتية": التأصيل ودلالات الإطلاق

لكي نقف عند حقيقة المهارات التي نقصدها من وراء المصطلح سنتناول اشتقاق التركيب "تنمية المهارات الحياتية" في لغة العرب، كما سنعرض لبعض التعريفات التي وضعها المختصون بمجال تنمية الذات وتطويرها، وأخيرا سنحاول التأصيل للمصطلح من خلال الوحي.

وفي الفروع الآتية بيان ذلك وتوضيحه.

الفرع الأول: أصل مصطلح "تنمية المهارات" في لغة العرب

العنصر الأول: حول مفهوم التنمية

بالعودة إلى معاجم اللغة العربية نجد أن لفظة "تنمية" هي مصدر للفعل "نمى".

ونمى ينمي نميا ونماء: إذا زاد وكثر، والنماء: الزيادة.

وأنميت الشيء ونميتته: جعلته ناميا.¹

وفي الحديث: عن أم كلثوم بنت عقبة - وكانت من المهاجرات الأول - قالت: سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول: " ليس الكذاب من أصلح بين الناس فقال خيرا أو نمى خيرا".²

فالنماء هنا زيادة في الخير قصد الإصلاح، يقال: نميت الحديث إذا رفع به للخير... يعني لا إثم

عليه في الكذب بقصد الإصلاح بينهما (فقال خيرا) يعني كلام خيرا أو قول خيرا أي لكل من

المتخاصمين ما يفيد النصيحة المقتضية إلى الخير، أو يقول كلام خيرا الذي ربما سمعه منه ويدع شره

عنه (أو نمى خيرا) أي بلغه لهما ما لم يسمعه منهما من الخير.³ ويذكر هذا قول الأصمعي: يقال

¹ - لسان العرب، فصل النون، 341/15.

² - مسند أحمد، مسند القبائل، حديث أم كلثوم بنت عقبة أم حميد بن عبد الرحمن، 243/45، ح: 27273.

³ - عون المعبود، 179/13.

نميت حديث فلان إلى فلان أُنميه نميا إذا بلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير¹.

وتدل مشتقات مفهوم التنمية على تكثير الشيء، كقول العرب: " نميت النار تنمية إذا ألقيت عليها حطباً وذكيتها به. ونميت النار: رفعتها وأشبعها وقودها"².

وقد ينصرف معنى التنمية إلى التزكية والرفعة. ألا ترى إلى قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)³. قال أبو حبيب: التزكية؛

التنمية، التطهر، الرفع.⁴

فمن خلال هذه الجولة بين مشتقات عبارة "التنمية" نستنتج أن معاني المفهوم لا تخرج عن: الزيادة، الرفع، الإكثار من الخير... وبربطنا بين هذه الدلالات وبين "المهارات" الذي نشده نلفي أن ثمة علاقة وطيدة بين اشتقاق الجذر اللغوي وبين المصطلح المتداول اليوم.

وعلى هذا الأساس يصير مصطلح "تنمية المهارات" في اللغة مبنياً على التكثير من امتلاك

"المهارات" وطلب الزيادة في تحصيلها.

فما دلالات اشتقاقات مفهوم "المهارات" في لغة العرب؟

العنصر الثاني: حول مفهوم المهارات

أوردت المعاجم العربية الفعل «مَهَرَ» مرة متعدياً بنفسه، ومرة بحرف الجرّ «في»، وتارة بـ «به»: «

¹ - لسان العرب، فصل النون، 341/15.

² - المرجع نفسه، 342/15.

³ - سورة النساء: الآية 48.

⁴ - القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، سعدي أبو حبيب، (دار الفكر - دمشق، ط2 - 1988م)، ص: 159.

يقال: حَذَقَ الصبي القرآنَ والعملَ إذا مَهَّرَ فيه¹.

ويطلق لفظ الماهر على: الحاذق بِكُلِّ عمل، وَالْجَمْعُ مَهْرَةٌ، وَحِجَالُ مَهَرِ الشَّيْءِ، وَفِيهِ، وَبِهِ، يَمَهِّرُ مَهْرًا وَمُهْرًا، وَمَهَارَةً، وَمِهَارَةً².

وماهر في الصناعة وتمهّر فيها ومهرها ومهر بها، وهو ماهر بيّن المهارة، وخطيب ماهر، وسابح ماهر، وقوم مهرة³.

وبهذا توظف اشتقاق الفعل [مهر] للدلالة على:

1- الحذق في الشيء.

2- العمل على أكمل وجه.

3- البراعة في صناعة.

ويربط هذه الدلالات مع المعنى الذي نقصده من توظيف المفهوم في البحث يمكننا القول أن:

المهارات تدل على امتلاك أدوات البراعة في صناعة ما، والحذق في مختلف مجالات الحياة.

الفرع الثاني: توظيف المصطلح عند المتخصصين

تختلف التعريفات المنتشرة لمصطلح المهارات باختلاف المجال المراد دراسة المهارات داخله؛

فالتربوي المشتغل داخل المجال الديدداكتيكي مثلاً يقصد بها تلك الملكة التي يُكونها المتعلم خلال سنوات، والتي تمكنه من القراءة والاستماع والتحليل ... كما نجد أن المدرب الرياضي يتحدث عن المهارات المكتسبة ويقصد بها الملكة والتقنيات الحركية للمتدرب على الجري أو الكرة أو ألعاب كمال

¹ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (حذق)، 4/1456.

² - المحكم والمحيط الأعظم، (م ه ر)، 4/316.

³ - أساس البلاغة، (م ه ر)، 2/231.

الأجسام... إلخ

فمصطلح المهارات إذن مصطلح فضفاض يتم تحديده من خلال المجال الذي يحتضنه.

وما دام الأمر يتعلق بصناعة الإنسان ثم بصناعة التميز فإن المعنى الذي أقصده من هذا الإطلاق

داخل صفحات البحث هو: الحديث عن المهارات الحياتية؛ أي امتلاك الفرد المملكات المعينة على

صناعة شخصيته وتنميتها، والاستمرارية على تطبيقها، وذلك لتهيئته لمقام صناعة التميز.

ويمكن تعريف "المهارات الحياتية" وفقاً لمنظمة الصحة العالمية بـ:

"القدرة النفسية لسلوك إيجابي تكفي يمكن الشخص من التعامل بفعالية ، مع متطلبات

وتحديات الحياة اليومية. وبشكل أكثر تحديداً، المهارات الحياتية هي مجموعة من الكفاءات النفسية

الاجتماعية ومهارات التعامل مع الآخرين التي تساعد الناس على اتخاذ قرارات مستنيرة (مبنية على

معلومات)... والتواصل بشكل فعال، وبناء علاقات سليمة، والتعاطف مع الآخرين، وإدارة حياتهم

والتأقلم بطريقة صحية وبناءة".¹

ويطلق علماء التربية هذا التركيب (المهارات الحياتية) ويقصدون به: تحويل طاقات الأفراد من

طاقات خاملة فاسدة إلى طاقات صالحة، وتربيتهم وتنشئتهم على ذلك بحيث تتكون لديهم ملكة

يستطيعون من خلالها التمييز بين المضار والمنافع، والتميز على أقرانهم بعلامات فارقة في الدين

والدنيا، مع وضع آليات مادية ومعنوية لتنمية مهاراتهم.²

من خلال التعريفين نستنتج أن المهارات الحياة يتداخل في تكوينها طاقات الأفراد (التفكير

العقلي، الإرادة البشرية...)، وقواعد الاتصال والتواصل مع الآخر، فضلاً عن أعمال القيم التي

يعتقها الفرد وتطبيقها داخل المجتمع قصد الإصلاح والتغيير الإيجابي.

¹ - المهارات الحياتية للشباب "دليل تدريبي"، عصام علي، (مطبعة سيوبرس- 2014م)، ص: 8.

² - مقال "صناعة التميز وتنمية المهارة: الآليات والمحفزات في ضوء السنة النبوية"، مرجع سابق، ص: 262.

وقبل رسم الإستراتيجية التي من خلالها سنؤسس لموضوع المهارات سنحاول التأصيل للمصطلح من خلال آي القرآن وأحاديث السنة الشريفة، حتى نعالج المفهوم معالجة كاملة شاملة.

الفرع الثالث: معاني المهارات في منظومة الوحي

بالعودة إلى صفحات القرآن الكريم نجد أن لفظ "مهارة" صراحة، غير أنه ورد معناه ويقصد به

الحذق.

يقول تعالى عن داود عليه السلام: (أَنْ إِعْمَلْ سَلِيغَتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)¹، يقول الإمام الطاهر بن عاشور: "أي: أشعرناه بتسخير الحديد ليقدّم على

صنعه... وأوحينا إليه: أن اعمل سابغات. والحديد تراب معدني إذا صهر بالنار امتزج بعبه ببعض

ولان وأمكن تطريقه وتشكيله فإذا برد تصلب .. والسرد صنع درع الحديد، أي تركيب حلقها

ومساميرها التي تشد شقق الدرع بعضها ببعض فهي للحديد كالخياطة للثوب، والدرع توصف

بالمسرودة كما توصف بالسابغة"².

فداود عليه السلام أول من عملها حلقة وكانت قبل ذلك صفائح فكانت أثقالا، وهذا فيه ما فيه

من تنمية المهارات، سواء كانت تعليمية، أو صناعية، أو زراعية... إلخ³.

أما في السنة النبوية فورد لفظ [المهارة] جليا في الحديث الشريف "الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام

البررة وزينوا القرآن بأصواتكم"، والماهر الحاذق المراد به هنا جودة التلاوة مع حسن الحفظ⁴.

¹ - سورة سبأ: الآية 11.

² - التحرير والتنوير، 22/156-157.

³ - مقال "صناعة التميز وتنمية المهارة: الآليات والمحفزات في ضوء السنة النبوية"، مرجع سابق، ص: 261.

⁴ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد بدر الدين العيني، (دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت)، 25/192.

من خلال الحديث تتبين لنا العلاقة الوطيدة بين كل من المهارة والحذق، حيث تدل عبارة [الماهر] على [الحاذق] والبارع في قراءته وتجويده وحسن ترتيله. إذ تجويد القرآن وترتيله مهارة تكتسب من خلال القراءة والتلثم والتعلم وما إلى ذلك.

والمهارة بالقرآن: جودة التلاوة له بجودة الحفظ، فلا يتلثم في قراءته، ولا يتغير لسانه بتشكك في حرف أو قصة مختلفة النص، وتكون قراءته سمحة بتيسير الله له كما يسره على الملائكة الكرام البررة، فهو معها في مثل حالها من الحفظ، وتيسير التلاوة، وفي درجة الأجر¹.

إن المعنى المستخلص من خلال الوحي (قرآناً وسنة) يدل في عمومته على الحذق في عمل ما والبراعة فيه، مادياً كان أو معنوياً.

وبالتالي؛ فإن التركيب "تنمية المهارات" في الاصطلاح يطلق على: التنمية التي تتوفر لها مقومات ناجحة ثابتة تكفل لها الاستمرار، وذلك برفع قدرات أفرادها وتأهيلهم للقيام بمهارات، سواء في ما يخدم صناعة ذواتهم وتعزيز الجانب النفسي والأخلاقي، أو تقوية الترابط المتين بين أفراد المجتمع فيما بينهم من جهة (من احترام وتقدير وحسن معاملة وتربية حسنة)، أو نشر قيم التواصل والتكافل والإصلاح بينهم وبين باقي المجتمعات الأخرى من جهة ثانية.

المطلب الثاني: إستراتيجية تنمية المهارات

قسمتها إلى ثلاثة أقسام: قسم يُعنى بمهارات صناعة الذات وتكوينها من الداخل، وثان يرشد عملية التواصل والاتصال مع الآخر؛ عن طريق التعامل الأمثل والصحي لكلا الطرفين، ثم قسم ثالث ينظم عيش كل من الذات والآخر داخل مجتمع يحترم الآخر ويقبله، وينمي لدى أفرادها جملة من المثل والقيم التي تقوي من لحمته وتبني مجتمعا مثالياً.

¹ - شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف ابن بطلان، (تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، ط2- 1423هـ)، 542/10.

الفرع الأول: مهارات صناعة الذات

إن أول ما يجب الاهتمام به وتنميته في مهارات الحياة هي تلك المهارات التي تصنع شخصية الإنسان وتصلقها؛ أي الصناعة الداخلية للذات، التي من شأنها صياغة أ نموذج إنساني سوي مع نفسه، ومتوافق مع الآخرين، حتى يكون فرداً مؤهلاً لعملية الاندماج المجتمعي.

ومن خلال الاطلاع على مختلف الأعمال المؤلفة في مهارات تنمية الذات نجد أن الكثير منها يركز على المجالات الثلاثة: الذكاء الوجداني، إدارة الوقت، ثم التعلم الذاتي. والتي اخترتها كعناصر لهذا الفرع.

العنصر الأول: تنمية الذكاء الوجداني

عندما نعرف حقيقة الذكاء الوجداني ومجالاته المتنوعة، سوف يتبين لنا أن معظم الناجحين المتميزين في حياتهم العملية أو الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية... لم يكونوا يتمتعون بذكاء عقلي خارق فحسب، بل أكثر من ذلك؛ كانوا يمتازون بخصائص وميزات أخرى؛ كالصبر والإصرار والعزيمة والتفائل والحماس، وغيرها من السمات الوجدانية التي تتدخل في صناعة التميز وإحياء روح الإبداع في الشخصية الإنسانية.

فالمتميزون ليسوا أذكىء معرفياً فقط، بل وُسموا بخصائص أخرى أكثر تأثيراً ودفعاً نحو النجاح، هذه الخصائص هي التي يمثلها الذكاء الوجداني.

فما حقيقة الذكاء الوجداني؟ وما الوسائل والقنوات التي تتم من خلالها تنميته لدى الفرد؟

أولاً: الذكاء الوجداني؛ التعريف وبداية التداول

لم يبدأ مصطلح "الذكاء الوجداني" أو "الذكاء العاطفي" أو "ذكاء المشاعر" في التداول داخل علم النفس إلى نهاية التسعينيات؛ حيث نشر ستانلي غرينسبان Stanley Greenspan سنة

1989 مقالة بعنوان: "Emotional Intelligence" (الذكاء الوجداني)، ثم بعده نشر كل من سالوفي Salovey وماير Mayer مقالهما حول المفهوم نفسه وذلك سنة 1990 بأمریکا¹، وقد كان قبل هذا الوقت يُعرّف ضمناً داخل أنواع أخرى من الذكاء؛ كالذكاء المعرفي والاجتماعي.

جاء في مقالة "سالوفي" و"ماير" أن الذكاء الوجداني هو: "قدرة الفرد على مراقبة ذاته ووعيه بمشاعر الآخرين والتعرف عليهما والتمييز بينهما، وكذلك القدرة على إقامة علاقات اجتماعية سوية مع الآخرين"².

فهي قدرة تكمن في معرفة الفرد لمشاعره وتصنيفها (إيجابية وسلبية)، وكذا في معرفة الوقت المناسب للتعبير عن الصنف الإيجابي منها، ومحاولة كبت السلبي، وذلك لضمان علاقات اجتماعية صحية.

وقد عبّر الباحثون عن هذه القدرة بـ: "أن يعرف الإنسان عواطفه وما يجول في خلده من أحاسيس وأفكار ودوافع، لأن معرفة الإنسان نفسه ما لها وما عليها، ومحاسبتها لتزكو وتطهر من أهم دعائم الذكاء العاطفي، فإن القلب مقلب، والنفس أمارة بالسوء، وتفقد الذات بالوقوف على حقيقتها ثم المحاسبة الصحيحة لها"³.

وعرفه موراي Murray بأنه "القدرة على كبح المشاعر السالبة مثل الغضب والشك في الذات، واستبدالها بأخرى إيجابية مثل الثقة والموافقة"⁴، للتحكم في العلاقات الفردية والأسرية والاجتماعية،

¹ - الذكاء الوجداني وتنميته في مرحلتي الطفولة والمراهقة، رشاد علي عبد العزيز، (عالم الكتب - القاهرة، ط1 - 2012)، ص: 9. بتصرف.

² - أنظر: ذكاء المشاعر، دانيال جولمان، ترجمة: هشام الحناوي (هلا للنشر والتوزيع - القاهرة، ط2 - 2012). ص: 88.

³ - مقال "معالم توظيف الذكاء العاطفي في السنة النبوية وآفاق تحصيله"، عبد القادر عثمان اسماعيل، ضمن أعمال ندوة الحديث الشريف بدبي، (مرجع سابق)، 337/2.

⁴ - الذكاء الوجداني وتنميته في مرحلتي الطفولة والمراهقة، رشاد علي عبد العزيز. ص: 18.

وكذا تحديد المشاعر والعواطف لدى الآخرين، كل ذلك استعدادا للدخول مع الآخرين في علاقات اجتماعية مفيدة وإيجابية ناجحة.

هذا عن التعريفات الحديثة التي أسست للذكاء الوجداني لمفهوم مركب مشتهر، أما الإشارة إليه في ثنايا كتابات علم النفس القديمة فثابت ورودها في المؤلفات الأولى وإن لم تسميه بالمصطلح نفسه المتداول اليوم.

وفي إطار الكتابات النفسية السابقة التي أشارت إلى الذكاء الوجداني، ذكر وليام جيمس عام 1890 أن " الشعور بالذات هو في جوهره خبرة اجتماعية"، والشعور بالذات [هنا] حالة وجدانية تعني: انتباه الفرد إلى مشاعره، وتحليلها وفهمها، وتوظيفها في سلوكه أثناء تفاعله مع الآخرين¹.

لقد أرجع علماء النفس اليوم ظهور الإشارات الدالة على مصطلح الذكاء الوجداني إلى الكتابات القديمة لسقراط، وذلك حين أطلق صيحته المشهورة " Know your self " (اعرف نفسك)، والتي تعتبر حجر الزاوية في الذكاء الوجداني. وتعني: فهم ومعرفة وإدراك الفرد لمشاعره ومغزى حياته... وأن الأشياء المهمة لا ترى بالعين بل بالقلب، كما يوظف علماء النفس مصطلح " Metamood " (ما بعد العاطفة) للدلالة على وعي الشخص بمشاعره، أو الوعي بالذات؛ أي: الانتباه المستمر للحالة الشخصية الداخلية وما تتضمنه من مشاعر².

وكل الإشارات والتعريفات المذكورة تتفق على أن الذكاء الوجداني بشكل عام يعني القيام بخطوات ذكية لإدارة النفس وتقييمها، والحرص على إتقان طرق التأثير الإيجابي على الآخرين، وذلك عن طريق ملاحظة مشاعر الآخر وضبط مشاعر النفس للحصول على نتائج فعالة في عملية التواصل مع الآخر.

1 - المرجع نفسه، ص: 10.

2 - الذكاء الوجداني، صفاء الأعسر وعلاء الدين كفاقي، (دار قباء للطباعة والنشر- القاهرة، 2000). ص: 109.

(بتصرف)

ولييان أهمية الذكاء الوجداني عن غيره من أنواع الذكاءات الأخرى، يصرح Goleman في كتابه الشهير "الذكاء الوجداني" أن الذكاء المعرفي يسهم في أحسن تقدير بنسبة 20% فقط من العوامل التي تحدد النجاح في الحياة، بينما تسهم العوامل الأخرى بنسبة 80%.¹ وكما يقول كاجان ستون ماكاون (مطور منهج علم الذات): "لا يحدث التعلم بمعزل عن مشاعر الفرد، فثقافة المشاعر مهمة للتعلم، تماما كدروس الحساب والقراءة".² وبذلك؛ يصبح الوعي بالذكاء الوجداني وصناعته مدخلا جديدا ومهما من مداخل تنمية الذات وفهمها، وبالتالي تهيئتها وإعدادها للاندماج في المجتمع.

ثانيا: وسائل تنمية الذكاء الوجداني لدى الفرد

إن حديثنا عن تنمية الذكاء الوجداني نقصد به غرسه وتثبيته داخل الذات، والغرس يتم منذ السنوات الأولى في تربية الإنسان، إلى جانب القيم والمثل التي تتولى المؤسسات الاجتماعية مسؤولية ترسيخها وتثبيتها لدى الناشئة.

ويختلف الذكاء الوجداني عن غيره من الذكاءات المتعددة، أولا؛ لكونه أول ما يجب على الطفل الوعي به وتنميته؛ إذ وعيه به وعي بذاته وفهمه لمشاعره وحسن تديرها وتوظيفها بطريقة صحية، فإذا تم تبصير الطفل بوجدانه، وتمت صناعة ذكائه الوجداني منذ السنوات الأولى في تنشئته الاجتماعية، فإنه لا يجد أدنى مشكل في اكتساب باقي الذكاءات الأخرى (كالذكاء المعرفي، والذكاء الاجتماعي...).

وثانيا؛ لأن باقي الذكاءات يمكن تحصيلها في أي سن من سنوات التنشئة الاجتماعية، على العكس بالنسبة للذكاء الوجداني الذي يعتبر المفتاح والسييل لتحصيل مختلف الذكاءات، فالوعي

¹ - Working with Emotional Intelligence, Daniel Goleman; business book summaries service, 2001-2003. P: 3.

² - ذكاء المشاعر، دانيال جولمان. ص: 426.

بالذات وفهمها، وكذا التعرف على مشاعر الآخرين والتعامل معها بإيجابية... يعد القناة الأولى للاندماج الاجتماعي والتوافق بين الذات والآخر، وبالتالي تحصيل مختلف المعارف والخبرات والمهارات الاجتماعية. وإذا لم تتم صناعة الذكاء الوجداني منذ نعومة مشاعر الطفل، فإنه تتعذر عليه نميته بعد طفولته أو بعد مراهقته، ويجد نفسه وقتها عُرضة لمختلف الأمراض النفسية القاتلة؛ كالإحباط، والاكتئاب، وضعف الثقة بالذات، والإحساس بالقهر الاجتماعي، والغربة بين الآخرين، والميل نحو العزلة والوحدة...

فإذا تبث هذا وقرّ؛ فإن أولى المؤسسات الاجتماعية المسؤولة عن صناعة الذكاء الوجداني لدى الفرد تتمثل في الأسرة، ثم بعدها المدرسة. وسنرى كيف تعين تلك اللبنة الأولى في صرح المجتمع (الأسرة) على تثبيت الذكاء الوجداني، وأيضاً كيف تنعكس رداءة أدائها والعلاقة السلبية بين قطبيها (الوالدين) على وجدان الطفل.

1- التربية الوالدية ودورها في تثبيت الذكاء الوجداني عند الطفل.

لا يمكننا الحديث عن تنمية الذكاء الوجداني عند الطفل ما لم يتم تثبيته في كيانه أولاً وزرعه داخل شخصيته، إذ هذا النوع من الذكاء ليس فطرياً، وإنما يكتسبه الطفل من خلال التربية الوالدية الفعالة والناجحة، وذلك منذ سنواته الأولى.

ولبيان دور التربية الوالدية في ترسيخ الذكاء الوجداني لدى الطفل، نورد -أولاً- المقصود بهذا المفهوم.

يقصد بالتربية الوالدية: مجموع العمليات والممارسات الشعورية واللاشعورية الصادرة من الوالدين، والتي تسهم في تنشئة الأبناء والتأثير في بناء شخصيتهم من مختلف أبعادها؛ عقيدياً وفكرياً وجسدياً ووجدانياً وخلقياً، وفق ما جاء به الوحي، مما يساعدهم على التوافق والتكيف مع متطلبات واقعهم

الاجتماعى... لمواجهة المشكالات والتعامل معها، دون الاعتماد على الآخرين¹.

فهذه العمليات المباشرة والتفاعلية بين الوالدين وبين الطفل هي التي المحددة لطبيعة السلوكات والمواقف التي تصدر عن الطفل في مراحل تنشئته الأولى، ومن خلال السهر على توجيهه وتأطيره يقوم الوالدين بغرس جملة من القيم والمعارف والمهارات بشخصية الطفل، سواء كان الأمر بصيغة مباشرة متعمدة، أو بطريقة غير مباشرة.

إن فاعلية كل الأدوار في تربية الطفل والناشئة في المدرسة والإعلام والمجتمع إنما يستند إلى موقف الوالدين، فهما اللذان يمنحان كل القوى والمؤسسات الاجتماعية إمكانية الوصول إلى الطفل، والتأثير فيه؛ بما يوفران لتلك القوى من المشروعية اللازمة في ضمير الطفل، إيجابا وسلبا من خلال القيام بالدور المنوط بهم في الإشراف التربوي الفعال، وتهيئة أبنائهم للوجهة التي يرغبونها، أو بالسلبية والتخلي عن أدوارهم التربوية، وتسليم مسؤولية أبنائهم لهذه المؤسسات دون حسيب ولا رقيب، لتوجههم وتصوغهم وفقا للمخططات المرسومة لها وما تسهم به في كثير من حالات الأمراض الاجتماعية، وتعزيز التبعية الفكرية والاستلاب الثقافى والوجدانى².

فمؤسسة الأسرة هي المسؤولة على نوعية التأثير الموجه نحو الطفل والمسلط على بنائه النفسى والوجدانى. ولا يمكن لهذا التأثير أن يؤتى أكله ما لم تتضافر جهود الوالدين معا، وأن تتحقق بينهما السمات الوجدانية المثلى، إذ فاقد الشيء لا يعطيه!، ومن أجل تحقيق هذا المبتغى؛ لا بد أن يمثلها موضع القدوة - في تعاملهما مع بعضهما - أمام أنظار الطفل، "فالرابطة الزوجية يجب أن تتحقق فيها المودة والرحمة، وما لم تتوفر فيها هاتان الصفتان فلا يمكن أن يتوفر جو الحب والمودة والألفة والإحساس بالأمن... لدى الطفل داخل الأسرة، وبدون هذه المشاعر داخل الأسرة لا يمكن أن تقوم

¹ - التربية الوالدية: الرؤية الإسلامية بتنظيماتها القيمية، المصطفى حديدة، (مطابع الرباط نت، ط1 - 2013م)، ص: 16.

² - أزمة الإرادة والوجدان المسلم: البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة، عبد الحميد أبو سليمان، (دار الفكر - دمشق،

ط1 - 2004)، ص: 250. بتصريف

تربية أسرية إيجابية، توفر الثقة في نفس الطفل، والثقة في المجتمع، وتنمي في وجدانه الشجاعة الأدبية، وروح المبادرة والإبداع¹.

إن السبيل الموصل لبناء وجدان الطفل وتنمية ذكائه لا يتأتى إلا باستخدام طاقة الحب والحنان، وإبداء المشاعر الإيجابية بين أفراد الأسرة. فنشر الحب بين الوالدين في حضرة الطفل يولد في كيانه الشعور نفسه، ثم التعلق بهما، وبالتالي السير على توجيههما، والامتثال لأوامرهما التربوية.

ولضمان فعالية عمليات التربية الوالدية الفعالة في الوصول إلى الأهداف المرجوة، والمتمثلة في صناعة شخصية سوية وقوية (روحيا، ونفسيا، وعقليا، ثم جسميا)، اشترط الباحثون في علم النفس التربوي أن يتحقق لدى الوالدين "الوعي بمطالب النمو وآليات إشباع حاجات الطفولة، والدراية بالأساليب السليمة في تربية الطفل، فالجهل بها يوقعهما في كثير من الأخطاء التي تؤثر سلبا على صحة أطفالها النفسية والجسمية والأخلاقية... وأن يكونا - كذلك - على إمام معقول ومقبول بالتربية الإسلامية، لتحقيق بناء سليم وملائم لشخصية الأبناء"².

والمتتبع لفقرات هذه المقالة سيجد أن تبني الوالدان للمنهج النبوي واعتماده في تربية النشء بات أمرا ضروريا ومحتما اليوم، سيما بعد إخفاق باقي المؤسسات الاجتماعية في القيام بهذه المهمة، لما أصابها من اختلالات في منظومتها.

2- دور المدرسة في تنمية ذكاء الطفل الوجداني.

بعد صناعة وجدان الطفل من طرف الأسرة، وبعد تطعيمه بالقيم ومختلف مهارات الحياة، يأتي دور المدرسة في تنمية تلك المهارات وترسيخ باقي القيم في وجدان المتعلم. وفي تقسيم علماء النفس التربوي لمراحل النمو عند الطفل؛ يعتبر معظمهم تردد الطفل على المدرسة الخطوة الثانية من خطوات

¹ - المرجع نفسه، ص: 257.

² - التربية الوالدية: الرؤية الإسلامية بتنظيماتها القيمية، المصطفى حديفة، ص: 17.

التنشئة الاجتماعية، فإذا " بلغ الطفل ست سنوات، وهُدّب، وأرسل إلى المدرسة للتعليم، ورُبّي تربية كاملة؛ جسمية وعقلية وخلقية وروحية واجتماعية وعملية... " ¹ فإنه يُعدّ حينها للحياة العملية، وللاندماج الاجتماعي الذي سيفرض عليه.

ولعل الواقع اليوم يترجم قصور المؤسسات التعليمية في القيام بهذا الدور، ويعود ذلك لعدة اختلالات أصابت المنظومة التعليمية؛ منها ما يتعلق بطبيعة المناهج والوسائل التعليمية، ومنها ما يتعلق بالموارد البشرية والأطر المعول عليها في القيام بعملية التربية والتكوين.

فمن جهة، يعتبر المعلم بالنسبة للمتعلّم بمثابة الوالد بالنسبة لطفله؛ فهذا الأخير يصنع من معلمه قدوة يقتدي بها، لذلك؛ فإن دور الدول في تكوين وتأهيل أطر ذات كفاءة عالية (سواء في مجال المعارف أو في أخلاقيات المهنة) مهم جدا لتحصيل المخرجات التي تتوافق وما خُطّط له قبلا.

إن تربية التلاميذ على القيم المجتمعية الإيجابية؛ كالصدق بينهم، أو مع معلمهم، ونشر قيم الحب في مجتمع القسم، والجرأة في التعبير عن مشاعرهم السلبية والإيجابية أمام زملائهم، وكذا احترام المعلم لمشاعر المتعلمين والاستماع لهمومهم ومشاكلهم... كل ذلك يسهم بشكل قوي في تنمية ذكائهم الوجداني، ويؤهلهم للتعامل مع مشكلات الحياة التي يواجهونها في مجتمعهم، ويقيهم من التخندق النفسي، والعزلة المقيتة، والإحساس بالفشل والإهمال.

ومن جهة أخرى؛ تتدخل وبشكل كبير طبيعة المناهج والمقررات التعليمية في صناعة وجدان المتعلم، كما من شأنها أن تدمره إذا ما كانت في مضامينها تدعو إلى قيم سلبية قاتلة؛ كنشر العنف والكرهية وإقصاء الآخر...

إنه ينبغي استحضار الجانب الوجداني في عمليتي التربية والتعليم إلى جانب الجانب المعرفي، بل "يجب أن يكون الوجداني النفسي هو الأساس الذي يبنى عليه نوع المعرفي وأسلوب تعليمه... ولذلك

¹ - التربية الوالدية: الرؤية الإسلامية بتنظيماتها القيمية، ص: 36.

فإن كل ما يُقدّم إلى الطفل من علوم ومعارف يجب ملاحظة آثاره على تكوين العقلية والبناء النفسي والوجداني للطفل، وفي كل مرحلة من مراحل الطفولة¹، وكما تحرص المنظومة التعليمية على مخاطبة عقل المتعلم عن طريق تلقينه مختلف المعارف، يجب أن تحرص أيضا على مخاطبة وجدانه باعتباره وعاء الشعور الإنساني ومجمع غرائزه ونزعاته وحوافز إرادته.

والملاحظ اليوم في الدراسات التربوية والبيداغوجيات الحديثة أنها أولت اهتماما بالغا لتدريس علم المشاعر، واعتماده داخل الفصل. فقد أسس مطور منهج علم الذات "كاجان ستون ماكاون" مدرسة خاصة لما يعتبره منهجا تربويا نموذجيا لذكاء المشاعر، بحيث يتطلب من المدرسين والطلاب أن يركزوا على البناء الانفعالي لحياة الطفل، وهو الموضوع الذي تتجاهله عن قصد أو دون قصد مختلف الفصول الدراسية الأخرى، والاستراتيجية المستخدمة في اتخاذ التوتر والصدمات في حياة الطفل كموضوع للدرس، فيتحدث المدرسون عن أمور حقيقية كالتجريح الناتج عن الحجر أو الحسد أو خلافات اللعب التي قد تتحول إلى شجارات².

يقول أحمد غلوش: "إن علينا أن نلتقي بالإنسان في قواه المختلفة، وأن نتعامل معها جميعا، نتعامل مع العقل بما له من قوة الإدراك والتمييز، ونتعامل مع الوجدان باعتباره وعاء الأحاسيس والمشاعر، التي تنشأ عن التأثير بما يسر ويؤلم... ذلك أن الصفات النفسية للإنسان مرتبط ببعضها ببعض، ويؤثر بعضها في بعض"³.

لعل المطلع على هذا التقدم الذي حققته المدارس الغربية؛ والمتمثل في الاهتمام بوجدان الطفل في عملية التربية والتعليم؛ ينبهر من هذا التميز، ويعتبره سبقا حضاريا يحسب لهم، جاهلا أن المدرسة النبوية كانت سباقة إلى الاهتمام بذلك منذ أزيد من أربعة عشر قرنا، وسنعرض لملامح تنمية الذكاء

1 - أزمة الإرادة والوجدان المسلم: البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة، عبد الحميد أبو سليمان، ص: 267.

2 - ذكاء المشاعر، دانيال جولمان. ص: 425-426. بتصرف

3 - السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، أحمد غلوش، (مؤسسة الرسالة، ط1- 2003)، ص: 567.

الوجداني من خلال السيرة النبوية في موضعه إن شاء الله.

العنصر الثاني: مهارة إدارة الوقت

تعد إدارة الوقت من أولى مهارات الحياة التي بتنميتها تُمكن الفرد من اكتساب وتنمية باقي المهارات التي تلزمه في حياته، وذلك؛ بصفته كائناً مستخلفاً في الأرض، ومسؤولاً عن تحقيق أهداف محددة، وبلوغ غايات مُسطرة مرجوة، في عُمرٍ مُقدّرٍ ومحدود.

وقد اجتهد العلم الحديث من خلال الكتابات المعاصرة في علم النفس، ومن خلال دورات التنمية الذاتية في الدعوة إلى ضرورة إدارة الوقت، والاستفادة من هذه المهارة التي تعتبر وعاء كل المهارات؛ من خلاله تتم تنميتها وصناعتها، ولا تتأتى هذه التنمية وتلك الصناعة إلا بإدارة محكمة لهذه المهارة، واستشعار الفرد لقيمتها وأهميتها.

فالوقت هو حياة الإنسان وعمره الثمين، وهو رأس ماله وأعلى ما يملكه، بل هو المال نفسه؛ فقد ربطه العالم الأمريكي " بنجامين فرانكلين " بالجانب الاقتصادي، وجعله مقابلاً لمفهوم المال؛ وذلك من خلال قوله الشهيرة: "Time is money" (الوقت هو المال)، والتي استخدمها في مقاله "نصيحة إلى تاجر شاب" سنة 1748م¹، مبيناً أن أساس تنمية المال مرتبط بتنمية الوقت وفعالية إدارته.

لقد نبه علماء التربية وعلماء النفس ومن قبلهم سيد الخلق صلى الله عليه وسلم على أهمية الوقت، وبينوا ما لإدارة هذا المورد والحفاظ عليه من دور كبير في تحقيق الهدف، وبلوغ ناصية الحلم، ودعوا إلى حسن تدبير الإنسان لهذا المكون الذي بحسن إدارته يمكن للفرد أن يصنع ذاته ويحقق أهدافه.

¹ - What is the idea behind the quote "time is money"?, Robert Charles Lee, Mar 18, 2018. Quora web site:
(<https://www.quora.com/What-is-the-idea-behind-the-quote-time-is-money>).

وحفاظا على هذا المورد المهم في حياة الإنسان حدّر المهتمون بصناعة الإنسان من الفراغ القاتل، ومن معيقات إدارة الوقت (سراق الوقت)، وحددوا استراتيجيات فعالة وناجحة في الاستفادة من هذه الثروة المحدودة بعمر الإنسان.

يعتبر الوقت المفتاح التي يلج به الإنسان باب التميز، فيبلغ من خلاله هدفه، ويحقق غايته. وقبل بيان ذلك لا بأس أن نشير في البداية إلى مفهوم "إدارة الوقت".

ونقصد بها "التحكم العمدي في ترتيب وتنظيم مرور الأحداث على متصل الزمن"¹، أو هي بمعنى أدق عملية "ترشيد الفعل الإنساني من خلال توجيه طاقة الإنسان للأداء الأمثل في ميدان ما"²، ولبيان كيف تتم عملية الترشيد هذه، نستحضر ما مر معنا في فصل صناعة الإنسان وربطه بمفهوم إدارة الوقت، فنقول:

- توجيه طاقة الفعل: أي استغلال طاقة الإنسان المحركة (الروح)، واشتغال الإرادة، وتوجيه العملية العقلية القلبية نحو الهدف.
- لأداء الفعل: إنجاز المطلوب وتحقيق الهدف بالمبادرة في العمل.
- في ميدان الفعل: الميدان الكفيل بالإنجاز هو الوقت؛ عند استغلاله وحسن توظيفه.

ولو عدنا إلى كتابات علماء التنمية الذاتية وأبحاث صناع مهارات الحياة نجد أن الوقت يستمد أهميته في حياة الأفراد والمجتمعات باعتباره "السبيل الوحيد لبلوغ الأهداف وتحقيق الغايات المرجوة، فهو من الموارد الطبيعية النادرة التي يجب إدارتها بكفاءة وفعالية لتحقيق النجاح الأمثل في إنجاز المهام والأهداف المحددة"³.

¹ - مهارات الحياة وبناء مجتمع المعرفة، يحيى علي زهران، ص: 55.

² - المرجع نفسه، ص: 57.

³ - مهارات إدارة الوقت، أحمد محمد غنيم، (المكتبة العصرية للنشر والتوزيع - مصر، 2009م)، ص: 9.

وإذا أردنا أن نقيس مدى تمكننا وتنميتنا لمهارات إدارة الوقت فلنوجه إلى أنفسنا بعض الأسئلة:

هل نُحَرِّك مهاراتنا في إدارة الوقت ونطوعها لخدمة مجريات حياتنا؟ وما السبيل الصحيح

لاستخدام هذه المهارات قصد ترشيد تعاملنا مع الوقت؟

بعد استجلاء أهمية إدارة الوقت وفعاليتها في تحقيق الأهداف المنشودة، بقي أن نذكر بعض

المهارات التي تمكن من تدبير الوقت، وتحسن من عملية ترشيده في حياة الإنسان.

وهي المهارات والخطوات التي تعين الإنسان على إدارة وقته وترشيد استعماله، وتختلف هذه

المهارات عند المرين وتعدد، ونذكر من أهمها:

أولاً: ترشيد وقت الفراغ

ثانياً: التخطيط والجدولة الزمنية

ثالثاً: الزيارات غير المخطط لها

رابعاً: حسن التعامل مع الهاتف

خامساً: محاربة التسويف

سادساً: ترشيد وقت النوم

إن مفتاح النجاح وصناعة التميز متوقف على المعاملة التدبيرية لوقت الإنسان، والجدولة الزمنية

لساعات يومه، وذلك بالتخطيط المسبق والمنظم لتصرف ساعات اليوم وفق استراتيجية متبعة

وفعالة. وسنبين في الباب الثاني ما لامتلاك مهارات الوقت من انعكاس إيجابي على تحقيق الفرد

لأهدافه ووصوله لمبتغاه.

العنصر الثالث: التعلم الذاتي

إن أول ما يرومه الإنسان في خطواته الأولى نحو التميز انخراطه في عمليات التعلم وتحصيل

المهارات الأساسية الخاصة به، فبعد ترويض الوجدان الإنساني وتحصيل ذكائه، وبعد تدييره لوقته بشكل جيد وفعال يسعى إلى تحريك قوى إدراكه الداخلية وتسخيرها من أجل التعلم الذاتي.

وتعييننا للتعلم الذاتي واختياره عما سواء نابع من قناعتنا أنه من أفضل أساليب التعلم على الإطلاق؛ ذلك أن المتعلم يكون أثناء هذه العملية فعالاً ونشطاً، ويتمكن من إتقان المهارات الأساسية اللازمة لمواصلة تعليم نفسه بنفسه، والاعتماد على ذاته وذكاءه الوجداني، وتطوير مهاراته الخاصة في سبيل تحقيق الهدف من عملية التعلم تلك.

فما المقصود بالتعلم الذاتي؟ وما أهميته في صناعة شخصية الإنسان؟.

أولاً: مفهوم التعلم الذاتي

ورد في السنة النبوية أن العلم يكون بالتعلم، أخرج الطبراني في معجمه الأوسط: "إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، من يتحرى الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه"¹. فتحصيل العلم يكون بالتعلم، كما أن الحلم يكون بالتحلم؛ أي يبعث النفس وتنشيطها، و"من يتحرى الخير يُعطه" أي: ومن يجتهد في تحصيل الخير يعطه الله تعالى إياه. فالتعلم الذاتي هو تعلم بشري يحتاج إلى زمان وتدريب وممارسة ويتقوى الإنسان فيه درجة فدرجة، وتختلف درجته من فرد لآخر؛ بحسب اختلاف الطبائع في الذكاء والبلادة"².

فإذا كان مفهوم "التعلم" يدل على اجتهاد الفرد لتحصيل العلم بمختلف الطرق، فالتعلم الذاتي هو التعلم النابع من داخل الذات لا من خارجها؛ أي تطوير مقومات الذات الداخلية وتدريبها لتحصيل العلم.

¹ - المعجم الأوسط، الطبراني، (تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، د.ت)، باب الألف، باب من اسمه إبراهيم، 118/3، ح: 2663. تعليق المحقق: "لم يرو هذا الحديث عن سفيان إلا محمد بن الحسن".

² - فيض القدير، المناوي، 569/2. بتصرف

وقد تعددت تعريفات التعلم الذاتي بتعدد المدارس التربوية والسيكولوجية، ونشأت تعريفات عديدة لمفهوم التعلم الذاتي، استند كل منها إلى مجموعة من الإجراءات والمقومات ولم يجمع العلماء على تعريف شامل لهذا الاتجاه في التعليم، بمقدار ما وضعت من اجتهادات لتعريفه من قبل الممارسين من الأساتذة والمربين الذين اعتمدوا على خبراتهم وتجاربهم.¹

في محاولة تعريفنا له يمكننا القول أن التعلم الذاتي "عملية يقوم من خلالها الفرد بتحديد ما يحتاج أن يتعلم، وتنظيم وقته وامتلاك مهارات التحصيل والتفكير الناقد"،² فالإنسان قادر على التعلم الذاتي وعلى توظيف وتنمية استعداداته وإمكاناته وقدراته.³

ثانياً: أهمية التعلم الذاتي في التربية والتعليم

على الرغم من إمكانية قيام أي فرد بعملية التعلم الذاتي ومزاولته إياها نجد أن ثمة قصورا كبيرا في الاهتمام به، ذلك أن العملية التعليمية التعلمية بالمؤسسات التعليمية لا تزال مقتصرة على أنماط التعليم القديمة والكلاسيكية، والتي تغيب الاهتمام بالمتعلم، وتنتهج الصيغ التلقينية في التدريس؛ "صحيحٌ أن علم النفس التربوي المعاصر يهتم اهتماماً فائقاً بما يسمى التعلم الذاتي -self-learning، إلا أن هذا المفهوم فيما يبدو لم يحظ بالشروع العام، ربما لأن بعض الممارسات التربوية حتى وقتنا الحاضر لا تزال تعجز عن إنجازها"⁴، هذا؛ وفي ظل نتائج الأبحاث والتجارب التي أبانت عن فعالية التعلم الذاتي وامتيازاته الوافرة عن غيره من أنماط التعليم والتعلم لا يزال تطبيقه بعيداً عن مؤسساتنا التربوية اليوم.

1 - الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" - التعلم الذاتي، (الموقع الإلكتروني: <https://ar.wikipedia.org/wiki/>).

2 - مهارات الحياة وبناء مجتمع المعرفة، يحيى علي زهران، ص: 39.

3 - التوجيه والإرشاد النفسي، عبد السلام زهران، (عالم الكتب، ط3- د.ت)، ص: 401.

4 - نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين، آمال صادق وفؤاد أبو حطب، (مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة، ط4- د.ت)، ص: 485.

يعتبر التربويون - بالجامعات الغربية - التعلم الذاتي من الوسائل الناجعة في تطوير أساليب التعلم وتعزيز قدرات المتعلمين واعتمادهم على ذواتهم، فبينوا أن الهدف من التعلم الذاتي هو "تعزيز قدرة الطلاب على أن يصبحوا متعلمين ذاتيين، وأن يزاولوا عملية التعلم في مهنتهم مدى الحياة، مع ضرورة إدراك أن المتعلم مستقل ومسؤول على عملية التعلم في حد ذاتها.¹

لذلك؛ بات التربويون والمهتمين بتعليم التربية الإسلامية اليوم يدعون إلى اعتماد المقاربات الحديثة والفعالة في طرق وأساليب التعليم، وبالأخص اعتماد التعلم الذاتي.

يقول عاطف السيد في هذا الصدد: "يجب أن يهتم معلم التربية الإسلامية في طريقة تدريسه بمبدأ التعلم الذاتي، ويتأتى ذلك بتحريك المتعلم ذاته في نواحي التخطيط والتوجيه والتنفيذ والمتابعة حتى يتكون لدى الفرد اتجاه إيجابي نحو تعليم نفسه على نحو مستمر.² وقد استنبط علماء التربية المسلمون هذه الطريقة وغيرها من خلال المنهج النبوي في التعليم، والذي تعجب به أحداث السيرة النبوية الخالدة.

من خلال ما سبق تبين لنا أن التعلم الذاتي عبارة عن تعلم الفرد مستقلاً بذاته، وبمعزل عن الآخر، من أجل تحصيل علوم يجهلها وخبرات جديدة، يتطلع إلى اكتسابها والتمكن منها.

الفرع الثاني: مهارات التعامل مع الآخر

إذا كانت مهارات صناعة الذات هي اللبنة الأولى التي تقيم صرح الذات، وأن بامتلاكها يمكن للفرد أن يصنع شخصية قوية قادرة على تمثيل الإنسان السوي مع نفسه؛ المتفهم لمشاعره ووجدانه،

¹ - Self-directed learning - a learning issue for students and faculty!, Charlotte Silén and Lars Uhlin, (Teaching in Higher Education: Vol.13, No.4, August 2008, Routledge. 461-475). P: 461.

² - التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها، عاطف السيد، ص: 70.

والعارف بأهدافه وغاياته، فإن مهارات التعامل مع الآخر تعتبر الخطوة الأولى لتدشين الاندماج الاجتماعي بين الذات والآخر.

بل الغاية الكبرى من صناعة الذات لا تتمثل فحسب في حلول الرضا عند الفرد مع نفسه وشعوره بالمثالية، بل هي ميزان قياس مدى صلاحية الفرد في علاقته مع الآخر، وفي مدى توافقه مع الآخر الذي يحتم عليه المجتمع التفاعل معه والاحتكاك به.

العنصر الأول: قاعدة "الأتيكيت" وآداب التواصل مع الآخر.

أولاً: قاعدة "الأتيكيت".

نظراً لأهمية التعامل مع الآخر داخل عملية الاندماج الاجتماعي وضع علماء التنمية البشرية وعلماء النفس مجموعة من القواعد والآداب التي تقنن هذه العملية، واهتموا بسلوكيات الفرد أثناء تعامله مع الآخر؛ فقعدوا لمسائل كثيرة جعلوا يتمكن منها وامتلاكها من سمات الشخصية الاجتماعية الفعالة التي تراعي وجود الآخر وتقدره وتحترمه.

وقد استعمل المختصون في التواصل ومهارات الاتصال مصطلح "الأتيكيت" للدلالة على قواعد المرور المتعلقة بمهارات التعامل مع الآخرين.

وُعرِّفُ الأتيكيت بـ"القاعدة التي تنص على أن تتعامل مع الآخرين كما تودُّ أن يتعاملوا معك، وما يرتبط بذلك من فعل وردود فعل"¹.

¹ - المهارات الأساسية الخمس للعلاقة مع الآخرين، إيلين نور منسي، ص: 145.

ثانيا: آداب التواصل مع الآخر.

يعتبر موضوع الاتصال من الموضوعات المتداولة من لدن مختلف التخصصات العلمية، فهو مفهوم جوهري في مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية والفنون المختلفة، كل مجال تناوله من خلال زاوية اهتمامه الخاصة.

فما حقيقة هذه العملية الاجتماعية المهمة في حياة الفرد والمجتمع؟

منذ أن وُجد الإنسان على هذه الأرض والاتصال يلعب دورا هاما في حياته. فالإنسان البدائي لم يكن يعرف اللغة ولكنه كان يتصل بغيره عن طريق الأصوات والإشارات والرموز وغير ذلك من أساليب الاتصال. وبمرور الزمن وتقدم الإنسان استطاع أن يُكوّن لنفسه لغة لتكون وسيلة تفاهم واتصال بالآخرين، وعن طريق هذا الاتصال يدرك الإنسان حاجاته ويحصل على مآربه ويعبر عن آلامه وآماله وعواطفه.¹

ولأهمية الاتصال في حياة الكائن الإنساني في علاقته بذاته وعلاقته بالآخرين نورد بعض التعريفات كما عرفه المختصون والمهتمون بمجال التواصل بين الأفراد والجماعات.

حظي مفهوم الاتصال بتعريفات كثيرة، من بينها تعريف يحيى علي زهران: " هي العملية التي يستطيع من خلالها شخصان أو أكثر تبادل الأفكار والحقائق والمشاعر أو الانطباعات بطريقة يتمكن خلالها كل منهم من الفهم المشترك لمعنى ومضمون ومحتوى الرسالة."²

أو بشكل أدق وجامع: "هي عملية اجتماعية في المقام الأول، جوهرها تفاعل بين طرفين يتحدد في ضوء مجموعة من المتغيرات، أهمها؛ تحديد الهدف من الاتصال، نوعيته، وسائله، العلاقة بين أطرافه. ويضمن الاتصال عناصر رئيسية هي: المرسل، الرسالة، الوسيلة، المستقبل، ثم التغذية

¹ - مهارات الاتصال والتفاعل والعلاقات الإنسانية، أماني عبد الفتاح، (مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة، ط1 - 2012)، ص: 19.

² - مهارات الحياة وبناء مجتمع المعرفة، يحيى علي زهران، ص: 50.

الراجعة، ويستهدف الاتصال القدرة على التأثير من خلال نقل المعلومات والمهارات والاتجاهات التبادل الفكري والوجداني بين طرفي الاتصال".¹

ويطلق لفظ التواصل ويعنى به الاختيار والإبلاغ من مرسل لِمُسْتَقْبِل، وذلك بوسائل متعددة، منها ما يعتمد اللغة المنطوقة، ومنها ما يعتمد لغة الإشارات والإيماءات وملامح الوجه، ومنها ما يعتمد الكلمة المكتوبة والرسم والصورة والموسيقى والخرائط والمطويات واللافتات... لذا بات لزاما على الراغب في التواصل الفعال مع غيره سلوك أفضل السبل وأنجعها لنقل رسالته بشكل يتيح لمستقبلها استيعابها بكل سهولة ويسر لفهم مضمونها وأبعادها ومراميها.²

وثمة مجموعة من القواعد المنظمة لعملية الاتصال، جعلها المختصون في فنون الاتصال والتواصل مع الآخر المعيار الأساسي للدلالة على نموذجية عملية الاتصال بين الأفراد.

ومن قواعد وآداب التواصل مع الآخرين:

1- فن الإصغاء والاستماع

قبل تناول فن الإصغاء بالبيان وجب التفريق أولا بين كل من مفهوم السمع وبين مفهوم الاستماع. وعليه؛ فالسمع مجرد استقبال الأذن لذبذبات صوتية معينة دون إعارتها انتباهها مقصودا، فهو عملية بسيطة تعتمد على فسيولوجية الأذن وقدرتها على التقاط هذه الذبذبات.

أما الاستماع فهو مهارة أعقد من ذلك، إنه أكثر من مجرد السمع؛ أي: إنه عملية يعطى فيها المستمع اهتماما خاصا وانتباها مقصودا لما تلقاه أذنه من أصوات.³

¹ - مهارات الاتصال والتفاعل والعلاقات الإنسانية، أماني عبد الفتاح، ص: 21. بتصرف

² - الأخلاق المحمدية والرؤية الواضحة، محمد الضعان، (مطبعة الخليج العربي - تطوان، ط1- 2015م)، ص: 64.

³ - مهارات الاتصال والتفاعل والعلاقات الإنسانية، أماني عبد الفتاح، ص: 109.

وقد وضع العلماء الاستماع مقابلاً للإصغاء، وعرفوا هذا الأخير في مجال التواصل مع الآخرين بقولهم: "الإصغاء هو مهارة لازمة لتوثيق العلاقات الإنسانية، وهي التركيز الشديد في الإنصات لحديث المتكلم، سواء أكان الحديث شفويًا أو كتابيًا، وفهم معانيه وترجمتها جيدًا قبل إصدار أي حكم، فالإصغاء للشخص هو احترام لكلامه وحرص على عدم ضياع حقوقه".¹

لا يختلف اثنان عن دور الإصغاء في التواصل بين الناس، وكذلك؛ فالإصغاء "له دور فعال في تنمية أواصر المحبة والدفء العاطفي والشعور بالتقدير والاحترام وتحقيق التفاهم المثمر، خاصة في مواقع الخلاف".²

2 - مهارة الإقناع

يُعدُّ الإقناع إحدى مهارات التعامل مع الآخرين، وهو بصورة أساسية القدرة على جذب الناس إلى جانبك، دون استخدام العنف أو التهيب، وتتم عملية إقناع الآخرين بإدخال حججك في ذاتهم، ثم اعتناقها لتصير جزءاً من معتقداتهم.

3 - لغة الجسد والتواصل غير اللفظي

أثناء انخراطنا في عملية التواصل مع الآخر يجب مراعاة اللغة غير المنطوقة، أي: الحركات والوضعيات والإيماءات والتصرفات الجسدية... سواء كانت بإرادة الشخص أو عفوية غير مخطط لها. وقد تبين من خلال الكتابات التي فصلت في هذه المسألة أهمية لغة الجسد، أو ما يطلق عليه بالتواصل غير اللفظي.

فلغة الجسد تعبر عن مشاعرنا الأكثر عمقا، حتى حين تتناقض هذه المشاعر مع ما نتفوه به من كلمات، وتعابير الوجه، والوضعية التي تتخذها الأذرع والسيقان والأيدي، والطريقة التي نجلس،

¹ - مهارات الاتصال والتفاعل والعلاقات الإنسانية، ص: 205. بتصرف

² - فن التواصل مع الناس، حسن رقيق، (أفريقيا الشرق - الدار البيضاء، ط1، 2009م)، ص: 79.

ونقف، ونستمع إلى الآخرين، ونتكلم بها... كلها كفيلة بنقل درجات متباينة من الخداع، والصدق، والاهتمام أو اللامبالاة. بكل بساطة؛ نُقل ذخيرة هائلة من المعلومات.¹

وسنبين تطبيقات حية ومفصلة لهذه القواعد والوسائل المهمة أثناء إجراء التواصل مع الآخر، وذلك من خلال الجانب التطبيقي من هذا البحث.

العنصر الثاني: العمل الفريقي

يعتبر العمل الفريقي أحد الوسائل المعتمدة في الحث على العمل الفعال والجاد قصد تحصيل النتائج المرسومة وبلوغ الأهداف المرجوة، وذلك باعتبار حثه على العمل داخل الجماعة، وإضفاء روح التآلف والتضامن بين أفراد المجموعة الواحدة.

ويمثل فريق العمل الفعال أهم ركائز بناء المجتمعات، إذ الإسهام في فريق فعال يعد أحد المهارات الاجتماعية التي ينادي بها علماء التنمية البشرية والمختصين في تنمية المهارات لدى الفرد.

وقبل التطرق لمهارات فريق العمل الجماعي، سنعرض لمفهوم بناء الفريق حتى نبين مميزاته وأهميته.

أولاً: عمل الفريق ومزاياه

يعد أسلوب العمل الجماعي من الأساليب التي توصي الإدارة الحديثة اليوم باعتمادها، وذلك لتطوير العمل في شتى المجالات، وتحقيق التقدم للمجتمعات والأمم. وتقوم فكرة العمل الجماعي على روح الفريق الواحد، أو الأسرة الواحدة، وتحقيق الانسجام والتكامل المهامي بين أفرادها.

إن الحديث عن فريق العمل أو العمل الفريقي أو العمل الجماعي هو حديث عن مجموعة من الأفراد (فردين أو أكثر)، أو جماعة منظمة يعمل أفرادها معاً، تحت قيادة مشتركة، لإيجاد حل فعال

¹ - المهارات الأساسية الخمس للعلاقة مع الآخرين، إيلين نور منسي، ص: 173.

أو تحقيق مخرجات مقصودة، وصولاً لهدف مشترك.¹

ويمتاز العمل ضمن فريق جماعي واحد بإضفاء روح التعاون والتضامن بين الأفراد، ونبذ الأنانية والفردانية الذاتية التي قد لا تُحصّل ما تُحصّله عملية العمل الجماعي.

وقد بوّب الإمام الترمذي في جامعه باباً خصّه في ما جاء في لزوم الجماعة والنهي عن الخروج عنها، في أي مجال من المجالات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يد الله مع الجماعة»².

أي أن الجماعة المتفقة من أهل الإسلام في كنف الله ووقايته فوقهم وهم بعيد من الأذى والخوف والأذى والاضطراب فإذا تفرقوا زالت السكينة وأوقع بأسهم بينهم وفسدت الأحوال³.

والناظر في أسمى العبادات التوقيفية "الصلاة" يجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمرنا بلزوم

الجماعة في أدائها، وأنها تفضل صلاة الفرد بدرجات كثيرة، والمتأمل في صلاة الجماعة يقف على

الأهداف النبيلة والمزايا الغالية التي تنطوي عليها؛ كالتعود على العمل الجماعي، وإضفاء روح التآلف

والتضامن بين الجماعة، والرفق بكل فرد ضمن هذه الجماعة، وذلك انسياقاً مع أخوة المؤمنين وأنهم

كالجسد الواحد، يشد بعضه بعضاً.

و"الفقه الجماعي" أو "البحث الجماعي" أو "التطبيق الجماعي" أو "الإنتاج الجماعي" صار

ضرورة معيشية في كل ميدان. ولهذا الحكمة جعلت الأصول الإسلامية في محور قيمها، أن يد الله

مع الجماعة... وتدريبها على مهارات "العمل الجماعي"، والتنسيق والتكامل بين أصحاب القدرات،

والمهارات المختلفة⁴، مما ينتج عن ذلك ما قد لا ينتج عن العمل الفردي القاصر عن تحقيق التكامل

¹ - مهارات الحياة وبناء مجتمع المعرفة، يحيى علي زهران، ص: 88. بتصريف

² - سنن الترمذي، (تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، 1998 م)، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، 36/4، ح: 2166.

³ - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد المباركفوري، (دار الكتب العلمية - بيروت، د.ت)، 323/6.

⁴ - أهداف التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، (دار القلم، ط1 - د.ت)، صص: 528-529.

والتنسيق بين أفراد الفريق.

إن كثيراً من المجتمعات الإسلامية بعدم انتهاج أسلوب العمل الجماعي سيطرت عليها الفردية، والأناية، والتي هي من معوقات التطور، والرقي المأمول، على العكس من المجتمعات المتقدمة التي اعتبرت أسلوب العمل الجماعي، أسلوب حياة في شتى المناحي: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية، ولا نبالغ إذا قلنا إن أسلوب العمل الجماعي يتم غرسه، وتعزيزه، في كافة مراحل التعليم، وخصوصاً التعليم العام من خلال أساليب، ووسائل التعلم المتنوعة لديهم¹.

وبين علماء التربية أهمية التعاون وما يرسخه في شخصية الطفل منذ سنواته الأولى، فمعروف أن الطفل "يميل إلى اللعب الجماعي في عامه الرابع فيحسن بالوالدين استغلال هذا الميل الفطري، وذلك في عدة أمور كالأكل الجماعي والتعاون على حمل الأغراض أو الترتيب، ويتعلم من خلال العمل الجماعي قيم غالياً كالرحمة بالصغير وتكليفه بما يناسبه من العمل، والجد والمسابقة للعمل، والإيثار والمحبة... والتعاون له آثاره المشاهدة كسرعة إنجاز العمل وسهولته، ومن ذلك حمل الأواني وترتيب الألعاب والغرف ومساعدة الوالدة².

بل؛ من بين التوصيات المطروحة من لدن الباحثين في مؤلفات التربية الإسلامية في الوطن العربي الإسلامي "أن تعمق مؤلفات التربية الإسلامية في نفوس المتعلمين الشعور بالمسؤولية إزاء الرسالة، وأهمية العمل الجماعي وعدم الاكتفاء بالتدوين الفردي... ولذلك اتسمت هذه المؤلفات بالتوجه إلى -الفرد المسلم لا إلى الأمة المسلمة- وعدم الاشتغال بالمهارات اللازمة للحياة الدنيا³.

وعلى المعلمين أن يتوجهوا بحمة قوية دقيقة إلى تكوين شخصية المتعلم وتنمية استعدادهم

1 - مقال "الاهتمام بالعمل الجماعي بدلا من الفردية"، عبد الرحمن بن سعيد الحازمي، تاريخ النشر: 24/2/2016، موقع الألوكة الاجتماعية، رابط المقال: (https://www.alukah.net/social/0/99387/#_ftnref6).

2 - كيف تربي ولدك، ليلي بنت عبد الرحمن الجريبة، (وزارة الأوقاف السعودية، د.ت)، ص: 89.

3 - أهداف التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، ص: 264-265.

للاخراط في العمل الجماعي، فمن صور بث روح التعاون مع الجماعة -مثلا- أن يشرك المعلم عددا من التلاميذ في عمل واحد يشعر كل واحد منهم أنه قام بجزء منه؛ كالاتشارك في لعبة رياضية أو حل مسألة حسابية أو صنع أداة من الأدوات أو تحليل رحلة جغرافية يتناول كل منهم جانبا منها... وكذلك الشعور بالمسؤولية؛ فإن المربي يستطيع أن يُوجد هذا الشعور أو يبعثه في النفس.¹

لقد دعا القرآن الكريم، وكذا سيرته صلى الله عليه وسلم إلى العمل الجماعي في التعلم وفعل الخير، وبينت فضله ومزاياه. فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»². وقوله صلى الله عليه وسلم "في بيت": أي مسجد، وألحق به نحو مدرسة أو رباط، (يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم) أي: يشتركون في قراءة بعضهم على بعض ويتعهدونه خوف النسيان.³

فبقراءة بعضهم على بعض يحصل التصويب والتصحيح، وتتقاسم الفائدة والمعرفة، وتتحقق البركة والسكينة والرحمة.

ونظرا لأهمية العمل الجماعي وقوته وجّه الخالق جل وعلا الناس إلى مواطن وجدوى العمل الفرقي، فبين مجالات تصريفه، فقال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

¹ - مقال "التربية الروحية"، محمد المبارك، مجلة المعرفة السورية، (العدد الثاني - بتاريخ: 1 - 2 - 1947)، 15/2. بتصرف

² - سنن أبي داود، (تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، د.ت)، باب تفرغ أبواب الوتر، باب في ثواب قراءة القرآن، 71/2، ح: 1455.

³ - التيسير بشرح الجامع الصغير، زين الدين المناوي، (مكتبة الإمام الشافعي - الرياض، ط3- 1988م)، 338/2.

شَدِيدُ الْعِقَابِ)¹، فيدخل في ذلك كل أعمال الخير والبر التي تعود على الإنسان بالنفع، وأن الاجتماع على غير ذلك ينقلب على أصحابه بالإثم والخراب، قال المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام: " ما اجتمع قوم فتفرقوا عن غير ذكر الله، إلا كأنما تفرقوا عن جيفة حمار، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة"².

فيشترط في فريق العمل أن يلتزم ويمتلك مهارات معينة، ويوحد الجهود من أجل أسنى الأهداف، وأرقى الغايات. وهذا من أهم الخصائص التي يتسم بها العمل الجماعي؛ أنه يؤسس قصد تحقيق هدف يعود على الإنسان والمجتمع بالخير والنفع.

ثانيا: القيادة ومهارات العمل الفريقي

وضع علماء التنمية البشرية جملة من المهارات جعلوها علامات على نجاح وفعالية فريق العمل في مجال من المجالات، وقد بدأ الحديث عن مهارات فريق العمل في الأبحاث والدراسات التي عنيت بموضوع القيادة وتسيير فرق العمل في الشركات الإدارية والمنظمات الربحية، وبات المختصون يؤكدون على أن أول خطوة لنجاح الشركة وتحقيقها النجاح داخل السوق هي تميز فريق عملها، وتحقيق نوع من التكامل والانسجام بين أفرادها، وفعالية أداء أعضائه.

ومن أهم هذه المهارات:

1 - الحاجة إلى فكرة ملحة

إن أول ما يوقد شرارة العمل الجماعي أو تكوين فريق عمل متماسك تحقيق فكرة ملحة تعود على الفرد والمجتمع بالخير والنفع.

¹ - سورة المائدة: جزء من الآية 3.

² - مسند أحمد، مسند الكثيرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، 21/15، ح: 9052.

2 - الانخراط والمشاركة

من أولى المهارات الواجب توفرها في كل فرد من أفراد فريق العمل الانخراط والمشاركة التامة من لدن كافة الأعضاء. وألا يقتصر العمل على فرد أو بعض الأفراد وإحجام باقي أفراد الفريق واكتفاؤهم بالمراقبة والتصفيق لمنجزات زملائهم في الفريق.

إن التفاعل بين أعضاء العمل الجماعي أمر مطلوب في بناء فريق العمل، وهذا التفاعل يتم عبر هندسة متكاملة يعود بناؤها إلى قائد الفريق الذي يوزع المهام ويحدد الأفراد المناسبين للمهام المراد إنجازها، ويشرف على العملية حتى تكتمل وتتم كما خطط لها.

3 - الشخص المناسب للمهمة المناسبة والتكامل بين الأدوار

أول سمات القائد الناجح في الفريق توزيعه لأدوار الأعضاء حسب مناسبة كل واحد منهم للمهمة المنوطة به، وحسب إتقانه وتخصصه في الدور الذي سيقوم به.

ونظرا إلى أن الحاجة إلى اعتبار التميز في مجال من المجالات ملحة واليقين بأنه ليس بوسع كل فرد من أفراد الفريق القيام بكل المهمات التي يُتطلب إنجازها، فإن وضع الشخص المناسب في المكان المناسب من أهم المفاتيح المهمة في نجاح الفريق وتحقيقه التميز.

يؤدي أفراد فريق العمل في أية مهمة واجبات متخصصة، وعندما يزداد حجم الفريق فإن الحاجة لتقسيم العمل إلى نشاطات منفصلة تزداد كذلك. وحيث إن فردا واحدا لا يمكنه القيام بكل شيء، فإن الآخرين يشتركون معه ويتم تقسيم العمل، ولكن بمجرد تقسيم العمل يصبح من الضروري إيجاد الطريقة المثلى لتجميعه كله في الشكل النهائي.¹

¹ - فن التعامل مع الزملاء، نورمان سي هيل، (ترجمة: دار القعيد للترجمة، دار المعرفة للتنمية البشرية- الرياض، ط1- 1422هـ)، ص: 15. بتصرف

فتوظيف المواهب وتوزيع المهام من سمات التنظيم المحكم والتخطيط الناجح في العمل الفريقي، لأن المهام عندما توزع على أفراد معينين تنظم الجهد والوقت، وتسرع من إنجاز المهمة.

4 - الشورى.

إن أي فريق أو تنظيم يَنشُد التميز والنجاح، لا بد أن تكون الشورى سمته ومنهجه؛ لأن بالشورى تُكتشف الحقائق، ويُستنبط الصواب، ويصح الرأي، وتتضافر الجهود، وتتوزع المسؤولية، وتقوى شوكة الفريق؛ وما ذلك إلا لأنه بالشورى تنبعث عوامل الألفة والمودة والمحبة والتعاون والتناصح، وتتشابك الأيدي لحل المعضلات، وبالشورى يصل أعضاء الفريق إلى ما يصبون إليه من نجاح وتميز في مهامهم.

وسأتي التفصيل فيها وعرض نماذج تطبيقية في موضعها إن شاء الله.

العنصر الثالث: التنوع وقبول الآخر

أولاً: مفهوم التنوع وقبول الآخر

يقوم مفهوم التنوع على مجموعة من الخصائص المرتبطة بالاختلافات البشرية التي تعود إلى الطبقة أو العمر أو النوع أو القدرات الطبيعية والعقلية أو الجنس أو السلالة. فهو ثقافة تشجع الاحترام المتبادل والقبول الجماعي والعمل المشترك بين أناس متنوعين.¹

فالتنوع دعوة باعتبار إنسانية الإنسان، مع استبعاد كل الحقول المتدخلة في العزل بين الأفراد على أساس ما؛ كاللون والجنس والعمر والدين والنسب والطبقة ودرجة المعرفة والذكاء والمكانة التي يتبوؤها... ونظراً لأهمية التنوع في انخراط الفرد داخل المجتمع سنتناوله من خلال أربعة مجالات وأبعاد؛ تجلي دوره الفعال في صناعة الإنسان الجديد، والخروج من الأنانية المقيتة ومن التفوق الطبعي.

ثانياً: مجالات التنوع

من المجالات التي اخترنا الحديث عنها بيانا لأبعاد التنوع:

1 - المعرفة والتعارف

إن الأساس الذي ننطلق منه هو قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾².

¹ - مهارات الحياة وبناء مجتمع المعرفة، يحيى علي زهران، ص: 91.

² - سورة الحجرات: الآية 13

لقد وجه القرآن الناس إلى وحدة أصلهم، وبين أن تعدديتهم ضرورة لتعارفهم وتكاملهم. ففي الآية تذكير بأصناف عدة من الناس، ودعوة إلى التعارف بينهم، وتنحية الاختلافات (سواء في الجنس أو في الطبقات أو الشعوب...).

فبغير التعارف لا يمكن للمعرفة أن تحصل، وإذا لم يتمكن الإنسان من معرفة الآخر لا يمكنه تفهم أفكاره ومشاعره ودوافعه. فالمعارف تمثل أساس باقي المجالات (الفهم، القبول، السلوك).¹

2 - الفهم

ينبغي فهمنا للآخرين على أساس المعارف والمعلومات المتاحة عنهم، وذلك بالتعرف عقليا على الكيفية التي يفكر ويشعر ويسلكها الآخرون، مما يسهم في بناء خلفية واضحة عن الأفراد والجماعات الثقافية المختلفة.²

ومما يتبوأ مقام الأهمية في فهم الآخر معرفة لغته التي يحدث ويتكلم بها، إذ هي مفتاح معرفة وفهم طريقة تفكيره وعيشه وتصرفاته وسلوكه وتصوراته.

3 - القبول

يعتبر القبول ردة فعل لمشاعرنا الناتجة عن فهم الآخرين، ويتجلى ذلك في قبول المختلفين عنا فيزيقيا وقيميا وفكريا.³

¹ - مهارات الحياة وبناء مجتمع المعرفة، يحيى علي زهران، ص: 92.

² - المرجع نفسه.

³ - المرجع نفسه.

4 - السلوك.

السلوك هو الثمرة النهائية لمجالات التنوع، وهذه الثمرة هي التي تعكس القدرة على التعامل مع المختلفين، وصياغة طرائق آمنة للتعامل معهم، وذلك من خلال ثقافة مشتركة من الاحترام والتفهم والقبول المجتمعي.

فبالسلوك يمكن أن يتحول الاختلاف إلى الائتلاف، وتُؤَسَّس أرضية التعارف بدل التعارك.

الفرع الثالث: مهارات صناعة المجتمع

يطرح الحديث عن المجتمع وعن صناعته جملة من المهارات المتعلقة بهذا الأخير، والتي تتدخل بشكل فعال في بنائه وصلاحه. ولعل من بينها:

العنصر الأول: مهارة الانتماء والمواطنة

أول ما يُنطَلَق منه في بناء المجتمع الصالح صناعة المواطن الصالح؛ المنتمي لوطنه والمرتبط به، إذ انتماءه للوطن يضمن له تشبثه بباقي الانتماءات (الانتماء للدين، للأسرة، وللمجتمع الإنساني عامة).

ولا يمكننا الحديث عن مقومات صناعة المجتمع إن نحن أغفلنا هذا المقوم المهم والمحدد لإعداد فرد صالح، ومواطن متشبع بانتمائه وولائه لوطنه، فمن لا يصلح لمجتمعه الصغير (الوطن) لا يمكن أن يصلح للمجتمع الإنساني العام.

لا ريب أن موضوع الوطن من الموضوعات الملحة، التي تركزت عليها الأنظار في عصرنا الحاضر، لما لها من تأثير كبير في استقرار المجتمعات واستمرارها، وذهبت دساتير الدول وقوانينها الوضعية تصول وتجول بحثا عن ملاذها في تحقيق مواطنة صالحة من لدن مواطني بلدانها لتحقيق التماسك

الوطني والمجتمعي بين الأفراد، والقضاء على النزعات الطائفية، والجماعات المتطرفة التي خلّفت فسادا عريضا ببعض الأوطان.

أولاً: حول مفهومي المواطنة والانتماء

مفهوم "الوطن" من المفاهيم القديمة التي تداولتها معاجم اللغة العربية منذ بداية ظهورها، فنجد أن الخليل بن أحمد قد عرّفه منذ القرن الهجري الثاني بـ "موطن الإنسان ومحلّه"¹. ويقال: أوطن فلان أرض كذا، أي: اتخذها محلاً ومسكناً يقيم بها.²

ويعرفه ابن دريد بقوله: "الوطن؛ حيث أوطنت من بلد أو دار أو مكان، يُقال: أوطنت بالمكان ووطنت به، وجمع الوطن أوطان. والمثل السائر: لولا الوطن لحرب البلد السؤد. والموطن: موضع الوطن".³

أما المواطنة فهي مصدر "واطن"، وتعتبر المعيار الأساسي لتعزيز الانتماء والإخلاص والولاء للوطن، وهي "نزعة ترمي إلى اعتبار الإنسانية أسرة واحدة وطنها العالم وأعضاؤها أفراد البشر جميعاً، وتقوم على عدم التمييز بين أبناء الوطن الواحد وسكانه الذين ينتمون إليه على أساس الدين أو اللغة أو العنصر أو الجنس"⁴.

فتفرض المواطنة على المواطنين احترام قوانين البلد المنتمى إليه، وكذا احترام حقوق الإنسان واعتبار إنسانية الإنسان؛ أي ضمان حقوق كل الأطياف التي تعيش داخل الوطن الواحد واحترام التنوع بداخله.

1 - العين، الخليل، 454/7.

2 - المرجع نفسه.

3 - جمهرة اللغة، ابن دريد، 928/2.

4 - معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار وآخرون، 2462/3.

أما مفهوم الانتماء فهو في لغة العرب "افتعال" من الفعل "انتمى"، و" انتمى إليه: أي انتسب"¹، ويعرف أيضا بـ"الاعتزاء"²، أي: الانتماء إلى دين واحد وشعار واحد، والدَّعْوَى الانتماء كما جاء في دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، أي انتماؤها في الاستغاثة بالانتماء إلى الآباء³.

فالانتماء هنا يعني الاعتزاء وتوحيد الانتساب؛ سواء للدين أو للقبيلة أو لشعار ما.

ومنه؛ فالشكل الفضفاض الذي يفرضه مفهوم "الانتماء" يجعلنا نقسمه إلى انتماءات كثيرة، يجب أخذها بتكامل فيما بينها، حيث لا يؤثر أحدها على الآخر ولا يقصيه. وبذلك يتحقق انتماء الفرد لكل مجال من المجالات المعرفة لحقيقته.

لذلك وجب التفريق بين مجموعة من أنواع الانتماءات؛ الكبرى منها والصغرى، مع التأكيد أن كلا منها يكمل الآخر ويشد بعضها بعضا.

ثانيا: صور الانتماء وألوانه

1 - الانتماءات الكبرى: للوطن، للإسلام، وللبشرية

وقد جعلنا الانتماء للوطن في مقدمة باقي الانتماءات، إذ لا يمكن للنفس البشرية أن تتشبع بباقي الانتماءات ما لم تتشبع بالاستقرار والطمأنينة داخل بيت آمن يُحوّل لها انتسابها لباقي الانتماءات.

¹ - شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد، (تحقيق: حسين بن عبد الله العمري وآخرون، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1420هـ)، 6762/10.

² - المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، 224/2.

³ - تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، ابن فتح، ص: 342.

فالأول يتعلق بالانتماء لتلكم البقعة الجغرافية الذي ولد فيها الإنسان ويحيى عليها، حيث ينسب إليها ويتعلق تعريف هويته بها، فيقال: هذا مغربي إذا كان من المغرب، وذلك مكّي إذا كان من أهل مكة.

أما الانتماء الثاني فهو عام؛ وهو الانتماء للإسلام، فالعالم الإسلامي وطن كل إنسان. جاء في صحيح مسلم عن الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى"¹. ففي الحديث تعظيم لحقوق المسلمين بعضهم على بعض وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد، من غير بغضاء ولا شحنة بسبب القبلية أو التعصب.

هذا؛ فضلا عن الانتماء للوطن الأعم؛ الذي هو الإنسانية جمعاء؛ عربا كانوا أو غير عرب، مسلمين كانوا أو غير مسلمين. قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾²، فلا ينبغي تغييب الانتماء إلى المجال الإنساني الكوني، فعالمية الرسالة تفرض العيش المشترك فوق أديم الأرض.

لقد أسهمت وسائل الاتصال والتحديات الراهنة التي فرضتها العولمة إلى ظهور وعي جديد بالمجال العالمي كمساحة للمشارك الإنساني، هذا الوعي رسّخ فكرة المواطنة العالمية بدل المواطنة القومية المقتصرة على الدولة القطرية.

وقد أدى نمو التشابك بين الحركات الاجتماعية بشكل عابر للقومية إلى تنامي الحديث عن المواطنة العالمية كصيغة معنوية وقيمية أكثر من كونها تضاهي أو تقارب المواطنة بالمعنى القانوني والسياسي، فإذا كانت المواطنة من ناحية الحقوق والواجبات ترتبط بالحركة الاجتماعية للمواطن،

¹ - صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، 4/1999، ح: 2586.

² - سورة الأنبياء: الآية 106

وانضواء هذا المواطن في حركات اجتماعية تدافع عن الحقوق أو تستدعي خطاب الواجبات والمسؤولية السياسية والمدنية فإن انسياح هذه الحركات عبر الحدود القومية لتضحي حركات عالمية، وتنامي الاهتمام بتشكيل ما يطلق عليه "المجتمع المدني العالمي" كان عاملاً إضافياً زاد من التفكير والتنظير لمفهوم المواطنة العالمية.¹

2 - الانتماءات الصغرى: للأسرة وللمجتمع

لا يخفى ما للانتماء للأسرة من تحقيق الترابط الأسري الذي يلم أفراد الأسرة ويحفظ جماعتهم الصغيرة من التيارات التي من شأنها أن تذهب بوحدهم وتماسكهم. ولعل أول انتماء ينبغي للفرد أن يحققه انتماءه إلى أسرته، فهي الخلية الأولى واللبننة الأساس التي ينطلق منها صرح المجتمع. والمتصفح لصفحات الوحي يجد هذا الترابط الأسري حاضراً بقوة، ويقف عند دوره الفعال في الانتماء للوطن وللدِين. قال تعالى: ﴿لَا أَفْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۗ وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۗ وَوَالِدٍ وَمَا وَالدَّ ۗ﴾².

فالمراد بـ"والدٍ" إبراهيم عليه السلام، فإنه الذي اتخذ ذلك البلد لإقامة ولده إسماعيل وزوجه هاجر.

وقال عز من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۗ﴾³، فدعا عليه السلام بأمن الوطن، ثم لأسرته أن يجنبها الله الشرك به، وأن يمدّها

¹ - مقال "عن التمدن والعالم؛ جدل الفطرة والإنسانية"، هبة رؤوف عزت، (أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء حول موضوع: القرآن الكريم ورؤية العالم؛ مسارات التفكير والتدبير، يومي 03-04 يونيو 2014م - مطبعة المعارف الجديدة، الرباط)، ص: 168-169.

² - سورة البلد: الآيات 1-3

³ - سورة إبراهيم: الآية 37

بمدد عقدي يعلقها بالخالق ويربطها به. فترى جليا كيف تشبث خليل الله بكل الانتماءات ووَوحَّدها؛ سواء بالانتماء للأسرة أو للوطن ثم للدين.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُفِيْمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾¹. وقوله: " فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ " دعوة للترابط المجتمعي الذي ترسيه

شعيرة الحج، فانتقل من الانتماء إلى الأسرة مرورا بالاعتزاز بالوطن وصولا إلى الانتماء لدين الله الخالد (الإسلام). وإبراهيم "والد سكان ذلك البلد الأصليين، قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾²، ولأنه والد محمد عليه السلام"³.

أما الانتماء إلى المجتمع فيتحقق بحب أفراد الوطن الواحد لبعضهم، وكذا الحفاظ على وحدتهم، وذلك بصلة الأرحام والإصلاح بين الناس وعدم إيذاء الجار، فضلا عن الإحسان إلى كل مسلم، ناهيك عن احترام أهل الأديان المخالفة، وتحقيق العيش المشترك بين مختلف الأطياف داخل وطن واحد يستوعب كل الانتماءات المتعلقة بالعرق والجنس واللون والدين...

العنصر الثاني: ثقافة البيئة والحفاظ على الموارد

أولا: حول مفهوم البيئة

تنوعت تعريفات المهتمين والمتخصصين لمفهوم البيئة، وذلك بتعدد تخصصاتهم واختلاف توجهاتهم، مما أفرز تبعا لذلك غزارة في المفهوم، بحسب تداخل العلوم، كون البيئة علم تتقاطع

¹ - سورة إبراهيم: الآية 39

² - سورة الحج: جزء من الآية 76

³ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، 30/349.

موضوعات دراسته مع سائر العلوم الطبيعية، الإنسانية، الاجتماعية، الفيزيائية وغيرها... فلا ضير أن يحدد المختص مفهوم البيئة من زاوية علمه ونافذة فكره، لذا حصرا لوفرة التعريفات، واقتصارا على ما يخدم المقصد من بحثنا سنقتصر على ما يصب في معالجة تعريف البيئة تعريفا عاما يناسب تيمات هذا البحث.

وقد اجتهد الدكتور عبد العزيز فاضلي في إيراد مقاربات عدة لتجميع هذه التعريفات وإدماجها ضمن مختلف الحقول والتخصصات¹، وسننتقي بعضا منها لا كلها.

من التعريفات التي جعلت من الإنسان قطب النظام البيئي نجد خليل رزق يرى أن: "البيئة هي الإطار (الحيز) الذي يعيش فيه الإنسان مستمدا منه متطلباته الحياتية الأساسية متفاعلا معه بقدر إمكانيته، و متفاعلا مع غيره من بني البشر الذين يشاركونه الحياة في هذا الإطار"².

ويعرفها قطب الريسوني بكونها: "المحيط الذي يكتنف الإنسان ويؤوي إليه، ويستمد منه مقومات حياته، وينسج فيه العلاقات الاجتماعية مع أقرانه من البشر، أو هي المحيط الحيوي أو المادي الذي تعيش فيه الكائنات الحية وغير الحية، ويشمل الماء والهواء والفضاء والتربة، فضلا عن المنشآت التي يقيمها الإنسان إشباعا لحاجاته"³. أو هي كما يعرفها الهادي مقداد: "كل العناصر الطبيعية والمصطنعة التي تحيط بالإنسان ويعيش بفضلها فتؤثر فيه ويؤثر فيها"⁴.

وبحثا عن تعريف جامع مانع، شامل لكل ما سبق إيراد؛ يعرفها زين الدين عبد المقصود في كتابه "البيئة والإنسان" بمفهومها العام، حيث يقول: "هي الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه

¹ - يرجع إلى: "تلوث البيئة وأثره على قضايا التغذية المعاصرة من المنظور الشرعي"، عبد العزيز فاضلي، (أطروحة دكتوراه تحت إشراف دة. بثينة الغلبزوري، تكوين الدكتوراه: الفكر الإسلامي العاصر وقضايا المجتمع والبيئة في العالم المتوسطي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط- 2019م)، ص: 22-42.

² - الإسلام والبيئة، خليل رزق، (دار الهادي- بيروت، ط1 - 2006 م)، ص: 3.

³ - المحافظة على البيئة من منظور إسلامي، قطب الريسوني، (دار ابن حزم- بيروت، ط1 - 2008 م)، ص: 14.

⁴ - قانون البيئة، الهادي مقداد، (مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط1 - 2012 م). ص: 17.

الإنسان يتأثر به ويؤثر فيه، بكل ما يضمه هذا المجال المكاني من عناصر ومعطيات سواء كانت من خلق الله سبحانه وتعالى... أو معطيات من صنع الإنسان"¹، أو هي باختصار - كما جاء في إعلان مؤتمر استوكهولم للبيئة البشرية عام 1972م - (Everything Around The Man) أي: "كل شيء يحيط بالإنسان"².

من خلال التعريفات الآتية نجد أن كلها تردف البيئة بالإنسان وتربطها به، وخلاصة التعريفات يمكن صياغتها في أن البيئة عبارة عن محيط وإطار يعيش الإنسان في كنفه مستمداً منه متطلبات حياته الأساسية لإشباع حاجاته الضرورية، وتدخل في هذا المحيط العناصر الطبيعية (كالماء والهواء والتربة والنبات...) والعناصر المصنعة التي يشيدها الإنسان (من عمران وطرق ومصانع وسدود...). فإذا تقرر أن البيئة هي المجال الذي يعيش الإنسان بداخله فإن معظم الأضرار والكوارث التي تطال البيئة نجد أن للإنسان دخلاً وإسهاماً كبيراً فيها. وسنبين من خلال الفقرة الثانية من هذا المطلب علاقة هذا الكائن المستخلف في الأرض ببيئته والموكلة إليه أمانة الحفاظ على هذا الكون وانتفاعه بمقوماته وموارده بلا أي ضرر ولا ضرار.

ثانياً: الإنسان المستخلف والبيئة

إن المتأمل في مبدأ استخلاف الله للإنسان في الكون يجد أن ثمة علاقة وطيدة وملتصقة بين كل من البيئة والإنسان داخل المنظومة الإسلامية، فقد خلق الله البيئة قبل خلق الكائن الإنساني، فسخرها له وجعلها مجالاً لعيشه وموطناً لحياته، وأوكل إلى هذا الأخير مهمة الإحسان إليها واستغلالها بترشيد وعقلانية.

¹ - البيئة والإنسان؛ دراسة في مشكلات الإنسان مع البيئة، زيد الدين عبد المقصود، (منشأة المعارف - الاسكندرية، ط2 - 1997م)، ص:21.

² - المرجع نفسه.

وقد مهد الله تعالى الأرض للإنسان، وجعل له أسباب تحصيل معاشه، والاهتداء إلى مقاصده، قال تعالى: (أَلَدَيْتُمْ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مِهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٢﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى) ¹.

فإذا ما انقلب تصرف الإنسان تجاه هذا الكون إلى الإفساد أو التبذير عوض التوظيف الأمثل والمتوازن لبيئة الكون وموارده المتعددة صار تعامله مع الكون نقيض مبدأ الاستخلاف وعدّ من خوارمه، وبالتالي فشله في تحمل الأمانة الملقاة على عاتقه.

يقول عبد العزيز فاضلي: يعد الإفساد في الأرض من نواقض الاستخلاف، ومهلك الإلتلاف والاستنزاف، وموجبات الحرمان والخسران، ومثبطات النماء والرخاء، وتعددت وجوهه، وتباينت أشكاله، إلا أن تلوث البيئة يمثل صلبه، ويشكل كنهه، حيث استفحلت مظاهره واستشرت مضاره، وأوغلت يد الإنسان في إحداث الخلل في توازن العناصر، وجارت حاجته عن الاستغلال الأمثل للموارد والمصادر، فباء بالبلايا والرزايا وعاد بالنصب والوصب، واكتسب من الخسائر الفادحة، ورام من المآلات الكالحة، مثقال ما جنته يداه واقترفته جوارحه. ²

يقول عز من قائل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ³.

¹ - سورة طه: الآيتان 52-53.

² - تلوث البيئة وأثره على قضايا التغذية المعاصرة من المنظور الشرعي، عبد العزيز فاضلي، ص: 9.

³ - سورة الأحزاب: الآية 72.

من هنا نخلص إلى مركزية الكائن الإنساني، وأهمية قيمه ومعارفه تجاه بيئته؛ فقد تحمل أمانة الاستخلاف نيابة عن موجودات الكون (سواء الجامدة أو النابضة بالحياة)، وذلك بتولييه القيادة والريادة وتكليفه برسالة الإصلاح والتميز، حفاظاً على التوازن وإبقاءً على السنن.

ويقول جل وعلا: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ¹ .

فالإسراف نقيض الاستخلاف؛ سواء في تعامل الإنسان مع قوته الذي توفره له البيئة المحيطة به، أو في امتثاله الرشيد لثقافة البيئة والمحافظة عليها.

فقد رهن الله تعالى سيرورة الحياة واستمرارية البقاء بمدى الإحسان في التصرف والاعتدال في التسخير، بخلاف الإخلال بالمسؤولية وخيانة الأمانة المؤذنان ببوار العمران، وهلاك الحرث والنسل، والمؤذريان بمضمون الاستخلاف والولاية، وجلالة خطب الإسناد والوصاية.²

إننا في حاجة إلى كثير من الحلم والعقلانية في السلوك، والتحول من الجانب القولي الإرشادي إلى الجانب العملي التطبيقي، والحرص على تجنب الأذى وعدم إلحاق الضرر بهذا الكون الذي يضم مختلف المخلوقات؛ في حاجة لتنزيل قاعدة "لا ضرر ولا ضرار"³ على أرض الواقع؛ فالضرر هو الذي لك فيه منفعة وعلى جارك فيه مضرة، والضرار : ما ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه

¹ - سورة الأنعام: الآية 142.

² - تلوث البيئة وأثره على قضايا التغذية المعاصرة من المنظور الشرعي، عبد العزيز فاضلي، ص: 12.

³ - سنن ابن ماجه، (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د.ت)، كتاب الأحكام، باب من بني في حقه ما يضر بجاره، 784/2. ح: 2341.

مضرة، وهذا وجه حسن في الحديث، وهو لفظ عام ينصرف في أكثر الأمور، والفقهاء ينزعون به في أشياء مختلفة¹.

إن تعامل الإنسان مع محيطه البيئي في ضوء هذه القاعدة يمكنه من الاستفادة من موارده الحية دونما إسراف ولا تقتير، ومع موارده الجامدة دونما إتلاف أو تخريب، وهذه مهارة مجتمعية راقية تترجم قدر الرشد العقلي والتميز المهاراتي الذي يتمتع بها مالكيها.

العنصر الثالث: مهارات صناعة مجتمع المعرفة

إن حب الإنسان للاستطلاع ورغبته الدائمة في تكوين فكرة عما يحيط به من أحداث ووقائع أفرز محاولات هذا الكائن لفهم ما يحيط به من ظواهر وحقائق مستمرة لا تنقطع، فالإنسان بطبعه وفطرته لا يقتنع بما حصله من معرفة حول ظواهر الكون والوجود الاجتماعي، فكانت نتيجة ذلك إعمال ملكة العقل وتسخير عملية التفكير البشري دونما توقف أو انقطاع، وبسبب هذه الاستمرارية في التطلع إلى إيجاد أجوبة مقنعة للأسئلة العالقة بذهن الإنسان تراكمت معارفه على مر العصور.

فإذا سلّمنا بأن حاجة الكائن البشري للمعرفة لا تقل أهمية عن حاجته للحاجات البيولوجية الضرورية، فإن محاولاته الحثيثة اتجاه تحصيل نصيب من هذه المعرفة يسهم في تكوين شخصية إنسانية قادرة على صناعة التميز، أو بمعنى أدق - داخل المنظومة الإسلامية - قادرة على تمثيل الكائن الإنساني في الأرض وتحقيق مبدأ الاستخلاف الذي أوكله الخالق إلى الإنسان.

إذا ثبت هذا وقرّر؛ فيقيننا يزداد بأنه لا سبيل لصناعة مجتمع المعرفة إلا بصناعة المعرفة لدى كل فرد واستمرارية رغبته في اكتسابها وتحصيلها، إذ كل بناء متين رهين بإحكام لبنات صرحه وصناعتها صناعةً مُحكّمة وفريدة. لهذا؛ فتناولنا لموضوع صناعة مجتمع المعرفة يقتضي منا التعريف بظاهرة المعرفة

¹ - شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي الزرقاني، (تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، ط1 - 1424هـ)، 66/4.

وبيان الفروق بينها وبين العلم، ثم تناوله (مفهوم المعرفة) باعتباره ظاهرة اجتماعية، وعرض ألوانها المتعددة، سيما داخل المنظومة الإسلامية، كما تجدر الإشارة أن صناعة مجتمع المعرفة في عصر الانفجار المعلوماتي صار هينا وليس بالعزيز.

أولاً: المعرفة وعلاقتها بالعلم

إن الباحث في المعاجم اللغوية يجد أن مفهوم "المعرفة" يرتبط في كثير من المواضع بنقيضه "مفهوم الجهل"، فيقال: عرف الشيء إذا انتقل من مرحلة جهله إلى معرفته. وبهذا عرّف علماء اللغة المعرفة بقولهم: عرّفان الشيء خلاف الجهل به¹.

وكثيراً ما يخلط الباحثون بين مفهومي "المعرفة" و"العلم"، ويجعلون أحدها إطلاقاً على الآخر، والصحيح غير ذلك.

فالمتفق عليه أن المعرفة أخص من العلم "لأنها العلم بعين الشيء مفصلاً عما سواه، والعلم يكون مجملاً ومفصلاً... فكل معرفة علم وليس كل علم معرفة، وذلك أن لفظ المعرفة يفيد تمييز المعلوم من غيره.

يقول العسكري في الفرق بين المعرفة والعلم "المعرفة إدراك البسائط والجزئيات، والعلم إدراك المركبات والكلّيات. ومن ثم يقال: عرفت الله، ولا يقال علمته. وقيل: هي عبارة عن الإدراك التصوري. والعلم هو الإدراك التصديقي. ومن ذهب إلى هذا القول جعل العرفان أعظم رتبة من العلم... فعلى هذا؛ كل عارف عالم من دون العكس، ولذلك كان الرجل لا يسمى عارفاً إلا إذا توغل في بحار العلوم ومبادئها، وترقى من مطالعها إلى مقاطعها، ومن مبادئها إلى غاياتها بحسب الطاقة البشرية².

فالمعرفة فعل إنساني جزئي ضمن فضاء العلم الشامل للمعارف والجزئيات، لذلك "شاع لفظ المعرفة في الإدراك بعد النسيان أو بعد الجهل³.

¹ - المخصص، 1/257.

² - معجم الفروق اللغوية، ص: 501-502.

³ - الكلّيات، أبو البقاء الحنفي، (تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت، د.ت)، ص: 612.

وأشهر الأقوال في تعريف المعرفة أنها: إدراك الشيء ثانيا بعد توسط نسيانه، لذلك يسمى الحق تعالى بالعالم دون العارف.

والمعرفة قد تقال فيما تدرك آثاره، وإن لم يدرك ذاته، والعلم لا يكاد يقال إلا فيما أدرك ذاته. ولذا يقال: فلان يعرف الله، ولا يقال: يعلم الله، لما كانت معرفته سبحانه ليست إلا بمعرفة آثاره دون معرفة ذاته.¹

وفي العلاقة بين العلم والمعرفة يرى الباحثون أن ثمة فروقا بينهما، منها: أن المعرفة عملية (Process) ذاتية (Subjective) لا تنفك عن الشخص الذي يمارسها، بينما العلم جوهر مستقل (Objective) عن ذات الإنسان... ثم إن العملية العلمية عملية إبداعية تؤدي إلى إيجاد معلومات يقينية جديدة تضاف إلى رصيدنا العلمي عن شيء كان مجهولا، كله أو بعضه، من قبل، بينما المعرفة هي عملية استرجاع لمعلومات قديمة في الذاكرة عن شيء كان معروفا لنا سلفا.²

كما أنه لا قيمة للعلم إلا إذا كان أساسا لمعرفتنا (عملنا)، وهذا ما يزكيه قول معاذ بن جبل رضي الله عنه في الأثر: " اعملوا ما شئتم بعد أن تعلموا، فلن يأجركم الله تعالى بالعلم حتى تعملوا"³. فجعل العلم أساسا للعمل داخل ظاهرة المعرفة قضية محورية ومهمة داخل المنظومة الإسلامية.

وفي حقل علم الاجتماع تُعرَّف المعرفة بأنها "مجموعة المعتقدات والمعاني والتصورات والمفاهيم والأحكام الفكرية التي تتكون لدى الإنسان من خلال محاولاته المتكررة لفهم الأشياء والظواهر المحيطة به."⁴

¹ - معجم الفروق اللغوية، ص: 502.

² - مقال "العلم والمعرفة في رؤية القرآن للعالم ودلالاتهما على مفهوم مجتمع المعرفة"، مرجع سابق، ص: 26.

³ - سنن الدارمي، (تحقيق: حسين سليم أسد الدارمي، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1-2000م)، 319/1.

⁴ - البناء الاجتماعي للشخصية في المجتمع العربي، فادية عمر الجولاني، (مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية، ط1-1993م)، ص: 25.

وهذا يؤيد ما سلف ذكره في أن المعرفة غير العلم، فجملة "محاولاته المتكررة لفهم الأشياء" تدل على محاولات الفرد لامتلاك أجوبة مقنعة عن أسئلة عالقة يجهلها.

فالمعرفة ليست جوهرًا، بل هي العملية الأساسية للفعل والاتصال الإنساني، وأن نوع العلم ومقداره ومدى توظيفه هو ما يعطي لعملية المعرفة أهمية وقيمة في المجتمع.

ثانياً: المعرفة الإنسانية داخل الثقافة الإسلامية

تتوزع تكاليف الإسلام بين ثلاثة مجالات؛ فمنها ما جاء ليرسخ العقيدة السليمة، ومنها ما يبحث على ممارسة الشعائر المفروضة، ثم مجال ثالث يدعو إلى بناء الحياة وعمارة الأرض بما يحقق مبدأ الاستخلاف وبما يُصلح المجتمع.

ومعلوم أن كل هذه التكاليف متوقفة على العلم والمعرفة؛ إذ لا يعبد الله إلا بالعلم، ولا يمكن ممارسة الشعائر وأدائها دون معرفة مراحلها وطرقها معرفة دقيقة، كما أن بناء المجتمع وصلاحه لا يتأتى إلا بالعلم والمعرفة.

وبالنسبة للتكليف الأخير فقد بدأت مسيرة الإنسان فيه من الصفر، إذ مرَّ عليه حين من الدهر لم يكن فيه شيئاً مذكوراً، ولكن بحكم تزويد الخالق له بملكوتي العقل والتفكير تمكن من التدرج في التوسيع الدائم لآفاق معرفته، وبالتالي القدرة على تطوير وسائل الحياة والسيطرة على عمارة الأرض.¹

إن توالي الأزمان وتعاقب العصور خلّف لنا إرثاً فكرياً إنسانياً هائلاً على المستوى العلمي والمعرفي، وقد أسهم في صناعة هذا الإرث أفراد وجماعات متنوعة، بعضها يخلف بعضاً، في مختلف العلوم والمعارف، يضم كل واحد منهم إلى العلم والمعرفة ما يتوصل إليه فكره، فكل منهم يضع لبنة

¹ - مقال "مسألة النفس ومراجعة الذات"، أحمد الخليلي، مجلة الواضحة (دار الحديث الحسنية، العدد 4-2008م)، ص:

في بناء المعرفة الإنسانية وتكوينها، وبذلك بنت الأمم صرح حضاراتها، وبهلاك هؤلاء يكمل الخلف ما أنجزه السلف، وهكذا دواليك.

ونظرا لتناولنا للمعرفة داخل المجتمع الكوني الكبير أصبح لزاما على الفرد انخراطه في هذه الكونية وإسهامه في هذه العملية الاجتماعية المهمة، ذلك أن للمعرفة ألوانا شتى وأنواعا كثيرة، تغطي كل مراحل وتفصيل حياة الإنسان.

ولذلك نجد أن الفيلسوف الألماني "ماكس شلر" يصنف المعرفة حسب الصيغة التي عليها، وطبقا للواقع وظواهره المرتبطة به إلى أنواع متعددة؛ تتمثل في:

- المعرفة الدينية؛

- المعرفة الفلسفية؛

- معرفة الآخرين أفرادا وجماعات؛

- معرفة العالم الخارجي؛

- المعرفة الفنية؛

- المعرفة العلمية.¹

بل حتى علم النفس المعاصر وعلم النفس الاجتماعي عرف انتقالا نوعيا؛ حيث انتقلا من الاشتغال بمفهوم السلوك إلى الاشتغال بمفهوم المعرفة، مما شكل ذلك محطة أساسية في تطور علم النفس. وقد تمحور هذا الانتقال حول قضايا تتعلق بالمعرفة الاجتماعية من حيث إفادة هذه القضايا للتفكير الاجتماعي وأشكال المعالجة المعرفية التي يعكسها في التعاطي مع الواقع، سواء في نطاق

¹ - البناء الاجتماعي للشخصية في المجتمع العربي، ص: 32.

النشاط الذهني الذي يشترك في خصائص اشتغاله أفراد المجتمع باعتبارهم فهما مشتركا، أو في إطار الدينامية النفسية الاجتماعية التي تربط هذا النشاط بواقع هؤلاء الأفراد.¹

وبالنظر إلى بناء صرح المعرفة داخل المجتمع الإسلامي اليوم نجد أن ثمة قصورا في أخذ ظاهرة المعرفة بصورتها الكاملة والكلية، ولعل السبب في هذا القصور هو تقزيم معنى المعرفة وجعلها مقتصرة على مجال محدد، وإقصاء باقي المجالات.

فلا تقتصر معرفة الإنسان على لون معين، وإنما تشمل ظواهر متعددة، وتغطي جوانب العالم المحيطة بالإنسان، ومن ثم تتنوع معرفة الإنسان لتشمل التكوين البيولوجي والنفسي، هذا بالإضافة لألوان المعرفة المرتبطة بظواهر البيئة الطبيعية والكيميائية والاجتماعية والثقافية.²

لقد عرفت الأدبيات المعنية بمجتمع المعرفة جدلا محتدما عبر تاريخ الحضارة الغربية، لكنها تميل في غالبها إلى نظرية العالم الهنغاري مايكل بوليني الذي يميز بين نوعين من المعرفة: المعرفة الضمنية والمعرفة المقننة؛ فالمعرفة الضمنية هي تلك التي يكتسبها الناس من خلال خبراتهم العملية طيلة حياتهم، وهي ذاتية يوظفها الناس في تصريف شؤون حياتهم، والمثال الشائع لهذا النوع من المعرفة هو ركوب الدراجة. أما المعرفة المقننة هي المعرفة العلمية التي يتم الحصول عليها عن طريق البحث العلمي المنظم، ويتم نشرها وحفظها في الوسائط المعلوماتية المختلفة من كتب ودوريات وحتى الإنترنت.³

¹ - مقال "التمثل الاجتماعي سيرورة لإدراك الواقع وبنائه"، عبد الكريم بلحاج، (ندوة: تكوّن المعارف : دور القياس التمثيلي، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 117- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط1- 2005م)، ص: 11.

² - البناء الاجتماعي للشخصية في المجتمع العربي، ص: 25.

³ - مقال "العلم والمعرفة في رؤية القرآن للعالم ودلالاتها على مفهوم مجتمع المعرفة"، محمد بريمة إبراهيم، مرجع سابق، ص:

وبالحديث عن موضوع العلم والمعرفة في الساحة الإسلامية اليوم نلاحظ غياب العمل بالنظرة التكاملية في صناعة المعرفة، ولعل سبب تغييب تكامل العلوم والمعارف يرجع إلى التحيز والتشبيث بقسم من العلوم دون اعتبار الآخر.

يقول أحمد الخليلشي: "بالرجوع إلى الآراء المنظرة لموضوع العلم والمعرفة نلاحظ تقسيم العلوم إلى شرعية وغير شرعية، وتم حصر الفئة الأولى في العقيدة والشعائر وعدد محدود من مجالات العلاقات الاجتماعية التي عني بها "الفقه"، ويتم تناول ذلك بما اصطلح عليه بعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله... وما عدا هذا يدخل في الفئة الثانية أي العلوم غير الشرعية."¹

إن إضفاء الشرعية على بعض العلوم والمعارف دون غيرها لا يتنافى مع المزاوجة في تحصيلها، إذ التقسيم مرده إلى التصنيف لا إلى الفصل، ومع إيماننا بضرورة اكتساب العلوم الشرعية والتفقه فيها نؤمن في المقابل بضرورة الانفتاح على باقي المعارف المتنوعة والمطلوبة في حياة الفرد، لصناعة ذاته أولاً وتنمية مجتمعه ثانياً.

وبالعودة إلى الحقبة الذهبية من تاريخ الإسلام نجد أن جل العلماء والمفكرين الذين برعوا في مختلف المعارف (الدين، الفلسفة، اللغات، الطب، الفلك، الكيمياء، الحساب، الهندسة...) آمنوا بضرورة التكامل المعرفي، وبأن المعرفة هي جوهر الكون الإنساني، فبرعوا في شتى المجالات على ضوء المعرفة والفكر، وكأنهم يرون المجتمع أصلاً وغاية، أصلاً لنزعة الإنسان نحو النجاح والتكامل، وغاية للسمو الإنساني المائل في العقل والتميز.

¹ - مقال "مسألة النفس ومراجعة الذات"، أحمد الخليلشي، مجلة الواضحة، مرجع سابق، ص: 18.

ثالثا: مجتمع المعرفة في ظل الانفجار المعلوماتي وأزمة العمل

عرف عصر الانفجار المعرفي نموا سريعا في معظم حقول المعرفة اليوم، بحيث صار لزاما على الفرد المسلم فتح نافذة في الدائرة الشرعية، والانفتاح على باقي العلوم والمعارف؛ والحال أنه في أمس الحاجة إلى هذا الانفتاح المعرفي الكوني، وذلك لاعتبارات عدة: منها ما يتعلق بصناعة شخصيته وتنميتها، ومنها ما يسعى إلى إيجاد حلول للمشاكل الإنسانية والمجتمعية العالقة والتي قد لا تحل إلا بالانخراط في المعرفة الكونية المختلفة الروافد، ومنها ما يكسبه الأجر والثواب، وذلك بامتلاكه لمعارف وعلوم معينة، يستفيد منها أولا ويفيد بها الآخر ثانيا، والاعتبار الآخر والمهم تسهيل اندماجه في المجتمع وتحقيق فضاء المشترك الإنساني، وبالتالي قيامه بدور خليفة الله في الأرض أحسن قيام.

ويرتبط مجتمع المعرفة بالمعلومة وطرق تحصيلها وتقاسمها بين أفراد المجتمع (سواء في المجتمع المحلي أو العالمي)، وبما أن المعلومة تعتبر إحدى مكونات المعرفة نطرح تساؤلا يفرض نفسه، وبممكننا صياغته على الشكل الآتي: ما الذي يميز المرحلة الراهنة - المتسمة بالانفجار المعلوماتي - بخصوص انتشار المعلومة عن المراحل سابقتها مادامت كل المجتمعات البشرية عبر تاريخها ظلت تنتج وتوظف المعلومة؟

شهدت الأقطاب العالمية البارزة سباقا سريعا في تحديد مصير العالم¹، وذلك حسب اعتبار كل قطب للمعيار المتحكم في توجهات العالم؛ فمن قائل أن هذا المعيار يتجلى في الاقتصاد، وقائل بأن

¹ - أفضت ظاهرة العولمة إلى بروز أقطاب تتصارع فيما بينها من أجل السيطرة على العالم: أولها القطب السياسي الذي ادعى أنه هو الذي يحدد مصير العالم بموجب القرارات السياسية التي يتخذها؛ وهو القادر على إعادة تنظيم العالم وفق منظور سياسي محدد. أما الثاني فيتمثل في القطب الاقتصادي الذي ادعى أنه هو الذي يدبر العالم. فتحكمه في الاقتصاد يحول له تحديد مصير العالم. أما القطب الثالث وهو الثقافي والفكري، متمثلا أساسا في وسائل الاتصال والتواصل، فيدعي أنه المتحكم في إيصال القرارات السياسية والاقتصادية إلى مختلف أرجاء العالم. فنحويله العالم إلى قرية صغيرة يخوله التحكم فيه. إلا أن المعادلة تغيرت

السياسة هي المتحكمة في مصير العالم، ثم قطب آخر يصر - ويؤكد معه السياق العالمي - أن المجتمعات عدلت عن المرحلة الاقتصادية الصناعية والمرحلة السياسية إلى مرحلة أخرى بارزة ومنعطف فعال يتجلى في بزوغ شمس الثورة المعلوماتية عن طريق الانتشار الواسع لوسائل التكنولوجيا الحديثة، والتي أسهمت في نشر المعرفة وتقاسمها مع كل أفراد القرية الصغيرة.

واليوم؛ نجد أن المجتمعات التي تسعى إلى تحقيق التقدم والنجاح أجمعت على قوة وفعالية الاقتصاد المعرفي أو الاقتصاد الرقمي، وبموجب ذلك " أعطى للمعلومة الدور المركزي في قيادة العالم، وأضحت المرجعية الأساسية للقرارات التي تتخذ في مختلف الميادين"¹.

إن الباحث في سياق ظهور فكرة "مجتمع المعرفة"، يجد أن التحول الذي عرفته المجتمعات الغربية في نهاية القرن الماضي؛ والمتمثل في انتقال هذه المجتمعات من مجتمعات تعتمد على صناعتها للسلع وتسويقها لها إلى مجتمعات تصنع المعرفة وتسوقها للعالم وتعتمدها سلعة لقضاء مآربها وأغراضها، يجد أنه أسهم في بزوغ إبداع فكري حاول تشخيص هذه العملية، ووصفها حسب ما يجري في العالم؛ فأطلق عليها "مجتمع المعرفة".

ويعتبر "دانيال بيل" أول المؤسسين لفكرة مجتمع المعرفة، وذلك في كتابه المنشور مطلع السبعينيات من القرن الماضي بعنوان "The Coming of Post-Industrial Society (قدوم مجتمع ما بعد الصناعة) أشار فيه إلى مركزية المعرفة النظرية في المجتمع الجديد، وتوليد فرص جديدة مرتبطة بالنشاط المعرفي. كما أَلّف "مانويل كاستلز" كتابه " Society and Culture;

= في السنين الأخيرة بعد أن تحالف القطب الثاني بالثالث، وظهر ما يسمى باقتصاد المعرفة. [أنظر: الذكاء الصناعي وتحديات مجتمع المعرفة، حسان الباهي، (أفريقيا الشرق - الدار البيضاء، ط1 - 2012م)، ص: 15 (الإحالة رقم: 1)].

¹ - الذكاء الصناعي وتحديات مجتمع المعرفة، ص: 13.

"The Information Age: Economy" والذي نظر فيه إلى مجتمع المعلومات كمجتمع شبكي، تبرز فيه قوة الهويات في مواجهة العولمة، وأزمة الدولة الصناعية الجامدة الآخذة في التحول.¹ يتفق كل عاقل على أن "مجتمع المعلومات هو شرط ضروري ولكنه ليس بكاف لقيام مجتمع المعرفة، الذي يحتاج لأكثر من مجرد التوظيف النشط للتكنولوجيا الجديدة"²، ذلك أن التوظيف المجرد من العمل بالنسبة للتكنولوجيا الحديثة لا يمكنه أن يفي بالغرض (صناعة مجتمع المعرفة). وكما ارتبط الأجر بالعمل، وجعل هذا الأخير شرطا لنيل الأول، فيصير العمل -أيضا- شرطا في بناء مجتمع المعرفة.

وبالرغم من الانتشار الواسع لوسائل نشر المعلومة وتيسير الوصول إليها، يظل المجتمع العربي مفتقرا لصناعة المعرفة، وسيظل! ما لم يحقق المزاوجة بين المعرفة تلك وبين العمل بها وكذا توظيف الوسائل الحديثة في نشر المعلومة وسهولة امتلاكها في صناعة ذاته أولا، ثم في صناعة مجتمع العلم والمعرفة ثانيا.

¹ - الطريق إلى مجتمع المعرفة: نحو نموذج إسلامي للتواصل المعرفي والاتصال العلمي، محمد بابكر العوض، (هيئة الأعمال الفكرية، دار السداد للطباعة - الخرطوم، ط1 - 2012م)، ص: 125.

² - مقال "العلم والمعرفة في رؤية القرآن للعالم ودلالاتهما على مفهوم مجتمع المعرفة"، مرجع سابق، ص: 49.

وفي ختام هذا الباب؛ يتبين أن حقيقة الإنسان الكاملة انفراد بها الوحي، وأن لا فائدة ترجى من وراء أي دراسة جزأت الإنسان أو غلّبت جانباً فيه على آخر، فالوحي خاطب في الإنسان كل مكوناته (جسمه، عقله، قلبه، روحه، نفسه)، وفضلاً عن هذه الأساسيات؛ قرن الإسلام هذا الكائن بمقومات تزكيه وتوجهه نحو الوجهة الصحيحة للتمييز؛ فأشخص له القدوات ليقنتدي بها، ودعاه إلى التشبع بمجموعة من القيم التي تضيء عليه الوجود الفعال والتأثير الإيجابي الحسن في الآخر، ثم في الأخير أن جعله وسط مؤسسة الأسرة؛ اللبنة الأولى في البناء المجتمعي، فهي مدرسة الصناعة الإنسانية التي تصنع القدوات للفرد وترسخ القيم وتضطلع بعملية التنشئة الاجتماعية.

إن الدراسات والأبحاث المعاصرة في التنمية الذاتية ليست كلها في تصنيف واحد؛ حيث إن بعضها يتسم بالإبداع والتميز، والبعض الآخر مجرد حشو واجترار للكلام، وقد انتقينا منها الأعمال الجادة (العربية منها أو الأجنبية) والتي وافقت نظرة الوحي؛ فهذا الأخير دعا في آياته وكذا السنة الشريفة المطهرة إلى التميز في مختلف المجالات، ورسم للراغب في التميز خريطة توصله لبلوغ أهدافه. لذلك؛ فمنهجية العمل بالتقاطعات بين العلوم ونشدان التكامل المعرفي بين العلوم والمعارف أمر محتم، إذ الخبرات تتلاقح، والأفكار تتعضد، والنظريات تتكامل...

إن وصولنا إلى محتم هذا الإطار النظري يعني أننا رسمنا الخريطة والرؤية التي سنعمل على دراسة السيرة النبوية من خلالها، لذلك؛ فسيكون الباب الثاني مرآة تعكس شقه الأول، عملياً؛ في كل مبحث مبحث، تطبيقياً لما جاء فيه.

فالله أسأل أن يوفقني لما أصبو إليه من وراء هذا العمل، ويسددي لاختيار المنهج الأمثل.

الباب الثاني:

الإكهار التصيقي لصناعة التميز وتنمية المهارات

في السيرة النبوية

الفصل الأول: صناعة الإنسان ومقوماتها في السيرة النبوية

- المبحث الأول: تجليات صناعة الشخصية الإنسانية في السيرة النبوية

- المبحث الثاني: مقومات صناعة الإنسان من خلال السيرة النبوية

الفصل الثاني: صناعة التميز وتنمية المهارات من خلال السيرة النبوية

- المبحث الأول: صناعة الأهداف في السيرة النبوية من خلال حدث الهجرة

- المبحث الثاني: تنمية مهارات الحياة من خلال السيرة النبوية.

تمهيد:

إن سعيي في هذا الباب يتجاوز اعتباره مرتعا لعرض النماذج والملاحم الدالة على تنمية المهارات وصناعة التميز داخل السيرة النبوية إلى اعتباره شقا يؤصل للنظريات والرؤى التي جاءت بها مختلف العلوم (علوم التربية، التنمية الذاتية، علم النفس...) والتي عرضتها في الإطار النظري من هذا البحث.

وأملّي أن تتكون لدى متصفح فصول هذا الباب ومباحثه وفروعه قناعة حول شمولية السيرة النبوية واستغراقها لكل الجزئيات التي عرضتها آنفا، كما أطمح أن يجيب هذا الشق من البحث على أسئلة البحث، لاسيما تلك المتعلقة بسبق السيرة النبوية وتطرقها لكل جزئيات حياة الإنسان وتفاصيلها.

وقبل البدء في معاينة الشطر الثاني من البحث، تجدر الإشارة إلى أن الاستراتيجية المتبعة فيه ترتبط أشد ارتباط بالاستراتيجية سابقة والتي اتبعتها في الشق النظري؛ حيث سيجد القارئ لكل جزئية تمت دراستها في الجانب النظري نظيرتها الموافقة لها في هذا الجانب التطبيقي من البحث.

الفصل الأول: صناعة الإنسان ومقوماتها في السيرة النبوية

المبحث الأول: تجليات صناعة الشخصية الإنسانية في السيرة النبوية

إن الناظر في سيرته صلى الله عليه وسلم يجد أنها حافلة بملامح صناعة الإنسان المسلم، وزاخرة بتجليات أعمال أساسيات تلك الصناعة التي سبق التفصيل فيها، بل إن مقصد السيرة النبوية الأسمى يتمثل في بناء الإنسان الجديد، وإخراجه في صورة ناصعة تجسد النموذج الإنساني الحق، وترجم حقيقة الاستخلاف ومعنى الأمانة التي تقلدها الإنسان.

لقد تكفل البارئ جل وعلا بصناعة شخصية رسوله محمد صلى الله عليه وسلم؛ صناعة تراعي مختلف الأبعاد؛ سواء في البعد الروحي النفسي، أو في البعد العقلي القلبي، فضلا عن البعد الجسمي المتمثل في جسده المحسوس والمشاهد.

فما هي إرهاصات الصناعة الربانية للشخصية النبوية؟

وما هي تجليات هذه الصناعة داخل أسوار السيرة النبوية؟

المطلب الأول: الصناعة الربانية للشخصية النبوية.

لقد كانت بعثة محمد بن عبد الله -عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم- منعطفًا حاسمًا؛ أذن فيه الخالق عز وجل بصناعة الإنسان المستخلف الجديد، الذي يوثق صلته بينه وبين خالقه من جهة، ويقوم بمهمته في تحمل الأمانة تجاه الكون من جهة أخرى.

ولنشدان إخراج هذه الشخصية التي ستضطلع بتحمل هذه الأمانة وتحمل على عاتقها مسؤولية الاستخلاف تكفل عز وجل بصناعة الشخصية القدوة لهذه الأمة المنتظر منها تمثيل النموذج الإنساني المصلح للمجتمع الإسلامي.

وبالعودة إلى تاريخ بعثة رُسل الله وأنبيائه نجد أن الخالق تكفل بإعدادهم وصناعتهم، إذ هو نخبه الخلق، والمصطفين المطهرين الذين سيوقعون باسم رب العالمين، ويدعون الناس إلى ارتباطهم بحبل خالقهم.

وقد بين عز وجل أنه لا يرسل إلا من تأهل لهذه المهمة الجليلة، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ¹)، لذلك يقول الحق جل وعلا عن نبيه موسى عليه السلام: (وَأَلْفَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي²) وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي³)، فوعد جل وعلا نبيه موسى بأن يربي حسب ما أَرَادَهُ ربه، ويأخذ من الرعاية والعناية القدر الأوفى والأكمل، ذلك أن الله تعالى صنعه لنفسه واختاره لإقامة حجته، قال عز وجل: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي³).

ولعل ثمار هذه الصناعة، ونتائج هذه الرعاية الربانية لنبيه تتجلى في قصة ابنتي شعيب مع

¹ - سورة الأنعام: جزء من الآية 125.

² - سورة طه: الآيتان 38-39.

³ - سورة طه: جزء من الآية 41.

موسى عليه السلام، حيث وصفناه بالقوة الجسدية والنفسية وتحليه بالأمانة الأخلاقية.

وكما صنع الخالق باقي الأنبياء ووضع فيهم من شروط هذه الصناعة وأساسياتها... أخرج خاتمهم -صلى الله عليه وسلم- في أحسن إخراج وأقوم نموذج، إيدانا منه تعالى بحصول انفصال تام بين العصر الجاهلي الذي لم يكن فيه للإنسان هدف ولم تُرسم له غاية سوى المشاركة الوظيفية لباقي المخلوقات، وبين العصر الإسلامي الجديد الذي كان محطة صناعة الأنموذج السوي للإنسان العابد لله والفعال في الوجود.

لقد هيا الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام لهذا الانفصال، فتكفل بصناعته وإخراجه للعالمين في أكمل حلة وأبهاها؛ كاملة الصنع والتميز في كل مكوناتها؛ سواء على المستوى الداخلي المعنوي أو الخارجي المشاهد.

لقد حبا الله عز وجل نبيه بالرعاية الشاملة منذ اللحظة الأولى لولادته وهياً له من الأمور ما يؤهل شخصيته لتحمل أعباء الدعوة الخاتمة للرسالات الموجهة للعالمين المستمرة إلى قيام الساعة، فلم تكن نشأته يتيماً، مروراً بديار حليلة السعدية وحادثه شق الصدر، وحفظه من دنس الجاهلية واشتغاله برعاية الغنم والتجارة وما حُجّب إليه من الخلوة وغيرها إلا منهجاً متكاملًا في بناء شخصية النبي الخاتم للرسالات المؤهل في كل الجوانب لتحمل الأعباء والصبر على الأذى والجد والمثابرة دون كلل أو ملل لإقامة هذا الدين وتحمل العقبات والقدرة على إحداث التغيير ليكون الدين حاضراً مكتملاً حُجّة على البشرية حتى قيام الساعة¹.

فكانت بداية الصناعة الربانية لشخصيته صلى الله عليه وسلم أن ترعرع يتيماً، وفي ذلك أثر واضح في شخصيته من رقة ولين وعطف على اليتيم وإعانة للفقير.

¹ - مقال "الرعاية والإعداد الإلهي للنبي قبل البعثة ودورها في نجاح الدعوة الإسلامية"، يحيى معابده:

(Agri Islami Ilimler Dergisi -AGIID- 1, 2017), p: 100.

ويتضح من ذلك أن يُتمه عليه السلام جزء لا يتجزأ من الرعاية الإلهية له قبل البعثة، فليس من باب الصدفة أن يولد يتيماً، وإنما أراد أن يكون ذلك جزءاً من تشكيل شخصيته ليكون مؤهلاً لحمل النبوة من جهة ومؤهلاً لقيادة الأمة ورعاية الإنسانية؛ فيعطف على الفقير ويتفقد الأيتام ويلتمس حاجات الرعية ويُسهم في تحقيق السلم العالمي والمجتمعي¹.

ومن ملامح هذه الصناعة أن الله تعالى هياً لنبيه مجال الصناعة الجسمية، وعي "ن له مهنة مناسبة لتكوين جسم قوي، فقد "رعى الأغنام؛ وهذا فيه كسب شريف، وتربية نفسية، وترويض على العطف على الضعفاء، وسياسة للأوابد، واستنشاق للهواء النقي الصافي، وتقوية الجسم، وفوق ذلك كله أنه اتبع لسنة الأنبياء"². كما أن في رعي الغنم تأييد رباني لكسب قوت شريف وكرام، يقتات منه عليه السلام ويعيش به.

والسيرة شاهدة بمواقف تدل على انفراد نبي الله في البنية والقوة الجسدية التي أوتيتها، فكان صلى الله عليه وسلم إذا مشى أسرع حتى يهرول الرجل وراءه فلا يدركه³، وأنه صلى الله عليه وسلم صارع أبا الأشدّ الجمحي -واسمه كلدة- فصرعه. وبلغ من شدة أبي الأشدّ أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة من تحت قدميه فيتمزق الجلد من تحته ولا يتزحزح⁴.

وروي عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق عرض لنا فيه صخرة عظيمة شديدة، لا يأخذ فيها المعول، فاشتكيننا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآها أخذ ثوبه، وأخذ المعول، فقال: «باسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلثها، ثم ضرب الثانية فثلغ الثلث الآخر» ثم ضرب الثالثة

¹ - مقال "الرعاية والإعداد الإلهي للنبي قبل البعثة ودورها في نجاح الدعوة الإسلامية"، يحيى معابده، مرجع سابق، ص: 102.

² - السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، ص: 109.

³ - الطبقات الكبرى، ابن سعد، (تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 - 1990م)، 287/1.

⁴ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الشامي، 515/1.

فثلغ ثلث الصخر¹.

ويكفي في بيان ملامح قوته الجسمية المواقف التي سجلتها السيرة النبوية وحفظتها للغزوات التي خاضها صلى الله عليه وسلم، وما تحلى به فيها من شدة العزيمة وقوة الجسم في مواجهة الأعداء وقتالهم.

أما مظاهر الصناعة الربانية له صلى الله عليه وسلم -على مستوى الصناعة النفسية- ما حدث له في واقعة شق الصدر؛ فعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أُتيتُ فانطلقوا بي إلى زمزم، فشرح عن صدري، ثم غسل بماء زمزم، ثم أنزلت»². فقد تكفل عز وجل بِغَسْلِ قلبه الشريف، وتنقيته من حظ الشيطان، ومَلِّئِهِ بالإيمان.

فحادثة شق الصدر جزء من الرعاية الإلهية للنبي صلى الله عليه وسلم وإعداده للرسالة... ومن هنا لا بد من التأكيد على أن الشيطان عدو للإنسان يعمل على إفساده، فالنبي عليه السلام تجنب الوقوع في الشر وتفتح على مفهوم الخير والشر في مراحل وعيه الأولى حتى أصبح الخير أصيلاً وقريناً له في حياته... كما جاء التحذير الإلهي لنبيه في سن مبكرة بأسلوب متوازن حتى يكون لذلك آثار نفسية إيجابية³.

وانظر إليه عليه الصلاة والسلام وهو الذي يدعو بهذا الدعاء: "اللهم اغسلني من ذنوبي بالماء والثلج والبرد، ونقّ قلبي من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس"⁴.

إن صناعة الشخصية النبوية لمحمد صلى الله عليه وسلم جاءت شاملة ومتكاملة الأساسية،

¹ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، 47/7.

² - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات وفرض الصلوات، ح: 260.

³ - الرعاية والإعداد الإلهي للنبي قبل البعثة ودورها في نجاح الدعوة الإسلامية، يحيى معابده، مرجع سابق، ص: 103.

⁴ - شرح صحيح مسلم، أبو الأشبال حسن الزهيري آل مندوه المنصوري، (مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع

الشبكة الإسلامية <http://www.islamweb.net>، 14/48.

ولا غرو في ذلك، والبارئ جل وعلا أعدّ للبشرية الوحدة القياسية لأنموذج الشخصية الإنسانية؛ وحدة قياسية اجتمعت في صناعتها كل الأساسيات المهمة في بناء شخصية الإنسان، فكان هذا تأهيلاً له عليه السلام لحمل ثقل الرسالة أولاً، ثم لصناعة شخصية الإنسان المسلم الجديد صناعةً تتوفر فيها كل المقومات التي تؤهله لبناء المجتمع الجديد وصناعة التميز في مختلف مجالاته.

المطلب الثاني: تجليات صناعة الإنسان في السيرة النبوية.

إن الحديث عن صناعة الإنسان في السيرة النبوية حديث عن مصنع لتكوين الشخصية الإسلامية القوية في كل المجالات؛ سواء على المستوى الجسدي أو على المستوى العقلي القلبي أو الروحي النفسي.

ونحن في غنى عن عرض ملامح القوة المادية (الجسمانية) لدى أصحابه صلى الله عليه وسلم، فالحديث يطول ويمكن أن يستغرق منا الوقت الكثير لجردها، ذلك أن السيرة النبوية مآلى بمظاهر تثبت قوة أصحابه الجسدية في الحروب والمعارك.

الفرع الأول: تجليات صناعة الشخصية الإنسانية من خلال حدث الهجرة

ففيما يخص المعاني المعنوية للقوة، والمتمثلة في الصناعة النفسية للإنسان، عند التمعن في سيرته صلى الله عليه وسلم نجد أنها عاجلت في كبرى أحداثها مسألة النفس، وذلك في كثير من المواضع؛ من أهمها تلك التي ربطت فيها [فعل] الهجرة بالنفس الأمانة بالسوء.

إن الحديث عن الهجرة في السيرة النبوية باعتبارها منعطفاً مهماً في تاريخ الرسالة المحمدية حينئذ هو حديث عنها على الدوام في حقيقة الأمر، إذ يتعدى فعل الهجرة مجرد تنقل الجسد بين البلدان إلى هجر النفس الإنسانية لقبائح الأفعال والتصرفات، وذلك باعتبارها أسساً مهماً من أسس صناعة الإنسان، وأنه لا يمكن الحديث عن حقيقة الصناعة الإنسانية ما لم نتحدث عن صناعة النفس

البشرية وترويضها وتطهيرها من القبائح وزجرها عن المنكرات.

يقول عبد الهو الشحاري: "ليس المهاجر حقيقة من هاجر من بلاد الكفر، بل من هجر نفسه، وأكرهها على الطاعة، وحملها تجنّب المنهي، لأن النفس أشدّ عداوة من الكافر؛ لقربها وملازمتها وحرصها على منع الخير... وكأنّ المهاجرين خوطبوا بذلك لئلا يتكلموا على مجرد التحوّل من دارهم حتى يمتثلوا أوامر الشرع ونواهيهِ"¹.

وهذا ما يميز دراسة جوانب الشخصية الإنسانية في ظلال الوحي؛ إنها هندسة كاملة متكاملة عاجلت صناعة هذا الكائن المكرم من كل الجوانب المتدخلة في تكوينه؛ فكان الوحي سراج العقل الذي يهديه إلى السبيل السوي، ومطهرًا لبواطن النفس، ومضفيًا الطمأنينة على القلب.

جاء في السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمر بالصدع أتى جبل الصفا فصعد عليه ثم نادى: "يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب، أرايتم لو أخبرتكم أنّ خيالاً بسفح هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم صدقتموني؟" قالوا: نعم! قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو هب، لعنه الله: تبا لك سائر اليوم! أما دعوتنا إلا لهذا.²

يقول أبو الحسن الندوي: "وقد تبّه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكمة لا حكمة فوقها على أن العدو اللدود كامن في نفوسهم، مترصد في بيوتهم، وهو أولى بأن يخافوه ويأخذوا له عدته"³.

ولعل هذا ما جاءت الرسالة المحمدية تحاول معالجته، أي؛ معالجتها للنفس الإنسانية وتطهيرها من درن الشرك وعبادة غير الله، ثم السمو بها نحو المعالي سموًا ينزهها عن سفاسف الأمور وزخرفها،

¹ - منتهى السؤال على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، عبد الله الشحاري، 23/4-24.

² - السيرة النبوية، ابن كثير، 1/456.

³ - السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، ص: 122.

ويعلقها بخالقها تعلقاً يجعل منها نفساً مطمئنة يحجمها عن الأمر بالسوء.

فبعثة محمد صلى الله عليه وسلم شكلت منعطفاً مهماً فصّلت فيه إنسان الجزيرة العربية عن سيرة الجاهلية المظلمة، هدفه الأسمى إعادة صناعة الإنسان الجديد. ولعل ملامح بداية هذا الانفصال تجلت في "انفصال الرسول صلى الله عليه وسلم نفسياً وروحياً عن عصر الجاهلية والاتجاه بالقلب والنفس إلى العالم الأعلى"¹.

وكذلك الأمر نفسه على مستوى الصناعة القلبية؛ حيث تجلت ملامح هذه الصناعة داخل السيرة النبوية في كثير من المواطن، ودلّت على ما للقلب من دور في صناعة الإنسان وتميزه. فلا غرو أنه مركز الشخصية ومنه يصلح ما يصلح في الإنسان، ويفسد ما يفسد. وليس هذا في حالة الأفراد فحسب، بل دوّنت كتب السيرة وسجلت مواقف لجماعات هيأها الله وصنع قلوبها لاستقبال الدعوة المحمدية بصدر رحب وقلب سليم.

ذكر أبو الحسن الندوي سبب تهيؤ الأنصار للإسلام، فقال: "وكان من صنع الله تعالى لرسوله وللإسلام أن هيأ الله الأوس والخزرج - وهما قبيلتان عربيتان عظيمتان في مدينة يثرب - لتقدرا هذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها، وتسبقاً أهل عصرهما، وأبناء الجزيرة، إلى الترحيب بالإسلام والدخول فيه، حين تنكرت له قبائل العرب وفي مقدمتها وعلى رأسها قريش ... وقد ساعدت على ذلك عدة عوامل، هي من خلق الله تعالى وتيسيره وصنعه"².

ولعل من بين هذه العوامل التي طبع الله قلوب أصحاب رسوله عليها من الرقة واللين وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق ما أخبر به صلى الله عليه وسلم في الحديث: "أتاكم أهل اليمن

¹ - النبوة اصطفاً وقدوة، أحمد مختار، ص: 33.

² - السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، ص: 154.

أرق أفئدة، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية"¹. وقد حدثنا القرآن الكريم عنهم فقال: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)².

ولا غرابة أن نلفي تميز الأنصار بثناء الله عليهم في كتابه العزيز؛ فقد تميزوا بصلاح المضغة التي إذا صلحت صلح سائر الجسد.

الفرع الثاني: تجليات صناعة الشخصية الإنسانية من خلال حدث الإسراء والمعراج

أما فيما يتعلق بالعقل ودوره في صناعة الإنسان، فصفحات السيرة النبوية زاخرة بمواقف وأحداث تعرض لنا صورا ناصعة من هذه الصناعة، وسأكتفي ببعضها مقتصرًا لا مستوفيا.

لقد مرَّ معنا في معرض الحديث عن الصناعة العقلية معاني العقل ودلالاته وحدوده، وتبين لنا أن العقل المجرد مهما وصلت قدرته وتشعبت مداركه يبقى قاصرا عن إدراك ما وراء المعقول، واستساغة ما وراء الطبيعة، وبالتالي يعجز عن تصديق كل ما يتجاوز إدراك حواسه.

وبالعودة إلى قصة الإسراء والمعراج التي حدثت للنبي صلى الله عليه وسلم قبيل الهجرة، نجد أن المعاندين لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم كذبوا الحادثة وأنكروها، ووصل ببعض المسلمين أن ارتدوا عن دينهم، فقالوا: "هذا والله الأمر البين، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة،

¹ - مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد البزار، (تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقوق الأجزاء من 1 إلى 9) وعادل بن سعد (حقوق الأجزاء من 10 إلى 17) وصبري عبد الخالق الشافعي (حقوق الجزء 18)، مكتبة العلوم والحكم -

المدينة المنورة، ط1 (بدأت 1988م، وانتهت 2009م)، مسند أبي حمزة أنس بن مالك، 237/17. ح: 9911.

² - سورة الحشر: الآية 9.

وشهرا مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟¹. فاستبعدوا حدوث ذلك وأنكروه لأن عقولهم عاجزة عن حدوثه وتصديقه، إلا أن أبا بكر الصديق آمن بإمكانية ما حدثه عنه غير المصدقين، فقال رضي الله عنه: "والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه... فيومئذ [سُمِّي] الصديق"².

من خلال هذه الواقعة يمكن استنباط ملامح تميز العقل الإسلامي، وتتجلى هذه الملامح في:

- أن العقل داخل فلسفة صناعة الإنسان في المنظومة الإسلامية يمتاز بالسداد (مُسَدَّد بالوحي) الذي يستمدّه من الإيمان الجازم بالوحي عن العقل المجرد (المجرد من الوحي)، المنكر لما وراء العالم المحسوس؛ ذلك أن أبا بكر ما كان ليصدّق ما يخالف طبيعة العقل البشري لولا إيمانه الكامل بالله، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم بالغيّب.
- أجابهم أبو بكر بالمنطق نفسه الذي أنكروا به حدوث واقعة الإسراء والمعراج؛ فقد أنكروا وقوع ذلك قياسا على المدة التي تستغرقها العير من مكة إلى الشام، لبيطلوا بذلك خبر إسرائه ومعراجه عليه السلام في ليلة واحدة، وصدّق أبو بكر الخبر قياسا على المدة التي تستغرقها الوحي - أحيانا - في النزول على رسول الله عليه السلام في نازلة من النوازل.

- أن الواقعة بيّنت كذلك مكانة أبي بكر الصديق، ومدى محبته لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وقوة إيمانه، وسلامة عقله. فحبه لصاحبه رسّخ لديه إيمانه به، وصنع من عقله عقلا يقبل كل شيء يصدر عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

¹ - الروض الأنف، 255/3.

² - المصدر نفسه، 256-255/3.

إن المكانة التي يتبوؤها العقل في الثقافة الإسلامية مكانة مرموقة وعالية، فكما سبق وأن بيّنا أنه لا سبيل إلى ولوج باب الحقيقة ما لم تتم المزاجية بين الشرع والعقل، إذ لا يمكن الاستغناء عن أحد الأصلين على حساب الآخر.

من هنا تتجلى لنا أهمية تسليط الضوء على صناعة هذا المكون الهام من مكونات صناعة الشخصية الإنسانية، وفي سيرة خير الخلق بيان أهمية هذه الصناعة ودورها في صناعة التميز.

الفرع الثالث: تجليات صناعة الشخصية الإنسانية من خلال لقاء ملك الحبشة

جاء في قصة إرسال وفد المسلمين المضطهدين إلى بلاد الحبشة كلام بليغ لجعفر بن أبي طالب أمام النجاشي؛ هذا الخطاب يُمكننا من ملامسة التباين الكائن بين العقل السليم الذي يقبل الحقائق البديهية، وبين غيره مما يُعانَد ويُجحد الحق، لا لشيء إلا للإنكار المحض.

قال جعفر رضي الله عنه مخاطبا ملك الحبشة: "أيها الملك؛ كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده - لا نشرك به شيئا - وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... إلخ"¹.

من خلال هذا المقتطف من الخطاب الذي قدّمه جعفر رضي الله عنه أمام ملك الحبشة نستشف أنه كان صاحب عقل حصيف، وبلاغة عقلية لا مثيل لها، إذ استقبح بعقله ما كان

¹ - الروض الأنف، 3/150.

العرب يزاولونه ويأتوه من الفواحش والمنكرات، واستحسن ما جاءت به دعوة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول الندوي: إن كلام جعفر بن أبي طالب أمام ملك الحبشة وتصويره للإسلام، كلام حكيم قد جاء في أوانه ومكانه، وقد دلّ على بلاغة صاحبه العقلية، قبل أن يدلّ على بلاغته العربية البيانية (...). ويدلّ كذلك على سلامة الفطرة، ورجاحة العقل، اللتين فاق فيهما بنو هاشم قريش¹.

الفرع الرابع: تجليات صناعة الشخصية الإنسانية من خلال شخصية خديجة عليها السلام.

إن المُنقَّب عن أسرار الصناعة العقلية في السيرة النبوية يجد أنها لم تكن مقتصرة على الرجال فحسب، بل كان للنساء أيضا نصيب من هذه الصناعة.

ومن تجليات ذلك ما جاء في كتب السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه جبريل عليه السلام وأمره بالقراءة هرع إلى زوجته خديجة رضي الله عنها، خوفا من المشهد العظيم الذي لقيه بغار حراء، فقالت له بثبات عقل ونقاء فطرة: "كلا؛ والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"²، وفي هذا أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة رضي الله عنها، وجزالة رأيها، وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعظم فقهها³.

يقول أحمد زواوي واصفا رجاحة عقل خديجة رضي الله عنها: "ولا يمكن أن تقوم المرأة بهذه المهمة الشاقة، إلا إذا كانت حكيمة في تصرفاتها، لبيبة في أحكامها، رزينة في أقوالها، فإن الزوج لو

¹ - السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، ص: 133-134.

² - صحيح البخاري، بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، 7/1، جزء من ح: 3.

³ - صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، (دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط2- 1392هـ)، 202/2.

اعتاد منها خفة العقل، وسفاهة الرأي وإذاعة السر، انصرف عنها لغيرها، يستشير في أمره، ويستأمنه على سره"¹.

فقلت -رضي الله عنها- ما قالته بناء على ما عاينته في زوجها وعاشته معه، وما عرفت به رسول الله عليه السلام من صفات وأخلاق يستحيل أن يخيب صاحبها بها، أو أن يخاف شيئاً يضره وهو على ما عليه من تلك المآثر، ثم أنها رضي الله عنها استطاعت بمجرد عقلها (قبل نزول الوحي) أن تميز بين الحسن من الفعل وبين القبيح منه، ذلك أنها ذكرت أفضل الأعمال وأحسنها (صلة الرحم، مساعدة الضعيف، الصدقة، الإحسان إلى الضيف، الإعانة على الحق).

وفي ختام هذا المبحث - وبعد عرض ملامح صناعة الشخصية الإنسانية داخل السيرة النبوية - نعرض في المبحث الثاني مقومات صناعة الشخصية الإنسانية، كما سنبين حاجة السالك في درب التميز لهذه المقومات، وتتجلى في كل من: مقوم الأسرة، مقوم القدوة، ثم مقوم القيم.

¹ - شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أحمد زواوي، (دار القمة - الإسكندرية د. ط و د. ت)، 260/2.

المبحث الثاني: مقومات صناعة الإنسان من خلال السيرة النبوية

المطلب الأول: صناعة مقوم القدوة

لقد بينت السيرة العطرة الصناعة النبوية لقدوات البشرية بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وعرضت صناعته لهذه النماذج التي أخذت زمام القيادة والتغيير بعد رحيله صلى الله عليه وسلم.

وقبل بيان ذلك سنعرض أولاً للصناعة الربانية لأنموذج الاقتداء الأول؛ المثل الأعلى الذي انبثقت من مشرعه نماذج فريدة، بلغت منزلة رفيعة فترجمت جزئيات حياته لقدوات بشرية تسير على الأرض بهدي الوحي وبحكمة قائدها، وأسهمت بدورها في صناعة أعظم سيرة على الإطلاق.

إن المتأمل في حقيقة السيرة النبوية يجد أنها عبارة عن تفاصيل حياة شخصية سامية حُقَّ إطلاق لقب القدوة عليها ووسمها بأسمى الصفات؛ قدوة تكفل الخالق البارئ بصنعها ونحتها في قالب شاخص للعيان؛ في إنسان يتقاسم وباقي البشر كل الصفات الخلقية ويفوقهم في الخلقية، هو محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، الذي كان له شأن عظيم قبل مولده وبعده، ووفاته ترك وراءه إرثاً عظيماً للإنسانية فاق شيوعاً إرث كل العظماء على مر التاريخ.

ولا يزال المسلمون يقتبسون من هذا الإرث منهج حياتهم ويأخذون عن صاحبه أساليب وطرق التربية والتعليم وتكوين الأجيال.

إن استبيان العلاقة الرابطة بين مفهوم "القدوة" وبين "السيرة النبوية" يعود بنا إلى الوقوف على أسباب نزول الآية التي اختار لنا فيها ربنا عز وجل الأسوة الحسنة التي وجب التأسي بها في حياتنا، إذ يقول جل شأنه: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا¹، فنجد أنها جاءت في معرض الحديث عن واحد من أهم الأحداث في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا وهو غزوة الأحزاب. إن مجيء آية الأسوة الحسنة عند الحديث عن موقف مهم من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ليجيب عن السؤال المطروح: ما علاقة القدوة الحسنة بالسيرة النبوية؟

والإجابة تتلخص في أن السيرة النبوية هي محل الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم².

هي سيرة قدوة إذن؛ خلقتها شخصيته البشرية المتسمة بالعصمة والمهتدية بالوحي، هي صناعة ربانية امتزجت فيها تجربة الحياة بمَدَد السماء، فأنتجت لنا قدوة العالمين صلى الله عليه وسلم الذي صنع بدوره - من إنسان الجزيرة العربية حينئذ - إنسانا جديدا مميذا قادرا على تغيير البيئة المعكَّرة بأدران الجهل وبرائن الشرك، فأعاد صياغة الشخصية الإنسانية في قالب يستجيب لفحوى الوجود الإنساني ومتطلباته. ولا زالت سيرته صلى الله عليه وسلم إلى اليوم تصنع القدوات والقدوات تلو الأخرى، وتبهر البشرية جمعاء، تأكيداً وتحقيقاً لقوله عز وجل للملائكة: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)³.

¹ - سورة الأحزاب: الآية 21

² - مقال "الأسوة الحسنة في القرآن الكريم وتطبيقها في السيرة النبوية"، عماد الدين الرشيد، مجلة: جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 26، العدد الأول، 2010، ص: 431. بتصرف

³ - سورة البقرة: جزء من الآية 29

الفرع الأول: الصناعة الربانية لأنموذج الاقتداء (محمد صلى الله عليه وسلم)

وأقصد بـ "الصناعة الربانية" هنا انتخاب الله لصفوة البشر واصطفائهم، ليكونوا المثال الواقعي الحي للمثل الإلهية والقيم الربانية التي ارتضاها.

إن تجسيد القيم في أفعال وخطط يعطيها معناها الإمكانية الحق، إذ يتعرف الناس على هذه المثل في واقع حياتي حي، فتلتحم الفكرة العلوية بصورتها الأرضية، وتجري الأفكار والتعاليم الإلهية ملموسة دفاقة في الأرض جريان السيل، لا ظن ولا توهم ولا مرأى. ومن ثم ينتخب لها أولئك الذين تبدو العقيدة فيهم رائحة الجلاء والنقاء كما ينم البلور ذو الصفاء عما حوى، حتى إنك لا تميز بين الوعاء وما وعى. هؤلاء الصفوة يتولى الله سبحانه اختيارهم وهو العليم الخبير، ويجعل فيهم بقدرته ومشيتته الاستعداد للنبوة ليكونوا حقائق العقيدة المتحركة على الأرض¹.

ومن هؤلاء الصفوة؛ سيد الخلق، وإمام المصطفين، وسيد العالمين؛ محمد بن عبد الله عليه من الله أركى الصلاة والتسليم. وسنعرض لبعض إرهاصات الانتخاب الدالة على الاستعداد التام لتحمل مسؤولية القدوة والقيادة، سواء قبل نزول الوحي أو بعده.

العنصر الأول: قبل البعثة

بدأت بوادر أهلية محمد بن عبد الله لتبوؤ مقام القدوة تلوح في الأفق قبل بعثته بكثير، بل قبل مولده صلى الله عليه وسلم²، ذلك أن سيرته قبل البعثة لا تختلف عن سيرته بعدها إلا بالوحي.

والباحث في فترة ما قبل بعثته صلى الله عليه وسلم يجد من الإشارات والآيات الدالة الكثير مما

¹ - النبوة اصطفاء و قدوة، أحمد مختار، ص: 17.

² - ذكر الإمام السهيلي في شرحه لسيرة ابن هشام بعض هذه البوادر، ومن بينها: أن آمنة بنت وهب تُحَدِّث أنها لم تجد حين حملت به [صلى الله عليه وسلم] ما تجده الحوامل من ثقل ولا وحم. وروي عن عثمان بن أبي العاص عن أمه فاطمة بنت عبد الله أنها قالت: "حضرت ولادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرأيت البيت حين وضع قد امتلأ نورا، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع علي". أنظر: الروض الأنف، 93/2-94.

ينبئ بأن سيرة الرجل لن تكون مجرد سيرة عادية عابرة كسيرة أي شخص تُنسى بموت صاحبها وتتلاشى بهلاكه.

وكانت الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب، قد تحدثوا بأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل مبعثه لما تقارب من زمانه¹.

فقد استشرّف الراهب بحيرى أنه صلى الله عليه وسلم سيكون مميزاً لما لحظ فيه من العلامات الدالة والصفات المذكورة عنده، فقال لأبي طالب: " إِنَّهُ كَأَنَّ لَأَبْنِ أَخِيكَ هَذَا شَأْنٌ عَظِيمٌ"²، وكذلك قول ورقة بن نوفل للنبي عليه السلام قبل البعثة: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكَ لَنَبِيٌّ هَذِهِ الْأُمَّةِ"³.

فقبل نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم كان هناك تطلع لقدوم قدوة جديدة، وإيدان بتغيير جذري مرتقب، ينقذ البشرية كلها من الجهل والظلمات التي كانت تتخبط فيها.

لقد كان عليه السلام موضع قدوة وتقدير، فكانت قبائل قريش وقتئذ تأخذ بأرائه وترضى بحكمه، ومثال ذلك لما اختلفوا في وضع الحجر الأسود فجعلوا بينهم أول من يدخل عليهم، فلما أقبل عليه السلام قالوا:

"هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم أخباره الخبر، قال صلى الله عليه وسلم: "هلم إلي ثوبا"، فأتي به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال: "لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً"، ففعلوا، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه"⁴.

¹ - الروض الأنف، 2/194.

² - المصدر نفسه، 2/143.

³ - المصدر نفسه، 2/264.

⁴ - المصدر نفسه، 2/183.

والأمثلة على وفرة خصاله وعظمة أخلاقه وجميل تصرفاته كثيرة من أن تحصى، ولست هنا أسردها وأعدّها، إذ المقام لا يسمح بعرض فضائله وشيمه كلها، وإنما أكتفي بعرض موقف واحد من المواقف التي حوّت من الصفات والميزات ما يؤكد على اعتباره مؤهلاً لمقام القدوة وقيادته. أما ما يتعلق بالجانب الذاتي لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فيبدو أن الظروف البيئية والوراثية التي تسهم معاً في تكوين الإنسان وتمنحه صفاته الخلقية والخلقية، وتصوغ بنيانه الجسدي والنفسي، وتحدد قدراته العقلية واستجاباته العاطفية قد اجتمعت لكي تجعل من محمد صلى الله عليه وسلم الإنسان المهياً لتحمل المسؤولية التي أنيطت به بعد أربعين سنة من ميلاده؛ أربعة عقود في حياة الإنسان المحدودة، تمثل امتداداً زمنياً طويلاً أريد به أن يستكمل محمد الإنسان كل مساحات تكوينه الذاتي ونضجه البشري قبل أن يتاح له أول لقاء مع الوحي الأمين، وما أصعب اللقاء الأول بين ممثلي السماء والأرض، وما أشق الحوار!!¹.

هذا؛ وقد أتاحت لمحمد بن عبد الله كل مكونات التنشئة الاجتماعية السليمة التي مكنته بعد ذلك من القيام بمهمته على أحسن حال، "ومن أبرز هذه المكونات: شرف نسبه والإعداد البدني الجيد في البادية واستلهامه لدروس الفقر واليتم ورعي الغنم وممارسته للتجارة، فضلاً عن مشاركته لقومه في كثير من فضائلهم"². وكما هو الشأن بالنسبة لصناعة الخالق جل وعلا لموسى عليه السلام قبل التكليف، كانت الصناعة الإلهية لخاتم النبيين صناعة كاملة مضطعة لاستقبال مقام القدوة.

ومن التربية الإلهية لسيد الخلق صلى الله عليه وسلم أنه شبّ محفوظاً، مبتعداً عن أقدار الجاهلية وعاداتها، "فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأشدهم حياءً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والبذاءة، حتى ما أسموه في قومه إلا الأمين، يعصمه الله تعالى من أن

1 - دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، (دار النفائس - بيروت، ط2- 1425 هـ)، ص: 39

2 - قراءة في الشخصية الإسلامية من خلال السيرة النبوية، المسلولي، ص: 143.

يتورط فيما لا يليق بشأنه من عادات الجاهلية، وما لا يرون به بأساً، ولا يرفعون له رأساً، وكان واصلاً للرحم، حاملاً لما يثقل كواهل الناس، كرماً للضيوف، عوناً على البر والتقوى، وكان يأكل من نتيجة عمله، ويقنع بالقوت"¹. فكان هذا تأهيلاً ربانياً وتهيئاً إلهياً له صلى الله عليه وسلم استعداداً لتحمل مسؤولية الدعوة، إذ بناء القدوة يتطلب صناعة نموذج كامل، قادر على القيام بمهمة التغيير الجذري الذي تفرضه الحاجة عصرئذ.

وبعد هذه الظروف التي أسهمت في إعداد شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد هذه التنشئة الاجتماعية الفريدة جاء الوحي الإلهي ليجد شخصية كاملة، قوية، قادرة على تحمل جسامته المسؤولة المنوطة بها في الحياة، ومستشعرة لحقيقة الوجود الإنساني.

العنصر الثاني: بعد البعثة

شهدت مرحلة ما بعد بعثته صلى الله عليه وسلم مواقف عدة، "أول هذه المواقف وأعظمها هو انفصال الرسول صلى الله عليه وسلم نفسياً وروحياً عن عصر الجاهلية والاتجاه بالقلب والنفس إلى العالم الأعلى، إلى الله، وهذا المسلك مبدأ الانطلاق في تكوين الأمة ونبوغ حضارة الإسلام"².

يقول عماد الدين خليل واصفاً قدوم محمد عليه السلام: "إن مهمة أي دين سماوي شامل هي أن ينقل البشرية من وضع معين إلى وضع أرقى منه وفقاً للمهمة التي أنيطت بالإنسان عندما استخلفه الله على الأرض واستعمره فيها، وعندما انتصف القرن السادس للميلاد كانت جميع الأديان والمذاهب قد عجزت تماماً بما عانت من تمزقات وما استضافته من أجسام وقيم خاطئة غريبة، عن أداء دورها المنشود، وما كان لها، من ثم، إلا أن تفسح الطريق للقادم الجديد كي يأخذ على عاتقه مهمة القيادة في عملية الإعمار والتحصن، ولقد كان محمد هذا القادم، وبعد أربعين

1 - السيرة النبوية، أبو الحسين الندوي، ص: 108-109.

2 - النبوة اصطفاً وقدوة، أحمد مختار، ص: 33.

سنة من ميلاده تلقى رسالة الإسلام إلى العالم كله فأشار إلى الطريق الواحد لكل من يريد أن يحيا
كإنسان استخلفه الله في الأرض وكرمه على العالمين، وإلا فإن هنالك ألف طريق!!¹ فطريق التميز
داخل المنظومة الإسلامية واحد لا ثاني له؛ لا يصح إلا بالامتثال لأوامر الله والتأسي برسوله عبر
اتباع سيرته.

إن كل الذين انبثقت بداخلهم شرارة التوق إلى التميز والتغيير، وجدوا في شخصيته صلى الله
عليه وسلم ملاذهم، فتأسوا بأقواله وأفعاله وحركاته وشيمه وصفاته وكل خصاله، فارتقوا وصنعوا من
أنفسهم شخصيات سجلتها سيرته عليه السلام، فَضُمَّتْ أسماءهم إلى اسمه في معظم جزئيات حياته
وتفاصيلها.

فقد وجدوا القدوة الممكنة التقليد، "لأنه بشر منهم، يتسامى بهم رويدا رويدا ويعيش فيهم
بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم، وأرادها منهم فيكون هو
بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم. وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم
ينقلونها سطرا سطرا، ويحققونها معنى معنى، وهم يرونها بينهم، فتهفو نفوسهم إلى تقليدها، لأنها
مثلة في إنسان، ولو كان ملكا ما فكروا في عمله ولا حاولوا أن يقلدوه، لأنهم منذ البدء يشعرون
أن طبيعته غير طبيعتهم، فلا جرم يكون سلوكه غير سلوكهم على غير أمل في محاكاته، ولا شوق
إلى تحقيق صورته!"².

فمن رحمته تعالى أن جعل للبشر قدوات مثلهم، لذلك جعل الخالق من رسوله الوحدة القياسية
لحالة البشر، حيث الوسطية والاعتدال في كل شيء، لا إفراط ولا تفريط؛ قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا

¹ - دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، ص: 46

² - في ظلال القرآن، سيد قطب، (دار الشروق - القاهرة، ط17-1412هـ)، 2553/5.

أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوجَى إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ¹، فقد أخبرهم أنه عليه السلام من جنس البشر، حيث تمكن المجارة والمحاكات، فالقدوة الحسنة المتحلية بالفضائل الممتازة تعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة، التي هي في متناول القدرات الإنسانية، وشاهد الحال أقوى من شاهد المقال²، وقد استغرب الكفار وأنكروا كون أنبياء الله من البشر، فاستثقلوا التأسي بهم ما داموا يشاركونهم في الخلقة والصفات، فقالوا - جاهلين نعمة الله وحكمته في ذلك - : (إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٣﴾) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ³. فهؤلاء اتخذوا من آبائهم الأولين قدوات لهم، واستغربوا من وجود قدوات من جنسهم يعاصرونهم ويبلغونهم عن الله، ليسيروا على سيرهم ويقتفوا آثارهم.

مما سبق؛ نستشف أن الصناعة الربانية لأنموذج الاقتداء محمد صلى الله عليه وسلم كانت كاملة وأنموذجية بكل المقاييس، ولا أدل على ذلك من سيرته الباهرة التي تمثل أكثر من مجرد سيرة شخص، فهي مصدر كل عطشان؛ منها يستقي الدعاة أساليب الدعوة ومراحلها، ويتعرفون على الجهد الكبير المبذول من أجل إعلاء كلمة الله وكذا الموقف السليم أمام الفتن والشدائد، ويستنبط منها المربون أساليب التربية وأسسها، ويستخرج منها القادة والملوك نظام القيادة والسياسة، ويستخرج منها التجار مقاصد التجارة وطرقها، بل هي مجال رحب لجميع البشر، ومصدر غني لتعلم الآداب والتحلي بالأخلاق والشمائل الحميدة.

فإذا بيننا كيف كانت صناعة الخالق لقدوة البشر؛ محمد صلى الله عليه وسلم، بقي أن نبين

¹ - سورة الكهف: جزء من الآية 105.

² - الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن الميداني، 215/1.

³ - سورة إبراهيم: الآيتان 13-14.

كيف صنع هو من أصحابه قدوات ونماذج صُنِّفَتْ -حسب الدراسات الحديثة- من أكثر الشخصيات المؤثرة في العالم.

الفرع الثاني: الصناعة النبوية للقدوة

عندما نتحدث عن القدوة في السيرة النبوية فإننا نقصد الإرث الإنساني الذي خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته؛ متمثلاً في صحابته رضوان الله عليهم؛ ابتداءً من الخلفاء الراشدين الذي قادوا سفينة الدعوة المحمدية وساروا على نهجه صلى الله عليه وسلم مروراً بباقي الأصحاب الذين أسهموا في نشر هذا الدين وإيصاله إلينا على شاكلته المحفوظة.

وقد كان للصحابة من الميزات ما فاقوا به بقية الناس، وذلك يعود إلى شهودهم لنزول الوحي أولاً، ثم تمثله لهم في الجانب العملي المشخص في رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه، فنالوا بذلك قصب السبق على من سواهم، فزواجوا بين الجانب الإرشادي والجانب التطبيقي الحي.

أما الصناعة النبوية فأعني بها تربيته صلى الله عليه وسلم لهم وتكوينه لشخصياتهم عن كثب، حيث كانوا أشد التصاقاً به في حياتهم كلها؛ في حلهم وترحالهم، فلا يفارقونه ولا يُعَدُّون عنه، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم -بعد نزول الوحي عليه- لم يكن ينفرد عنهم ولا يفارقهم، فكان يلزمهم ملازمة دائمة، وحتى في سفره لم يكن يسافر وحده، مما أتاح لهم -رضي الله عنهم- الأخذ عنه في كل تفاصيل حياته.

ولعل الباحث يتطلع في هذه الفقرة إلى أن يجد نفسه أمام خصائص وفضائل ومميزات الصحابة الكرام، إلا أن القصد غير ذلك؛ حيث سنضيق دائرة الضوء المسلطة على الدراسة لتركز على صناعته عليه السلام لتلك القدوات؛ من زاوية اختياره وتعيينه لها لا من جهة عرض مميزات وفضائل الصحابة ولا من جهة الموازنة والتفاضل بينهم.

ولعل ما سيحدد هذا التقييد هو صناعته عليه السلام لهؤلاء من حيث تقلد المسؤولية، حيث عمل على وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، فصنع لهم بذلك قدوة مناسبة لكل مجال من المجالات؛ "فَعَنَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْرَبُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أَبِي بْنُ كَعْبٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ"¹.

فنبى الله يعرف أصحابه، كل بشامته ومزيتته، كيف لا؛ وبين يديه صنعا وتكونوا، فهو أعرف الناس بهم وبما تفوقوا فيه فنالوا مقام القدوة في ذلك.

لقد صنع عليه السلام قدوة لأصحابه في كل مجال؛ في الرحمة، في الحياء، في قراءة القرآن، في علم الفرائض، في الأمانة... وإن كانوا يتقاسمون الصفات والمزايا نفسها، إلا أن ما وصفهم به رسول الله وخصهم به يعد شامة تميز كل واحد عن غيره.

وسأكتفي بالحديث عن أول صناعة نبوية للقدوة، وما أهلها لتبوء هذا المقام الجليل.

أبو بكر الصديق: أول صناعة نبوية للقدوة

لقد تحققت في أبي بكر الصديق كل صفات القدوة الأ نموذج التي خلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن وافته المنية، ولعل المواقف الخاصة به، والتي سجلها القرآن الكريم وكذا السيرة النبوية أقوى دليل على استحقاقه -رضي الله عنه- لتقلد مقام القدوة بعد رحيل حبيبه وصاحبه عليه السلام.

¹ - سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي، وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم 136/6، ح: 3791.

لقد أسهم مكون "الصُّحبة" في التأكيد على أهلية أبي بكر الصديق وبين أن اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم له لم يكن محض اختيار مبني على قرابة أو نسب أو حسب...

ويحدثنا القرآن الكريم عنه لما رافق نبي الله واختبأ في غار ثور فرارا من كفار قريش، قال تعالى:

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ

إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا¹، فقد صنع منه صلى الله عليه وسلم شخصية

المسلم القوي الذي يستعين بالله ويتوكل عليه، فقوى بداخله الجانب العقدي وطمأنه.

ومما يشهد بحنكة أبي بكر وفضله على سائر المسلمين ما رواه الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري، أنه قال "خطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «إن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله»، فبكى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقلت في نفسي ما يبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا، قال: «يا أبا بكر لا تبك، إن أمرَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر»².

يدلُّ الحديث عن جملة من المناقب والمزايا التي تفرد بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، نجملها في الآتي:

- سرعة الفهم والعمق في تحليل الخطاب النبوي؛ "وإنما قال صلى الله عليه وسلم [إن

1 - سورة التوبة: جزء من الآية 40.

2 - صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، 100/1، ح: 466.

عبدًا] وأبهمه لينظر ففهم أهل المعرفة ونباهة أصحاب الحدق¹. فقد تفتن رضي الله عنه أن المعني بالخطاب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن أجله قد حان.

- إثاره الصحبة والتصديق على من سواهما؛ "وذلك" لأنه بادر بالتصديق ونفقة الأموال، وبالملازمة والمصاحبة إلى غير ذلك بانسراح صدر ورسوخ علم².
- تفرده عن سواه، ولعل ما يترجم هذا الفضل قوله عليه السلام "ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر"، بمعنى: فلو كنت أخص أحدًا بشيء من العلم دون الناس لخصت به أبا بكر، لأن الخليل من تفرّد بحلّة من الفضل لا يشاركه له فيها أحد³.

وختم صلى الله عليه وسلم حديثه عن أبي بكر بقوله "لا ييقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر"، وقد استنبط العلماء من هذا القول أحقية وألوية أبي بكر في الخلافة بعد رسول الله.

يقول ابن بطال في شرحه للحديث: "وذلك أنه جعل بابه في المسجد؛ ليخلفه في الإمامة ليخرج من بيته إلى المسجد، كما كان الرسول يخرج، ومنع الناس كلهم من ذلك دليل على خلافة أبي بكر بعد الرسول، ودليل على أن المرشح للخلافة يُخصُّ بكرامة تدل على ترشحه. وفيه: دليل أن الخليل فوق الصديق والأخ⁴.

لقد صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة المسلمين؛ فخلفها قبل رحيله، فاختر لقومه من

1 - صحيح مسلم بشرح النووي، 150/15.

2 - عمدة القاري، 244/4.

3 - المصدر نفسه، 245/4.

4 - شرح صحيح البخاري، ابن بطال، 115/2.

يتبعون أوامره وآراءه، ومن إليه رد النزاع إذا حلّ بهم، فعن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: "أتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: رأيت إن جئت ولم أجدك؟ كأنها تقول: الموت. قال صلى الله عليه وسلم: «إن لم تجديني فأتي أبا بكر»¹.

كما اختار لهم أيضا من يؤمهم قبيل وفاته، ف"أمر أبا بكر أن يصلي بالناس في مرضه الذي مات فيه، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يدي أبي بكر يصلي بالناس قاعدا وأبو بكر يصلي بالناس والتاس خلفه"²، ووردت في سيرة ابن هشام قصة عن أمر رسول الله بأن يصلي أبو بكر بالناس وتخصيصه بذلك دون غيره من الصحابة:

فعن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، قال: لما استعز برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده في نفر من المسلمين قال دعاه بلال إلى الصلاة فقال: "مروا من يصلي بالناس، قال: فخرجت، فإذا عمر في الناس. وكان أبو بكر غائبا، فقلت: قم يا عمر فصل بالناس، قال: فقام فلما كبر سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته وكان عمر رجلا مجهرا، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فأين أبو بكر؟ يأبي الله ذلك والمسلمون، يأبي الله ذلك والمسلمون"، قال فبعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلي بالناس. قال عبد الله بن زمعة قال لي عمر ويحك، ماذا صنعت بي يا ابن زمعة؟ والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك بذلك ولولا ذلك ما صليت بالناس. قال: قلت: والله ما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس³.

وليس في هذا تعصب لبعض صحابة رسول الله عن بعضهم، ولا من قبيل الغلو في تقديم

¹ - صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لو كنت متخذا خليلا»، 4/5، ح: 3656.

² - مسند أحمد، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، 217/43، ح: 26113.

³ - الروض الأنف، 575/7.

بعضهم على بعض، وإنما تنزّل كل واحد منهم منزلته التي وضعه فيها سيد الخلق، فقد تبث عنه أنه قال: «مروا أبي بكر ليصلي بالناس، كما تبث عنه قول: "اللهم أعز الإسلام بعمر"»¹.

وليست هي مفاضلة بين رجلين ولا موازنة بين قدوتين، ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذي ينبغي أن يوضع فيه، والمهمة التي ينبغي أن يندب لها والوقت الذي يحين فيه أوامره². وإلا فكل صحابته عليهم رضوان الله عدول، وفضائلهم كثيرة من أن تحصى، إذ المسألة مسألة أولوية في تقلد المسؤولية، لا غير.

روى الإمام مسلم عن ابن أبي مليكة، سمعت عائشة، وسئلت: "من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخلفاً لو استخلفه؟ قالت: أبو بكر، فقيل لها: ثم من؟ بعد أبي بكر قالت: عمر، ثم قيل لها من؟ بعد عمر، قالت: أبو عبيدة بن الجراح" ثم انتهت إلى هذا³.

فهؤلاء رجال يعرفهم صاحبهم، وهذه مسألة فصلّ فيها الزمن، ولم يبق لنا نحن الذين نعود إليها ونستخلص عبرتها إلا أن نراقب ما فيها من آيات الإعجاز وسوابق النظر البعيد⁴.

لقد عُرف الصديق رضي الله عنه بكل الصفات والميزات التي يستحق بها أيّا كان اليوم لقب القدوة، فقد يتقاسم وبعض الصحابة جملة من الصفات والمزايا، لكنه ينفرد في كثير من المرات بأخرى خاصة به، لا يشاركه فيها أحد؛ كالصحبة، والخلة، والصلاة بالناس قبيل موته عليه السلام، وحتى بعد موته؛ وقد ورد في السيرة النبوية ذكر الموقف العظيم له رضي الله عنه، والذي يترجم شدة

¹ - المستدرک علی الصحیحین، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، (تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1-1411 هـ)، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ومن مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، 89/3، ح: 4484.

² - عبقرية عمر، للعقاد، ص: 7.

³ - صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، 1856/4، ح: 2385.

⁴ - عبقرية عمر، ص: 10-11.

تعلقه بربه، ويبين صلابة اعتقاده به؛ قال الإمام السهيلي معلقا على موقف أبي بكر أمام جثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وأما ما كان من ثبات جأش أبي بكر وقوته في ذلك المقام ففيه ما كان عليه الصديق رضي الله عنه من شدة التأله وتعلق القلب بالإله، ولذلك قال لهم: من كان يعبد محمدا، فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"¹، فضلا عن الخطبة الشهيرة التي ألقاها بين يدي الفاروق وباقي الصحابة، وليس هذا مكان عرضها.

وقد كان رضي الله عنه -إضافة إلى شدة تأله- شديد الاتباع والتنفيذ لأوامر رسول الله، سواء أثناء حياته عليه السلام أو بعد فراقه الحياة، ومثال ذلك؛ حين أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على رد جيش أسامة حين رأوا الردة بدأت تزحف نحو صفوف المسلمين بعد موته صلى الله عليه وسلم، وخافوا على نساء المدينة وأطفالها، فقال: "والله لو لعبت الكلاب بخلاخل نساء المدينة، ما رددت جيشا أنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم". وكلمه عمر أن يولي مكان أسامة من هو أسن منه وأجلد، فأخذ بلحية عمر وقال له: يا ابن الخطاب، أتأمرني أن أكون أول حال عقدا عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والله لأن أحر من السماء إلى الأرض فتخطفني الطير أحب إلي من أن أمالككم على هذا الرأي"².

ففي الواقعة بيان لموقف جليل، لا يمكن أن يصدر إلا عن قدوة حقيقية؛ يتبع قول قدوته -عليه السلام- لا يجيد عنه؛ وذلك أن رسول الله أمر أسامة على رأس الجيش، فحالت المنية دون إطلاقه عليه السلام الجيش، فبقي الصديق على العهد، وحلّ محلّ رسول الله، فاستشنع أن يغير قدوة الجيش -التي اختارها صلى الله عليه وسلم- بأخرى مكانها.

¹ - الروض الأنف، 582/7.

² - المصدر نفسه، 582/7-583، بتصرف.

من خلال ما مرّ معنا؛ يمكننا تلخيص ما استحق به الصديق قدوة المسلمين بعد رسول الله بأنه -أولاً- سليم الاعتقاد، شديد التأله، مخلص في اتباع قدوته، فضلاً عن تقلده مسؤولية إمامة المسلمين في الصلاة بأمر من رسول الله، وتعيينه أن يحل محله عليه السلام في غيابه ليقضي حوائج الناس، دون إغفال ما امتاز به رضي الله عنه من العلم الراسخ، والفهم الثاقب، والحذق الباهر، والحكمة البالغة في التعامل مع الأزمات والشدائد.

وهكذا يتحقق الاقتداء بالأخذ من عالم الاصطفاء والتأثر بالمصطفين الأخيار تأثيراً يتفاوت عمقاً بتفاوت استعداد المتأثرين وإخلاصهم، وحرصهم على التمثل والانفصال والضرب من المثل المصطفى، ثم تجري عملية التمثل الذاتي والتربية الوجدانية، يأخذ المؤمن بها نفسه.

فإذا انتقلت إليه الصفات والأخلاق وصارت في سلوكه وأفعاله ظهر أثرها في المجتمع وانتفعوا بها، واصطبغت بها أعمال الأمة إذا كثر المعتقدون، وغلبوا على الخبث، وبهذا ترتقي الأمة، وتبدأ عصراً جديداً ومدنية جديدة، أركانها الأخلاق والمبادئ الإلهية التي لا تحد من نشاط الإنسان ولا تضيق عليه المجال بل تفتح ملكاته وإمكانياته، على ما في هذا الوجود من الأسرار والعجائب ليزداد يقينا على يقين، وتقدما على تقدم وكمالا على كمال¹.

إن الحديث عن صناعة القدوة هو حديث بالضرورة عن قيمة الشخص المؤهل لتبوء هذا المقام وعن قيمه التي يعتقدها ويتسلح بها، ولعل تخصيصي المطلب الثاني من هذا المبحث للحديث عن صناعة القيم في السيرة النبوية ما جعلني أقتصر على ما ذكرت، فحسبي أن ربطت القدوة بالمسؤولية لكي لا يتسع الحديث عنها ويطول، على أن أبين في المطلب القادم أهمية القيم لدى الفرد ودورها في صناعة الإنسان وبالتالي صناعة التميز الذي نرجوه.

¹ - النبوة اصطفاء وقدوة، أحمد مختار البزرة، ص: 199.

المطلب الثاني: التميز بالقيم من خلال السيرة النبوية

اتسمت السيرة النبوية بغاية سمو وترعت على عرش سيرة كبراء القادة والعظماء، ولم يكن لتبوئها هذا المقام الجليل لولا اتصاف صاحبها عليه من الله أفضل الصلاة والسلام بمحاسن القيم الكونية التي يُنادى بها اليوم من لدن مختلف المجتمعات التي تنشد التقدم.

يقول محمد حسين هيكل: " فحياة محمد، كما رأيت، حياة إنسانية بلغت من سمو غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ، وكانت لذلك أسوة حسنة لمن هداه القدر أن يحاول بلوغ الكمال الإنساني من طريق الإيمان والعمل الصالح. أيّ سمو في الحياة كهذا سمو الذي جعل حياة محمد قبل الرسالة مضرب المثل في الصدق والكرامة والأمانة، كما كانت بعد الرسالة كلها التضحية في سبيل الله وفي سبيل الحق الذي بعثه الله به".¹

إن ما يُكسب الفرد قيمة في المجتمع يرجع إلى القدر الذي يتحلى به من القيم الإنسانية النبيلة، كقيمة الصدق، وقيمة الحق، وقيمة الأمانة، وقيمة المسؤولية... والسيرة النبوية كانت المرجع الأول لهذه القيم، لذا يمكننا الجزم بأن سبقها لاتصاف صاحبها وأصحابه واضح لكل معان لمواقفها وأحداثها التي سجلها التاريخ الإسلامي.

وسنعرض هذا القول بتحليلات هذه القيم المرجعية من خلال السيرة العطرة، كما سنبين ما لهذه المقومات من دور في كمال الشخصية الإنسانية، وأن بافتقار شخصية الفرد إليها يجعل منها شخصية جوفاء، يُعجب الناظر بهيكلها المادي، ويستشنع من افتقاده إياها في تعامله مع مفتقدها.

¹ - حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، محمد حسين هيكل، ص: 360.

الفرع الأول: قيمة الحق وتجليات معانيه في السيرة النبوية

انطلاقاً من مبدأ كون القرآن بوصفه نصاً كلياً يفسر بعضه بعضاً؛ أي أن الكل هو الذي يضيف على أجزائه دلالاته الحقيقية ومعانيه الكلية، لنا أن نتساءل عن المفهوم الكلي الذي ينتظم المعاني التي ورد بها لفظ "الحق" في القرآن والسنة.

وقد بين الدكتور محمد الكتاني في كتابه "منظومة القيم المرجعية في الإسلام" أن لفظ الحق جاء في الوحي (قرآناً وسنة):

- بمعنى التطابق توصف به العلاقة بين الاعتقاد والواقع؛
- بمعنى الصدق يوصف به الخبر المطابق للحقيقة الخارجية؛
- بمعنى الصحة يوصف به الإخبار عن الواقع، من حيث خلو الخبر عن شوائب الوهم والظن والاختلال؛
- بمعنى ما يقتضيه العدل أو الحكم بالعدل في مجال التقاضي بين الخصمين¹.

العنصر الأول: الحق بمعنى الصدق في القول والعمل

خطب صلى الله عليه وسلم في الناس يوم بدر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهله، على منازلهم عنده، به يذكرون وبه يتفاضلون².

فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما حث الله الناس عليه، وذكر ما لقيمة الصدق وأنها مما يحبه الله. وسنوضح من خلال المواقف الآتية أن قيمة الصدق قيمة ملازمة لأخلاق الإنسان

¹ - أنظر: منظومة القيم المرجعية في الإسلام، مرجع سابق، ص: 27 - 36

² - إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تقي الدين المقرئ، (تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 - 1999 م)، 100/1.

المسلم، وتعود عليه بالنفع والخير في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

لما تخلف المخلفون عن غزوة تبوك لم يكن لهم من عذر عن التخلف إلا مواجهة نبيهم بالصدق ولا شيء غيره. يقول كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - توجه قافلا حضرتني همي، وطفقت أعد عذرا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأهيبى الكلام، وأقول: بماذا أخرج من سخطه - صلى الله عليه وسلم - غدا، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أطلّ قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أنني لم أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وعرفت أنه لا ينجينني منه إلا الصدق¹.

وفي رواية؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكعب: "... ما خلفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك؟ فقال: بلى يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلا، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثا كاذبا لترضي عني، ليوشكن الله أن يسخط عليّ، ولئن حدثتك اليوم حديثا صادقا تجد على فيه، إنّي لأرجو عقي الله فيه. لا والله ما كان لي عذر! والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك! فقال عليه السلام: أما أنت فقد صدقت! فقم حتى يقضى الله فيك.

فقام ومعه رجال من بني سلمة، فقالوا له: والله ما علمناك كنت أذنت ذنبا قبل هذا! ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت بما اعتذر به المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله لك. حتى كاد أن يرجع فيكذب نفسه، فلقية معاذ بن جبل وأبو قتادة، فقالا لي: لا تطع أصحابك وأقم على الصدق، فإن الله سيجعل لك فرجا ومخرجا إن شاء الله تعالى، فأما هؤلاء المعذرون، فإن كانوا صادقين فسيرى الله ذلك ويعلم نبيه، وإن كانوا غير ذلك يذمهم أقبح الذم ويكذب حديثهم².

¹ - سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، 474/5.

² - إمتاع الأسماع، 81/2.

فالصدق؛ وإن لم يكن له من ميزة إلا نجاة صاحبه تكفيه في دنياه وآخرته. إذ الصدق مع الناس مرجعه وأساسه الصدق مع رب الناس، وهذا ما امتاز به الرسول الصادق المصدوق بشهادة أعدائه المعاندين.

روى الترمذي في سننه أن أبا جهل، قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به¹، فأنزل الله: (بِإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَغْيَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)².

ولما سأل هرقل أبا سفيان "ولم يكن قد أسلم بعد" عن محمد قائلا: وهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ أجابه: لا. فقال هرقل: أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وهذا القول من هرقل يبين أهمية الصدق؛ لأن دعوة الله لا نعلمها إلا من مبلغها، ومن كذب على الناس جاز أن يكذب على الله، أما من التزم الصدق مع البشر فهو صادق حتما مع الله سبحانه وتعالى³.

وفي خطاب جعفر أمام النجاشي نجد أنه رضي الله عنه ذكر بقيمة الصدق مرتين؛ تقوية للحجة أمام ملك الحبشة، جاء فيما قال - بعد أن شخص للملك أحوال العرب في الجاهلية قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم -: "... فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من

¹ - سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنعام، 111/5، ح: 3064.

² - سورة الأنعام: جزء من الآية 34.

³ - السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، ص: 584.

الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة...¹.

فذكر الصدق أولاً ضمن صفات الرسول صلى الله عليه وسلم تأكيداً على تركيته لنبيه وأنه يستحيل صدور الكذب عنه، ثم وظيفه ثانياً ضمن ما أمر به رسول الله المسلمين في بداية الدعوة، وذلك لإشعار الملك بعظم قيمة الصدق، وأهميته في حياة الفرد.

وفي السيرة النبوية نلني ثناء الله جل وعلا على المؤمنين جراء صدقهم، فقال: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)².

ففي بعض الأقوال أنها نزلت في:

1. السبعين رجلاً الذين بايعوا رسول الله بيعة العقبة:

والمراد بالمعاهدة المذكورة ما وقع ليلة العقبة من الأنصار إذ بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤووه وينصروه ويمنعوه³.

قالوا: يا قوم تعلموا والله إنه للتَّيِّبِ الذي تواعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

قالوا لرسول الله: فنحن حراس على ما أرسلك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا لنشير عليك برأينا، فامكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله يصلح ذات بينهم ويجمع لهم أمرهم، فإننا اليوم متباعضون متباعدون، ولكننا

¹ - تقدم تحريجه في المبحث الأول من هذا الفصل.

² - سورة الأحزاب: الآية 23

³ - فتح الباري، 22/6.

نواعدك الموسم من العام المقبل. فرضي بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدّقوا"¹.

وأَنهم حين بايعوه بالعقبة، قال له سعد بن معاذ: فقد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق.²

ومن خلال موقف الأنصار هاهنا يتبين ما للصدق في القول والعمل من فضل ومزية بلغ بهم أن أثنى الله عليهم وذكرهم في كتابه العزيز.

2. أنس بن النضر:

ويُرجع فريق من المفسرين أسباب نزول الآية للصحابي الجليل أنس بن النضر (عم أنس بن مالك).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: «يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لعن الله أشهدي قتال المشركين ليرين الله ما أصنع»، فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، - يعني المشركين - ثم تقدم»، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: «يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر إني أجد ریحها من دون أحد»، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته بينانه.

قال أنس: " كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: (مَسَّ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

¹ - سبل الهدى والرشاد، 3/ 194.

² - السيرة النبوية، ابن هشام المعافري، (تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2- 1375هـ)، 1/ 615. بتصرف

صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ¹.

فكانت هذه الآية تشرح هذه الشهامة... لقد برّ بوعده الذي قطعه على نفسه من أنه سيقا تل حتى الموت... نعم؛ صدق ما عاهد الله عليه. والآية الكريمة عندما تثني على مثل هؤلاء الشهداء تريد أن تقدمهم لنا كقدوة حسنة يجب أن يحتذي بها كل من شهد أنه "لا إله إلا الله"².
إن ما رفع من قيمة أنس بن النضر هو صدقه ووفائه بما عاهد عليه الله ورسوله، لذلك؛ فالصدق مع الله يفضي إلى الإخلاص في القصد، ولا جزاء للإخلاص في القصد إلا مكافأة صاحبه الجزاء الأمثل.

العنصر الثاني: الحق باعتباره نقيض الكذب والخيانة

والحق الذي نقصده هنا هو الذي جاء بمعنى الصدق الذي يصف الخبر المطابق للحقيقة الخارجية، وبمعنى الصحة الذي يوصف به الإخبار عن الواقع، من حيث خلو الخبر عن شوائب الوهم والظن والاختلال.³

إن قيمة الحق قيمة إنسانية فطرية، يحتضنها كل عقل سليم يتحرى المعقول من الواقع، ويسلم به. وقد وثقت السيرة النبوية أن هذه القيمة قيمة مقدسة بالقدر الذي يجعل إنسان الجاهلية يقرها ويعترف بها.

عن ابن عباس أنه قال: حدثني أبو سفيان، من فيه إلى في، قال: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فبيننا أنا بالشام، إذ جيء بكتاب من النبي صلى

¹ - صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: {من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً}، 19/4، ح: 2805.

² - النور الخالد [محمد مفخرة الإنسانية]، محمد فتح الله كولن، (دار النيل - القاهرة، ط8 - 2013م)، ص: 77.

³ - منظومة القيم المرجعية في الإسلام، ص: 27.

الله عليه وسلم إلى هرقل، قال: وكان دحية الكلبي جاء به، فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، قال: فقال هرقل: هل ها هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقالوا: نعم، قال: فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه، فقال: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبتني فكذبوه، قال أبو سفيان: وائم الله، لولا أن يؤثروا علي الكذب لكذبت، ثم قال: لترجمانه، سله كيف حسبه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حسب، قال: فهل كان من آباءه ملك؟ قال: قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم، قال: يزيدون أو ينقصون؟ قال: قلت لا بل يزيدون، قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ قال: قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قال: قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالا يصيب منا ونصيب منه، قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما هو صانع فيها، قال: والله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه، قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قلت: لا... قال: إن يك ما تقول فيه حقا، فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أك أظنه منكم، ولو أي أعلم أي أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليلغن ملكه ما تحت قدمي¹.

فهل تجدون شهادة أعظم من هذه الشهادة؟ إن الموقف حرج، والسائل ملك ذو شوكة وقوة، يسأل رجلا ملاً الضغن صدره عن أمر الرسول، فلا يقول فيه إلا الصدق والحق².

¹ - صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله 35/6، جزء من الحديث: 4553.

² - الرسالة المحمدية، سليمان الندوي الحسيني، (دار ابن كثير - دمشق، ط 1 - 1423 هـ)، ص: 104.

العنصر الثالث: الحق بمعنى الوفاء بالعهد

صار كبار المؤسسين لفن التنمية الذاتية ينادون بقيمة الوفاء بالعهد، وبينوا ما لهذه القيمة من دور في صحة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد.

يقول ستيفن آر كوفي: "يعد الوفاء بالعهود أو الوعود ن أهم الإيداعات، وخرق أي منها انسحاب كبير. وفي الحقيقة لا يوجد انسحاب أكبر من قطع عهد مهم لشخص ما ثم الرجوع فيه. ففي المرة التالية التي تقطع على نفسك عهداً آخر لن يصدقك أحد. فلأن الناس ينزعون إلى بناء آمالهم حول الوعود، لا سيما الوعود المتعلقة بحياتهم"¹.

والمتصفح لأحداث السيرة النبوية يجد أنها كانت سبابة بكثير إلى تناول هذه القيمة وتجليها في صفوف المجتمع النبوي الأول.

بؤب الإمام البخاري إحدى أبواب صحيحه ب "باب حسن العهد من الإيمان" أورد في مفتحه الحديث الذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، إذ تقول: «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما كنت أسمعها يذكرها، ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب، وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليذبح الشاة ثم يهدي في خلتها منها»².

وفي السيرة أن عَجُوزاً جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَنْتِ؟» قَالَتْ: أَنَا جَثَامَةُ الْمُزَنِّيَّةُ قَالَ: «بَلْ أَنْتِ حَسَانَةُ الْمُزَنِّيَّةُ كَيْفَ أَنْتُمْ؟ كَيْفَ حَالِكُمْ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنَا؟» قَالَتْ: بِخَيْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَتْ: فَلَمَّا خَرَجَتْ قُلْتُ:

¹ - العادات السبع للناس الأكثر فعالية، ستيفن آر كوفي، (مكتبة جرير- المملكة العربية السعودية، ط21- 2009م)، ص: 229.

² - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن العهد من الإيمان، 9/8، جزء من الحديث: 6004.

يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُقْبَلُ عَلَيَّ هَذِهِ الْعُجُوزِ هَذَا الْإِقْبَالَ؟ قَالَ: «إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ»¹.

وقد ربط علماء التنمية الذاتية قيمة الوفاء بالأمانة؛ يقول ستيفن آر كوفي: "وإحدى أهم طرق إظهار الأمانة هي أن تكون مخلصاً للأشخاص الغائبين. وعندما تفعل هذا تبني ثقة عند الحاضرين. فعندما تدافع عن الغائبين تحافظ على ثقة الحاضرين"². وهذا ما تجلّى في أخلاق رسول الله عليه الصلاة والسلام حينما يذكر السيدة خديجة بمنابها - بعد وفاتها - أمام باقي أزواجه.

فكان عليه الصلاة والسلام نعم الزوج الوفي بالعهد؛ فحتى بعد هلاك زوجته خديجة ظل على العهد يذكرها بخير، ويصل أصحابها، ويكرمهم، وهذا من تمام الوفاء وأكماله.

ولما همّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة رفقة صاحبه، استأجرا رجلاً هادياً خريّتا - والخريّت الماهر بالهداية - وهو على دين كفّار قريش - وأسلم بعد ذلك - فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحتيهما صبح ثلاث. فلما مضت الثلاث وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذي استأجراه فركبا وانطلق معهما³.

إن معظم القيم الإنسانية كانت متداولة بين الناس قبل مجيء الإسلام، فلما جاء أكدها ودعا إليها الناس، لقيمتها ومكانتها في سمو الشخصية الإنسانية وكمالها.

والناظر في السيرة العطرة يجد أن قيمة الوفاء بالعهد كانت من شيم الإنسان عامة بغض النظر عن دينه وانتمائه، فكان إنسان الجزيرة العربية يعظم هذه القيمة ويتمثلها في حياته بفطرته ومروءته الفطرية.

¹ - معجم ابن الأعرابي، عبد المحسن الحسيني، (دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية، ط1 - 1997م)، 401/1، ح: 774.

² - العادات السبع للناس الأكثر فعالية، ص: 232.

³ - سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، 243/3.

ولعل موقف الصحابي الجليل سراقه يزكي ما عرضناه ويقويه؛ ف عن أبي بكر رضي الله عنه أن سراقه بن جعشم قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر دية كل واحد منهما مائة ناقة من الإبل لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي أقبل رجل منهم فقال: يا سراقه إني قد رأيت أنفا أسودة بالساحل - وفي لفظ: ركة ثلاثة - أراها محمداً وأصحابه. قال سراقه: فعرفت أنهم هم، فأومأت إليه بعيني أن اسكت، فسكت، ثم قلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا يبتغون ضالة لهم. ثم لبثت في المجلس ثم قمت فدخلت بيتي وأخذت رحلي فخرجت به من ظهر البيت حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى رأيت أسودتهما، فلما دنوت منهم عثرت بي فرسي فخررت عنها، وكنت أرجو أن أردّه فأخذ المائة ناقة، فركبت فرسي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساحت يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين فخررت عنها، قال: فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني وأنه ظاهر، فناديتهم بالأمان وقلت: أنظروني فوالله لا أذيتكم ولا يأتكم مني شيء تكرهونه. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: «قل له وما تبغي منا»؟ فقلت: إن قومك قد جعلوا فيكما الدية وأخبرتهما أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني شيئاً ولم يسألاني إلا أن قال: «أخف عنا» فسألته أن يكتب لي كتاب موادة آمن به، قال: «اكتب له يا أبا بكر» - وفي رواية: فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم رجعت فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرغ من حنين والطائف خرجت لألقاه ومعني الكتاب الذي كتب لي [فلقيته بالجعرانة]¹. قال: «فبينما أنا عامد له دخلت بين ظهري كتيبة من كتائب الأنصار، فطفقوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك إليك حتى إذا دنوت من رسول الله

¹ - الجعرانة: قرية صغيرة قريبة من المسجد الحرام، تقع في وادي الجعرانة، على بعد 20 كلم شمال شرق مكة المكرمة، اكتسبت شهرة تاريخية بنزول الرسول صلى الله عليه وسلم فيها وتوزيع الغنائم بها بعد عودته من غزوة حنين. أنظر: الموسوعة الحرة ويكيبيديا: جعرانة.

صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته، قال: فرفعت يدي بالكتاب. ثم قلت: يا رسول الله هذا كتابك لي وأنا سراقه بن مالك قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يوم وفاء وير أدنه»¹.

إن قيمة الوفاء بالعهد لمن أسمى القيم وأعلاها منزلة، إذ تتطلب من النفس الإنسانية الالتزام بالوعد الحق الذي قطعته، متجاهلة بذلك تقلب الزمان والمكان والظروف وكل الملابسات، فالقلب المليء بالإيمان والصادق لما عاهد الله عليه لا يمكنه أن يجحد عن هذه القيم إلا أن يمثلها في كل تفاصيل حياته.

العنصر الرابع: الحق بمعنى العدل

يعتبر العدل من القيم الإنسانية التي جاء بها الإسلام وتمثلت في السيرة النبوية، فكان يجسد مقوما أساسا من مقومات الحياة؛ سواء الفردية أو الأسرية أو الاجتماعية.

لقد أرسى رسول الله صلى الله عليه وسلم قواعد مجتمع جديد، وأمة جديدة، بإقامة الوحدة العقدية والسياسية والنظامية بين المسلمين، بدأ بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وكان قصده بذلك توفير الأمن والسلام، والسعادة والخير للبشرية جمعاء، مع تنظيم المنطقة في وفاق واحد، فسّ في ذلك قوانين العدالة التي لم تعهد في ذلك العالم المليء بالتعصب والأغراض الفردية والعرقية، ولم يفرق الرسول صلى الله عليه وسلم بين أبيض وأسود أو عربي وأعجمي.

وقد التزم عليه الصلاة والسلام بالعدل والقسط منهجا له طيلة حياته، وامتألت كتب السيرة بمواقف نبوية يتعجب لها القارئ من قوة الرسول صلى الله عليه وسلم في تمسكه بالعدل والقضاء بالحق على نفسه وأهل بيته، وعلى المحيطين به².

¹ - سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، 249/3.

² - مقال "مفهوم العدالة وسماتها في السيرة النبوية"، يحيى محمد علي وعلي عطية، (مجلة دراسات دولية، العدد: 69)، ص:

وبالعودة إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم نجد أن تطبيق العدل بين الأفراد داخل المجتمع النبوي لم يكن يخضع للعاطفة أو المؤثرات الأخرى إذا توافرت الأدلة على إصدار الحكم والتنفيذ. فمن سمات العدالة في الإسلام أنها لا تتأثر بالمال أو العرق أو النسب، وفي السيرة النبوية أمثلة تبرهن صدق هذه السمة وشمولها.

روى الإمام البخاري في صحيحه أن امرأة سرت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعون، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها، تلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «أتكلمني في حد من حدود الله»، قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: " أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم: أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت...¹

فقد كان عليه السلام عادلاً في حكمه على رعيته، لا يفرق بين أحد منهم؛ لا بين ذكركم وأنثاهم، ولا بين غنيهم وفقيرهم... وهذا كان ديدنه أيضاً مع المتخاصمين ورد الحقوق إلى أهلها. روى الإمام مالك في موطئه أن ناقةً للبراء بن عازب دخلت حائط رجل فأفسدت فيه. فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها»².

لقد كان صلى الله عليه وسلم ملازماً للعدل قبل بعثته في الناس، وشاهد ذلك مشاركته قريشا

¹ - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ، 151/5، جزء من الحديث: 4304.

² - موطأ مالك، كتاب الأفضية، باب القضاء في الضواري والحريسة، (منشورات المجلس العلمي الأعلى - المملكة المغربية، ط1 - 2013)، 160-159/2، ح: 2183.

في حلف الفضول؛ روى ابن هشام في السيرة أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة ابن كلاب، وتيم بن مرة. فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجردوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

وقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت¹.

إن عدل النبي عليه السلام كان سمة دائمة في سيرته العطرة، فكما كان تطبيقه له في المجتمع الين الناس كان أشد الناس امتثالا لمبدئه داخل بيت الزوجية.

ومن أمثلة تجليات العدل في سيرته صلى الله عليه وسلم داخل بيت الزوجية أنه صلى الله عليه وسلم ذات مرة كان عند إحدى أمهات المؤمنين، فأرسلت أخرى بقصعة فيها طعام، فضربت يد الرسول، فسقطت القصعة، فانكسرت، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم الكسرتين فضم إحدهما إلى الأخرى، فجعل يجمع فيها الطعام، ويقول: «غارت أمكم كلوا» فأكلوا، فأمسك حتى جاءت بقصعتها التي في بيتها، فدفعت القصعة الصحيحة إلى الرسول، وترك المكسورة في بيت التي كسرتها². إن تصرف النبي الحكيم كان من تمام العدل ورد الحقوق إلى أصحابها، فلم يكن يوتر العاطفة ولا القرابة على تطبيق مبدأ العدل والحكم به.

إن الحديث عن العدل داخل السيرة النبوية هو حديث عن مركز التوازن في حياته وتصرفاته

¹ - سيرة ابن هشام، 1/133-134.

² - سنن النسائي، كتاب عشرة النساء، باب الغيرة، 70/7، ح: 3955.

صلى الله عليه وسلم، ونظرا لاستغراق هذه القيمة لكل جزئيات حياته صلى الله عليه وسلم وحياته أصحابه رضوان الله عليهم نختتم الحديث عن العدل ومعانيه بعبارة جامعة، واصفة لهذه القيمة، ومبينة لتجلياتها وصورها.

فهو كما يقول العلامة الطباطبائي في تفسيره للقرآن: إقامة المساواة والموازنة بين الأمور، بأن يعطى كل شيء ما ينبغي أن يعطاه، فالعدل في الاعتقاد هو الإيمان بما هو حق، والعدل في أفعال الإنسان هو العمل بما فيه سعادة هذا الإنسان، وبما يحرره من شقائه واختلال توازنه عند اتباع هواه. والعدل في المجتمع أن يوضع الشخص الموضع الذي يستحقه في العقل أو في الشرع، وهو أيضا أن يثاب المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء على إساءته، وينصف المظلوم من ظالمه، ويكلف كل مسؤول في المجتمع بحسب مؤهلاته وقدراته، ولا يقع التمييز في إقامة الحدود بين الناس، ولا يستثنى من سلطة القانون أحد¹.

الفرع الثاني: قيمة المسؤولية وتجليات معانيها في السيرة النبوية

تعدد معاني المسؤولية في السيرة النبوية وتتسع، وتحدد بحسب السياق والمجال. ومن خلال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور:

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»².

يتبين لنا أن المسؤولية قد تأتي بمعناها الظاهري الحقيقي للكلمة، وقد تأتي للدلالة على الأمانة، بل تأتي للدلالة على التضحية وما تستوجبه هذه المسؤولية من مجهود في سبيل تحقيقها واستشعار

¹ - تفسير الميزان للطباطبائي، (طبعة طهران)، 133/12. نقلا عن: منظومة القيم المرجعية في الإسلام، ص: 171.

نقلا عن: منظومة القيم المرجعية في الإسلام، ص: 171.

² - صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، 31/7، ح: 5200.

صاحبها لثقلها وجسامتها.

العنصر الأول: المسؤولية بمعنى الأمانة

إن ما يلازم الصدق الذي تحدثنا عنه آنفاً صفة الأمانة الشاملة لكل ما يقوم الإنسان به تجاه نفسه وتجاه الناس، من قول أو عمل.

والأمانة تتضمن الصدق ولكنها تتجاوزه في المعنى؛ فالصدق هو الإخبار بالحقيقة، وبعبارة أخرى أن تتوافق كلماتنا مع الواقع، أما الأمانة فهي إخضاع الواقع لكلماتنا، وبعبارة أخرى الحفاظ على الوعود وتحقيق التوقعات، وهذا يتطلب شخصية متكاملة منسجمة مع نفسها ومع الحياة¹.

وقد أمر الله المسلم ألا يخون في أي جانب من جوانب الحياة؛ حيث قال تعالى:

(يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)².

وفي السيرة أنه صَلَّى الله عليه وسلم كان يبحث أصحابه على الأمانة في خطبه؛ عن أنس بن مالك قال: ما خطبنا نبي الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: " لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له"³، أي؛ لا دين لمن لا يلتزم بما في ذمته من حقوق الله أو للآخرين على حد سواء⁴.

وعنه صَلَّى الله عليه وسلم أنه قال: «المؤمن من آمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»⁵.

فالإنسان الذي يتولى أمر مال العامة أو تسيير إدارة مسؤولية وأمانة في عنقه، يحاسب -ولا

¹ - العادات السبع للناس الأكثر فعالية، ص: 231.

² - سورة الأنفال: الآية 27

³ - مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، 376 / 19، ح: 12383.

⁴ - منظومة القيم المرجعية في الإسلام، ص: 148.

⁵ - سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله، 1298 / 2، ح: 3934.

شك - على ضياعها أو بالإخلال بها وعدم تأديته حقها الكامل.

لقد كان أصحاب محمد حريصين على الالتزام بالأمانة وتأديتها حقها، فتربوا على هذه القيمة وتمثلت في كل تصرفاتهم ومعاملاتهم المالية.

يقول فتح الله كولن: "لو كان أفراد الأمة جميعهم - بدءاً من الحارس وانتهاء برئيس الدولة - في وعي كامل في موضوع الأمانة لأصبح هذا المجتمع المثالي المكون من الأفراد الأمناء كمجتمع المدينة الفاضلة التي تخيلها بعض المفكرين"¹.

وجاء في السيرة أن رجلاً من أهل مكة، يقال له: يوسف، قال: كنت أنا ورجل من قريش نلي مال أيتام، قال: وكان رجل قد ذهب مني بألف درهم، قال: فوقعت له في يدي ألف درهم، قال: فقلت للقرشي إنه قد ذهب لي بألف درهم، وقد أصبت له ألف درهم، قال: فقال القرشي: حدثني أبي، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أد الأمانة إلى من ائتمك، ولا تخن من خانك"².

ونجد أن القرآن سمي المسؤولية بالأمانة؛ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾³ باعتبارها قاعدة أساسية لكل أنواع المسؤوليات، وللقيم المطلوبة لذاتها في جميع التصرفات، ولا يمكن الإخلال بها أو التملص منها إلا بضرب من ضروب الخيانة والاستسلام.⁴

فليست في الإسلام قيمة إلا والإنسان مسؤول عن الامتثال لحقها ولتقتضياتها، وأن كل تملص

¹ - النور الخالد، ص: 135.

² - مسند أحمد، مسند المكين، حديث رجل عن النبي صلى الله عليه وسلم، 24 / 150، ح: 15424.

³ - سورة الأحزاب: الآية 72.

⁴ - منظومة القيم المرجعية في الإسلام، ص: 143.

منها إنما هو نوع من الخيانة اتجاهها واتجاه المجتمع واتجاه الخالق.

العنصر الثاني: المسؤولية بمعنى التضحية

ترتبط قيمة المسؤولية بالتضحية ارتباطاً وثيقاً، وذلك لكون المسؤولية تتطلب من الذي تحملها جهوداً وتضحية إذا اقتضى الحال إلى ذلك، حفاظاً عليها وتأدية لحقها.

والسيرة النبوية تبرز هذا الترابط بين كل من المسؤولية والتضحية، ويتجلى ذلك في تضحية المسلمين الجدد بأنفسهم وأموالهم وأهلهم في سبيل مسؤولية نشر الدعوة المحمدية ونصر الدين الخالد.

جاء في السيرة أن من أظهر إسلامه في بداية الدعوة الإسلامية سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد . فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر، فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أذراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد اتاهم على ما أرادوا، إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول أحد، أحد "1.

وكان أمية بن خلف يخرجهم إذا حميت الظهر، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة على صدره، ثم يقول: لا يزال على ذلك حتى يموت أو يكفر بمحمد، فيقول - وهو في ذلك: أحد أحد. فمرّ به أبو بكر فاشتراه منه بعبد له أسود جلد².

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام - إذا حميت

¹ - مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، 6 / 382، ح: 3832.

² - الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، (تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1 - 1415 هـ)، 1 / 456.

الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول فيما بلغني:
"صبرا آل ياسر موعدكم الجنة" فأما أمه فقتلوها، وهي تأبى إلا الإسلام¹.

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أئمار بنت سباع الخزاعية، فكان المشركون يذيقونه أنواعا من التنكيل، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبا، ويلوون عنقه تلوية عنيفة، وأضجعوه مرات عديدة على فحام ملتبهة، ثم وضعوا عليه حجرا حتى لا يستطيع أن يقوم. وكان قد قال لعمر الفاروق: "يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ أُوقِدَتْ لِي نَارٌ فَمَا أَطْفَأَهَا إِلَّا شَحْمِي"².

إن صبر أولئك الأقوياء على أصناف التعذيب التي تعرضوا لها، فأدت ببعضهم إلى مفارقة الحياة لم يكن إلا باستشعارهم لجسامة مسؤولية تقلد هذا الدين الجليل، والصبر على الأذى في سبيله، والسعي إلى آخر رمق في تبنيه واعتناقه، بل ونشره والدعوة إليه.

العنصر الثالث: المسؤولية بمعنى الكرامة والمروءة

تحدثنا كتب السيرة عن قصة أم سلمة بعد سنة من هجرة زوجها عنها، لما أذن بنو المغيرة لها في اللحاق بزوجها، فلما خرجت وحدها مهاجرة، لقيت عثمان بن طلحة أخا بني عبد الدار بالتنعيم، وكان يومئذ مشركا وأسلم بعد ذلك، فشيّعها حتى إذا أوفى على قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال لها: هذا زوجك في هذه القرية. ثم انصرف راجعا إلى مكة، فكانت تقول: ما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت عنه استأخر ببعيري فحطّ عنه ثم قيده في الشجرة، ثم أتى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الزواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ

¹ - الروض الأنف، 3/ 116.

² - المصدر نفسه، 3/ 164.

بخطامه فقادي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة¹.

إن استشعار الصحابي الجليل عثمان بن طلحة عظم المسؤولية والأمانة تجاه أم سلمة ما جعله يخلص في قلبه اتجاه خدمته التي تكفل بها (بلوغ أم سلمة لمقصودها)، فكانت مروءته أشد وأكبر من أن يخون الأمانة، ويكسر جدار المسؤولية التي تقلدها.

وفي السيرة العطرة من أمثال هذه المواقف الشيء الكثير؛ منها قصة كفار قريش لما هموا بالانقضاء على رسول الله ليلة قرر الهجرة، فكانوا يجرسون بيته لما كان علي بن أبي طالب نائماً على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا على أهبة الاستعداد لاقتحام البيت.

لكن المانع لهم من التّخّم تلك الليلة على عليّ وهم يظنونهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنهم لم يزالوا قياماً حتى أصبحوا أن بعض أهل السير ذكروا السبب المانع من ذلك مع قصر الجدار وأنهم إنما جاؤوا لقتله، فذكر في الخبر أنهم همّوا بالولوج عليه فصاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنها للسبّة في العرب أن يتحدّث عنّا أنّا تسوّرنا الحيّطان على بنات العمّ وهتكنا ستر حرمتنا².

فكان العرب حينئذ يحسبون مثل هذه التصرفات تخل بالمروءة، وأنها تجانب المسؤولية الأخلاقية.

إن ما يميز المسؤولية في الدين الإسلامي هو قيامها على عقيدة، تجعل منها تكليفاً إلهياً، يُسأل المرء عن القيام به، وأمانة يطوق بها ويحاسب عليها أمام ضميره، وأمام مجتمعه، فضلاً عن الحساب أمام خالقه.

¹ - الروض الأنف، 4/102-103.

² - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، 3/234.

وهذا ما يجعلها مبدأً أخلاقياً لا يسع المرء النكوص عنه، حتى في غياب السلطة الخارجية، ما

دام هناك ضمير يراقب الإنسان، ومروءة تحجمه عن بؤادر الإخلال.

المطلب الثالث: صناعة التميز الأسري في السيرة النبوية

إن القول بالتميز الأسري لا يمكن أن يستوفيه ويحققه اقتصار تميز أحد أطراف العلاقة الزوجية دون الأخرى، ذلك أن السيرة النبوية سجلت لنا أن الحياة الزوجية المتسمة بتوجيه الوحي لم تجعل التميز حكرا على قطب من أقطاب مؤسسة الأسرة وإغفال القطب الآخر، وإنما دعت الرجل الزوج لصناعة التميز والنجاح في العلاقة جنبا إلى جنب زوجته، ولعل عبارة "النساء شقائق الرجال" أقوى ما يمكن الدلالة به على هذا التعاون في صناعة المودة والرحمة وتوفير سكن الروح لكلا الطرفين.

وفي غياب حصول هذا التعاون المفترض بين الطرفين احتلت موازين الأسرة المسلمة اليوم، فصارت كل كفة مؤثرة أو متأثرة، إيجابا أو سلبا، وفي هذه الحالة غالبا ما يصير اللوم وتحميل المسؤولية موجهين إلى الخطاب الديني وإلى القوانين الوضعية النازمة للأسرة، والخلل في حقيقة الأمر يتجلى في إخضاع كل من الدين والقانون التشريعي للانتقائية واستعماله -غالبا- حكرا على طرف دون آخر، لأسباب كثيرة؛ كالجهد به، أو حتى عن العلم به مع الاقتصار على ما يخدم أحد الأطراف ويلحق بالآخر وإبلا من الإجحاف والظلم.

في هذا المطلب سأعرض طريق تميز الأسرة -انطلاقا من الهدي النبوي-، أو بالأحرى تميز الزوجين؛ ذلك أن بتميزهما تتميز الأسرة، فوجب أن تتظافر الجهود بينهما لإيصال سفينة هذه المؤسسة إلى بر الأمان والنجاح.

بمعنى آخر سأحدد ملامح صناعة التميز لدى الأزواج على شكل حقوق وواجبات متبادلة، كما حددها الوحي وجسدتها السيرة النبوية من خلال تجارب الأسرة النبوية ونظيراتها التي شهدت نزول الوحي وعايشت تطبيقه من خلال القدوة المهداة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

وسيرا على الدراسة النظرية -في الباب الأول- التي سرت عليها في مطلب مقوم الأسرة، سأتطرق في هذا المطلب التطبيقي لعناصر ثلاث؛ **الأول** في فلسفة اختيار الشريك كما رسمتها

السيرة النبوية، والثاني في مجالات التنمية الأسرية، ثم الثالث في المناخ الأسري الذي سأعرض فيه ملامح نجاح مناخ الأسرة المسلمة كما جاء في سيرة خير الخلق.

الفرع الأول: فلسفة اختيار الشريك داخل السيرة النبوية

لقد بلغت العناية بمقوم الأسرة داخل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم العناية الفائقة، وكان من هذا الاهتمام الكبير بهذه المؤسسة حرص الرسول الأكرم على تحري تأسيس بناء متماسك وقوي لهذا الصرح، وذلك باختيار الأساس الذي سيشكل قاعدة متينة تصلح لصناعة هذه المؤسسة، تأهيلاً لأقطابها على أداء وظائفها وأدوارها كما حددها الخالق وأرادها.

وتتحلى ملامح الحرص على هذا الأساس في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم المقبلين على الانخراط في هذه المؤسسة بتحري اختيار الشريك المناسب الذي سيشاركهم عملية البناء وتأسيس هذه النواة المهمة داخل المؤسسات الاجتماعية.

فقال صلى الله عليه وسلم موجه الخطاب للرجال: " تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك"¹.

وقال في خطابه للنساء: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه...»².

فالجمال الحسي: كمال الخلقة لان المرأة كلما كانت جميلة المنظر عذبة المنطق قرت العين بالنظر إليها وأصغت الأذن إلى منطقتها فيفتح إليها القلب وينشرح إليها الصدر وتسكن إليها النفس ويتمحقق فيها قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا

¹ - صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، 7/7، ح: 5090.

² - سنن الترمذي، أبواب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه 386/2، جزء من الحديث: 1085.

لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ¹.

والجمال المعنوي: كمال الدين والخلق فكلما كانت المرأة أدين وأكمل خلقاً كانت أحب إلي النفس وأسلم عاقبة.

فالمرأة ذات الدين قائمة بأمر الله حافظة لحقوق زوجها وفراديه وأولاده وماله، معينه له على طاعة الله تعالى إن ذكرته، وإن تناقل نشاطه، وإن غضب أرضته².

وفي مسألة اختيار الشريك كما جاءت في السيرة النبوية يجب أن يبحث الرجل عن المرأة (الإنسان) كما يجب أن تبحث المرأة عن الرجل (الإنسان).

انظر عندما خطب أبو طلحة وهو مشرك كافر امرأة من المسلمين هي أم سليم قالت له: "والله ما مثلك يا أبا طلحة يرد، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تسلم فذاك مهري وما أسألك غيره، فأسلم فكان ذلك مهرها"³.

فقول هذه المرأة الفقيهة: (والله ما مثلك يا أبا طلحة يرد) ، معناه أن الرجل فيه الصفات الإنسانية التي تطمح المرأة في وجودها في الرجل ولكن منعها من الموافقة كفره باختصار ليكون بحثنا أولاً عن الإنسان⁴.

وللدكتور عبد الرحمن اليوسف كلام جميل عن شرح معنى الدين المقصود في الحديثين (فاذنوا بذي الدين تربت يداك / من ترضون دينه)، يقول: الدين هو المنهاج الرباني الذي أنزل ليجعل من الإنسان إنساناً كاملاً في صفاته وأخلاقه وليجعل معاملته وتصرفاته في هذه الدنيا على أكمل

¹ - سورة الروم: الآية 20.

² - الزواج، محمد بن صالح العثيمين، (مدار الوطن- المملكة العربية السعودية، ط1 - 1425هـ)، ص: 19-20.

³ - سنن النسائي، كتاب النكاح، التزويج على الإسلام، 114/6، ح: 3341.

⁴ - الزواج في ظل الإسلام، عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف، ص: 33-34.

الوجوه التي تحقق العدل والسعادة، وهذا الدين إذا التقى مع المعدن الإنساني الطيب ووافق القبول صنع الأعاجيب ولكنه إذا صادف المعدن المهش المغشوش صنع في صاحبه بالقدر الذي يحتمله ويطبقه إذا توفر القبول أيضاً.

والتدين الحقيقي شيء خفي لأن حقيقة الدين تتعلق بالقلوب أعظم مما تعلق بالظواهر دلالات وعلامات على الدين ولكنها ليست دلالات ظنية فليس كل من أعفى لحيته، وقص شاربه، ووقف في صفوف الصلاة مع المسلمين كان متديناً مؤمناً بل هذه ظواهر قد تدل على هذا وقد يكون هذا نوعاً من النفاق والمجارة والاعتیاد لا يغني قليلاً أو كثيراً في حقيقة الدين.

وكذلك بالنسبة للمرأة أيضاً فمع أن الحجاب فريضة إسلامية وظاهره يدل على الصلاح والدين والفقهاء إلا أنه ليس دليلاً قطعياً على ذلك ولكنه ظاهر فقط قد يكون نوعاً من النفاق والمجارة والعادة أيضاً. والذي نعنيه هنا في اختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة البحث عن الدين الحقيقي أو كما قلنا آنفاً الدين الحقيقي لا يعمل على وجه القطع ولكن بغلبة الظن، وأداء الشعائر والحفاظ عليها قرائن ظاهرية إذ ضمنا بعضها إلى بعض قد نحصل على نتيجة حقيقية. وهذا أقوله حتى لا يتعثر بعض الشباب بالقشرة الخارجية لبعض الفتيات، ولا تتعثر أيضاً بعض الفتيات الطيبات الصالحات بالقشور الخارجية لبعض الرجال¹.

وقد يتم الأخذ باعتبار الأصل ومعرفة أهل المتقدم للزواج أيضاً، وفي السيرة النبوية ما يوثق لهذا. رُوي أن أختاً لبلال بن رباح كان ينتمي إلى العرب ويزعم أنه منهم، فخطب امرأة من العرب فقالوا: إن حضر بلال زوجناك، قال: فحضر بلال فقال: «أنا بلال بن رباح، وهذا أخي وهو امرؤ سيئ الخلق والدين، فإن شئتم أن تزوجه فزوجوه، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا» فقالوا: من تكن

¹ - الزواج في ظل الإسلام، مرجع سابق، ص: 34-35.

أخاه نزوجه فزوجوه¹.

فهذا دليل قوي على تدخل الأسرة في اختيار الشريك لفرد من أفرادها، ويعضده أيضا من السيرة النبوية القصة التي وقعت لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتعلق الأمر ببنته فاطمة رضي الله عنها.

روى الإمام مسلم في باب فضائل فاطمة عليها الصلاة والسلام أن عليا بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل، وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت له: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا عليُّ ناكحا ابنة أبي جهل، قال المسور: فقام النبي صلى الله عليه وسلم، فسمعتة حين تشهد ثم قال: «أما بعد، فإني أنكحت أبا العاص بن الربيع، فحدثني، فصدقني وإن فاطمة بنت محمد مضغة مني، وإنما أكره أن يفتنوها، وإنها، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا» قال: فترك علي الخطبة².

فقد أبان عليه الصلاة والسلام عن مساندته الكاملة لمشاعر ابنته فاطمة عليها السلام، وراعى في ذلك أحاسيسها ورغبتها تجاه علي المتقدم إليها، فألقى خطبة علي رضي الله عنه.

إن هذا التدخل من طرف الأسرة تجاه أفرادها، وحرصها على حسن اختيار شريك حياتهم ليدل على المكانة الكبيرة لهذه الخطوة (اختيار الشريك)، تجنبا لأية عواقب مستقبلية قد تفضي إلى إلحاق التصدع والتفكك ببناء هذه المؤسسة.

وبعد عرض فلسفة اختيار الشريك كما بينتها السيرة النبوية، وبعد انخراط الرجل والمرأة في

¹ - المستدرک، الحاكم، کتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذکر بلال بن رباح مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، 320/3، ح: 5237.

² - صحيح مسلم، کتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام، 1903/4، ح: 96.

الزواج، تبدأ المرحلة الأهم؛ مرحلة التنمية الأسرية، والتي من خلالها يتم التأسيس لمؤسسة الأسرة، ويتعرف كل طرف بالجوانب والمجالات التي به أن ينميها ويصنعها.

الفرع الثاني: تجليات التنمية الأسرية في السيرة النبوية

إن المنقب في أحداث السيرة النبوية باحثاً عن تجليات التنمية الأسرية لن يجد حديثاً أو أثراً فصلّ في بيان أوجه هذه التنمية وملاحظتها كما جاءت مفصلة ومستوفية في حديث أم زرع الذي وقعت أحداثه في العصر الجاهلي.

وحري بالذكر أن أي فترة من فترات الظلام والجاهلية لا بد وأن تتخللها أنوار التميز وصنائع المعروف، وأن ليس كل شيء ورد عن قوم ما قبل البعثة هو مردود ومُجانب لمكارم الأخلاق ولصور المعروف، وإلا فقول الصادق الأمين "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق" إشارة إلى أن ثمة أخلاق حسنة ومقبولة، وأن النبي عليه السلام جاء بتشريع رباني جديد يخرج الناس من دياجير الظلمات والجهل إلى أنوار التميز والتألق، كما جاء لتثبيت وإقرار الحسن من عمل ما قبله.

من أجل هذا؛ سأورد إحدى أروع القصص المميزة التي سجلتها السيرة النبوية، وروتها أم المؤمنين الصادقة عائشة رضي الله عنها بحضرة الرسول الحكيم، فأقرها عليه الصلاة والسلام.

وسأقتصر في الاستنباط على ذكر ملامح التميز داخل الأسرة فقط لدى أزواج النساء اللواتي سردن قصصهن، ووصفن مناخ عيشهن وعشرة أزواجهن لهن.

روى الشيخان في صحيحيهما في الحديث الطويل عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: "جلس إحدى عشرة امرأة، فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً (...)" فحكّت أقوال الزوجات كاملة، فلما انتهت قالت عائشة: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ»¹. وعند الطبراني زيادة "إلا أن أبا زرع طلق، وأنا لا أطلق"².

شرح هذا الحديث الإمام القاضي عياض وأفرده في مؤلف أسماه "بغية" الرائد فيما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد؛ بين فيه سند الحديث، وطرقه، وغريب لغته، وفقه الحديث، وعبره... لقد بلغت العناية بالمرأة في السيرة النبوية منزلة رفيعة، ولقيت اهتماما بالغاً في سنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ القولية منها والفعلية ثم التقريرية، إذ كانت هذه الأخيرة (السنة) بكل أصنافها تترجم وتمثل الأصل القرآني "وعاشروهن بالمعروف" المبين لما يجب أن تكون عليه العلاقة الزوجية الناجحة. ولما كان كتاب الله حوى من الكليات وعموم الألفاظ ما لا يسعف المرء في بيان المقصود من تلك الكليات بعث الله إلى الناس من يبين لهم الكتاب ويعلمهم الحكمة، فكانت سيرته عبارة عن تحليل دقيق وتجسيد فعلي ومثالي لأي القرآن. ولا غرو؛ إذ كان سيد الخلق قرآناً يمشي، وكان خلقه القرآن.

والمطلع على أحوال بيت الزوجية في العصر المثالي يعاين معاملات الرسول الأكرم وأزواجه الطاهرات، ويقف عند أصناف هذه التنمية وعن ألوانها، فيندهش من البون العريض، والفرق الشاسع، بين حالة الأسرة المسلمة حينئذ مقارنة بمثلتها اليوم.

ونظراً للمكانة التي وضع الإسلام فيها المرأة، ومركزيتها داخل الأسرة والمجتمع اعتبر رسول الله المتميزين من الرجال أولئك المتميزون مع أهلهم وأزواجهم. فجعل خير الأزواج خيرهم لأهله، وهو عليه السلام خيرهم لأهلهم، بل عُدَّ "أكمل المؤمنين إيماناً، أحسنهم خلقاً، وخيارهم خيارهم لنسائهم"³ وفي رواية: "وألفهم بأهله"¹، يقول البيهقي معلقاً: "عنى أن من أحسن معاشرته أهله فهو

¹ - يرجع إلى: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل، 27/7، ح: 5189. وانظر: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر حديث أم زرع، 4/ 1896، ح: 92.

² - المعجم الكبير للطبراني، مسند النساء، عائشة بنت أبي بكر الصديق، 173/23، ح: 270.

³ - مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، 364/ 12، ح: 7402.

أفضل الناس".²

أقول: فالخيرية هاهنا رديف التميز كما سبق وأن أشرت إلى ذلك³، وكأن معنى الحديث يقول بلسان العصر: إن المتميزين منكم -أيها الأزواج- من أحسن معاشرته زوجته.

وانظر إلى خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، فكان مما أمر به أصحابه -وأشهدهم على تبليغه- حسن المعاملة وجميل العشرة مع الزوجات، فقال: "فاتقوا الله في النساء، فإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله".⁴

ولكي أقرب معنى التنمية الأسرية التي ندندن حولها سأقف عند خمس محطات من محطات التنمية الأسرية، استقيتها من الحديث الآنف الذكر (حديث أم أبي زرع)، وأتزتها بالهدي النبوي المشرق بصور التنمية داخل بيت الزوجية.

العنصر الأول: في تنمية العلاقة بين الزوجين

أولاً: إشباع الحاجات النفسية والروحية لدى الزوجين

رصدت السيرة النبوية العطرة لوحات مشرقة تبرز تعامل خير الخلق مع أزواجه الطاهرات، ولا غرو أن نجد سيد الخلق يوصي بالنساء ويحترمن ويكرمن ويحرص على إسعادهن وتقدير مشاعرهن وأحاسيسهن... فقد شهد له الله بذلك، وشهد لنفسه بذلك، ثم شهدت له زوجاته وأقرن بذلك. ومن خلال حديث أم زرع -الذي روته أم المؤمنين عائشة في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم

¹ - المصدر نفسه، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، 40 / 242، ح: 24204.

² - شعب الإيمان، 6 / 88.

³ - أطلقت -في الباب الأول- مصطلح "الأمة المتميزة" على الأمة المذكورة في قوله عز وجل: "كنتم خير أمة أخرجت للناس".

⁴ - سنن الدارمي، من كتاب المناسك، باب في سنة الحاج، 2 / 1167، ح: 1892.

وأقره وشبه تعامله الشريف بتعامل أبي زرع لزوجته¹ - نجد أن أول ملامح تمييز الزوج يتجلى في حسن عشرته مع أهله وتأنيسها واستحباب محادثتها بما لا اثم فيه، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم هاهنا بحديثه لعائشة رضي الله عنها بخبر هؤلاء النسوة.²

وقد يوّب الإمام البخاري هذا الحديث ضمن كتاب النكاح وأسماء " باب حسن المعاشرة مع الأهل".

والمتمعن في الحديث يجد كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يوازن بين همّ الرسالة العامة وبين مباحات الأنس والإحسان للزوجة، فلم يمنعه ثقل المسؤولية من الاستماع لزوجته عائشة رضي الله عنها ولم يقاطعها أثناء حديثها.

ومن صور إشباع الجانب النفسي للزوجة ملاحظتها، ومداعبتها، وتخصيص وقت للدرشة بينهما، والاستماع لهمومها ومشاكلها وأسرارها... فعلى هذا النهج سار صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام في تعاملهم مع أزواجهم.

يقول حنظلة رضي الله عنه: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوعظنا، فذكر النار، قال: ثم جئت إلى البيت فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة، قال: فخرجت فلقيت أبا بكر فذكرت ذلك له، فقال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر، فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله نافق حنظلة فقال: «مه» فحدثته بالحديث، فقال أبو بكر: وأنا قد فعلت مثل ما فعل،

¹ - ففي ما قاله عليه السلام: «كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرَعٍ لِأُمِّ زَرَعٍ» من الفقه جواز التأسّي بأهل الإحسان وبالمتميزين من العصور السالفة أو المعاصرة؛ فقد امتثل صلى الله عليه وسلم جميل عشرة أبي زرع لزوجته، وشبه إحسانه لعائشة بإحسان أبي زرع لزوجته. يقول الفقيه القاضي أبو الفضل: "لا نقول أن النبي صلى الله عليه وسلم اقتدى بأبي زرع، بل أخبر أنه لها كأبي زرع، وأعلم أن حاله معها مثل حال أبي زرع ذلك، لا على التأسّي به، وأما القول بجواز التأسّي بأهل الإحسان من كل أمة فصحيح ما لم تصادمه الشريعة". أنظر: بغية الرائد فيما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد القاضي عياض، (تحقيق: صلاح الدين بن أحمد الإدلي وآخرون، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، ط1 - 1975م)، ص: 171.

² - المرجع نفسه، ص: 32. بتصرف

فقال: «يا حنظلة ساعة وساعة، ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر، لصافحتكم الملائكة، حتى تسلم عليكم في الطرق»¹.

فالزوج المتميز من وُفق لأداء حقوق الخالق والمخلوق على وجه التوازن، دون إخلال ولا غلبة لأحدهما على الآخر، ومن خلال حديث حنظلة نستشف وسطية النهج النبوي وموازنته بين الحقوق والواجبات فيما لا يظلم فيه الزوج جانبا من جوانب الحياة؛ أي تخصيصه لـ"ساعة للرب عز وجل، وساعة مع الأهل والأولاد، وساعة للنفس حتى يعطي الإنسان لنفسه راحتها... وساعة للزوار والضيوف، حتى يقوم بجميع الحقوق التي عليه على وجه الراحة"².

ونجد أن الزوجة الرابعة وصفت زوجها - في حديث أم زرع - بحسن الصحبة، وذلك حينما قالت: زَوْجِي كَلِيلٌ تَهَامَةٌ، لَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ، وَلَا مَخَافَةٌ وَلَا سَامَةٌ.

فوصفته بحسن صحبتها وجميل عشرتها، واعتدال حاله، وسلامة باطنه، وثقتها به، وضربت المثل بليل تهامة من بلاد الحجاز - مكة وما والاها - بلاد حارة راكدة الريح، وبهذا سميت تهامة³.

كما نجد أن إحساس الزوجة بالأمن بين كنف زوجها أمر مطلوب، لذلك فلا يحق للزوج أن يهدد زوجته بالطلاق في كل مرة أغضبت، أو لم يتفقا على شيء... فتشعر بذلك بأن حياتها الزوجية باتت مهددة، كما لا يحق له أن يُرسلها إلى بيت أهلها كلما استاء منها، فبيت الزوجية سكنها.

ولذلك نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم طمأن عائشة رضي الله عنها لما قال لها: كنت لك كأبي زرع لأم زرع، غير أنني لا أطلقك، وذلك "تتميما لتطيب نفسها، وإكمالا لطمأنينة قلبها،

¹ - سبق تخريجه.

² - شرح رياض لصالحين، محمد بن صالح العثيمين، (دار الوطن للنشر - الرياض، 1426هـ)، 236/2. بتصرف.

³ - بغية الرائد فيما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، ص: 68.

ورفعا للإيهام، لعموم التشبيه بجملة أحوال أبي زرع، إذ لم يكن فيها ما يذم سوى طلاقه لها".¹

لقد أنتت الزوجة الخامسة على زوجها ومدحته بقولها: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهَدَى، وَإِنْ خَرَجَ أَسَدًا، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهَدَ.

وتشبيهها زوجها بالفهد لاشتراكهما في كثرة النوم والغفلة، وذلك على وجه المدح، تقول العرب في المثل: "أنوم من فهد". وشبهته أيضا بالأسد لاتصافه بالشجاعة في تعامله مع الرجال خارج البيت.

وكأنها تحكي عن زوجها ما يكون فيه من اللين والفكاهة واللطف معها، وإذا ما غادر البيت صار كالأسد وتسليح بشيم الرجولة؛ من شجاعة وقوة وحزم. وهكذا كان ديدن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في اللين والرفق أثناء تعاملهم وأزواجهن، وكذا بالقوة والشجاعة خارج بيت الزوجية.

يقول عمر رضي الله عنه: إنه ليعجبني أن يكون الرجل في أهله مثل الصبي، ثم إذا بغى منه، وجد رجلا. وكان زيد بن ثابت من أفكه الناس في بيته، فإذا خرج، كان رجلا من الرجال.² فأصحاب محمد اقتبسوا نور تميزهم من هدي نبهم عليه أفضل الصلاة والسلام الذين يقول «خيركم خيركم لأهله، وأنا من خيركم لأهلي»³، وسبب ورود الحديث أنه عليه السلام سمع رجلا يضربون النساء فنهاهم عن ذلك وقال الحديث.

فمعاملة الزوج زوجته معاملة حسنة ولينة لا تنقص من قدره ولا تُقلل من هيبه رجولته؛ ألا ترى

¹ - بغية الرائد فيما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، ص: 167.

² - شرح السنة، 13 / 183.

³ - صحيح ابن حبان [الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان]، محمد بن حبان التميمي، (ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1-1408 هـ)، باب معاشررة الزوجين، ذكر الزجر عن ضرب النساء إذ خير الناس خيرهم لأهله، 491/9، ح: 4186.

إلى الأسد - وهو ملك الغابة - كيف يلين أمام اللبؤة مطأطأ الرأس خافض الزئير، لا يخرم ذلك من قدره ومقامه شيئاً.

ولنا في رسولنا الكريم أسوة حسنة في هذا الباب؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام داخل بيت الزوجية ليئناً ورحيماً في تعامله مع زوجاته.

هذا بالنسبة لحق الزوجة على الزوج في إشباع الجانب النفسي لديها، وباعتبار أن الزوجة أيضاً شريكة في التنمية الأسرية، نجد أن عليها حقوقاً تجاه زوجها، والتي تسد متطلبات الجانب النفسي للزوج.

ومن أولى علامات التميز لدى الزوجة الاعتراف بإحسان الزوج لها والتنويه بجميل صنيعه وعشرته معها، وتجنب الجحود والكفر بالنعمة، فهذا الأخير من شأنه تمزيق الجانب النفسي للزوج وبالتالي عدوله عن استئناف الإحسان الذي عهده.

ويتجلى هذا من خلال حديث أم زرع لما طلقها أبو زرع وتزوجت رجلاً آخر، قالت:
"فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا، رَكِبَ سَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِيًّا، وَأَرَاخَ عَلَيَّ نَعْمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا، وَقَالَ: كُلِّي أُمَّ زَّرَعٍ وَمِيرِي أَهْلَكَ، قَالَتْ: فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ، مَا بَلَغَ أَصْعَرَ آنِيَّةِ أَبِي زَّرَعٍ".

فوصفت الرجل الذي تزوجته بالسؤدد في ذاته، والسعة في ذات يده، وأنه صاحب حرب وركوب، وبالإحسان إليها، والتفضل على أهلها، ثم أخبرت أنه مع هذا كله لم يقع عندها موقع أبي زرع، وأن كثيره دون قليل أبي زرع، فكيف بكثيره؟ وأن حال هذا الآخر عندها معيب إذا أضافته إلى حال أبي زرع، مع إساءة أبي زرع لها أخيراً في تطليقها¹.

¹ - بغية الرائد فيما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، ص: 157-163.

فحتى بعد حصول الطلاق لم يمنع ذلك أم زرع أن تشي وتنوه بإحسان زوجها السابق، وتذكر مناقبه وحسن معاشرته لها. وهذا من تميز الزوجة الصالحة التي تتذكر الجميل والحسن في العلاقة الزوجية، وتتجاوز إحياء الأخطاء وتتبع النقائص والنبش عن العيوب.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه»¹.

ونجد هذا التميز [تقدير إحسان الزوج وشكره] حاضرا لدى أم المؤمنين عائشة الصديقة لما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث: «كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ» ثم استثنى من ذلك الأمر المكروه منه (الطلاق) فأجابته رضي الله عنها بقولها: " بأبي أنت وأمي يا رسول الله، بل أنت خير إلي من أبي زرع".²

لقد نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على خطورة كفر إحسان العشير، ويين أن ذلك يُعدّ سببا من أسباب كون أكثر أهل النار من النساء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أُرِيْتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ» قيل: أيكفرن بالله؟ قال: " يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط"³.

وأختم هذه المسألة بقصة تؤكد قول الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى؛ هذه القصة وقعت في المجتمع العربي الإسلامي، وبالضبط في زمن المعتمد بن عباد (ت 488هـ) حاكم قرطبة واشبيلية في عصر ملوك الطوائف بالأندلس.

روي في كتب التاريخ أن زوجة المعتمد -الملقبة باعتماد- رأت ذات يوم بإشبيلية نساء البادية

¹ - السنن الكبرى للنسائي، كتاب عشرة النساء، شكر المرأة لزوجها، 239/8، ح: 9086.

² - المصدر نفسه، 248/8، ح: 9092.

³ - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب كفران العشير، وكفر دون كفر، 15/1، ح: 29.

يعن اللبن في القرب وهنّ رافعات عن سوقهنّ في الطين، فقالت له: أشتهي أن أفعل أنا وجواريّ مثل هؤلاء النساء، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد، وصيّر الجميع طيناً في القصر... وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين، فيقال: إنّه لما خلع وكانت تتكلّم معه مرّة فجرى بينهما ما يجري بين الزوجين، فقالت له: والله ما رأيت منك خيراً، فقال لها: ولا يوم الطين؟ تذكيراً لها بهذا اليوم الذي أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى، فاستحيت وسكتت¹.

وكما وجب على الزوج الاعتراف بجهود زوجته المبذولة تجاه البيت وقيامها بأشغاله، وشكرها على ما تبذله في سبيل الأسرة، وجب - في المقابل - على الزوجة أيضاً ألاّ تكفّر بما يبذله رب البيت في سبيل إسعاد أهل بيته.

ومتى ما كانت فلسفة الشكر هذه متبادلة بين قطبي العلاقة الزوجية توطدت العلاقة أكثر، وتحمس الطرفان أكثر لبذل كل الوسع، لنيل رضا بعضهما، ونيل رضا الخالق وخير الخلق صلى الله عليه وسلم الذي يقول: " من صنع إليكم معروفا فكافئوه"² ومعروف المعاشرة الزوجية أولى بالشكر والمكافأة!

ومن تجليات تنمية الزوجة للجانب النفسي لدى الزوج أيضاً كون الزوجة سندا قويا لزوجها، ومدعما قويا لنفسيته التي تضعف وتنكسر عند نزول المصائب أو اشتداد الأزمات.

كثيرا ما تتردد على مسامعنا مقولة " وراء كل رجل عظيم امرأة"، لكن البعض فقط من يقف عند أبعادها ويتتبع تجلياتها في واقع الرجال الذين نجحوا في حياتهم، ولمع نجم تميزهم في الأفق. إننا هنا؛ من خلال هذه المقولة؛ سنتطرق إلى عظمة المرأة عامة، وعظمة الزوجة على من سواها خاصة.

¹ - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شهاب الدين المقرئ التلمساني، (تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط1- 1968م)، 1/ 440.

² - سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله، 2/ 128، جزء من الحديث: 1672.

والحق؛ أن العظيم في حياته لا شك وأن وراء عظمته زوجة عظيمة، تُعتبر سنده الأساس، وتقف بجانبه في إنتاج جيل تربوي مثالي، وفي صناعة مجتمع حضاري قوي، وتكون له عوناً على الشدائد، ورهن إشارته في كل الأمور التي يعانيتها ويعيشها خارج البيت.

إننا هنا أمام الاستشهاد بأغنى المواقف الزوجية تميزاً؛ ويتعلق الأمر مرة أخرى بخديجة بنت خويلد، والحق أنك لا تكاد تفتقد اسم خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها في كل ملامح التميز الزوجي، فقد برعت في الصفات كلها، واشتهرت في المناقب جميعها، فنالت رضا زوجها إلى يوم الدين.

لقد كانت خديجة رضي الله عنها سنداً قوياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته، مذ كان يخلو بغار حراء ويتحنث فيه قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إليها فيتزود لمثلها. ولما نزل عليه الروح الأمين أول مرة رجف فؤاده، وقصدها رضي الله عنها، فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لها وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل... فقالت: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك...¹

ولكم أن تتأملوا في حكمة السيدة خديجة وحصافة عقلها وصبرها وتحملها؛ فكانت تقوم بتجهيز زوجها وتقوم بمؤنته لكي يتفرغ للتحنث والاختلاء، ثم بعد نزول الوحي عليه استقبلته بمبشرة له، ومسكنة لنفسه، ومثبتة لقلبه الذي يرجف من عظم ما عايشه بغار حراء.

إن قول الطاهرة "كلا؛ والله ما يخزيك الله أبداً" يحمل من الدلالات ما يعز على الباحث عدها وجمعها، فضلاً عن معرفتها بأخلاقه وشيمه ومعروفه وما يقوم به عليه السلام، فقد سعت

¹ - سبق تخريجه.

إلى ذكر ذلك للرفع من نفسيته صلى الله عليه وسلم لما خشي على نفسه، وبينت له أن من كانت هذه صفاته لا يمكن أن يخيب، ولن يمسه الضر أبداً.

والمعروف عن الزوج أنه يأتي -عادة- من خارج البيت ونفسيته متعبة، فضلاً عن الضغوطات المادية والمعنوية التي تضايقه، والمواجهات والصدمات المختلفة التي يخوضها... وعندما يُقبل على سكنه (زوجته) يكاد يسقط من التعب، فإنه يتوقع من زوجته أن تخفف عنه الضغوط وتنسيه فيها، وتتودد له، وتتجنب إليه، وترعاه نفسياً وعاطفياً.

أما إذا عاد لبيته ليعاني ضغطاً إضافياً فإنه سينهار؛ إذ صار بيته معزلاً لهوموم، وصارت زوجته معه كالرجال في القسوة والغلظة والحشونة؛ قالت عائشة رضي الله عنها: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرَّجُلَةَ من النساء»¹؛ والرجلة؛ تلك التي تشبه بالرجال سواء في زيهم أو مشيهم أو رفع صوتهم أو غير ذلك... أما في العلم والرأي فمحمود، ويقال كانت عائشة رجلة الرأي².

ويدخل في تشبه النساء بالرجال تشبههن بغلظة الرجال وقسوتهم، وحشونة الصوت أثناء الحديث مع أزواجهن... إلى غير ذلك مما يُفقد المرأة أنوثتها وطبيعتها التي خلقها الله عليها، وما عُرفت به من مشاعر جياشة وأحاسيس رقيقة.

قال عليه الصلاة والسلام: " ألا أخبركم بنسائكم في الجنة؟" قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «كل ودود ولود إذا غضبت أو أسيء إليها قالت: هذه يدي في يدك، لا أكتحل بِعَمَضٍ حتى ترضى»³. إن تودد المرأة لزوجها وتحببها له، وإسبالها عليه فائض المشاعر، وحنانها تجاهه، يزيد من أواصر العلاقة بين الزوجية، ويقلل من الخلافات والنزاعات الزوجية؛ ذلك أن المرأة الودودة يعزُّ على الرجل

¹ - سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب في لباس النساء، 60/4، ح: 4099.

² - فيض القدير، 269/5.

³ - المعجم الأوسط، باب الألف، من اسمه أحمد، 206/2، جزء من الحديث: 1743. قال [الحقق] طارق بن عوض: "لم يروه عن أبي حازم إلا إبراهيم هذا، ولا يروى عن أنس إلا من هذا الوجه".

هجرها ومفارقتها.

عكس المرأة الرجل طويلة اللسان، التي تُزجر وتصرخ، وتُقطَّب الحاجبين، وتهجر الزوج، صعبة المراس، سيئة الخلق... فمثل هذه؛ لا شك أنه سيفكر - في كل مرة - في فراقها وطلاقها؛ ويبحث عن من إذا غضبت قالت: هذه يدي في يدك، لا أكتحل بغمضٍ حتى ترضى، ولأن من لا يجد السعادة في بيته يبحث عنها في مكان آخر!

ثانياً: توفير المتطلبات المادية الأساسية

من الصفات التي لا غنى عنها مطلقاً، ولا اختلاف عليها بين الناس هو اشتراط الغنى في المتقدم للزواج، وأقل الغنى هو الكفاف والقيام بواجبات الزوجية.

وقد فسر العلماء معنى "الباءة" في الحديث بأن المقصود منها هو نفقات الزواج وإمكان إعاشة الرجل للمرأة. والإسلام يشترط في صحة عقد النكاح استمرار قدرة الرجل على الإنفاق¹.

وتصف أم زرع في أول حديثها عن زوجها ما عاشته في كنفه من ألوان الخير والعطاء؛ من وفرة المأكول، وغزارة المشرب، وفساحة المسكن، وكثرة الخدمات المسهلة للعيش الكريم. فذكرت أصناف النعيم التي وفرها زوجها لها وجعلها رهن استفادة أسرته وتنعمها به.

تقول: "زَوْجِي أَبُو زَرَعٍ، وَمَا أَبُو زَرَعٍ، أَنَسَ مِنْ حُلِيِّ أُذُنِي، وَمَلَأَ مِنْ شَحْمِ عَضُدِي، وَبَجَّحَنِي فَبَجَّحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةِ بِشَقٍّ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ، وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ".

يقول القاضي عياض شارحاً قولها: "وصفته بأنه أحسن إليها، وحلاها، ورفه عيشها، وسمنها، وأراها المسرة في أحوالها... ونقلها من شظف عيش أهلها وتبلغهم بغنيمتهم إلى أهل الثروة والأموال الواسعة من الخيل والإبل والرحال والزرع والبقر والدواب الدائسة الكثيرة والعبيد والخول، والآلات

¹ - الزواج في ظل الإسلام، مرجع سابق، ص: 40-41.

المنقية للأطعمة، المصلحة لها، والماشية الكثيرة، والطير المتنعم بأكلها".¹

واستأنفت تحكي حالها وسط نعيم زوجها وكثرة إحسانه وكرمه معها: "وَعِنْدَهُ أَقْوَالٌ فَلَا أُقْبَحُ، وَأَزْفُدُ فَأَتَصَبَّحُ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ، أُمُّ أَبِي زَرِّعٍ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرِّعٍ، عَكُومُهَا رَدَاخٌ، وَبَيْتُهَا فَسَاخٌ".

فوصفت بر زوجها بما وتدللها عليه وترفيهه لها وكثرة إحسانه إليها، فوصفت أنه لا يردّ قولها، ولا يقبح عليها ما تأتي به من كلام، لإكرامه إياها، وميله إياها وعزتها عنده... وأنها تنام صبحتها، ولا تنبه من نومها حتى تنتبه، ترفيها لها، ودل من هذا الفصل أن غيرها يقوم بمؤونة بيتها، ومهنة أهلها، وأن لها من الخدم من يكفيها ذلك، فلذلك تصبحت في نومها... وأنها تشرب حتى لا تجد له مساعدا فتكره الشرب بعد لتمام ربيها، أو أنه لا يقلل مشروبها، ولا تناهب، ولا يقطع عليها، حتى تتم شهوتها فيه، لكثرتهم وكرامتها. كما وصفته بسعة المال وكثرة الخير والآلات، وسعد فناء البيت وكبره، وهذا لا يكون إلا مع الوجد، وقد يحتمل أن يكون كنى بالعكوم ورداحتها عن كفلها وعظمه، كما قالوا جارية رداح أي عظيمة الكفل... وكثي بسعة البيت وفسحة الفناء عن كثرة خيره، ورغد عيشه، والبر بنازله.²

وقيام الزوج بتغطية نفقات البيت وتلبية احتياجات زوجته وأولاده من الهدي النبوي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل دينار ينفقه الرجل، دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله» قال أبو قلابة: "وبدأ بالعيال، وأي رجل أعظم أجرا، من رجل ينفق على عيال صغار، يعفهم أو ينفعهم الله به، ويعفيهم"³، والعيال: أي من يعوله ويلزمه مؤنته من نحو زوجة وخادم وولد.

¹ - بغية الرائد فيما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، ص: 121-126.

² - المرجع نفسه، ص: 129-136.

³ - صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم عنهم، 691/2، ح:

إن قول الرسول الحكيم " أفضل دينار ينفقه الرجل " إشارة إلى أولوية النفقة على بيت الزوجية، وأنه أحقّ بالبذل والجود على أهله، وتصريف فائض المؤونة والميرة لقناة الأسرة قبل أي قناة من قنوات تصريف المال، ويختلف هذا الإنفاق من زوج لآخر؛ بحسب الإمكانية والاستطاعة، وبحسب ما رزقه الله كل زوج.

قال عز وجل: (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِۦٓ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَيْهِ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا ءَاتَيْهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)¹.

فإذا ما وسع الله عليه ينبغي أن يوسع على عياله، قال عليه الصلاة والسلام: « لَيْسَ مِنَّا مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ ثُمَّ قَتَرَ عَلَىٰ عِيَالِهِ، وَهُمْ يَرَوْنَ رِيحَ الْقَتَارِ مِنَ الْجِيرَانِ، وَيَرَوْنَهُمْ يُكْسُونَ وَلَا يُكْسُونَ»².

فلا يهتم امتلاك الفرد للأموال الطائلة إذا لم يكن يحسن تصريفها ضمن القنوات الضرورية وذات الأولوية؛ كالإنفاق على الأهل والأولاد وما يتعلق بالبيت، والتوسيع في المسكن، وتحقيق الاكتفاء في الطعام والمشرب والملبس دون إفراط ولا تفريط.

وقد بينت السيرة النبوية قنوات وسبلا أخرى لإعالة الأسرة وتحقيق احتياجاتها وتوفير متطلباتها في حالة الفقر أو عجز الزوج عن سد خصاص متطلبات العيش الكريم؛ وتتجلى هذه السبل -على سبيل المثال- في قيام الزوج إلى جانب زوجته بأعمال البيت وإعانتها عليها، وعدم تقييد التكليف بمهام البيت وحصرها على الزوجة.

وسيرته -صلى الله عليه وسلم- العطرة زاخرة بهذا المثال؛ أخرج الإمام البخاري ضمن باب "

¹ - سورة الطلاق: الآية 7.

² - مسند الشهاب القضاعي، 205/2، ح: 1192.

خدمة الرجل في أهله " حديثاً لأُم المؤمنين لما سئلت رضي الله عنها: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم، يصنع في البيت؟ قالت: « كان يكون في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج»¹. وفصلت أم المؤمنين ما كان يقوم به عليه السلام في بيت الزوجية من مساعدة وتقديم يد العون لزوجته، وذلك فيما ترجم له ابن حبان في صحيحه تحت باب: ذكر ما يجب على المرء من مجانبة الترفع بنفسه في بيته عن خدمته، وإن كان له من يكفيه ذلك، قالت رضي الله عنها: " كان يخيظ ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم"².

لكننا نجد في هذه الأيام من الرجال من يستنكف أن يقوم على خدمة بيته وأهله، أو مساعدتهم في أعمال المنزل على الرغم من أن العناية بشأن الأهل من أسباب التوفيق الإلهي، وإذا قام به الزوج تقريباً إلى الله -تعالى- نال الثواب لأتباعه سنة وأخلاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل صار من خير الناس لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"، وفي الحديث تنبيه على أعلى الناس رتبة في الخير وأحقهم بالاتصاف به هو من كان خير الناس لأهله فإن الأهل هم الأحق بالبشر وحسن الخلق والإحسان وجلب النفع ودفع الضرر، فإذا كان الرجل كذلك فهو خير الناس، وإن كان على العكس من ذلك فهو في الجانب الآخر من الشر.³

لقد غطت السيرة النبوية كل جوانب الحياة الزوجية، فحياة المعصوم صلى الله عليه وسلم إرث عظيم، وامثال للدستور الإلهي، هذه السيرة رسمت طريق التميز أمام الأزواج حتى ينتهجوهم، فمن سلكه ظفر بنصيبه من التميز النبوي، ومن حاد عنه هلك وأهلك معه.

وحديثنا عن توفير الحاجات الأساسية داخل بيت الزوجية، هو حديث عن إسهام الزوجة أيضاً

¹ - صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب خدمة الرجل في أهله، 65/7، ح: 5363.

² - صحيح ابن حبان، 490/12، ح: 5677.

³ - مقال " من إكرام النبي للمرأة خدمته لأهله"، هاني ضو، (الموقع الإلكتروني "مصراوي"، تاريخ النشر: الإثنين 28 نوفمبر 2016)، رابط المقال:

في هذا التوفير وهذه التنمية المادية.

وقد حفظت السيرة النبوية مواقف مشرقة ومشرفة، أبانت عن تميز المرأة، وتألقتها بين ثنايا تفاصيل حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يقتصر هذا التميز على فئة من النساء دون غيرهن؛ إذ كان لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم منه الحظ الوافر، وكذا بناته الطاهرات، فضلا عن زوجات أصحابه، وبناتهم...

ولا يختلف اثنان عما كانت عليه المرأة من صنوف التميز والنجاح داخل مختلف المجالات والتخصصات؛ سواء تلك المحترمة من لدن الرجال (كالتجارة، والجنديّة، والأعمال الشاقة...) أو تلك التي تخص القيام بأعباء البيت ومهامه (من خياطة، وطهي، وتنظيف...).

فكانت الزوجة المميزة حينئذ تمتلك صناعات، وتمتحن مهنا، وتساعد زوجها على القيام بمهام البيت وسد احتياجات الأسرة، إذ لم يكن الخروج للعمل مقتصرًا على الرجل دون المرأة، ولم تكن الاعتبارات والتقييدات الموضوعية اليوم سارية.

ويكفي في الاستدلال على ذلك أن خير نساء العالمين وسيداتهن اشتغلن داخل بيت الزوجية وخارجه؛ وأخص بالذكر هنا كلاً من أم المؤمنين خديجة بنت خويلد زوج رسول الله، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فكانت خديجة رضي الله عنها امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالهم، فلما بلغها من رسول الله صدقه، وأمانته، وعظم أخلاقه، عرضت عليه مالها ليتاجر فيه.

ولما تزوج صلى الله عليه وسلم بخديجة بقيت تتاجر بمالها وتشارك زوجها عليه السلام فيه. ولذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثني وأحسن الثناء، حتى كان ذلك يغيض عائشة رضي الله عنها، فتقول له في غضب وغيره: ما أكثر ما تذكرها.. حمراء الشدقين، قد أبدلك الله

خييراً منها! فيجيب عليه السلام ووجهه متمعر، غير ناكر لخيرها، ولا كافرٍ بنعمتها عليه: ما أبدلني الله خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني أولادها إذ حرمني أولاد النساء.¹

وكذلك أم المؤمنين زينب بنت جحش، فقد كانت امرأةً صناعاً؛ تعمل بيديها وتتصدق به في سبيل الله. وانظر إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي تتطوع في العمل جنباً إلى جنب زوجها الزبير بن العوام، وتعيّنه على سد احتياجهما وخصاصهما، قالت تحكي حالها قبل أن يُخصص لها أبوها خادماً يكفيها ذلك: تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ، وَمَا لَهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوكٍ، وَلَا شَيْءٍ غَيْرِ نَاضِحٍ وَغَيْرِ فَرَسِهِ، فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ وَأَسْتَقِي الْمَاءَ، وَأَخْرِزُ [أحيط] غَرْبَهُ وَأَعَجِّنُ، وَمَ أَكُنُّ أَحْسَنُ أَخْبِرُ، وَكَانَ يَخْبِرُ جَارَاتِي مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكُنَّ نِسْوَةً صِدْقٍ، وَكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَأْسِي، وَهِيَ مِنِّي عَلَى ثُلْثِي فَرَسِخٍ، فَجِئْتُ يَوْمًا وَالنَّوَى عَلَى رَأْسِي، فَلَقِيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَدَعَانِي ثُمَّ قَالَ: «إِخْ إِخْ» لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أُسِيرَ مَعَ الرَّجَالِ، وَذَكَرْتُ الزُّبَيْرَ وَغَيْرَتَهُ وَكَانَ أَعْيَرَ النَّاسِ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ قَدِ اسْتَحْيَيْتُ فَمَضَى، فَجِئْتُ الزُّبَيْرَ فَقُلْتُ: لَقِينِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَى رَأْسِي النَّوَى، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَنَاخَ لِأَرْكَبَ، فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَعَرَفْتُ غَيْرَتَكَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لِحَمْلِكَ النَّوَى كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ رُكُوبِكَ مَعَهُ، قَالَتْ: حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِحَادِمٍ تَكْفِينِي سِيَّاسَةَ الْفَرَسِ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَنِي².

وحرري بالإشارة أنه لا يلزم المرأة شيء من مساعدة زوجها بالعمل خارج البيت إلا أن تتطوع به، كما تطوعت أسماء رضي الله عنها، وليس على الزوج إخدامها إذا كان معسراً، إلا بإرادتها ورغبتها في ذلك.

¹ - سبق تخرجه.

² - صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، 35/7، ح: 5224.

وفي حديث أسماء من الفقه أن المرأة الشريفة إذا تطوعت من خدمة زوجها بما لا يلزمها كنقل النوى وسياسة الفرس أنه لا ينكر ذلك عليها أب ولا سلطان¹. فأبو بكر حاضر، ويرى عمل ابنته رضي الله عنها، فما نهاها عن العمل، إلا أن قام بتخصيص خادم يكفيها سياسة الفرس التي كانت تتعبها وتشق عليها.

كما على الرجل إذا كان موسراً أن يستعمل الخدم، ويخفف على زوجته أعباء البيت ومهامه التي لا تنقطع. وفيه أن على المرأة القيام بخدمة ما يحتاج إليه زوجها من أمور البيت، إذ هو احتاج إلى مساعدتها ومساندتها، ويؤيده قصة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكواها ما تلقى من الرحي، ومطالبتها رسول الله بتعيين خادم لها يتولى أمور البيت الشاقة².

ولنسلط الضوء على زوجة عبد الله بن مسعود "ريطة" رضي الله عنها، التي كانت أيضاً امرأة صناعاً، وليس لعبد الله بن مسعود مال، وكانت تنفق عليه وعلى ولده من ثمة صنعتها. روى ابن حبان في صحيحه قصة "ريطة" مع ابن مسعود، وترجم لها تحت عنوان "ذكر كتبه الله جل وعلا الأجر الجزيل للمرأة إذا أنفقت على زوجها وعيالها من مالها".

تقول رضي الله عنها لزوجها : والله لقد شغلني أنت وولدك عن الصدقة، فما أستطيع أن أتصدق معكم، فقال: ما أحب - إن لم يكن لك في ذلك أجر - أن تفعلني، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وهي، فقالت: يا رسول الله، إني امرأة ولي صنعة، فأبيع منها، وليس لي ولا لزوجي، ولا لولدي شيء، وشغلوني، فلا أتصدق، فهل لي في النفقة عليهم من أجر؟ فقال: "لك

¹ - شرح صحيح البخاري لابن بطال، 350/7.

² - راجع الحديث كاملاً في: صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب الدليل على أن الخمس لنواب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمساكين وإيثار النبي صلى الله عليه وسلم أهل الصفة والأرامل، حين سألته فاطمة، وشكت إليه الطحن والرحي: أن يخدمها من السبي، فوكلها إلى الله، 84/4، ح: 3113.

في ذلك أجر ما أنفقت عليهم، فأنفقي عليهم"¹.

إن الناظر بتأمل في سيرة زوجات النبي وزوجات أصحابه، يجد أن حياتهن كانت حافلة بالتميز والنجاح، وأن علاقتهن بأزواجهن كانت تسودها قيم المودة والرحمة، ويميزها مبدأ التعاون على أمور الحياة الزوجية، فلا وجود للحسابات الضيقة، واعتبارات الأدوار الجنسانية، ولا التمييز بين عمل الرجل وعمل المرأة، فكل - حينئذ - منخرط في صناعة الاكتفاء المادي للأسرة، حسب استطاعته وطريقة عيشه.

ومن خلال صور التميز الزوجي في السيرة النبوية ذات العلاقة بفلسفة عمل الزوجين، يمكننا معالجة المسألة عن طريق عرض منطلقين؛ الأول: قيام الزوج بالعمل إذا كان عمله ذاك كافياً لتغطية كل متطلبات الحياة الزوجية، وفي هذه الحالة يكون إعفاء الزوجة من مشاق العمل خارج البيت أصوب وأنجع.

والثاني: أن يكون إقبال الزوجين على العمل معاً - إذا اقتضت الضرورة -؛ تعاوناً وتقاسماً لأعباء الحياة ومهام الأسرة المتعددة، وإن كان المتفق عليه والبدیهي أن المسؤول الأول والأخير عن ذلك هو الزوج، ومع التأكيد على أن ما قد يصدر من الزوجة يؤخذ من قبيل رضاها وإرادتها، وحبها لأسرتها وأهلها، ورغبةً في تيسير عيش أفرادها وتنعمهم بحياة تليق وتطلعات قطبي الأسرة، على ألا يؤخذ الأمر على حساب الأنانية المفرطة للشخصية النرجسية لبعض الرجال.

فقد تتحول علاقة هذه الشخصية المركزة حول ذاتها مع القرين إلى علاقة استغلال واستنزاف واستبداد يتصاعد بمقدار ما يعبر القرين عن حاجته إلى الشراكة والتكافؤ، وتبادل الحقوق والواجبات

¹ - صحيح ابن حبان، باب النفقة، ذكر كنية الله جل وعلا الأجر الجزيل للمرأة إذا أنفقت على زوجها وعيالها من مالها 10/57، ح: 4247. قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح".

واقترسام الأعباء والمسؤوليات.¹

أما فيما يتعلق بالأزواج الذين يعتمدون اليوم على إنفاق زوجاتهم عليهم بالكلية، أو الذين يطمعون في رواتب زوجاتهم من أجل تغطية مصاريف البيت، أو إجبارهن على ذلك رُغمًا عنهن، فإن أولئك الذكور -بتصرفهم ذاك- يُودَّعون الرجولة وينسلخون من أخلاقيات العلاقة الزوجية، ويكونوا بذلك قد خرموا المروءة والاحترام داخل هذه العلاقة، وتصلوا من أخلاقهم. وإفراغ التعامل الزوجي من الأخلاق تصير به العلاقة بتراء؛ إذ الأخلاق قبل الحب، وقبل المال، بل وقبل كل ما جمع بينهما من أول يوم.

إن وصولنا لنهاية الحديث عن العلاقة بين الزوجين في هذا المبحث لا يعني أبداً أنني استوفيت كل المسائل والقضايا التي تجمع بينهما، ذلك أن العلاقة الزوجية بحر لا ساحل له، فهي مسيرة، وحياء، وتحارب لا تنتهي، لكن حسبي أن أجملت أغلب النقاط المهمة والضرورية في الحياة الزوجية، -بين الزوج وزوجته- على أن أخصص المطلب الأخير من هذا المبحث لعرض ملامح تميز العلاقة بين الوالدين وبين الأبناء، من خلال الاتجاهين معاً.

العنصر الثاني: في تنمية العلاقة بين الزوجين والأبناء

يعتبر الأبناء الثمرة المرجوة والمنتظرة في أية علاقة زوجية، وتتأثر هذه الثمرة، إيجاباً أو سلباً، بمدى نجاح أو فشل العلاقة الزوجية بين قطبي مؤسسة الأسرة.

لذا، فالحاجة إلى استحضار بُعد أمانة المسؤولية الملقاة على عاتقهما قد يُمكن من اضطلاعهما لإخراج ذرية سوية؛ سواء في علاقتها بالوالدين أو بالخالق أو بنفسها أو بالآخر.

¹ - الأسرة وصحتها النفسية: المقومات - الديناميات - العمليات، مصطفى حجازي، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1- 2015م)، ص: 217.

ولا يمكن لهذه العلاقات أن تكون ذات آفاق إيجابية من طرف الأبناء ما لم يحرص الوالدان على تحقيق ثلاث أنواع من التنمية المعنوية أثناء عمليات التربية الوالدية¹، وتتجلى هذه الأنواع في: تنمية المسؤولية، تنمية الانتماء، ثم تنمية الأمن النفسي.

ولبيان مقصودنا من هذه الأنواع سنفرد لكل منها فقرة تقرها للأذهان، وتجلي الغموض عن عناصرها وأجزائها.

أولاً: تنمية المسؤولية

إننا هنا ونحن نعالج مسألة المسؤولية في هذا الموضوع إنما نقصد من ورائها شيئين اثنين: الأول؛ إحساس الآباء والأمهات بجسامة المسؤولية الملقاة على عاتقهما اتجاه تربية الأبناء والحرص على سلامة صحتهم النفسية والعقلية ثم الجسدية. والثاني؛ محاولة تنمية حس المسؤولية في حياتهم اتجاه الأمور والمواقف التي يعيشونها ويواجهونها.

1- مسؤولية الأبناء

إن ثقافة تحمل المسؤولية المتعلقة بالأبناء، وإن كانت كثيرة التداول والتردد على ألسنة الأزواج، إلا أنها تظل مغيبة أثناء نزول الأزمات وحصول النزاعات، ولعل ما يؤكد هذا التغييب العدد المهول لانتشار أطفال الشوارع والمشردين الذين ودعوا بيت الأسرة، وفارقوا دفة الأبوة والأمومة بسبب عجز الوالدين عن الحفاظ على الجو العام والمناسب لترعرع الأبناء، أو بالأحرى بسبب عجزهما عن

¹ - يقصد بالتربية الوالدية: مجموع العمليات والممارسات الشعورية واللاشعورية الصادرة من الوالدين، والتي تسهم في تنشئة الأبناء والتأثير في بناء شخصيتهم من مختلف أبعادها؛ عقيدياً وفكرياً وجسدياً ووجدانياً وخلقياً، وفق ما جاء به الوحي، مما يساعدهم على التوافق والتكيف مع متطلبات واقعهم الاجتماعي... لمواجهة المشكلات والتعامل معها، دون الاعتماد على الآخرين. أنظر كتاب: التربية الوالدية؛ الرؤية الإسلامية بتنظيماتها القيمية، المصطفى حدية، ص: 16.

تحمل أمانة المسؤولية المتعلقة بتربية الأبناء قبل إنجازهم.

من هنا يصير التأكيد على حاجة الأزواج إلى تحمل المسؤولية أمرا ملحا ومطلوبا قبل تفكيرهما في الإنجاب، بل وقبل حصول الزواج!

وقد دعا المبعوث رحمة للناس، صلى الله عليه وسلم إلى تحمل المسؤولية، وخاطب مختلف الفئات المجتمعية، ومنهم الآباء والأمهات؛ قال عليه السلام: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»¹.

فالرعاية هنا من رعى يرعى وهو حفظ الشيء وحسن التعهد له، والراعي هو الحافظ المؤمن الملتزم صلاح ما قام عليه، وكل من كان تحت نظره شيء فهو مطلوب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه. (والرجل راع على أهل بيته) من زوج و أبناء وخدام وغيرهم... يقيم فيهم ما أمر به من النفقة وحسن العشرة، (والمرأة راعية على بيت زوجها وولده) بحسن التدبير والتعهد لخدمته، وتربية الأبناء... وغير ذلك².

ومن مقتضيات هذه المسؤولية الملقاة على عاتق الأب النفقة على أهل بيته من زوجته وأبنائه، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)³، فالنفقة مسؤولية يتحملها الأزواج اتجاه الأبناء وكذا زوجاتهم؛ سواءً كُنَّ في عصمته م أو مطلقات بالمعروف، من غير إسراف ولا إقتار بحسب قدرته م ووضعيتهم المادية، ولسنا هنا بصدد التفصيل في النفقة والكسوة، وإلا لطال بنا الحديث وَجِدْنَا عَنْ الْمَقْصُودِ مِنْ مَوْضُوعِنَا.

¹ - صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، 31/7، ح: 5200.

² - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، شهاب الدين أحمد بن عبد الملك القسطلاني، المطبعة الكبرى الأميرية - مصر، ط7-1323 هـ، 99/8. بتصرف

³ - سورة البقرة: جزء من الآية 231.

وليس الزوج فقط المسؤول عن أمانة الأبناء، بل كذلك الزوجة راعية على بيت زوجها وولده ؛ وذلك بتحملها مسؤولية إطعامهم وتجهيز ملابسهم ومرقدتهم والحرص على سير حياة الأبناء منذ السنوات الأولى في تنشئتهم، وكذا تلقينهم وإكسابهم مختلف القيم والمبادئ ومنظومة الأخلاق بالبيت، كونها الأقرب إليهم غالبا، والمحركة معهم أكثر.

وبهذه النظرة المزدوجة لتحمل المسؤولية من طرف الوالدين يمكننا الظفر بمنظومة متكاملة من الإحساس بأمانة الأبناء، والحرص على حسن تنشئتهم وصناعة شخصيتهم من خلال مختلف الجوانب.

2- تعويد الأبناء على تحمل المسؤولية

إن إهمال تربية الأولاد منذ الصغر على تحمل المسؤولية يعود سلبا عليهم في الكبر، ذلك أنه يجب أن يُربى الولد على الرجولة والشجاعة وتحمل المسؤولية تجاه أمور الحياة المختلفة، والسعي وراء الرزق، وتحمل أعباء الحياة، والصبر على مصاعبها ومصائبها.

إن أبرز موقف يمكن أن يقرب هذا الأساس من الوالدين من خلال السيرة النبوية؛ السر الذي جعله الله في صناعته لنبيه صلى الله عليه وسلم لما حُرّم من عطف الأبوة، ومن حنان الأم بعد السادسة من عمره، فكان أن رعى غنم بني عوف منذ صغره، وهذه الأسباب كلها أهلتها لصناعة شخصية معتمدة على الله ثم على النفس، غير متكلّة على الأبوين طيلة فترات حياتها، وهذا؛ أيضا، أهّله لدخول سوق التجارة مع خديجة رضي الله عنها منذ رعيان شبابه، وخروجه للرحلات التجارية مع أبي طالب وهو أحدث الناس سنا حينئذ¹.

وهذا أنس بن مالك، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، خرجت به والدته وقدمته ليرخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ صغره. روى الإمام مسلم في فضائل أنس أنه قال : "جاءت بي

¹ - الروض الأنف، 2/ 141.

أمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أزرني بنصف خمارها، وردتني بنصفه، فقالت: يا رسول الله، هذا أنيس ابني، أتيتك به يخدمك فادع الله له، فقال: «اللهم أكثر ماله وولده»¹.

إن عيش أنس بن مالك خارج بيت الأسرة أهله لتكوين شخصية قوية مستقلة، قادرة على تحمل أعباء الحياة، والانفتاح على الآخر، فضلا عن ما لهذه التجربة التي خاضها رضي الله عنه رفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله الطاهرين.

لقد حثت السيرة العطرة على تنمية حس المسؤولية لدى الصغار وتحميلهم مسؤولية المهام الصعبة.

وانظر إلى تحميل رسول الله أسامة بن زيد رضي الله عنه مسؤولية قيادة الجيش لغزو الروم في اللقاء بالشام، علما أن في الحضور كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعلي.. وقد تكلم قوم فقالوا: (يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين) ! فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا، فخرج وقد عصب على رأسه عصا، فصعد المنبر وقال: (ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟! ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله! وأيم الله إن كان للإمارة خليقا، وإن ابنه من بعده خليق للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإنهما لمخيلان لكل خير، واستوصوا به خيرا فإنه من خياركم)².

إن تنمية الثقة في الأبناء وتحميلهم مسؤوليات معينة منذ صغرهم، - بالتدرج - يعد من أولى الخطوات المهمة في صناعة شخصيتهم، فإحساسهم بالمسؤولية يحصل معه بالضرورة إحساسهم بالنضج والرجولة والرشد في التصرفات الحياتية، وهذا ليس حكرا على الذكور فحسب، وإنما الإناث

¹ - صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه، 4/ 1929، ح: 143.

² - أنظر: السيرة الحلبية [إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون]، أبو الفرج علي بن إبراهيم الحلبي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط2-1427هـ، 3/ 292. وأيضا: الرسول القائد، محمود شيت، (دار الفكر - بيروت، ط6-1422 هـ)، ص: 406.

أيضا لهن نصيب من التدريب على تحمل أمانة المسؤولية، عن طريق قيامهن بأشغال البيت والتعود عليها إلى جانب أمهاتهن منذ الصغر.

فالبنات تُربى على شؤون البيت والقيام بما تتطلبه الحياة الزوجية بنوعيتها القولي والعملي، الأدبي والمادي، وتُعرَّف بحقوق الزوج وأهله وأولاده، حتى إذا تزوجت أثبتت جدارة وكفاءة، وعاشت زوجة كريمة مكرمة، وأُمًّا راضية مرضية.

أما الدلال والإهمال والتفريط في تربية الولد أو البنت في الصغر، والإغضاء عن كل هفوة أو خطأ، أو صغيرة أو كبيرة منهما، مع التماس الأعذار لهما في كل تفريط أو إفراط، فهو طريق الفساد والإفساد للمجتمع والأسر معاً.

ثانياً: تنمية الانتماء

لعل ما يُكسب الفرد هوية تعريفية في مجتمع ما تنمية مجموعة الانتماءات لديه والتي تشكل وجوده الفعال المترجم لحقيقته. وقد بينت فيما سبق (في مبحث تنمية المهارات) بعض أنواع الانتماءات؛ الكبرى منها والصغرى.

وسبب إيراد هذا الموضوع ضمن مبحث العلاقة بين الوالدين والأبناء واضح وجلي؛ ذلك أن هذه العلاقة هي أول قناة تجمع بين الطفل والآخر، هي العلاقة الأولى التي تؤهل الطفل للانخراط في المجتمع الذي يعيش فيه، وإذا تبث هذا، فهي الوحيدة الكفيلة بترسيخ منظومة القيم، والدعوة إلى اعتناق مجموعة من الانتماءات الضرورية والمساعدة في حفظ الأمن الروحي لدى الطفل منذ سنواته الأولى.

ولعل من بين هذه الانتماءات التي يجب تعويد الطفل على الانتساب إليها:

1- الانتماء إلى الفطرة

وأعني بالفطرة هنا؛ دين الله الخالد الذي فطر الناس عليه، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، أو يمجسانه...» ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)*¹.

فالانتماء إلى الفطرة أعني به إبقاء المولود عليها، أي؛ توجيهه طيلة سنوات عمره الأولى نحو الإبقاء على هذه الفطرة التي وُلد عليها [الإسلام]، وذلك بتلقينه مجموعة من المعارف الضرورية التي تهمة في دينه ودينه، والتي تعلق قلبه بخالقه.

وقصة ابن عباس في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى ما يمكننا الاستشهاد به في هذه النقطة، وذلك حينما لُقنه أهم الأمور التي بُني عليها هذا الدين.

عن عبد الله بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: " يا غلام... ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ " فقلت: بلى. فقال: " احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء، يعرفك في الشدة، وإذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدرُوا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدرُوا عليه، واعلم أن في الصبر

* - سورة الروم: جزء من الآية 29.

¹ - صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، 95/2، جزء من الحديث: 1359.

على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا¹.

فقد علمه عليه السلام أساسيات الدين وأركان الإيمان بالله؛ ربطه بالله وبالاستعانة به والتوكل عليه، ثم رسّخ في قلبه الإيمان بالقضاء والقدر، وأن قدرة الله فوق كل قدرة، وأن مشيئته أشمل وأوسع من مشيئة البشر.

كلمات بسيطة وثقيلة، نفثها المرابي الحكيم في قلب ابن عباس وهو طفل صغير، ليعلق قلبه بالله، ويربيه على الاعتراف بمطلق القوة والمشيئة والإرادة الإلهية التي لا يخيب المؤمن بها، والمصدق بها.

والمأمل في دعاء أبينا إبراهيم يجد حرصه عليه السلام على تضمين هذا الانتماء وترسيخه في قلوب ذريته؛ وذلك في مواضع كثيرة، منها قوله: (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)²، وقوله: (رَبَّنَا لِيُفِيْمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفِيْدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)³، وقوله: (رَبِّ اجْعَلْنِي مَفِيْمَ الصَّلَاةِ وَمِنَ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي)⁴.

فهذا أول مفتاح -من مفاتيح الانتماء- الذي وجب على الوالدين ترسيخه في شخصية الأبناء، لأنه هو الأساس الذي يبنى عليه صرح الشخصية، ولأن كل شيء بعده تسهل صناعته ويهون بناؤه.

¹ - مسند أحمد، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وسلم 19/5، ح: 2803.

² - سورة إبراهيم: جزء من الآية 37.

³ - سورة إبراهيم: جزء من الآية 39.

⁴ - سورة إبراهيم: الآية 42.

2- الانتماء إلى الهوية الحضارية

يعد الانتماء إلى الهوية الحضارية من الانتماءات المهمة في تكوين شخصية الطفل، بل من الأمور المُعرّفة لذاته وشخصه داخل المجال الكوئي.

وتتجلى مهمة الوالدين إزاء تنمية هذه الهوية لدى الأبناء حرصهم على انتساب الطفل إلى جملة من الانتماءات: كالانتماء للأسرة، للوطن، للغة، لثقافة المجتمع، للأمة، للإنسانية جمعاء.

ويدخل كذلك في هذا، تنشئة الطفل على التشبع بقيم المواطنة، وتعويدته على احترام قوانين البلد، واحترام الآخر، وتحبيب العيش المشترك إليه، وإحساسه بالانخراط ضمن المجتمع الإنساني الكوئي.

وقد فصلت القول بخصوص هذه الانتماءات في مبحث مستقل ضمن الحديث عن تنمية المهارات الحياتية، وحسي هنا التذكير بما لما يقتضيه السياق، فليرجع إليها لمن أراد التوسع.

ثالثاً: تنمية الأمن النفسي

النوع الثالث من التنمية التي تصنع شخصية الطفل، وتؤهله لكي يكون فرداً صالحاً وناجحاً، وأيضاً؛ وتبرهن على نجاعة التربية الوالدية وتميز والديه في العلاقة بينهم وبينه... هي تنمية نفسية الطفل؛ أي تحقيق أمنه النفسي، وسلامة نفسيته من الأمراض والتعقيدات التي يعيشها العديد من الأطفال الذين لم يُهيأ لهم الجو الأسري المناسب، والمساعد لهم في تكوين شخصيتهم تكويناً سليماً وصحياً، وذلك إما بسبب الجفاء والشح في نشر الحب بين أفراد الأسرة، أو لعدم توافق العلاقة الزوجية بين والديه، أو لجهلها بمقومات التربية الوالدية السليمة، أو بسبب التفكك الأسري الذي يُخلّف في نفسية الطفل مخلفات حادة وخطيرة.

ومن أجل صناعة مثالية لنفسية الطفل، وضمان أمنه النفسي اخترت الوسيلتين الأكثر نجاعة في

ذلك، وهما:

1- نشر الحب والتصريح به

تعتمد فلسفة الأسرة النبوية على الشمولية والاستغراق لكل المسائل المهمة في حياة أفراد هذه المؤسسة، وسأبين في صناعة الذكاء الوجداني داخل السيرة النبوية كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعامل وزوجاته، وكيف كان يخاطب الأطفال الصغار وينشر الحب في أرجاء البيت، ويصرح به أمام الملأ.

ولعل قوله عليه السلام عن خديجة في حضرة الناس: " إني قد رزقت حبها"¹، وقوله لما سئل: أي الناس أحب إليك؟ قال: "عائشة"²، يدل على نشره الحب وتصريحه به.

وسأشير هنا وأذكر بجانب من شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، فأتكلم عن رسول الله الأب كيف كان يتعامل مع بناته، ومع أسباطه أبناء بناته.

فكان دأبه مع بنته فاطمة عليها السلام، أنه يستقبلها بالأحضان كلما دخل، ويقبلها، ويُسعدّها. وقال عليه السلام مصرحاً أمام كل من حضر: " إِنَّمَا فَاطِمَةُ بُضْعَةٌ مِئِّي "، وفي رواية " إِنَّ فَاطِمَةَ بِنْتُ مُحَمَّدٍ مُضْعَةٌ مِئِّي "³.

ففي إطلاق مثل هذا الإشعار أمام الأبناء تحسيس لهم بانتمائهم إلى الأسرة، وشعورهم بأواصر

¹ - صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، 4/ 1888، جزء من الحديث: 2435.

² - صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لو كنت متخذاً خليلاً»، 5/5، جزء من الحديث: 3662.

³ - صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام، 4/ 1903، جزء من الحديث: 96.

الأبوة والأمومة، وبالتالي تمكينهم من تحقيق الأمن النفسي والارتياح الوجداني الذي تُخلّفه مثل هذه الكلمات الرنانة الصادقة من الوالدين في نفسية الطفل، وكذا بتداولها من طرف الوالدين في حضرة الأبناء.

وفي نشر الحب والتصريح به الكثير من اللوحات المشرقة في السيرة النبوية، سأعرضها داخل سياقها في معرض الحديث عن صناعة الذكاء الوجداني في السيرة النبوية، وأكتفي هنا بما تمت الإشارة إليه خشية التكرار.

2- العدل بين الأبناء

إن ما يوطد علاقة الآباء بالأبناء أكثر التزام العدل وتحريره بين الأبناء، فهذه المسألة قد تكون محددًا لعلاقة الوالد بالابن؛ إما إيجابًا، أو سلبًا؛ إذا ما انقلب الأمر إلى حيف وظلم تجاه أحد الأبناء، أو الإفراط في تفضيل أحدهم عن الآخر. وهذا طبعًا يؤثر سلبًا في نفسية الطفل، ويؤكسبه الرغبة في الظلم والتمييز المُجحف في حياته الخاصة.

إن العدل بين الأبناء يعد أول مدرسة لتنمية مبدأ العدل وترسيخه في حياة الطفل، فإن أحسن الوالدان ترسيخ هذه القيمة بصورها الحسنة في نفسية الطفل، فإنه يتربى على قيمة العدل ويوظفها في حياته كلها، والعكس بالعكس.

وقد كان هدي النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة التسوية بين الأبناء في العطايا، قال عليه السلام: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»¹.

فتفضيل بعض الأولاد على بعض في العطايا أو تخصيص بعضهم بها من شأنه أن يُحدث شرخًا

¹ - صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الإسهاد في الهبة، 158/3، جزء من الحديث: 2587.

وتفككا في جدار الأبوة، فكلهم ولده وكلهم يرجى برّه.

ويجب الانتباه إلى أن العطفية هنا غير النفقة، ذلك أن التسوية في النفقة غير متصورة؛ لأن الولد الكبير يتطلب نفقة أكثر من الصغير مثلا، لما تقتضيه الضرورة وحاجة كل منهم للقدر المناسب من النفقة.

وفي الختام؛ إن العلاقة الرابطة بين الأبوين والأبناء من أولى الأوجه التي تحتاج إلى التنمية، فإننا بتنمية هذه العلاقة نُعدّ جيلا جديدا تربي على استثمار التنمية الأسرية في الأجيال المقبلة، وهكذا دواليك.

الفرع الثالث: المناخ الأسري داخل السيرة النبوية

إن تجاهل مشكلات الحياة الزوجية داخل البيت وغيض النظر عنها من أقوى ملامح تميز المناخ الأسري، ومن علامات نبل وحكمة تصرفات قطبي العلاقة الزوجية، وهذه مهارة فريدة من نوعها؛ تؤهل مالکها من الطرق المثلى لتدبير المشكلات وفض النزاعات داخل الأسرة.

ومن أولى الأساليب المعينة على حسن تدبير المشكلات الزوجية تجاهل الهفوات والزلات وعدم تتبعها ورصدها ومحاسبة الآخر عليها دوما.

وفي حديث أم زرع؛ أن الزوجة الخامسة قالت تحكي تميز زوجها بهذه الخصيصة: " وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهْدَ"، أي: لا يتفقد ما ذهب من ماله، ولا يلتفت إلى معائب البيت وما فيه، فكأنه ساه عن ذلك... لسخاوة نفسه، وسعة قلبه.¹

وتجاهل الزوج للعيوب وغيضه الطرف عن النقائص أو ما خالف ذوقه... كل ذلك يقلل من المشكلات الأسرية، ويرسخ لصناعة مناخ أسري مناسب وهادئ.

¹ - بغية الرائد فيما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، ص: 70.

وقد كان هذا دأب النبي الحكيم في تعامله مع أزواجه وخدمه داخل البيت؛ فما عاب صلى الله عليه وسلم طعاما قط؛ إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه.¹ ومعلوم أن تبخيس مجهودات الزوجة يُشعرها باحتقار الزوج لها، وتقليله من أدائها للأعمال المنزلية، كما من شأن ذلك أن يُفقدتها الحيوية والنشاط في مواصلة صنيعها.

إن كثرة النقد اللاذع من طرف الزوج يُسهم في نشوب خلافات متكررة قد تؤدي إلى هجر أو قطع الصلة بين الزوجين، كما أن تجاهل التدقيق في تفاصيل أداء الزوجة تجاه البيت قد يشجعها على بذل أقصى الجهد تطلعا لإرضاء الأسرة، وهذه مهارة يفتقدها معظم الأزواج اليوم للأسف! ويحكى خادم الرسول الحكيم أنس بن مالك رضي الله عنه تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه لما يقول: "والله ما قال لي لشيء صنعته: لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه: لم لم تصنع هذا هكذا؟"².

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج مشكلات بيت الزوجية ويدروها بالتي هي أحسن؛ لا يقسو أو يضرب، ولا يجرح أو يلعن، إنما منهجه الفعال إطلاق العنان للكلمة العاطفية الحلوة، وبالتصرف الحكيم إزاء بزوغ أول شرارة من الخلاف أو الغضب.

ومن أمثلة فعالية الحكمة في مواجهته عليه السلام لبعض المشكلات وحسن تديره للخلافات في سيرته المشرقة ما سبق إيراده مما أخرجه الإمام البخاري في كتاب النكاح: أن أم سلمة أتت بطعام في قصعة لها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فجاءت عائشة ففلقت القصعة! ماذا صنع نبينا وقدوتنا صلى الله عليه وسلم أمام هذا المنظر؟ هل اعتبر هذا التصرف قضيةً تقلل من هيئته أو من رجولته؟ أم تراه أسمع زوجته سلسلةً من كلمات العقاب وعبارات التوبيخ؟

¹ - صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما عاب النبي صلى الله عليه وسلم طعاما، 74/7، ح: 5409.

² - صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، 1804/4، ح: 52.

فلا هذا ولا ذاك، ما غضب صلى الله عليه وسلم ولا سب ولا شتم ولا عاقب ولا عنف، بل كانت معالجته للأمر بأن راعى في المرأة نفسيّتها وسبب خطئها. وتعامل صلى الله عليه وسلم مع هذا الخطأ بالأسلوب الأمثل.. ابتسم وجعل يجمع الطعام بيده الكريمة، ويقول: «كلوا.. غارت أمكم»¹، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قصعة عائشة فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى قصعة أم سلمة لعائشة. وهكذا انتهت المشكلة وعُولج الخطأ بكل هدوء.

ومثل هذه المواقف كثيرة في سيرته صلى الله عليه وسلم؛ فذات يوم جاء أبو بكر يستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم، فسمع عائشة وهي رافعة صوتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذن له، فدخل، فقال: يا ابنة أم رومان وتناولها، أترفعين صوتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فحال النبي صلى الله عليه وسلم، بينه وبينها، فلما خرج أبو بكر جعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول لها يترضاها: "ألا ترين أي قد حلت بين الرجل وبينك؟"، ثم جاء أبو بكر، فاستأذن عليه، فوجده يضاحكها، فأذن له، فدخل، فقال له أبو بكر: يا رسول الله أشركاني في سلمكما، كما أشركتmani في حربكما².

إن قدرة المري الحكيم الهائلة على قلب المناخ الأسري المكهرب إلى مناخ يسوده الحب وتطفو فيه المودة والرحمة، وكأن شيئاً لم يحصل، إن هذه القدرة هي ما يطلق عليها المختصون في التميز الأسري بـ"إيجاد زر الإيقاف"، وقد استعمله المدرب الشهير ستيفن آر كوفي في كتابه "العادات السبع للأسر الأكثر فعالية"، واعتبر الأسر المملكة لمهارة "زر الإيقاف" من الأسر المثالية المتميزة، والقادرة على تجاوز الصراعات ومشاكل الحياة الأسرية في اللحظة المناسبة، ومن خلال الاستجابة المناسبة.

يقول ستيفن: من الواضح إذن أن الحياة الأسرية ستكون أفضل إذا تصرف الأفراد بدافع من

¹ - راجع الحديث الذي سبق تحريجه.

² - مسند أحمد، مسند الكوفيين، حديث النعمان بن البشير رضي الله عنه، 30/341-342، ح: 18394.

مبادئهم الداخلية ، لا بدافع اللحظة الراهنة ، كل ما نريده جميعنا هو أن نتوقف لبرهة بين ما حدث ، وبين رد فعلنا إزاء ما حدث ؛ كي نختار الاستجابة المناسبة . فمن السهل علينا كأفراد أن نظور هذه المهارة ؛ مهارة الإيقاف ، كما أنه من السهل أن نجعلها عادة تكمن في صميم الثقافة الأسرية ، كي نتعلم كيف نتوقف ، ونصدر استجابات أكثر حكمة¹ .

إن اختيار ستيفن لعبارة "زر الإيقاف" غاية في الدقة المتناهية، لأن الحكمة في التدبير الأسري للنزاعات داخل بيت الزوجية، هي التي توقف ثوران الخصومة المهدد لحسن الأسرة في لحظة واحدة؛ بعد أن يتوقع الزوجان، أو من يتابع وضعهما أن هذا الحصن محطم لا محالة.

ونورد هنا موقفا من السيرة النبوية، كان لحكمة تملك زر الإيقاف فيه دورا مهما في استمرار العلاقة الزوجية والحفاظ عليها، ويتعلق الأمر لما طلق النبي صلى الله عليه وسلم حفصة ثم راجعها، وذلك لحكمة ومصلحة أخرى قد لا تهم أطراف العلاقة الزوجية، فلما بلغ خبر تطليقه عليه السلام لحفصة وضع عمر بن الخطاب التراب على رأسه، وقال: «ما يعبأ الله بك يا ابن الخطاب بعدها»، فنزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمرك².

فما أحوج الأزواج اليوم إلى الاقتداء بالهدي النبوي في تجاهل بوادر المشكلات وغض النظر عن تفاهات الحياة الزوجية وصغائر الأمور، ونسيان الهفوات، وترك تتبّع العثرات، وإضفاء جو الألفة والمحبة والعطف على المناخ الأسري بدل الغضب والكره والشحناء والغلظة.

إن المتأمل في نسبة الطلاق الهائلة في مجتمعنا المعاصر اليوم يجد أنها تترجم -غالبا- قصور الأزواج عن التعامل مع مشكلات بيت الزوجية، وعجزهم عن تدبير وتسيير سفينة الأسرة، وخلق مناخ متميز؛ فالمتميز من وهب حكمة بالغة، وحس مثالي يمكنه من معالجة المشكلات الأسرية

¹ - العادات السبع للأسر الأكثر فعالية، ستيفن آر كوفي، مرجع سابق، ص: 35 .

² - المعجم الكبير، الطبراني، مسند النساء، حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها من أخبارها، 188 / 23 ، ح:

والتعامل معها بهرود وتجاهل ونسيان تام.

وجدير بالذكر أن المناخ الأسري يتحمل صناعته كل من الزوج والزوجة، لذلك؛ فضرورة تكافؤ كفتي ميزان العلاقة الزوجية أمر مطلوب وضروري، وألا يُعَوَّل في تسيير سفينة الأسرة فقط على الزوج - باعتباره المسؤول الوحيد- وإقصاء الزوجة، أو استبعادها لنفسها بداعي أخذ الزوج زمام القيادة وتولية الأمر.

إن الزوجة شريكة زوجها في سير عجلة الأسرة، وفي توجيهها لها نحن السكة كلما حادت عنها، ولا غرابة أننا نلفي أن أغلبية الأسر الناجحة والتميزة يكون من ورائها التميز المركزي للمرأة داخل المنظومة الأسرية.

من ملامح تميز المناخ الأسري كتم الزوجة أسرار بيت الزوجية، وعدم إفصائها ونشرها خارج البيت، وبالعودة إلى حديث أم أبي زرع نجد أن الزوجة الثانية خالفت ما عاقدت عليه صواحبها، ذلك أنهن تعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً ، لكنها قالت: رَوِّجِي لَأَبْتُ خَبْرَهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَدْرَهُ، إِنَّ أَدْرُهُ أَدْرُهُ عَجْرَهُ وَجُرَّهُ.

يقول الإمام القاضي عياض معلقاً: ذهبَت إلى ستر عيوب زوجها لكثرتها، ولم تر أن تذكر بعضاً دون بعض، وأنها إن ذكرت شيئاً تسبب ذكر شيء آخر، فرأت الإمساك أولى... أي؛ إن ذكرته ذكرت معايبه وقبائحه، قال الخطابي: أرادت عيوبه الباطنة، وأسراره الكامنة.¹

والظاهر من قولها أن إحجامها عن البوح بأسرار زوجها ليس لأنها تفتقر إلى ما تحكيه عنه، وإنما آثرت ستر عيوب زوجها رغم كثرتها، ورغم تعاقدها مع صواحبها.

فلا يليق مشاركة الأسرار الزوجية مع الآخرين، سيما تلك التي تخص الزوجين، وتتعلق بالعيوب

¹ - بغية الرائد فيما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، ص: 61.

المستورة، والملاحظة من خلال المعاشرة الزوجية؛ سواء العيوب والنقائص الخلقية أو الخلقية.

وفي النهي عن هذا الأمر الجلل، بين عليه السلام خطورة ذلك وقبحه عند الله؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها»¹.

فالزوجان لهما حقوق على بعضهما زائدة على حقوق عامة الناس ولا يجوز لهما إفشاء عيوب بعضهما إلا ما كان من استثناء التظلم إلى الجهات التي يرجى منها الإنصاف كالقاضي والحكمين أو لمن يرجى نصحه ومساهمته في الإصلاح أو طلب التطيب والتداوي ونحو ذلك².

أما اليوم؛ وللأسف الشديد، صارت الأسرار الزوجية حديث الأزواج في المقاهي والساحات، بل أمست مواقع التواصل الاجتماعي ملاءى بمقاطع الحياة الزوجية الخاصة، ولم تعد بذلك رابطة الزواج تكتسب الهيبة والمكانة التي تليق بها.

ومسألة حفظ أسرار بيت الزوجية كانت من الأخلاق العربية المعمول بها قبل مجيء الإسلام، والعائد إلى حديث أم أبي زرع يجد أنها لما فرغت من وصف أفراد أسرتها الصغيرة، لم يفتها أن تصف جاريتها وخادمتها المميزة. قالت فيها: " جَارِيَةُ أَبِي زَرَعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرَعٍ، لَا تَبْتُ حَدِيثَنَا تَبْتِيْنَا، وَلَا تُنْقُثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيْنَا، وَلَا تَمَلُّ بَيْنَنَا تَعْشِيْنَا".

وصفتها بالأمانة على السر والمال، والقيام بمصالح خدمتهم، والنصح لهم، وأنها لا تفشي لهم حديثا، ولا تبذر لهم طعاما، ولا تحون فيه، ولا تنقله إلى غيرهم، ولا تفسده، ولا تدخل بينهم

¹ - صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، 2/1060، ح: 123.

² - مقال "أسرار الحياة الزوجية، ما يجوز كشفه منها وما لا يجوز"، محمد بولوز، (نشر بتاريخ: الأربعاء 11 مارس 2015، موقع هسبريس - رابط المقال: <https://www.hespress.com/writers/257689.html>)

الضعائن، ولا تحمل أمر خدمتهم وصلاح منزلهم.¹ وهذا القدر من الأمانة والمسؤولية هو ما يجب أن يتحلى به الخدم اليوم في تعاملهم مع أهل الدار.

وحفظ الأسرار، لا سيما أسرار بيت الزوجية؛ من المبادئ والأسس المهمة في الحفاظ على صحة المناخ الأسري وضمان استمراريته. ولم يفت السيرة النبوية الشريفة أن تشير إلى هذه الأخلاق الراقية في حفظ الأسرار وعدم إفشائها وإشاعتها بين الآخرين، ولو كانوا من الأقرباء أو المقربين.

فمن خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنس بن مالك - أنه قال: «أسر إلي النبي صلى الله عليه وسلم سرا، فما أخبرت به أحدا بعده، ولقد سألتني أم سليم فما أخبرت بها»².

وفي مسلم عن ثابت عن أنس، قال: أتى علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا ألعب مع الغلمان، قال: فسلم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سر، قالت: لا تحدثن بسر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا قال أنس: والله لو حدثت به أحدا لحدثتكم يا ثابت³.

وفي رواية أخرى له، قال: «...فخدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عشر سنين، فلم يضربني ضربة، ولم يسبني، ولم يعبس في وجهي»، وكان أول ما أوصاني أن قال: «يا بني، اكنم سري تكن مؤمنا» فما أخبرت بسره أحدا قط، وإن أمي وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، سألوني فما أخبرتهم بسرهم، ولا أخبر سره أحدا أبدا.⁴

فقد كان رضي الله عنه خادما مطيعا، مأمونا على أسرار بيت رسول الله وأهله، كأنه جزء من

¹ - بغية الرائد فيما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، ص: 151-152.

² - صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب حفظ السر، 65/8، ح: 6289.

³ - صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه، 4/1929، ح: 145.

⁴ - المعجم الأوسط، الطبراني، باب المي، من اسمه محمد، 6/123، ح: 5991.

الأسرة. فكان يأبي إلا أن يحفظ سر بيت الزوجية الخاص برسول الله.

يقول ابن حجر: كأن هذا السر كان يختص بنساء النبي صلى الله عليه وسلم وإلا فلو كان من العلم ما وسع أنسا كتمانته.¹

إن الناظر في وضعية الأسرة المسلمة المعاصرة يخلص أن ثمرة اتفاق على أن هناك خلل في المفاهيم المرتبطة بالزواج ومفهومه، وفي أساليب التربية من الأساس، فينشأ كل من الطرفين في مناخ تصوده المفاهيم الخاطئة من جانب، والممارسات التي تتنافى مع معنى المودة والسكينة من جهة أخرى. ويشترك في إحداث هذا الخلل العديد من الوسائط المسؤولة عن التنشئة وتكوين الإطار المفاهيمي المرتبط بالحياة الزوجية، والتي تبدأ من الأسرة مروراً بالإعلام الذي يروج لمفاهيم مغلوطة، وينشرها على نطاق واسع، بل حتى علماء الدين الذين يجنبون نصف الحقائق، ويروجون للنصف الآخر وفقاً للخطاب السائد، الذي يرسخ لوضع المرأة في مكانة أقل من الرجل دوماً.²

من أجل هذا؛ نحن في حاجة ماسة إلى العودة إلى نهج السيرة النبوية تأسياً واقتداءً بفلسفة الزواج التي أسس لها خير الأزواج محمد بن عبد الله عليه من الله أفضل الصلاة والسلام؛ بحاجة إلى النهل من المنبع الصافي الذي قوامه المودة والرحمة، وبناءه الإحسان في العشرة، حتى تُعيد المؤسسة الأسرة هيبته ومكانتها اللائقة، التي تحفظ لكافة أفرادها حقوقهم، وفي الوقت نفسه تلزمهم بالواجبات الموكلة لكل طرف من أطرافها.

وأختم الحديث عن المناخ الأسري بتأثير هذا الأخير (إذا لم يكن مناخاً مناسباً) في حياة الأبناء الذين يعيشون في حياة أسرية تتصف بالشجارات وعدم الاستقرار أو العنف أو النفور العاطفي، أو التسلط المؤدي إلى افتقاد الأطفال لمشاعر الطمأنينة التي تشكل مركز الصحة النفسية والقدرة على

¹ - فتح الباري، 82/11.

² - مقال "إنسانية السنة النبوية في الحياة الزوجية"، سوسن الشريف، (نشر بتاريخ: 29 نوفمبر، 2017 - الموقع الإلكتروني لمركز خطوة للتوثيق والدراسات: <http://www.khotwacenter.com>).

الارتباط العاطفي الفعال.

وبذلك قد تطفو بذور عدم الوفاق الزوجي فوق السطح لدى هؤلاء الأبناء بدورهم، فالطفل يتعلم بالنمذجة من والديه وعلاقتهم معا وعلاقتهم بالأولاد في السلب كما في الإيجاب.

فتغرس في نفسه بذور الاضطراب وصعوبات التوافق العاطفي والعلائقي أو على العكس؛ تغرس في نفسيته بذور الطمأنينة ونمو القدرة على الحب والانفتاح والعطاء والالتزام والوفاق الزوجي. فالطفل السعيد هو من يشهد سعادة والديه الزوجية ويعيد إنتاجها في حياته. كما قد يرث الأبناء من الآباء سمات التسلط والدكتاتورية التي تهدد الوفاق الزوجي حيث تقود إلى فرض الرضوخ على القرين، مما قد ينتهي بالصراع بينهما.¹

فلا شيء يعوض الأبناء عن مناخ أسري مستقر وآمن في كنف أسرة تتمتع بالوفاق، من أجل هذا وجب توفير مقومات المناخ الجيد للأبناء في حالة التفكك الأسري وحصول الطلاق بين والديهم، وذلك حماية لصحتهم النفسية وتكليفهم مع العيش السوي.

ومن بين مقومات المناخ الجيد التي يجب على الوالدين توفيرها لأبنائهم بعد حالة الطلاق:

- الاستقرار المكاني بنفس المستوى الذي كانوا يعيشون فيه، ومن الأفضل أن يكون في نفس المسكن ونفس الحي.

- الحرص على توفير مستوى حياة مادية توفر لهم احتياجاتهم الأساسية ولا يقل عن مستوى حياتهم السابق.

- الحرص على الحفاظ على استمرار واستقرار أسلوب حياة الأبناء وعاداتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وأنشطتهم الترويحية.

¹ - الأسرة وصحتها النفسية، ص: 219.

- الحرص على ضمان استمرار انتظام حياتهم المدرسية ومخططاتهم التعليمية.
- الحفاظ على الصورة الاجتماعية للأبناء، عن طريق تواجد الوالدين معا في المناسبات الاجتماعية والذاتية الهامة.
- الحرص على تجنب تشويه صورة الأب والأم المطلقين اجتماعيا ونفسيا، إذ يحتاج الأبناء إلى أن يظلوا فخورين بكلا الوالدين، وإلا فإنهم قد يتعرضون للتمزق النفسي ومشاعر الخزي والانكسار.
- الحرص على عدم استخدام الأبناء وسيلة وأداة للحرب بين الوالدين المطلقين، وخصوصا كوسيلة للتشفي والانتقام بجرمان الأم مثلا من العلاقة مع الأبناء... فالأب كما الأم مؤتمنان على أولادهما وليس مالكين لهما، وعلى كل منهما حفظ الأمانة بتوفير أفضل فرص استمرار العلاقة العاطفية الطيبة والثيقة مع الطرف الآخر.¹
- إن آفاق التميز الأسري رهينة بمدى وعي الأزواج بفلسفة الزواج، وذلك في علاقتهم فيما بينهم أولا، من حيث استحضار الحقوق وأداء الواجبات الموكلة إلى كل واحد منهما، ثم في علاقتهم بالأبناء من حيث مدى تنزيل وتطبيق أسس ومقومات التربية الوالدية الناجعة.
- وما يوضح هذا الارتباط بين نجاح العلاقة الزوجية ونجاح الأسرة دعوة المربي الحكيم إلى استحضار بُعد المسؤولية لدى الزوج والزوجة، وإفرادهم ضمن الحديث الشريف المذكور آنفا؛ فلو لم تكن مسؤولية التنمية الأسرية بهذه الأهمية القصوى، وبهذا القدر العالي من المكانة ما كان قطبا العلاقة الزوجية -معا- خوطبا بأمانة المسؤولية إلى جانب الحكام وأولي أمر الرعية.
- وأخيرا؛ فإن حاجة المقبلين على الزواج إلى فلسفة الأسرة المؤيدة بالوحي، والمتسمة بمحاكاة الهدي النبوي في تكوين الأسر، أضحيت ملحة ومطلوبة، لا لشيء، إلا لأن الأسرة في السيرة النبوية

¹ - الأسرة وصحتها النفسية، ص: 225-226.

أبانت عن نجاعة كبيرة في تنمية العلاقات الأسرية، ونجاحها في أداء مهامها كما يرضي خالقها.

ولا يزال علماء النفس التربوي اليوم يدعون ويوصون بضرورة اعتماد التربية الوالدية في تربية

النشء، والاستفادة من ظلال السيرة النبوية في سمو ونجاعة العلاقة بين أفراد الأسرة.

الفصل الثاني: صناعة التميز وتنمية المهارات من خلال السيرة النبوية

سأعرض في هذا الفصل تجليات صناعة التميز وتنمية المهارات الحياتية عن طريق استجلاء فلسفة السيرة النبوية في صناعة التميز؛ أو صناعة الأهداف، باعتبار أن التميز في حقيقته يتمثل في تحقيق الأهداف وصناعتها كما سبق وأن بينت، وكذا تجليات تنمية المهارات الحياتية بمختلف المجالات؛ سواء تنمية المهارات الذاتية، أو المهارات مع الآخر، أو المهارات المجتمعية.

المبحث الأول: صناعة الأهداف في السيرة النبوية من خلال حدث الهجرة

إن حديثنا هنا عن الهجرة يتجاوز المسح التاريخي واستعراض الأحداث المسهمة في وقوعها إلى محاولة جعل الحدث قاعدة متينة مُعتمَدة في صناعة الأهداف والغايات التي يسعى الإنسان إلى بلوغها في مسيرته الحياتية.

ووقع اختيارنا للهجرة لاستقاء الصناعة النبوية في تحقيق الأهداف ما كان ليستقر لولا كونها تُشكّل منعطفًا مهمًا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ أي؛ باعتبارها حدثًا فارقًا من خلال كون الإنسان يعيش حياة عادية شبيهة بحياة باقي المخلوقات؛ لا هدف له فيها، ولا غاية يجري من ورائها، إلى كونه يتبنى فكرة، ويحتضنها، ويبدل كل الإمكانيات التي تُميز بها في سبيل تحقيقها ونيل مبتغاه.

فقد كان الإنسان قبل البعثة المحمدية "جاهلاً لهدفه الحقيقي، لا يدري إلى أين يتجه، وإلى أين المصير؟ وما هو المجال الأفضل والحقيقي لمواهبه وطاقاته وجهوده؟"، إنّه وضع لنفسه مقاصد وهمية صناعية، وحصر نفسه في دوائر ضيقة محدودة، كانت تستنفد قواه وطاقاته وذكائه، وكان المثل الأعلى عنده للرجل الناجح واللامع من يكون أكثر جمعا ومالا، وأوسع نفوذا وقوة، متحكّما في

أكبر مجموعة من البشر، وأوسع بقعة من بقاع المعمورة ... فجاء محمد صلى الله عليه وسلم وجعل غايته الأخيرة الحقيقية، وهدفه الأعلى المنشود نصب عينيه، وأرسخ في قلب الإنسان: أنّ المجال الحقيقيّ لجهده واجتهاده هو معرفة فاطر السموات والأرض والحصول على الإيمان واليقين، والفوز برضوان الله وحده، والرضا به وبقدره، والبحث عن وحدة تؤلف بين الأجزاء المتناثرة أحياناً، والمتناقضة أحياناً أخرى، وتنمية قواه الباطنة، ومداركه الروحية للوصول إلى درجات القرب واليقين، والحثّ على خدمة الإنسانية، والإيثار والتضحية، والوصول بذلك إلى مكان لا تصل إليه الملائكة المقربون، وتلك هي السعادة الحقيقية للإنسان، ونهاية كماله، ومعراج قلبه وروح¹.

وهكذا لم تكن فلسفة الهجرة في الثقافة الإسلامية مجرد نجاة من عدو، أو هروب من محنة، وإنما كانت مرحلة تربوية أسست وأصلت لصناعة الإنسان، فضلاً عن كونها فاتحة تاريخ جديد، يشكل للمسلمين ابتداء وجودهم وتاريخهم، فصار التاريخ الهجري، المبتدئ من هجرة الرسول النبي هو سمة هذه الأمة، على مدار القرون، وبه ومن خلاله صارت تُعرف.

والمطلع اليوم على الدراسات الحديثة والمنتمة لمجال التنمية الذاتية أو صناعة التميز يجد أن وجود الهدف في حياة الفرد وتحديدده صار أمراً محتماً للرقى بالمجتمعات وشقها فضاء التميز، ذلك أن "وجود الهدف وبشكل دائم أمر لا مهرب منه لمجتمع يريد أن يشق طريق مستقبله بين المجتمعات، وهذا يحتم على صانعي القرار أن يختاروا نوع وحجم التحدي المناسب لكل مجتمع على حدة، وللمجموع المجتمعات تحدٍ آخر أكبر يسعى الجميع لمواجهته ويصل من خلاله إلى هدفه، وما أن يصل المجتمع لهدفه حتى يكون هناك هدف آخر أبعد من الأول، وأكثر عمقاً، وأشدّ أثراً"².

ولما كانت صناعة الهدف المتميز هو ثمرة للمنطلقات التي تقوم عليها حياة الإنسان، والتي

¹ - السيرة النبوية، للندوي، ص: 639-640. بتصرف

² - مقال "التميز في صناعة الأهداف وتحقيقها في ضوء الهدى النبوي"، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، خالد محمد محمود الشرماني، (العدد 2 - الجامعة الإسلامية بغزة، يوليو 2015)، ص: 167.

تشكل كل من المسؤولية، والقيادة، ونباعة التخطيط، وكذا مبادئه وأسسها القويمية... سأحاول أن أستقري نصوص السيرة النبوية، وأستنبط منها الأساليب المعينة على صناعة الأهداف؛ تلك الأساليب التي أبانت عن نباعة كبيرة حينئذ، وستبقى رائدة في كل العصور القادمة إذا ما تم الأخذ بها وحسن توظيفها.

لما بُعث سيد الخلق في إنسان الجزيرة العربية وأمر بنشر رسالة السماء في الأرض لم يستقر يوماً في خُلدِه أن يُغادر وطنه الذي نشأ فيه وترعرع بين أحضانه، فكيف يتسلل إلى عقله ذلك وقد أحبَّ وطنه حُبّاً صار انفصاله عنه كأنفصال الروح عن الجسد.

وإنما كان الهدف المحدد أمامه نشر هذا الدين الذي يُضفي على الإنسان وجوده الفعال، ويربطه بخالقه، ويفصله عما سواه. وأمام الاضطهاد الذي تعرض له محمد صلى الله عليه وسلم وقومه وهم في طريق تحقيق هدفهم صارت الهجرة إلى المدينة هدفاً جديداً وملحاً فرضته الحاجة، وأمر به الخالق عز وجل.

إن تأخر الإذن الإلهي بالهجرة إلى المدينة ليدل على ضرورة أعمال النبي الحكيم ملكاته وإمكاناته البشرية، وإحكام العمل بالأسباب سعياً نحو تحقيق الهدف.

ولعل ما يدل على ذلك ترويه عليه السلام في مباشرة فعل الهجرة، والأخذ بالأسباب البشرية إلى جنب التأييد الإلهي المزكي للعمل.

يقول ابن هشام: "فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً"¹.

¹ - سيرة ابن هشام، 480/1. بتصرف

المطلب الأول: أهمية الإعداد القبلي والتدرج في صناعة الهدف

إن وضوح الرؤية، وتكوين النظرة المستقبلية الشمولية لصناعة الهدف من الأهمية بمكان، فلم يكن النبي عليه السلام مكتف الأيدي، حامل العزيمة، فاتر الإرادة تجاه تحقيق هدفه (الهجرة إلى المدينة)، بل مضى قدما في الإعداد لهذا الهدف، وخطط لذلك تخطيطا دقيقا، مبني على التدرج في التنفيذ، والترتيب في إعداد له، وكان التوكل على خالقه سلاحه ورفيقه طيلة مراحل صناعته للهدف.

يقول منير الغضبان: فإمام المتوكلين على الله تعالى، وأتقاهم الله، وأخشاهم له، كان توكله على الله بعد أن أعد كل الأسباب التي يملكها في عالم البشر، ومن أجل الهجرة رأينا الإعداد يمتد شهورا، حتى أذن الله تعالى بذلك وهاجر¹.

ولأهمية الإعداد القبلي في صناعة الهدف، سأعرض الخطوات التي خطاها النبي الحكيم تجاه هدفه، تهيئا لإنجازه والشروع فيه.

وتتجلى هذه الخطوات من خلال حدث الهجرة في أربع خطوات رئيسية:

الخطوة الأولى: بيعة العقبة الأولى

لما أراد الله سبحانه وتعالى إظهار دينه وإعزاز رسوله وإنجاز مواعده له، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا. فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج. قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم. قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى، من أنت؟ فانتسب لهم وأخبرهم خبره. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله لهم به من الإسلام أن يهود،

¹ - فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، (جامعة أم القرى، ط2-1413هـ)، ص: 341.

كانوا معهم في بلادهم، فكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد عزّوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: أن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله أيقنوا به واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلّموا والله إنه للنبيّ الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه [فأجابوه إلى ما دعاهم إليه] بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. ثم قالوا: قد علمت الذي بيننا من الاختلاف وسفك الدماء، ونحن حراس على ما أرسلك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا لنشير عليك برأينا، فامكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله يصلح ذات بينهم ويجمع لهم أمرهم، فإننا اليوم متباغضون متباعدون، ولكننا نواعدك الموسم من العام المقبل. فرضي بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدّقوا.¹

إن رغبة رسول الله في الهجرة كانت هي الهدف المرجو، لكن هذه الرغبة لم تنتصر على حكمته وترثته عليه السلام في تنفيذها؛ فأخذ برأي أصحاب العقبة " فامكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا"، ورضي عليه السلام بقرارهم.

لقد شكّلت بيعة العقبة الأولى اللبنة الأولى في صناعة صرح الهجرة، واستبعد القائد الحكيم كل تسرع أو تهور يمكن أن يُفسد عليه بلوغ هدفه. فصبر وتأنى إلى لقاء العام المقبل الذي تقدم فيه بخطوة ثانية.

¹ - سبل الهدى والرشاد، 3/ 194. بتصرف

الخطوة الثانية: بيعة العقبة الثانية وإرسال مصعب بن عمير سفيراً

فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً¹، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء وذلك قبل أن يفرض عليهم الحرب.

ويحكي الصحابي الجليل عبادة بن الصامت واقعة هذه العقبة، قائلاً: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه»، فبايعناه على ذلك².

فلما انفض اجتماع رسول الله بالأنصار في العقبة بعث عليه السلام معهم مصعب بن عمير سفيراً لرسالة الإسلام، وممثلاً للدعوة الجديدة يثرب، تهيئة لها وتطهيرها من ظلمات الشرك لاستقبال النور الخالد، وتأسيساً لبنیان الدعوة الإسلامية.

قال ابن إسحاق: «وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى في المدينة المقرئ والقارئ، وكان مُنزلَه على أسعد بن زرارة". وذكر أصحاب السيرة أن أسعد بن زرارة أول من جمع بالصحابة الجمعة قبل أن يهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة³.

لقد سعى النبي صلى الله عليه وسلم نحو البحث عن وسط يحتضن رسالته، ويحفظ معتنقيها من

¹ - وهم: أسعد بن زرارة، وذكوان بن عبد قيس الزرقني، وعبادة بن الصامت، والعباس بن عبادة بن نضلة وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وعوف بن الحارث ابن رفاعة، وعويم بن ساعدة، ومالك بن التيهان ومُعَوِّذ ابن الحارث، ويزيد بن ثعلبة أبو عبد الرحمن البلوي وحليف لهم. سبل الهدى والرشاد، 3/ 197.

² - صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب بيعة النساء، 9/ 79، ح: 7213.

³ - سيرة ابن هشام، 1/ 434-435. بتصرف

بطش المشركين، حتى إذا ما هاجر المسلمون وجدوا مناخا ملائما لتعبدهم، يحفظ أمنهم النفسي والجسدي.

ويذكرنا إرسال رسول الله لمصعب إلى المدينة بإرساله جعفرًا إلى الحبشة، "فكما كانت مسؤولية جعفر رضي الله عنه في الحبشة، كانت مسؤولية مصعب بن عمير في المدينة¹.

إن كل خطوة من خطوات الماضي قدما نحو الهدف كانت تحمل قيمة مضافة عن سابقتها، والمتأمل في إرساله عليه السلام مصعبا إلى المدينة ليقوم بصناعة مجتمع العلم والمعرفة يجد أن النبي الحكيم حرك هذه المرة قطعة مهمة وفعالة فوق لوحة الإعداد لصناعة هدفه، فكان لهذه الخطوة أن أثمرت بدء دخول سادات القبائل يثرب إلى الإسلام واقتناعهم بالرسالة المحمدية.

الخطوة الثالثة: إسلام سادات القوم بالمدينة

يتكون الأنصار من قاعدتين مهمتين ضمن قبائل يثرب؛ هما الأوس والخزرج. وقصة جعلهم يثرب محل إقامتهم حكاها ابن هشام في السيرة.

ومختصر القصة أنه لما كان خروج عمرو بن عامر من اليمن، قالت الأزد: لا نتخلف عن عمرو بن عامر، فباعوا أموالهم، وخرجوا معه، فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان، فحاربتهم عك، فكانت حربهم سجالا، ثم ارتحلوا عنهم ففرقوا في البلدان، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة مرا [موضع على مرحلة من مكة]، ونزلت أزد السراة السراة [جبل مشرف على عرفة ينقاد إلى صنعاء يقال له السراة]، ونزلت أزد عمان عمان...²

وكان سعد بن معاذ من كبار الأوس، كما كان سعد بن عبادة على رأس الخزرجيين. فذات ليلة

¹ - فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، ص: 316.

² - أنظر: سيرة ابن هشام، 1/ 13.

سَمِعَتْ قريش قائلًا يقول في الليل على أبي قبيس:

فإن يسلم السعدان يصبح محمد ... بمكة لا يخشى خلاف مخالف

فظنت قريش أنهما سعد تميم، وسعد هذيم، فلما كانت في الليلة الثانية سمعوه يقول:

أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا ... ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف

أجيبا إلى داعي الهدى وتمنيا ... على الله في الفردوس منية عارف

فإن ثواب الله للطالب الهدى ... جنان من الفردوس ذات رفارف

فلما أصبحوا قال سفيان: هو والله سعد بن معاذ، وسعد بن عباد¹.

خرج أسعد بن زرارَةَ بسفير رسول الله "مصعب بن عمير"، يريد به دار بني عبد الأشهل ودار

بني ظفر... فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر فجلسا فيه، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم،
وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين
قومه.

فقابلهما أسيد بن حضير وسمع منهما القرآن وأسلم، ثم قام فصلى ركعتين، ثم قال لهما: إن

ورائي رجلا إن اتّبعتكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن: سعد بن معاذ.

قال أسعد بن زرارَةَ لمصعب بن عمير: أي مصعب: جاءك والله سيّد من وراءه من قومه إن

يتبعك لا يتخلّف عنك منهم اثنان.

قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا

¹ - المستدرک علی الصحیحین، کتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر مناقب سعد بن عبادة الخزرجي النقيب رضي الله عنه، 3/ 283، ح: 5101.

عنك ما تكره. قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن.

فلما أسلم أيضا وقف على قومه فقال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا:

سيّدنا وأفضلنا رأيا وأيمنا نقيية. قال: فإن كلام رجالكم ونساءكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله

ورسوله. قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة.

ورجع سعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقاما عنده يدعوان الناس إلى الإسلام حتى لم

تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ومسلمات¹.

لقد كان هدف الرسول صلى الله عليه وسلم من الهجرة في بداية الأمر تأمين المهاجرين، ونصرة

الأنصار لهم ولدينهم. والتطور السريع الذي تم في المدينة دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يغير خطته، فبعد أن كان طلب الحماية والنصرة هو الهدف الرئيسي، عند القبائل سواء أسلموا أم

لم يسلموا، إذا بالمدينة تصبح قلعة ضخمة من قلاع الإسلام، ولم يتم هذا الأمر مع ذلك بسهولة،

ولتشهد تطور الأمر فيها كيف تم².

فكان من ثمار هذه الخطوة أن أسلم جم غفير من أهل يثرب تبعا لإسلام سادات قومها.

الخطوة الرابعة: بيعة العقبة الثالثة وتعيين النقباء

سبق هذه العقبة لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم مع نفر من يثرب كانوا ستة في العام

الأول والثاني عشر في العام الثاني... فنصّر الله تعالى يأتي للمصمم على الهدف [صلى الله عليه

وسلم] من حيث لا يحتسب، والتخطيط البشري واجب، لكن الله تعالى هو الذي يختار لدعوته

¹ - أنظر: سيرة ابن هشام، 1/ 435-437. سبل الهدى والرشاد، 3/ 198-199، بتصرف.

² - فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، ص: 317.

ودينه ما يجب¹.

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم مجتة وعكاظ وفي المواسم بمنى يقول: «من يؤويني؟ ومن ينصرني؟ حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة» ، فلا يجد أبدا أحدا يؤويه ولا ينصره، حتى إن الرجل ليرحل من مضر أو اليمن، فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون: احذر فتى قريش لا يفتنك يمضي بين رحالهم، وهم يشيرون إليه بأصابعهم، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام.

فرحل إليه منا سبعون رجلا حتى قدموا عليه في الموسم، فخرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نساتنا ، فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله، لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم يثرب، تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة»².

وعودة مصعب بن عمير رضي الله عنه - وقد خبر المكان والرجال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل انتهاء العام، والموعد المقرر في أيام التشريق، حيث جاء وفد ضخم من أهل يثرب قرابة الثلاثمائة بينهم ما ينوف عن السبعين من المسلمين - يؤكد انطلاقة جديدة للدعوة، وهؤلاء السبعون ونيف إنما يمثلون التجمع الإسلامي الضخم في المدينة، يصلحون للحماية والنصرة، خاصة وهم

¹ - فقه السيرة النبوية، ص: 314.

² - أنظر: مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه، 22/346-348، ح:

يحملون مبادئ الدين الجديد. ورغم أن القوم مسلمون، وجنود ينفذون أوامر الله تعالى ورسوله، لكن هذا لم يمنع من الحوار الدقيق حول المهمة المطلوبة، ومدى قدرتهم على تنفيذها¹.

وفي هذه العقبه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج إليه اثني عشر نقيباً، ليكونوا رؤساء على قومهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي»².

قال السهيلي: «وإنما جعلهم النبي صلى الله عليه وسلم اثني عشر نقيباً اقتداءً بقول الله تعالى في قوم موسى (وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا)*»³.

إن خطة نبي الله بتعيين النقباء لتنم عن النظرة المقاصدية من وراء هذا العمل، فختتم إعداده القبلي بهذه الخطوة المهمة، واطمأن إلى حال الدعوة وأصحابها بيثرب، ليقف على ناصية مرحلة إنجاز الهدف، والبدء في وضع تخطيط محكم لهجرته صلى الله عليه وسلم والتحاقه بأصحابه السابقين.

والمطلع على أساسيات صناعة الأهداف اليوم -في مختلف المجالات-؛ سواء في مجال التربية والتعليم، أو في مجال السياسة، أو الاقتصاد... يجد أن الناجحين في هذه المجالات هم الذين يهيئون تخطيطاً قبلياً للشروع في أول خطوة تجاه أهدافهم، فالتميزون فطنوا إلى أهمية الإعداد القبلي ونهج مبدأ التدرج في شق طريقهم نحو التميز وصناعة الأهداف.

¹ - فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، ص: 319.

² - سيرة ابن هشام، 1/ 446.

* - سورة المائدة: جزء من الآية 13.

³ - الروض الأنف، 4/ 74.

من خلال هذا المطلب اتضح لنا جليا سبق النبي لهذه الخصيصة، وتبينت لنا نجاعة إعداده القبلي قبل الشروع في خوض غمار التوجه نحو الهدف وتحقيقه. وهذه من أولى سمات القيادة الرشيدة وخصائصها.

المطلب الثاني: دور التخطيط والقيادة الرشيدة في صناعة الهدف

من أولى سمات القائد الناجح تخطيطه المحكم لصناعة هدفه، وما يتفرع عن هذا التخطيط؛ من توزيعه للأدوار والمهام حسب مناسبة كل واحد منهم للمهمة المنوطة به، وحسب إتقانه وتخصسه في الدور الذي سيقوم به.

فتوظيف العمل الجماعي من سمات التنظيم المحكم والتخطيط الناجح في صناعة الأهداف، لأن من شأن ذلك أن يختصر الجهد والوقت، ويسرع من إنجاز المهمة، ولا ريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرف الناس بجنده وبطاقات كل واحد منهم رجالا ونساء، كبارا وصغارا، وقد سبق بذلك علماء الإدارة، وقعد القواعد، ووضع التصور الصحيح للقيادة، وما يجب أن يكون عليه القائد المميز والناجح.

وبالتأمل في حدث هجرته صلى الله عليه وسلم وتوظيفه لفريق العمل من أهله وأصحابه في إنجاز الهدف نجد أنه استخدم:

أولا: علي بن أبي طالب مكلفا بالتمويه وبالودائع

لقد كانت فكرة مبيت علي رضي الله عنه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة شروعه في الهجرة فكرة ذكية، تنم على حصافة عقل القائد الحكيم، وكذا عن شهامة وتضحية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

إن تصرف النبي عليه الصلاة والسلام بنوم علي على فراشه وتسجيته ببرده جزء من مسؤولية

القائد في إنجاح خطته، وذلك بالتمويه والتعمية على عدوه. وقد نجحت هذه الجزئية في التمويه نجاحا تاما رغم الاحتمالات الكبيرة لكشفها¹.

لقد كُلف علي رضي الله عنه -فضلا عن مبيته بفراش النبي- أيضا برد الأمانات إلى أصحابها بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فَعَلِمَ عليه الصلاة والسلام عليا بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته.

فبقى في موطن الخطر ثلاثة أيام متواليات -وهو ابن العشرين ونيف - يوزع الأمانات لأهلها، ويمضي مهاجرا وحيدا إلى الله ورسوله وقد دميت قدماه من أهوال الطريق².

ثانيا: عبد الله بن أبي بكر مكلفا بالإعلام

لما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمدا إلى غار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر³.

وكان دوره واضحا محمدا؛ هو أن يستمع لأخبار قريش وقراراتها، والخطط المناسبة للحيلولة دون الهجرة، وإبلاغها للقيادة النبوية حيث يتصرف عليه الصلاة والسلام بما يجبط هذه الخطط، ويدمر هذا الكيد، وكان اختيار عبد الله لهذه المهمة عن قصد ، فكما وصفته عائشة رضي الله عنه أنه

¹ - المنهج الحركي للسيرة النبوية، 1/188.

² - فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، ص: 347.

³ - الروض الأنف، 4/134.

شاب لقن فطن¹.

ثالثا: أسماء بنت أبي بكر مكلفة بالإطعام وصناعة الحيل

لقد كان فريق العمل الخاص بصناعة الهجرة فريقا متنوعا؛ يجمع بين الرجال والنساء، بين الصغار والكبار، كلُّ والمهمة المنوط بها.

فهذه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، وقد كُلفت بمهمتين جليلتين؛ الأولى صناعة الطعام للنبي عليه السلام وصاحبه رضي الله عنه، والثانية: تمويهها بإبقاء أبا بكر للمال بييتهم.

تقول أسماء: صنعت سفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أبي بكر، حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، قالت: فلم نجد لسفرتي، ولا لسقائه ما نربطهما به، فقلت لأبي بكر: «والله ما أجد شيئا أربط به إلا نطاقي»، قال: فشقيه باثنين، فاربطي بواحد السقاء، وبالأخر السفرة، ففعلت، فلذلك سميت ذات النطاقين².

ولا نستطيع أن نمر بهذه الفقرة دون الإشارة إلى شخصية أسماء العجيبة وهي الأنثى الحامل في شهورها الأخيرة. وتصعد في الجبل الذي يعجز المسلم العادي صعوده³.

ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه. قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لا أراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت: قلت:

كلا يا أبت! إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا. قالت: فأخذت أحجارا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبا، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت، ضع يدك

¹ - فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، ص: 335.

² - صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حمل الزاد في الغزو، 54/4، ح: 2979.

³ - المنهج الحركي للسيرة النبوية، 191/1.

على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، فقال:

لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئاً
ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك¹.

رابعاً: عامر بن فهيرة خادماً في السفر

وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه ليخدمهما في الطريق، وكان عامر بن فهيرة غلاماً لعبد
الله بن الطفيل بن سخبرة أخو عائشة لأمها، فأخذ بهما الدليل طريق الساحل أسفل من عسفان ثم
أجاز بهما حتى عادا من الطريق على أمج².

خامساً: حسن اختيار الطريق

تبدو عظمة التخطيط أكثر حين نعلم أن غار ثور في جنوب مكة وليس على طريق المدينة
حيث احتمالات الرصد. وكما جاء عند المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم تحت عنوان " من الدار
إلى الغار"، يقول:

"ولما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعلم أن قريشا ستجد في الطلب، وأن الطريق الذي
ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالاً فقد سلك الطريق الذي يصاده
تماماً وهو الطريق الواقع جنوب مكة، والمتجه نحو اليمين، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى
بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور. وهذا جبل شامخ، وعرة الطريق، صعب المرتقى، ذو أحجار كثيرة،
فحفيت قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم³.

¹ - سيرة ابن هشام، 488/1.

² - سبل الهدى والرشاد، 243 /3.

³ - الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، (دار الهلال - بيروت، ط 1 - نفس طبعة وترقيم دار الوفاء للطباعة والنشر
والتوزيع)، ص: 148.

وهذا من عظمة التخطيط النبوي كذلك حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمض من الطريق المعتاد، الذي تمضي منه القوافل الذهبية والغادية من الشام وإليها، إنما اختار طريقا آخر، قد يكون أقصر من الطريق العادي، ومن أجل هذا احتاج الركب إلى الدليل الخبير في مجاهل الطرق ومسارها¹.

سادسا: عبد الله بن الأريقط دليل الطريق وبوصلته

لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج من مكة مهاجرا إلى المدينة هو وأبو بكر، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة، كانت الحاجة إلى دليل خبير في الطريق، لذلك تم اختيار عبد الله بن الأريقط الليثي ليقوم بالمهمة.

فلا بد من خبير في الطريق، ولو كان هذا الخبير غير مسلم، إن كان موطن الثقة وأهلا للمسؤولية، واختيار أبو بكر رضي الله عنه لابن أريقط، لم يكن ليتم لولا الثقة التامة به، وباستعداده لتنفيذ المخطط كاملا.

لقد كان عليه الصلاة والسلام يمثل القائد الفذ في الوجود، الذي يختار أقدر العناصر على تأدية الدور المطلوب منها فيفجر طاقاتها، ويعطيها من الدور ما يتناسب مع إمكانياتها، سواء كانت الطاقات أطفالا أو رجالا أو فتيات أو نساء، فيؤدي كل واحد دوره في المخطط الكبير الذي يقف وحده على كل تفاصيله مع وزيره أبي بكر رضي الله عنه، ويرضى عليه الصلاة والسلام لعملية الهجرة ثاني اثنين فقط².

¹ - فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، ص: 337.

² - المرجع نفسه، ص: 349.

المطلب الثالث: وسائل صناعة الأهداف في السيرة النبوية

تقوم صناعة الأهداف على جملة من الوسائل والأسباب الواجب اتباعها والأخذ بها للوصول إلى الغاية المرجوة.

ويشكل وضوح الهدف من البداية نقطة البدء للشروع في خوض الطريق الموصل لنقطة النهاية، حيث لا يمكن للفرد أن يخوض معركة طويلة في سبيل شيء مجهول وغير محدد، وإلا عُذَّ عمله ذاك ضرباً من العبث، ونوعاً من العشوائية في الأداء.

يقول منير الغضبان عن أهمية وضوح الهدف: إن وضوح الهدف ووضوح تكاليفه هو الذي يصل بصاحبه إليه، وإن مشاق الطريق لا بد أن تكون محسوبة في أي تخطيط للتمكين في الأرض¹.

وبالعودة إلى أحداث الهجرة يمكن القول أنها حوت من الوسائل المعينة على بلوغ الهدف ما أهَّل أصحابها لتحقيق مرادهم ووقفهم على ناصية الحلم.

وقد استقيت من حدث الهجرة خمس وسائل أساسية، كان لها الأثر الإيجابي، والدور الفعال، في تحقيق المسلمين لهدفهم وظفرهم بالحلم المنشود.

أولاً: تعلق القلب بالهدف والتركيز عليه

معلوم لدى علماء التنمية الذاتية والباحثين في صناعة التميز أن تعلق القلب بالهدف سبيل الوصول، وكثيراً ما يُعبّرون عن هذه الوسيلة بـ"الشغف" أو "الولع"²؛ أي؛ أن يكون اهتمام الراغب في صناعة هدفه منصبا ومركزا عليه.

ويجتم تركيز الراغب في صناعة التميز على هدفه أن يُعلق قلبه بالأولويات، وأن يُضحى من أجل

¹ - فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، ص: 322.

² - للتوسع في الموضوع أكثر يُرجع إلى: "استراتيجية صناعة التميز" في الباب الأول.

شرف الغاية المرجوة، متجاهلا كل الإغراءات المعنوية والمادية والتي قد تحول دون تحقيق الهدف.
وهذا مبدأ مهم وفعال.

روى ابن هشام في السيرة أن صهيبا رضي الله عنه حين أراد الهجرة قال له كفار قريش:

أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثير مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك
والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صهيب: رأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟

قالوا: نعم.

قال: فإني جعلت لكم مالي.

فلا بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «ريح صهيب ريح صهيب»¹.

إن شرف الغاية، وعلو قدرها، جعل من صهيب رضي الله عنه متخليا عن مقوم مهم من مقومات الحياة "المال"، فضحى به في سبيل الهدف الكبير، ويعد هذا التصرف الحكيم من لدنه رضي الله عنه بابا مهما من أبواب المصالح والمفاسد؛ حيث راعى في اختياره ذاك المصلحة الكبرى [أو الهدف الهام والرئيسي]، وآثره على ما دونه.

ويذكرنا هذا التصرف الحكيم بآخر سبقه؛ ويتعلق الأمر بموقف رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عُرضت عليه كل صور الحياة المادية الجالبة لرغد العيش مقابل التخلي والتنحي عن هدفه الذي ينشده.

فلما اجتمع كبار قريش اتفقوا أن يغروا محمدا بن عبد الله وينحوه عن هدفه، قالوا له: يا

¹ - سيرة ابن هشام، 1 / 477.

محمد... فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رؤيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم. ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"¹.

فكان صلى الله عليه وسلم يستصغر كل إغراء أمام هدفه المنشود، فرفض المال والملك والنسب... وتعلق قلبه بهدف واحد، متجاهلا الإغراء المادي الزائل، بل أبلغ في التعبير عن تعلق قلبه بهدفه دون سواء بأن أقسم لعمه أنه يرفض أي مساومة حتى إن كانت بحجم وقيمة الشمس والقمر!..

عن ابن إسحاق أن قريشا حين اشتكوا لأبي طالب أمر ابن أخيه، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبى علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، قال: فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته.²

وهكذا كان دأب صحابته الكرام؛ لا يلتفتون إلى زخرف الدنيا ونعيمها مقارنة بهدفهم المنشود؛

¹ - الروض الأنف، 63/3.

² - سيرة ابن هشام، 266/1.

الظفر بالهجرة وممارسة تدينهم بحرية تامة، وإيثارهم إياها على ما دونها من النعيم الدنيوي. وهذا درس نبوي بليغ ومهم يجدر بكل راغب في التميز أن يأخذ به ويتحلى به.

ثانيا: الاستعانة بالكتمان لتحقيق الهدف

يعتبر كتمان السر من الوسائل المعينة على إنجاح الهدف وتحقيقه، وقد كان عليه الصلاة والسلام يوصي أصحابه باعتماد هذا المبدأ، يقول صلى الله عليه وسلم: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»¹.

ونجد أن اعتماد هذا المبدأ من لدن الصحابة الكرام شكّل وسيلة قوية وفعالة في إنجاح هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

لما أذن الله سبحانه لنبيه بالهجرة روي أنه أتى بيت أبي بكر في الظهرية . قالت عائشة: وفي البيت أنا وأختي أسماء فقال أخرج من معك، فقال أبو بكر: إنما هما بنتاي يا رسول الله. ثم قال: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة»².

فكان حرصه عليه السلام كبيرا تجاه حفظ السر، لأن الأمر الذي سيبادر به صاحبه أمر عظيم وخطب جليل، ولذلك أمره أن يُجرح من عنده حتى ينفرد وإياه بالحديث عن السر.

ولذلك حَصَرَ أمر الهجرة تحديداً بآل أبي بكر ؛ لمشاركتهم في الإعداد للهجرة، وهم عائشة ، وأسماء، وأم رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعلي بن أبي طالب، حتى لا يتسرب الأمر، وكل واحد من هؤلاء له دور ما في عملية الهجرة³.

واتضح فيما بعد، أن كل الذين وثق فيهم النبي عليه الصلاة والسلام وأدخلهم في دائرة سره

¹ - المعجم الأوسط، باب الألف، باب من اسمه إبراهيم، 3/ 55، ح: 2455.

² - الروض الأنف، 4/ 129.

³ - فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، ص: 335.

العظيم، كانوا أكفاء للمشاركة، وأهلا للحفاظ على عظمة السر.

وما يؤكد هذه المحافظة على السر وانخراط فريق الرسول القائد تصرف أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ومشاركتها في الأمر.

عن أسماء أنها قالت: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه، أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل ابن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشا خبيثا، فلطم خدي لكمة طرح منها قُرْطِي¹.

ثالثا: الصبر على المحنة لبلوغ المنحة

بعدما رأينا الجهد البشري في البذل رجالا ونساء، والجهد البشري في البناء والتخطيط، ووجدنا أنه المدى الأقصى الذي يملكه البشر في عالمهم. يصبح من المناسب جدا أن نتحدث عن سمة النصر الإلهي في قلب المحن، والعون الرباني في خضم المعارك، فالله تعالى لا يفعل بعذاب عباده شيئا، والله تعالى وعد بنصر جنده وعباده الصالحين.

قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ بِآءِ وَآلِيكَ هُمُ الْقَاسِفُونَ)*².

¹ - سيرة ابن هشام، 487/1.

² - المنهج الحركي للسيرة النبوية، 416/2.

* سورة النور: الآية 53.

لقد مر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من محن عظيمة، حرموا فيها من نعيم العيش ورغده، بل فُرق بينهم وبين أهليهم وأولادهم، كل ذلك فرضته الرغبة في تحقيق المراد وتطلعا لبلوغ الهدف.

فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو سلمة بن عبد الأسد؛ هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة فلما آذته قريش وبلغه إسلام من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجرا.

تقول أم سلمة: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل إلى بعيه ثم حملني عليه وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيه فلما رآته رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرايت صاحبك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه. قالت وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبنا. قالت فتجادبوا بني سلمة بينهم حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الأسد، وحسني بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. فكانت تقول والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة¹.

إن تحقق أي هدف، والظفر بأي منحة رهين بمدى الصبر المبذول من أجلها، "إنها التقادير الربانية يوم يأذن الله تعالى بالفرج من عنده أو التمكين والنصر أن يأتي من قلب المحنة، ويأتي النور من كبد الظلمة"².

¹ - الروض الأنف، 4/102-103.

² - فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، ص: 314.

ولنا في الأحداث والمواقف التي مر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم الأصل المتين، والنموذج المثالي في الاستعانة بالصبر على المحن من أجل تسلم المنح والظفر بها، فالرسول الأكرم " ألقى بذر الصبر في مزرعة [فصبر كما صبر أولو العزم من الرسل]، فإذا أغصان النبات تهتز بلخزامي، فدخل مكة دخولا ما دخله أحد قبله ولا بعده.¹

رابعا: الرفقة الإيجابية وسيلة لتحقيق الهدف

تشكل الرفقة (الصحبة) بابا مهما من أبواب الولوج إلى صناعة الأهداف، إلا أن هذا الأصل يمكن أن يكون إيجابيا مساعدا على تحقيق المراد، كما يمكن أن يثبط الهمم ويُفشل الخطط، ويجول دون تحقق المراد إذا ما لم يتم التحقق منه، أو لم يتم اختيار أهله بعناية تامة.

وبالعودة إلى السيرة العطرة نجد أن البارئ عز وجل تكفل باختيار الرفقة لنبيه عليه السلام، فكان أبو بكر الصديق خير مثال على الصحبة الصادقة والصالحة، والمؤهلة لتمثيل السند القوي لنبيه، يمضي معه خططه ومراحل دعوته ونشر رسالته.

وكان أول ما أذن لرسوله بالهجرة أن قال عليه السلام لصاحبه: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة.

فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، قال عليه السلام: الصحبة.

تقول أم المؤمنين عائشة: فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتكما لهذا².

فموافقة رسول الله باعتماد أبا بكر رفيقا له كان مبنيا على إرهاصات ودوافع عدة، بدأت

¹ - الفوائد، ابن قيم الجوزية، (دار الكتب العلمية - بيروت، ط2 - 1973 م)، ص: 191.

² - سيرة ابن هشام، 485/1.

بكونه أول المصدقين لنبي الله لما بُعث في قومه، وبأخلاقه وصفاته المنقطعة النظير التي أهلته لمقام الصحبة.

يروى الإمام البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خلة الإسلام، لا ييقين في المسجد خوذة إلا خوذة أبي بكر»¹.

إنه الصديق؛ الجدير باللقب، والمهياً لتمثيل صاحب رسول الله في السفر كما الحضر، " فهو الذي يحرس الطريق من الأمام والخلف، وهو الذي يرتاد المنزل ويهيئ المقييل، وهو الذي يصرف الطلب بقوله: هاد يدلي الطريق، وهو الذي يهيئ الزاد، ولا يقدمه لرسول الله حتى يستيقظ، وهو الذي يظلل رسول الله حين تلفحه الشمس، وهو كما قال عمر رضي الله عنه (والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر) وهو يعني ليلة الغار، وهو الذي يبكي وقد رأى الطلب، ويقول: أما والله ما على نفسي أبكي، ولكن أبكي عليك².

من أجل هذه التضحيات الجسام، وبذل النفس، والمال، في سبيل تحقيق هدف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلوغ مراده، حظي أبو بكر بشرف الصحبة الذي سماه به الله عز وجل في قوله: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزِنِ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا³﴾.

¹ - سبق تخريجه.

² - فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، ص: 349.

³ - سورة التوبة: جزء من الآية 40.

خامسا: خوض التحدي والاعتزاز بالذات

إن اعتزاز الفرد بذاته، وثقته في نفسه، وخوضه بحر التحدي... كل ذلك من سمات المصمم على الهدف، والراغب في تحقيق مراده، وما وقفت على موقف أبلغ ولا أدل من هذا المبدأ في سيرته عليه السلام من موقف الفاروق عمر بن الخطاب لما همّ بالهجرة.

روى صاحب "أسد الغابة" أن علي بن أبي طالب قال: " ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفيا، إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى في يده أسهما، واختصر عنزته، ومضى قبل الكعبة، والملا من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعا متمكنا، ثم أتى المقام، فصلى متمكنا، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، وقال لهم: شأهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، ويوتم ولده، ويرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، قال علي: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه"¹.

وموقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه هنا يصدق فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف"².

وهكذا أخذ المسلمون في الهجرة إلى المدينة حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعلي، أو معذب محبوس، أو مريض أو ضعيف عن الخروج.

وفي هذا الصدد يورد الإمام ابن القيم كلاما نفيسا، يقول رحمه الله: طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة بل وإلى كل علم وصناعة ورتاسة؛ بحيث يكون رأسا في ذلك مقتدى به فيه يحتاج أن يكون

¹ - أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن ابن الأثير، (تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط1- 1994 م)، 4 / 137.

² - سبق تخرجه في الباب الأول.

شجاعا مقداما حاكما على وهمه ، غير مقهور تحت سلطان ، تخيله زاهدا في كل ما سوى مطلوبه ، عاشقا لما توجه إليه ، عارفا بطريق الوصول إليه والطرق القواطع عنه ، مقدم المهمة ، ثابت الجأش ، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لاثم ، ولا عدل عاذل ، كثير السكون ، دائم الفكر ، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم ، قائما بما يحتاج إليه من أسباب معونته ، لا تستفزه المعارضات ، شعاره الصبر وراحته التعب¹ .

وفي الاستشهاد بهذا الأصل من خلال السيرة النبوية كثير من المواقف، نذكر من بينها ما رواه الحاكم في المستدرک عما وقع بين حمزة بن عبد المطلب وأبا جهل لما أساء هذا الأخير إلى نبي الله عليه السلام، وأورد القصة مختصرة، وخلاصتها: أن أبا جهل اعترض لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا، فأذاه وشتمه وقال فيه ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف له ... ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص له ... فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه على رأسه ضربة مملوءة، وقامت رجال من قريش من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقالوا: ما نراك يا حمزة إلا صبأت، فقال حمزة: وما يمنعني وقد استبان لي ذلك منه، أنا أشهد أنه رسول الله، وأن الذي يقول حق، فوالله لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين² .

وفي الختام؛ وبعد نجاح خطط الرسول الأكرم، والمؤيد بالوحي ، ووصول القائد الأعلى إلى مركز القيادة استطاع صلى الله عليه وسلم تحقيق هدفه المنشود، والوصول إلى قمة حلمه الكبير.

فلما كان اليوم الخامس من فترة الهجرة - يوم الجمعة - ركب بأمر الله له، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بني النجار - أحواله - فجاءوا متقلدين سيوفهم فسار نحو المدينة فأدركته الجمعة في بني

¹ - الفوائد، ابن قيم الجوزية، ص: 191.

² - المستدرک على الصحيحين، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب، 3/ 213، ح:

سالم بن عوف فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مائة رجل. وبعد الجمعة دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته، هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم، خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلا ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها ... وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله فأدخله بيته فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: المرء مع رحله. وها هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أصحابه من المهاجرين والأنصار يحفون بهم، ويفدونهم بأبائهم وأمهاتهم، ويضعون دماءهم وأموالهم تحت تصرفه وجواري الأنصار يغنين ويضرين بالدفوف¹.

إن ما يميز دراسة موضوع صناعة الأهداف وتأصيله من السيرة النبوية هو المزج بين أصالة المصدر الذي يركز عليه وهو السيرة النبوية النموذجية، باعتبارها سيرة قدوة، أبانت عن نجاعة كبيرة في صناعة أهداف الحياة، وحدائث التوجه والتفكير والأساليب نظرا لتطور الحياة، وهذا في حد ذاته مظهر من مظاهر الثراء والسبق في إمداد العقل الإنساني بأدوات الصمود أمام الصراع الحضاري. ولئن أنكب الراغب في صناعة الأهداف على السيرة العطرة، محاولا استقاء أسس هذه الصناعة وصياغة أساليبها للعمل إلا وبلغ مقام هذه الصناعة (تحقيق الأهداف).

¹ - المنهج الحركي للسيرة النبوية، 202/1.

المبحث الثاني: تنمية مهارات الحياة من خلال السيرة النبوية

المطلب الأول: مهارات صناعة الذات في السيرة النبوية

الفرع الأول: مهارة الذكاء الوجداني

يقوم المنهج التربوي لتنشئة الطفل وتنمية وجدانه داخل السيرة النبوية على قيم الحب والمودة والرفق والرحمة والحنان واحترام مشاعر الآخر، ولعل هذا ما جعل كل واحد من أولئك السلف قادرا على تحقيق أهدافه، ومواجهة مختلف التحديات التي واجهته في مختلف مراحل حياته.

وقد وثقت السيرة النبوية في غير ما موضع ملامح تميزه صلى الله عليه وسلم بذكاء وجداني أمكنه من معرفة مشاعره الدفينة وتصنيفها (إيجابية أو سلبية)، وكذا من معرفة الوقت المناسب للتعبير عن الصنف الإيجابي منها، ومحاولة كبت السلبي، فضلا عن معرفة مشاعر الآخر المخاطب؛ صغيرا كان أو كبيرا، ذكرا أو أنثى.

إن أساس الذكاء الوجداني وقوامه أن يتمكن الفرد من السيطرة على مشاعره وتديير ترجمتها إلى كلمات باللسان أو حركات بالجوارح والحواس.

والمطلع على سيرته النموذجية صلى الله عليه وسلم يجد أن أسمى مهارات العيش في الحياة تتجلى في الذكاء الوجداني؛ أي ترويض الوجدان على كبت المشاعر والأحاسيس السلبية أثناء التعامل مع الآخر.

لقد لخص عليه الصلاة والسلام الطريق إلى الذكاء الوجداني في تجنب الغضب، وذلك لما سأله أحد الصحابة قائلا: يا رسول الله، علمني كلمات أعيش بهن، ولا تكثر علي فأنسى. فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: «لا تغضب»¹.

نعم؛ هي كلمة واحدة، اختصر فيها صلى الله عليه وسلم السبل المعينة للفرد على العيش بوجدان مطمئن، وبصحة نفسية آمنة. بل اعتبر -عليه السلام- الشديد والقوي من يملك نفسه عند الغضب، وكبت مشاعره السلبية المتوهجة بداخله، فقال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»².

ولا غرابة أن نلغي النهي عن الغضب وتملك النفس عنده، من سمات المؤمن القوي في وجدانه داخل السيرة النبوية، والله عز وجل جعل من عباده المتقين أولئك (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ وَالْكَبِيمِ الْعَظِيمِ وَالْعَافِي عَنِ النَّاسِ)³. ولا غرو أن يتسم وجدانه عليه السلام بهذا الذكاء الوجداني وهو الموصوف بالخلق العظيم، والقرآن الذي يمشي بين أظهر الناس.

إن الناظر في صناعة الذكاء الوجداني داخل صفحات السيرة النبوية يجد أن من بين ثمرات تربية المرابي الحكيم صلى الله عليه وسلم لأصحابه تحكّمهم في مشاعرهم ومحاولة نقلها داخل الوجدان من صيغتها السلبية إلى صيغتها الإيجابية قبل التعبير عنها أمام الآخر.

ومن بين الأمثلة على ذلك، حسن تصريفهم للغضب؛ فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبي» قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: "أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت علي غضبي، قلت: لا ورب إبراهيم" قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله، ما

¹ - موطأ مالك، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في الغضب، 295/2. ح: 2591.

² - المصدر نفسه، ح: 2592.

³ - سورة آل عمران: جزء من الآية 134.

أهجر إلا اسمك"¹.

وسأقتصر على إيراد صور من صناعة الذكاء الوجداني في السيرة النبوية في تعامل المربي الحكيم صلى الله عليه وسلم مع الطفل ومع المرأة؛ فالأول: باعتبار الحاجة إلى مخاطبة وجدانه وتنميته مهمة في مرحلة نشئته، والثاني: إيماننا بأن المرأة يغلب عليها التصرف بالعواطف والأحاسيس في حياتها.

العنصر الأول: تنمية وجدان الطفل في السيرة النبوية

رغم عظم الرسالة والأعباء التي حملها نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، فقد كانت رحمة الصغير ومخاطبة وجدانه في سيرته من الأولويات التي اعتبرها عليه السلام أثناء تربية الطفل، ولا عَرَوْ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا"².

إن السيرة النبوية عطاء متجدد يتعالى على الزمان والمكان، قصد تأهيل الإنسان نحو الخيرية وعمارة الأرض وتحقيق معنى الاستخلاف، وأنى لهذا أن يتحقق بمعزل عن تربية الطفل وتنمية مهاراته، وذلك عن طريق مداخل عدة؛ وأول هذه المداخل تلك التي تتم من خلالها مراعاة حاجات الطفل النفسية واحترام عواطفه ووجدانه.

والمُنقب في مواقف السيرة النبوية الخالدة يجد أن المربي الأول صلى الله عليه وسلم اهتم بشكل كبير بتنمية وجدان الطفل، وسعى في دعوته إلى الاهتمام بهذه الفئة والسهر على حسن نشئتها تنشئة اجتماعية سوية وإيجابية. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار فيسلم على

¹ - صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن، 36/7، ح: 5228.

² - الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية- بيروت، ط3-

1989)، باب إجلال الكبير، 130/1، ح: 358.

صبيانهم ويمسح برؤوسهم ويدعو لهم¹.

وسأفصل في بعض الملامح الدالة على اهتمامه عليه الصلاة والسلام بمشاعر الطفل وتنميته
لذكاء وجدانه.

أولاً: مشاركة الطفل في مشاعره وهمومه

لقد كان من هديه صلى الله عليه وسلم أنه يحدث الصبيان ويحاورهم، ويشاركهم همومهم
ويواسيهم، ويتعامل معهم تعامله مع الكبار. وأثبتت العديد من الدراسات النفسية أنه كلما كانت
المسافة قريبة جداً من المخاطب كلما كان أثر الرسالة أقوى.

وفي سيرته العطرة؛ أنه -عليه الصلاة والسلام- دخل ذات يوم على طفل صغير يكنى "أبا
عمير"، وكان له نغز² يلعب به فمات له، فلما رآه عليه الصلاة والسلام حزينا قال: «ما شأنه؟»
قيل له: مات نغزه، فقال: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»³.

ففي الحديث اهتمامه عليه السلام بحياة الطفل ومشاركته شعوره بالحزن إثر فقدته لمصدر بهجته
وفرحة (طائرته)، وفيه أيضاً جواز تربية الصبيان للحيوانات الأليفة واللعب بها، ما لم يكن الأمر فيه
تعذيب لها، وإلحاق الأذى بها، كما يفيد الحديث تعظيم شخصية الطفل وملاطفته في النداء (يا أبا
عمير)، وإشعاره بقيمته، مما ينعكس إيجاباً على نفسية الطفل.

وكان عبد الله بن جعفر يلعب هو وقثم وعبيد الله بن العباس، فمر رسول الله صلى الله عليه
وسلم على دابة فقال: «احملوا هذا إلي»، قال عبد الله: فجعلني أمامه، ثم قال لقتم: «احملوا هذا

¹ - عمل اليوم والليلة، النسائي، تحقيق: فاروق حمادة (مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2 - 1406هـ). باب التسليم على

الصبيان والدعاء لهم وممازحتهم، ح: 329.

² - النغز: وهو طائر صغير يشبه العصفور أحمر المنقار، و"النغير" تصغير النغز.

³ - الأدب المفرد، البخاري، باب الكنية للصبي، ح: 847.

إلي» فجعله وراءه ما استحيا من عمه العباس أن حمل قثم، وترك عبيد الله، ثم مسح برأس عبد الله ثلاثا وقال: «اللهم اخلف جعفرًا في ولده».¹

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: أرسلت ابنة النبي صلى الله عليه وسلم إليه إن ابنا لي قبض، فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر، ولتحتسب»، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتيها، فقام ومعه سعد بن عباد، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبي ونفسه تتقعقع - قال: حسبته أنه قال كأنها شن - ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء». يقول مصطفى البغا معلقا: قوله "ما هذا": استفهام تعجب لما يعلم من سنة صبره ونهي عن البكاء، وقوله عليه السلام "هذا رحمة": أي؛ هذه الدمعة أثر رحمة وليست من الجزع وقلة الصبر.²

فكان صلى الله عليه وسلم يشارك الصبيان أفراحهم ومسراتهم، كما يشاركهم أحزانهم، ويواسيهم عند نزول المصائب؛ وهذا تقدير منه عليه السلام لشخصية الإنسان الفياضة بالمشاعر (الإيجابية والسلبية)، فلا يفرق بين الصغير والكبير في مخاطبة وجدان الإنسان.

ثانيا: إبداء الحب وإشباع الجانب العاطفي للطفل

إن الحاجة للحب والإحساس بالطمأنينة الوجدانية من أولى الحاجات النفسية الأساسية التي تساعد على النمو العاطفي والانفعالي للطفل، فيها يتم تحريك الدوافع الإيجابية، وتنمية مهارات الاندماج مع مؤسسة الأسرة أولا، ومع المحيط مجتمعي ثانيا.

¹ - المستدرک علی الصحیحین، الحاکم، کتاب الجنائز، 528/1، ح: 1378.

² - صحیح البخاری، کتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته، 79/2، ح: 1284.

فإشباع الجانب العاطفي للطفل لا يقل أهمية عن إشباع الجانب المعرفي أثناء عملية التربية والتنشئة الاجتماعية. والناظر في سيرته العطرة، وفي تعامله مع الأطفال يجد صفحات مضيئة للمربين؛ تمكنهم من استلهام أساليب إشباع هذا الجانب لدى الطفل من إظهار للحب له ومداعبته وممازحته وتقبيله...

ومن أمثلة ذلك؛ لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طعام دعي له، فإذا بالحسين عليه السلام يلعب مع الصبيان فاستقبله أمام القوم، ثم بسط يده فجعل الصبي يفرها هنا مرة وها هنا مرة، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضاحكه، حتى أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى تحت قفاه، ثم قنع رأسه فوضع فاه على فيه فقبله، وقال: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط»¹.

وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي عليه السلام وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم»². وفي رواية؛ أتى النبي صلى الله عليه وسلم أناس من الأعراب، فقال رجل منهم: يا رسول الله أتقبلون الصبيان؟ والله ما نقبلهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو أملك إن كان الله نزع من قلبك الرحمة"³.

لعل المربين يستصغرون فعل تقبيل الصغير، ويقللون من دوره في تربية الطفل، والحقيقة غير ذلك؛ فالتقبيل له دور كبير في تسكين ثوران الطفل وغضبه، "بالإضافة إلى الشعور بالارتباط الوثيق في تشييد علاقة الحب بين الكبير والصغير، وهي دليل رحمة القلب والفؤاد لهذا الطفل الناشئ، وهي

¹ - صحيح ابن حبان مخرجا، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2- 1993)، كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة، 427/15، ح: 6971.

² - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، 7/8. ح: 5997.

³ - شرح السنة للبعوي، (تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، ط2- 1983)، كتاب البر والصلة، باب رحمة الولد وتقبيله، 34-35/13، ح: 3447.

برهان على تواضع الكبير للصغير، وهي النور الساطع الذي يبهر فؤاد الطفل، ويشرح نفسه، ويزيد من تفاعله مع من حوله، ثم هي أولا وأخيرا السنة الثابتة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم مع الأطفال¹.

ف فعل التقبيل من شأنه ترسيخ الحب في نفسية الطفل، ونشر العطف والمودة أثناء التربية، وتنمية وجدان الطفل، وإحساسه بالحب، مما يسهم في صناعة وجدانه ويثبت الرقة داخل كيانه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله {إنما أموالكم وأولادكم فتنة} نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما.² وعن الربيع بنت معوذ ابن عفراء، قالت: أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار، التي حول المدينة: «من كان أصبح صائما، فليتم صومه، ومن كان أصبح مفطرا، فليتم بقية يومه» فكنا، بعد ذلك نصومه، ونصوم صبياننا الصغار منهم إن شاء الله، ونذهب إلى المسجد، فنجعل لهم اللعبة من العهن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناها إياه عند الإفطار³.

إن زجر الطفل أثناء مزاحه مع الكبار وعيبه في ثوبه أو في شعره هو كسرٌ لنفسه وجرح لمشاعره، ودفعه إلى الوحدة والانطواء، فالمرابي الأمين كان يقابل ذلك كله بالابتسام والإعجاب، والتشجيع على مخالطة الكبار والاستفادة منهم، لتسهيل اندماج الطفل في المجتمع.

¹ - منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور سويد، (دار طيبة- مكة المكرمة، ط3- 2000م)، ص: 310.

² - سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب، 122/6، ح: 3774.

³ - صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه، 798 / 2، ح: 136.

ثالثا: تدريب الطفل على العمل الجاد من خلال الجانب الاجتماعي

لم يكن عليه السلام مقتصرًا في تربية الأطفال على اللعب فيما بينهم، بل كان يشجعهم ويشاركهم في الأعمال الجادة، وعلى ممارسة الرياضة، والتي لا تقل أهمية في صناعة وجدان الطفل، فمرّ في يوم على نفر من أسلم ينتضلون [يتسابقون في الرمي]، فقال لهم: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا، ارموا وأنا مع بني فلان»، فلما أمسك أحد الفريقين بأيديهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما لكم لا ترمون؟»، قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ارموا فأنا معكم كلكم»¹.

ففيه من الحث على العمل الجماعي، وإشباع الجانب الاجتماعي للطفل ما يعود على شخصية الطفل بترسيخ العمل الفريقي ومشاركة الآخرين مختلف الأنشطة الموازية في تربية الفرد. كما يستنبط من الحديث احترامه عليه السلام لمشاعر الآخر؛ ويتجلى ذلك في مشاركته الرمي مع كلا الفريقين، خشية إحساس الآخرين بتمييزه عليه السلام فيما بينهم وتفضيله لفريق عن آخر، وفي هذا من العدل ما يعجز اللسان عن وصفه.

وأمثله مشاركته عليه السلام للصبيان في اللعب كثيرة من أن تحصى، فكان يسابقهم ويحفزهم عند الفوز في السباق، ويقول: «من سبق إلي فله كذا وكذا، ثم يستبقون فيقبلهم»².

إن المزاوجة بين الجانب التربوي التكويني والعاطفي يكتسي أهمية داخل شخصية الطفل، ويحسسه بجدوى عمله، ومقدرته على العطاء والبذل، وذلك بتحفيزه بحوافز تشعره بقوة شخصيته وفعالية أدائه.

¹ - صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، 38/4، ح: 2899.

² - مسند أحمد، مسند بني هاشم، حديث تمام بن العباس بن عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وسلم 335/3، ح:

رابعاً: مراعاة وجدان الطفل واحترام رأيه

تؤكد نظريات علم النفس التربوي- لا سيما داخل حقل علم نفس الطفل- على الدور البالغ للاستجابة لحاجات الطفل النفسية؛ وذلك من قبيل اللعب والمداعبة والممازحة... ويتجاوز اللعب كونه مجرد تسلية ومنتعة إلى اعتباره "وسيطاً تربوياً، ومدخلاً أساسياً لنمو الطفل انفعالياً واجتماعياً وعقلياً وجسيمياً، فتنتفح أمامه أبعاد العلاقات الاجتماعية، ويتعلم الضبط الذاتي واحترام القواعد، وإبداع طرق جديدة، وتخيل جميع الاحتمالات الممكنة لحل معضلة ما، كما يتحرر من مركزه حول ذاته، ويكتسب مهارات الاتصال الاجتماعي"¹.

إن رحمة الرسول المرابي لا تتجلى في اعتبار مشاعر الطفل وإبداء العطف معه فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى احترام قرار الطفل ومراعاة حاجاته النفسية المتمثلة في اللعب والترؤيح عن النفس، ولعل هذا ما يحدثنا عنه خادم رسول الله؛ أنس بن مالك رضي الله؛ إذ كان طفلاً صغيراً حينئذ، حين أمره صلى الله عليه وسلم أن يذهب لقضاء حاجة له، لكن أنس رضي الله عنه خرج أولاً على صبيان يلعبون في السوق، فلعب معهم. قال أنس: "فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: «يا أنيس أذهبت حيث أمرتك؟» قلت: نعم، أنا أذهب، يا رسول الله"².

وفي رواية قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، حتى إذا رأيت أني قد فرغت من خدمته، قلت: يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت إلى صبيان يلعبون قال: فجئت أنظر إلى لعبهم، قال: "فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم على الصبيان وهم يلعبون، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعثني إلى حاجة له، فذهبت فيها، وجلس رسول الله صلى

¹ - مقال "مراعاة الحاجات النفسية للطفل في ضوء السنة النبوية مدخل لصناعة التميز وتنمية المهارات"، عزيز البطوي، (مرجع سابق)، 126-125/2.

² - صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً، 1805/4، ح: 54.

الله عليه وسلم، في فيء حتى أتيته" ¹.

فكان عليه السلام يراعي في منهجه التربوي ظروف الطفل ومرحلته الأولى في التكوين والتنشئة؛ ففي ذلك تلبية لرغباته النفسية بعيدا عن الكبت المولد للانفجار؛ ويتمثل منهجه التربوي في تسليمه على الصبيان وجلسه أمامهم يراقبهم ويتابعهم عن كثب، ويعجب بحركتهم وبهجته، لما في ذلك من إحساسهم بالأمن النفسي وتشبعهم بحبه صلى الله عليه وسلم، فينشؤون على قيم المودة والحب والعطف.

أما عن احترام شخصية الطفل ومراعاة مشاعره، فتجلى في قول أنس بعد خدمته لحبيبه عليه السلام في السفر والحضر، قال: والله ما قال لي لشيء صنعت: لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه: لم لم تصنع هذا هكذا؟ ².

ويزكي هذا ما سجلته سيرته صلى الله عليه وسلم لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدرح، فشرب، وعن يمينه غلام هو أحدث القوم والأشياخ عن يساره، قال: «يا غلام أتأذن لي أن أعطي الأشياخ»، فقال: ما كنت لأوثر بنصبي منك أحدا يا رسول الله، فأعطاه إياه ³.

يدل قوله صلى الله عليه وسلم: (يا غلام.. أتأذن لي) على خطابه الراقى مع الطفل، واحترامه التام لقراره ورأيه، فكان عليه السلام لا يفرق في استشارته مع الآخر بين الصغير والكبير، إذ تصرفه أثناء تقديم الغلام على الأشياخ وعمله برأي الغلام أكبر دليل على هذا التعامل الأنموذجي الذي نفتقده في تربيتنا للنشء.

يقول جمال عبد الرحمن: "وهذا من رحمة هذا النبي الذي يهتم بالأطفال هذا الاهتمام العظيم

¹ - مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، 324/20، ح: 13022.

² - صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، 1804/4، ح: 52.

³ - صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب من رأى أن صاحب الحوض والقرية أحق بمائه، 112/3، ح: 2366.

مراعاة لفسية الطفل، وميوله ورغبته... فهذه المداعبة والملاطفة للطفل والتصابي معه ومحركاته ومجاراته؛ كان يفيض صلى الله عليه وسلم حنانا وعطفا وعاطفة صادقة يغذي بها نفوس الأطفال، بعيدا عن الجفاء والقسوة، والشدة والغلظة¹.

إن الإسراف في توبيخ الطفل أثناء تربيته وتأديبه يزيد من فعل القبيح، فكان المري الحكيم "بهذا المسلك يغرس في نفس الطفل روح الحياء، وينمي فيه فضيلة الانتباه والملاحظة، والارتباط بالخلق العظيم".² وفي هذا؛ نستحضر نصيحة الإمام الغزالي الموجهة إلى المربين، إذ يقول: "ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يُهون عليه سماع الملامة، وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه؛ فلا يوبخه إلا أحيانا، والأم تخوفه بالأب، وتزجره عن القبائح... بل يُعوّد على التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم"³.

إن ما ذكره الإمام الغزالي رحمه الله يعد سبقا تاريخيا أنجزه علم النفس الإسلامي في تربية الطفل، في حين يتبجح الكثيرون بمثل هذه الأفكار وأنها نتاج للمناهج التربوية الغربية في تربية الطفل، ولكنهم ما قرؤوا الغزالي وأمثاله، وما شموا رائحة السيرة النبوية العطرة التي امتاح الغزالي من رياضها النضرة⁴.

لا غرابة أن نجد في خلف رسول الله وسلفنا -من صغار الصحابة- نماذج لرجال صدقوا ما عاهدوا الله ورسوله عليه، فهم ثمرات مدرسة محمد التربوية؛ مدرسة لم تقتصر على تلقين النشء

¹ - أطفال المسلمين.. كيف رباهم النبي الأمين، جمال عبد الرحمن، (دار طبية الخضراء- مكة المكرمة، ط7 - 2004م)، ص: 55

² - المرجع نفسه، ص: 69.

³ - إحياء علوم الدين، الغزالي، 73/3.

⁴ - مقال "مراعاة الحاجات النفسية للطفل في ضوء السنة النبوية مدخل لصناعة التميز وتنمية المهارات"، عزيز البطيوي، (مرجع سابق)، 132/2.

العلوم والمعارف، ولم تغفل إكسابهم مهارات صناعة الذات؛ وذلك باحترام مشاعرهم وتقديرها، وتنمية ذكاء وجدان الطفل، ومخاطبته بعقلانية وحكمة ورحمة، دونما انتقاص منه ولا احتقار ولا تقليل منه بسبب عمره وصغر سنه.

وهذا؛ ليس مع الطفل فحسب، بل اتسم منهجه صلى الله عليه وسلم أيضا بالحكمة في التعامل مع الأنثى، وبالذكاء في مخاطبته لوجدان الأنثى وتقدير مشاعرها؛ فاستحق بذلك خير الناس لأهله صلى الله عليه وسلم.

العنصر الثاني: الذكاء الوجداني وتقدير مشاعر الأنثى في السيرة النبوية

أولت السيرة المطهرة اهتماما بالغا بالأنثى؛ وذلك في كل أطوار حياتها، فدعت إلى الرفق بهذا المكون الهام داخل الأسرة والمجتمع، وأسبلت عليه فائض الاحترام للمشاعر، باعتبار طبيعة شخصية المرأة واختلافها عن شخصية الرجل.

من سمات هذا الاهتمام بالمرأة وبمراعاة مشاعرها دعوته صلى الله عليه وسلم إلى الرفق بها، والإحسان إليها، والتلطف معها، فقال: "إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وألطفهم بأهله"¹، وقال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»².

ويتجلى هذا اللطف بالأخص في الجانب الوجداني المتعلق بالمشاعر والأحاسيس. وما النهج النبوي في تعامله مع المرأة داخل صفحات السيرة النبوية إلا دليل قوي على ذكائه الوجداني صلى الله عليه وسلم في التعامل مع الأنثى، والذي سبق به النظريات الحديثة في هذا المجال.

أولا: موقفه صلى الله عليه وسلم من الغيرة

¹ - مسند أحمد، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنه، 213/41، ح: 24677.

² - سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حسن معاشره النساء، 636/1، ح: 1977.

تُعرّف غيرة المرأة بكونها "ضيق صدر المرأة في ما يقع بقلبها من زوجها في أمر الزوجية، خاصة من ميله إلى غيرها"¹، فهي ذلك التعلّق الشديد بشخص الحبيب، تعلقاً يخالطه قلق دائم خشية مَيْله لشخصٍ آخر قد يشاركه في حُبّه له.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقدر ويتفهم غيرة أزواجه، فكان يقابل غيرتهن فيما بينهن بالكلمة العاطفية الحلوة، وبالتصرف الحكيم إزاء صدورها عنهن.

ومن أمثلة ذلك في سيرته صلى الله عليه وسلم ما أخرجه الإمام البخاري في كتاب النكاح، ضمن "باب الغيرة" أن أم سلمة أتت بطعام في قصعة لها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فجاءت عائشة مؤترزة بكساء ومعها فهر، ففلقت به القصعة، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بين فلقتي القصعة ويقول: «كلوا.. غارت أمكم» مرتين، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قصعة عائشة فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى قصعة أم سلمة لعائشة².

من خلال هذه القصة يتجلى ذكاؤه الوجداني عليه أفضل الصلاة والسلام؛ وذلك بالتحكم في مشاعره إزاء تصرف عائشة رضي الله عنها أولاً، ثم مراعاة إحساسها بالغيرة الذي فطرت عليها المرأة ثانياً. ذلك أن الغيرة بين الضرائر تعتبر أمراً فطرياً مألوفاً قل ما تنزهت عنه امرأة، لذلك تَفَهَّم عليه السلام تصرف عائشة، فكان تصرفه ذاك احتراماً لمشاعر المرأة ومراعاة لأحاسيس وجدانها.

ولعل ما يزيدنا يقيناً بمدى حدة ذكائه الوجداني عليه السلام، ردة فعله أمام الواقعة؛ وذلك باختيار "طبيعة الكلمة العاطفية التي تدخل إلى القلوب برفق وأناة وهدوء [غارت أمكم]، فتلطف من حرارة الصدر وتعمق المشاعر بلطف وتنعش الوجدان في تودة، فهي ترطيب الفكر الثائر وحل لعقد التقاليد الصعبة، وإنقاذ من حيرة لا شعورية موهومة، وطمأنينة تسكن ثورة الجموح... وإنها

¹ - تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، محمد الأزدي، (تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة - القاهرة، ط1 - 1995م)، ص: 528-529. بتصرف

² - سبق تخرجه.

(الكلمة العاطفية) مع الطبائع الخيرة أفضل من الزجر والتأنيب والتوبيخ والتجريح¹.

فقد راعى عليه السلام من خلال القصة مشاعر كلا من أم المؤمنين عائشة واختياره للكلمة العاطفية دون غيرها، وكذا مشاعر أم المؤمنين أم سلمة، وذلك بتعويضه إياها بقصة سليمة بدل المكسورة، دون جرح للمشاعر أو تعكير للخاطر.

وقد تكرر مثل هذا الموقف في غير ما موضع، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خديجة فأطنب في الثناء عليها، فأدركني ما يدرك النساء من الغيرة، فقلت: لقد أعقبك الله يا رسول الله من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدين، قال: فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيراً لم أره تغير عند شيء قط إلا عند نزول الوحي...² وفي رواية قال: " ما أبدلني الله خيراً منها، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، وآستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء"³.

والملاحظ أنه عليه السلام في هذه القصة وإن كان يراعي غيرة النساء ويتفهمها، إلا أنه لم يكن يقبل عليه السلام أن تتعدى هذه الغيرة الحد إلى الشتم والقبح في الآخر، ولذلك غضب عليه السلام من قول عائشة في خديجة رضي الله عنهما، ولم يردّ بما قد يجرح به عائشة الصديقة، إلا أن بين فضائل خديجة ومميزاتها التي لم تشاركها فيها أية زوجة من زوجاته صلى الله عليه وسلم.

لقد كان هذا حال نبي الله مع الأنثى بشكل عام؛ زوجة كانت أو بنتاً. روى الإمام مسلم في باب فضائل فاطمة عليها الصلاة والسلام أن علياً بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل، وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي صلى الله عليه

¹ - السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، أحمد غلوش، ص: 346.

² - البداية والنهاية، ابن كثير، (تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، 1976م)،

.135/2

³ - المصدر نفسه، 137/2.

وسلم، فقالت له: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكحا ابنة أبي جهل، قال المسور: فقام النبي صلى الله عليه وسلم، فسمعتة حين تشهد ثم قال: «أما بعد، فيني أنكحت أبا العاص بن الربيع، فحدثني، فصدقني وإن فاطمة بنت محمد مضغة مني، وإنما أكره أن يفتنوها، وإنها، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا» قال: فترك علي الخطبة¹. فقد أبان عليه السلام عن مساندته لمشاعر ابنته الطاهرة عليها السلام، وراعى إحساسها بالغيرة، فألغى خطبة علي رضي الله عنه.

وكما هو الشأن بالنسبة لغيرة النساء وجب التذكير أن هذه الأخيرة تصيب الرجال -أيضا- كما النساء، وأنها فطرة مركوزة في النفس البشرية تجاه من تحب، فكان صلى الله عليه وسلم يتعامل مع حالاتها بذكاء وجداني خارق قل نظيره، ونذكر هنا قصة الحبيب صلى الله عليه وسلم حين قال: " بينما أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا؟ قالوا: هذا لعمر، فذكرت غيرتك، فوليت مدبرا " فبكى عمر وهو في المجلس ثم قال: أوعليك يا رسول الله أعمار؟"².

ثانيا: وجدانه صلى الله عليه وسلم وحادثة الإفك

لقد اختلطت مشاعر النبي صلى الله عليه وسلم في حادثة الإفك؛ فتضاربت ألوان الأحاسيس داخل وجدانه عليه السلام؛ فكان حبه لزوجته غالبا على التهمة الملققة لها، وكان سلاحه في ذلك حسن الظن بزوجه، والتحكم في مشاعره؛ إذ كانت حالته -أكثر من شهر- في قلق دائم، والناس يمجون ويخوضون في ذلك، وهو لا يزيد على أن يشاور أصحابه، فيقولوا: «ما علمنا عليها من سوء»، ولم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «يا عائشة أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة

¹ - سبق تحريجه.

² - صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، 36/7، ح: 5227.

فسيرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله»¹.

إن ذكاء وجدان خير الخلق ليتجلى بصورة واضحة من خلال كفته للمشاعر والأحاسيس السلبية، وكذا في رزاقته وعدم تسرعه في الحكم على الواقعة؛ فلم يتهم زوجته الطاهرة بشيء يجرح مشاعرها، وإنما كان مترثا صلى الله عليه وسلم، ولم يطلق العنان لأية مشاعر سلبية لتسيطر على حالته، حتى نزل الفرج من لدن البارئ جل وعلا من فوق سبع سماوات.

إن المتأمل في أغوار الحادثة ومعاينة مشاعر نبي الله إزاءها يقف عند شخصيته الإنسانية الطبيعية، وأن وجدانه يعتريه ما يعترى وجدان أي إنسان، من صفات الحزن والغم والألم النفسي الذي ناله حينئذ، "فلو لم تأت حادثة الإفك هذه لتهز شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، هذا قويا يفصل إنسانيته العادية عن معنى النبوة الصافية فيه، ثم لتجلى معنى النبوة والوحي تجلية تامة أمام الأنظار والأفكار، حتى لا يبقى أي مجال التباس بينه وبين أي معنى من المعاني النفسية أو الشعورية الأخرى"².

هذا؛ والسيرة النبوية حافلة بإشارات أخرى تنم عن حرصه صلى الله عليه وسلم على الرفق بالمرأة، وممازحتها، واعتبار سلامة وجدانها من الأولويات التي جاءت بها الرسالة المحمدية. ويتجلى ذلك في كثير من المواطن التي خلدها سيرته الشريفة.

روي أن عجوزا جاءت النبي صلى الله عليه وسلم تطلب الله أن يدخلها الجنة، فقال لها عليه السلام ممازحا: «إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فولت تبكي، فقال: "أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله سبحانه وتعالى يقول: "إنا أنشأناهن إنشأءً، فجعلناهن أبكاراً"³.

¹ - فقه السيرة النبوية، سعيد رمضان البوطي، (دار الفكر - دمشق، ط25 - 1426هـ)، ص: 211.

² - المرجع نفسه، ص: 210.

³ - شرح السنة للبعوي، 13/183. وأنظر: المعجم الأوسط للطبراني، 5/357. وصفة الجنة لأبي نعيم، 2/223.

إن هذا الموقف يعبر عن تقديره لمشاعر المرأة، وعن التفاعل الإيجابي مع ردة فعلها (بكائها)، وممازحتها، وتحكي لنا أم المؤمنين بعضاً من مزاحه معها قائلة: "خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا خفيفة اللحم فنزلنا منزلاً فقال لأصحابه: «تقدموا» ثم قال لي: «تعالى حتى أسابقك فسابقني فسبقته» ثم خرجت معه في سفر آخر، وقد حملت اللحم فنزلنا منزلاً فقال لأصحابه: «تقدموا» ثم قال لي: تعالى أسابقك " فسابقني فسبقني فضرب بيده كتفي وقال: «هذه بتلك»¹.

وفي الختام؛ فإننا لو قارنا بين ما عرّف به علماء التنمية الذاتية الذكاء الوجداني والصفات التي جعلوها علامة على اتصاف الفرد بذكاء وجداني مثالي، وبين ما مرّ معنا من ملامح تجلّي تطبيقات هذه المهارة في السيرة النبوية نجد أن كل النظريات الحديثة المتوصل إليها كان لمربي الأمة -صلى الله عليه وسلم- السبق فيها. يقول يحيى علي زهران: "ذوو الذكاء الوجداني العالي يتعاطفون مع الآخرين، ويتحكمون في مشاعرهم وانفعالاتهم، ويحترمون الآخرين ويقدرونهم، فضلاً على أنهم يواجهون المواقف الصعبة بثقة وثبات، وبالتالي فهم قادرون على حل المشكلات وتكوين علاقات اجتماعية ناجحة، فيحققون لنفسهم وللآخرين السعادة"².

وهذه الصفات والميزات كلها تم التأكيد على اتصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الميامين بها، وذلك من خلال اللوحات المعروضة برحاب سيرته العطرة آنفاً.

¹ - السنن الكبرى للنسائي، كتاب عشرة النساء، مسابقة الرجل زوجته، 178/8، ح: 8894.

² - مهارات الحياة وبناء مجتمع المعرفة، يحيى علي زهران، (المكتبة العصرية للنشر والتوزيع - القاهرة، ط1 - 2012م)، ص:

الفرع الثاني: مهارات إدارة الوقت

وهي المهارات والخطوات التي تعين الإنسان على إدارة وقته وترشيد استعماله، وتختلف هذه المهارات عند المرين وتتعدد، وقد اخترنا من أهمها: ترشيد وقت الفراغ، التخطيط، الجدولة الزمنية، محاربة التسويف، حسن التعامل مع الهاتف، ترشيد وقت النوم...

وإذا أردنا أن نستفيد من هذه المهارات فلنوجه إلى أنفسنا بعض الأسئلة:

هل نُحَرِّك مهاراتنا في إدارة الوقت ونطوعها لخدمة مجريات حياتنا؟ وما السبيل الصحيح

لاستخدام هذه المهارات قصد ترشيد تعاملنا مع الوقت؟

وللإجابة على هذه الأسئلة، سأورد تجليات هذه المهارات من خلال نصوص السيرة المطهرة،

ومن خلال تجارب وحياة الناجحين والمميزين الذين خلدهم التاريخ، لنقف عند مواطن الخلل في تدبير هذا الكنز الغالي والمحدود.

العنصر الأول: ترشيد وقت الفراغ

يعتبر الفراغ من أهم النعم التي يغبن فيها الكثير من الناس، ولأهميته الكبيرة حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على اغتنامه وعدم الغبن فيه، فقال: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ"¹. ومعلوم أن النعم الربانية الممنوحة يسأل الإنسان عن شكرها يوم القيامة، ويطلب بها، كما قال تعالى: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)².

وجاء في السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل وهو يعظه: "اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك،

¹ - صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، 8/88. ح: 6412.

² - سورة النكاثر: الآية 8

وحياتك قبل موتك"¹. فإذا ما اغتنم الإنسان وقت فراغه قبل شغله ندم على تضييعه إياها، لأنها لا تعود ولا تتكرر، وأن المسلم وهو في الجنة يتحسر على ساعة في فراغه؛ ضيعها في حياته ولم يذكر الله فيها، فكيف بمن ضيع أياما وشهورا وسنين!؛ قال صلى الله عليه وسلم: "«ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم ولم يذكروا الله فيها»"².

وللإمام ابن باديس كلام -عن عمر الإنسان- يوزن بالوقت، يقول رحمه الله: "عُمر الإنسان أنفس كنز يملكه، ولحظاته محسوبة عليه، وكل لحظة ثمرة معمورة بعمل مفيد فقد أخذ حظه منها وربحها، وكل لحظة تمر فارغة فقد غبن حظه منها وخسرها. وكذلك بدنه فهو أنفس آلة عنده، وإنما فائدة الآلة بالعمل، فإذا كانت الآلة، في عمل فهو ربح وزيادة، وإذا كانت في بطالة فهو في نقص وخسران. فالرشيد الرشيد هو من أحسن استعمال ذلك الكنز الثمين، وتلك الآلة العظيمة، فعمر وقته بالأعمال، وداوم على استعمال ذاته فيها فربحهما. والسفيه السفیه من أساء التصرف فيهما فأحلى وقته من العمل، وعطل ذاته عن الشغل فخسرهما"³.

إننا بحاجة إلى ثقافة ترشيد وقت الفراغ لدينا، وهذه الحاجة لا يستشعرها إلا من وجد أن ساعات اليوم واللييلة الممنوحة له لا تكفيه لأداء مهامه كلها، ولا تسعفه لإنجاز أهدافه وتحقيق غاياته، ومادام الفرد يجد وقت فراغ كبير في يومه فإنه بذلك يشق طريقه نحو الغبن الذي حذر منه المبعوث عليه السلام.

لقد أمر صلى الله عليه وسلم باغتنام الوقت وملئه بالخيرات والفضائل، وعدم التقليل من قدر اللحظات الحرجة، والأوقات الضيقة التي قد لا يظهر جدوى من استغلالها، فعن أنس بن مالك

¹ - شرح السنة للبيهقي، 14/224، ح: 4021.

² - المعجم الكبير للطبراني، باب الميم، جبير بن نفير، عن معاذ بن جبل، 20/93، ح: 182.

³ - مجالس التذكير من حديث البشير النذير، عبد الحميد بن باديس، (مطبوعات وزارة الشؤون الدينية - الجزائر، ط 1 - 1983م)، ص: 136.

رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها"¹، فأمر عليه السلام باستغلال كل لحظة، وعدم استصغار دقيقة أو احتقار ثانية، وهل هناك أصعب وأضيق وقت من وقت قيام الساعة؟ وعلى الرغم من ذلك أمر عليه الصلاة والسلام باغتنامه في الاستمرار والتقدم في فعل الخير والصلاح.

العنصر الثاني: التخطيط والجدولة الزمنية

عادة ما نجد لدى أولئك المميزين في مختلف مجالات الحياة تخطيط يومي وأسبوعي، وجدولة زمنية لتوزيع وقتهم حسب المهام والأنشطة التي يزاولونها بانتظام، ودائماً ما نجد لدى أولئك الذين تذهب أوقاتهم سدى انعداماً في التخطيط وفي تدبير الوقت، والحق؛ أن أساس تدبير الوقت متوقف على مدى التخطيط المسبق للفرد، وتقسيم كعكة الوقت حسب الضروريات والأولويات، وتخصيص أوقات للحاجيات والكماليات، والموازنة بين حقوق الخالق وحقوق النفس وحقوق الغير.

ونستحضر هنا واقعة في سيرة النبي الكريم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم؛ واقعة تبين أمره للصحابة بالتوزيع الزمني للساعات، وعدم تفرغ وقت الإنسان كله في جهة واحدة.

يقول حنظلة رضي الله عنه: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوعظنا، فذكر النار، قال: ثم جئت إلى البيت فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة، قال: فخرجت فلقيت أبا بكر فذكرت ذلك له، فقال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر، فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله نافق حنظلة فقال: «مه» فحدثته بالحديث، فقال أبو بكر: وأنا قد فعلت مثل ما فعل، فقال: «يا حنظلة ساعة وساعة، ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر، لصافحتكم الملائكة، حتى تسلم عليكم في الطرق»².

¹ - الأدب المفرد، البخاري، باب اصطناع المال، ص: 242، ح: 479.

² - سبق تخريجه.

فقوله عليه السلام [ساعة وساعة] يفيد تخصيص: "ساعة للرب عز وجل، وساعة مع الأهل والأولاد، وساعة للنفس حتى يعطي الإنسان لنفسه راحتها... وساعة للزوار والضيوف، حتى يقوم الإنسان بجميع الحقوق التي عليه على وجه الراحة، ويتعبد لله عز وجل براحة، لأن الإنسان إذا أثقل على نفسه وشدد عليها ملّ وتعب، وأضاع حقوقاً كثيرة".¹

لقد بين المربي الحكيم في كلمتين جامعتين أهمية تدبير الوقت، وعدم الاقتصار في استغلال الأوقات على شيء واحد وتغليبه على باقي المتطلبات، بل وجب تخصيص وقت خاص لكل عمل ومهمة، ولا يمكن تحصيل هذا إلا بالجدولة المسبقة لأنشطة اليوم، وتحديد أوقات العمل والراحة كما حدد تبارك وتعالى أوقات الصلوات بدقة وعين مواعيدها.

العنصر الثالث: الزيارات غير المخطط لها

تعتبر الزيارات العشوائية (غير المحددة سلفاً) من أكثر الأشياء التي تضيع وقت الفرد، وتحيل بينه وبين قضاء مهامه وأداء أعماله. واحتراما لخصوصية الفرد ومراعاة أوقاته الخاصة وضع الخالق عز وجل قواعد الزيارة وبين آدابها، فقال في محكم تنزيله: (يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن فِيلَ لَكُمْ إِرْجِعُوا بِأَرْجِعُوا هُوَ أَزْجَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾).²

فقوله: "وَإِن فِيلَ لَكُمْ إِرْجِعُوا بِأَرْجِعُوا" احترام تام لخصوصية الإنسان، وعدم التسلط والتطفل على وقت الآخرين بغير إذن ولا موعد مسبق، يقول سيد قطب: "ارجعوا دون أن تجدوا في

¹ - شرح رياض لصالحين، محمد بن صالح العثيمين، 236/2.

² - سورة النور: الآيتان 27-28.

أنفسكم غضاضة، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم، أو النفرة منكم، فللناس أسرارهم وأعدائهم، ويجب أن يترك لهم وحدهم تقدير ظروفهم وملابساتهم في كل حين".¹

إن قوله عز وجل: "بَارِئُكُمْ" هو أمر يفيد الوجوب، ولم يقتصر النهج النبوي في الاستئذان

على الرجوع في حالة عدم السماح بالدخول، بل تعدى ذلك إلى الرجوع بعد الاستئذان ثلاثاً في حالة لم يصدر رد أو استجابة.

وورد في هذا حديث أبي موسى الأشعري مع عمر بن الخطاب في «صحيح البخاري» وهو ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: "كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى الأشعري كأنه مذعور قال: استأذنت علي عمر ثلاثاً فلم يأذن لي فرجعت، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»".²

لقد أحسن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الإتيان لحبيبهم، وأجادوا الامتثال لأوامره والانتهاز عن نواهيها؛ ويجسد هذا الامتثال في استئذانهم ثلاثاً وانصرافهم بعدها، مصداقاً لقول حبيبهم صلى الله عليه وسلم. وما أحوج المجتمع المسلم اليوم إلى هذه التوجيهات المنظمة لعلاقة الأفراد فيما يخدم مصالحهم، ويسهم في توطيد العلاقات الاجتماعية وتمتينها.

العنصر الرابع: حسن التعامل مع وسائل التكنولوجيا

إن حديثنا عن الوسائل التكنولوجية الحديثة لا نروم من ورائه إبداء الدور الإيجابي الذي تلعبه في حياة الفرد، أو استجلاء أهميتها في تسهيل العيش داخل الحياة، فهذا ثابت ومعاين، ولا يمكننا نفيه أو التقليل من أهميتها، إنما نريد هنا الحديث عن وسائل التواصل الاجتماعي (الهاتف، الأنترنت...) باعتبارها من أكثر الوسائل المضیعة للوقت؛ وذلك إذا لم يتم التعامل معها بطريقة جيدة، وإذا لم

¹ - في ظلال القرآن، سيد قطب، 4/2508.

² - صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثاً، 8/54، جزء من الحديث رقم: 6245.

يكن استعمالها داخل عملية تديرية مسبقة للوقت.

وكما تحدثنا آنفا عن الزيارات غير المخطط لها في الواقع الاجتماعي، فيصدق الحديث عنها أيضا في الواقع الافتراضي؛ إذ لا فرق بين الواقعيين إلا باجتماع الطرفين عينا في نفس المكان.

ومن خلال الحديث السابق "إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع" يمكننا تعميمه على الاتصالات الهاتفية اليوم؛ فكما يجب مراعاة وقت الآخرين واحترامه بعدم الإيذان للطارق بالدخول بعد الاستئذان ثلاثا، يجب أيضا احترام ومراعاة وقت المتصل إليه (عبر الهاتف) أو المرسل إليه (عبر وسائل التواصل الاجتماعي) بعد القيام بأكثر من ثلاثة اتصالات أو ثلاث رسائل، دون تلقي رد أو حصول استجابة.

لقد قدّم خبراء إدارة الوقت عددا من الاستراتيجيات التي تعد بمثابة أساليب فعالة يمكن للأفراد استخدامها في ممارساتهم لتنمية مهاراتهم لإدارة الوقت المتاح لديهم وصولا لتحقيق كل من الكفاءة والفعالية في أعمال هذه الإدارة، ومن بين هذه الاستراتيجيات إتقان الأفراد لمهارات استخدام الهاتف ووسائل التواصل الاجتماعي¹.

إن المتأمل في قنوات تصريف الوقت في وقتنا الحاضر يجد أن وسائل التواصل والاتصال الحديثة نالت حصة الأسد في ضياع الوقت وتبذيره، فبسبب سوء تدير الفرد في التعامل مع هذه الوسائل قد يفوت عليه احترام الجدولة الزمنية للمهام والأولويات المهمة، وكذا قد تحتكر معظم أوقاته على حسابها، بل قد تؤثر سلبا على إدارة وقت النوم لدى الفرد.

العنصر الخامس: محاربة التسويف

إن المتأمل في أحداث السيرة النبوية وبالضبط في قصة الخلفين عن غزوة تبوك يقف عند خطر

¹ - مهارات إدارة الوقت، أحمد محمد غنيم، ص: 43. بتصرف

التسويق والتأجيل، وبيان أهمية استغلال الوقت وحسن تديره في تحقيق الأهداف المرجوة، واتقاء الفشل والابتلاءات التي قد تضر بحياة الإنسان وتجر عليه أذيال الندم وفوات الأوان.

فهذا كعب بن مالك؛ الذي لم يكن التخلف عن الغزوات من خلقه وعادته، ابتلي وعوقب بابتلاء تمنى بعده لو أنه لم يشهده في حياته، وكل ذلك بسبب معضلة التسويق وعدم الجد والإصرار في الأمر. يقول كعب: "فطفقت أغدو لكي أجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، ولم يزل يتمادي بي، حتى اشتدّ الجدّ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أجهز بعده بيوم أو يومين، ثمّ ألحقهم، فغدوت - بعد أن فصلوا - لأجهز فرجعت ولم أقض شيئاً، ثمّ غدوت فرجعت فلم أقض شيئاً. فلم يزل بي حتىّ أسرعوا، وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك"¹.

فلم يكن لكعب وأصحابه عذر مانع في الالتحاق بركب المشاركين في غزوة تبوك غير التسويق، فنال غضب القائد الحكيم صلى الله عليه وسلم وأنزل فيهم البارئ جل وعلا آيات محكمات، ستبقى شاهدة على مر العصور وتوالي الأزمان.

يقول خباب الحمد: حذار من التسويق في العمل، أو التكاثر في أداء ما أوجبه على نفسك، بل ضع وقتاً للانتهاء من مهمتك، ودوّن واكتب ما تريد القيام به حتى لا يفلت منك، وشجع نفسك على القيام بهذه المهمة بل كافئها إن انتهيت منها بشيء محب لنفسك، وإياك والتردد فإنه سم قاتل لا يصنع إلا الوسوس، وخذ على نفسك عهداً ووعداً بأنك ستكون منضبطاً بما ستقوم به من عمل مفيد تستغل به وقتك"².

وقد أوصى ثمامة بن بجاد السلمي قومه قائلاً: " أي قوم، أنذرتكم: سوف أعمل، سوف

¹ - السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، ص: 492.

² - مقال "إضاعة الوقت بين الغفلة والتهاون"، خباب الحمد، 3 ربيع الثاني 1430هـ، موقع المسلم: (www.almoslim.net/node/109330).

أصلي، سوف أصوم¹، مستشعرا خطورة التسويف؛ وأنه يحول بين الإنسان وبين تحقيق مراده، ويمنيه بطول الأمل حتى يفقد الفرصة والأجل لتحقيق المبتغى.

العنصر السادس: ترشيد وقت النوم

بالنظر في حياة معظم الناجحين والمميزين نجد أن عدد الساعات التي يحتاجونها في نومهم أقل مما ينامه عامة الناس. وعلى الرغم من الدراسات الطبية القائلة بأن الإنسان يحتاج في نومه إلى سبع ساعات على الأقل، فإن البعض يجد اكتفائه في أقل من ذلك، ويرى أن ساعات النوم الكثيرة ما هي إلا مضيعة للوقت.

أجريت دراسة حول كيف يقضي الألمان وقتهم، فتبين أن النسبة التي يقضونها في النوم تقدر بثلاث يومهم (ثمان ساعات)²، وبهذا؛ نؤكد على النظرية القائلة بأننا نضيع ثلث حياتنا في النوم، فرئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارجريت تاتشر مثلا، كانت تكتفي بأربع ساعات فقط في النوم، والفنان سلفادور دالي الذي كان يجد اكتفائه في أقل قدر ممكن من ساعات النوم. وحسب ما جاء في كتاب "Sleepfaring" لـ "Jim Horne"، فإن 80% منا يديرون وقت نومهم ما بين 6 إلى 9 ساعات في الليلة، والـ 20% الآخريين ينامون أكثر أو أقل من هذا.³

وبالعودة إلى السيرة النبوية الخالدة سنجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا ينامون إلا سويقات قليلة في اليوم، وقد وصفهم الله عز وجل في كتابه العزيز بالمتقين، ذلك أنهم:

¹ - الزهد والرفائق، ابن المبارك، (تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية - بيروت، د.ت)، 5/1.

² - مهارات الحياة وبناء مجتمع المعرفة، يحيى زهران، ص: 58.

³ - Can you train yourself to get by on less sleep?, Claudia Hammond; (21 March 2013).

BBC Future. Web Site: <http://www.bbc.com/future/story/20130320-can-you-get-by-on-less-sleep>.

(كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) ¹.

فكان عليه الصلاة والسلام ينام أول الليل ويستيقظ في النصف الثاني، ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه. وروى عنه أنه "كان يصلي، ثم ينام قدر ما صلى، ثم يصلي بقدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح" ²، وفي رواية البخاري أنه صلى الله عليه وسلم "كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه" ³.

وقد كشفت الدراسات عن نجاعة وفعالية إدارة الوقت عنده صلى الله عليه وسلم، وذلك من خلال الجدولة النبوية لترشيد وقت النوم ومدى انعكاس ذلك على صحته. يقول جلال الدين السيوطي: "كان -عليه الصلاة والسلام- ينام أول الليل بعد صلاة العشاء إلى تمام نصفه الأول، لأنه كره النوم قبلها، ويحبي آخره؛ لأن ذلك أعدل النوم وأنفعه للبدن والأعضاء والقوة؛ فإنه ينام أوله ليعطي القوة حظها من الراحة، ويستيقظ آخره ليعطيها حظها من الرياضة والعبادة، وذلك غاية صلاح القلب والبدن والدين" ⁴.

إن منهج المري الحكيم صلوات ربي وسلامه عليه يتسم دائما بالمصلحة، ويعود على منتهجه بالنفع في الدنيا قبل الآخرة. وقد بين عليه السلام للناس آداب النوم وقواعده التي تمكن الفرد من الاقتصاد على قدر يسير من ساعات النوم، ويرتاح جسمه وكيانه بها؛ فكان "ينام على جانبه الأيمن، ذاكرا الله حتى تغلبه عيناه، غير ممتلئ البدن من الطعام والشراب، لأنه -صلى الله عليه وسلم- كان يحب التيامن في شأنه كله، وليرشد أمته، لأن في الاضطجاع على الشق الأيمن سراً،

¹ - سورة الذاريات: الآية 17.

² - المستدرك على الصحيحين، الحاكم، كتاب الوتر، من كتاب صلاة التطوع، 1/ 453، ح: 1165.

³ - أنظر: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود: كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوماً ويفطر يوماً، 4/ 161، ح: 3420.

⁴ - الشمائل الشريفة، جلال الدين السيوطي، (حسن بن عبيد باحبشي، دار طائر العلم للنشر والتوزيع - د.ت). ص:

وهو أن القلب معلق في الجانب الأيسر، فإذا نام الرجل على الجانب الأيسر استثقل نوماً، لأنه يكون في دعة واستراحة فيثقل نومه، فإذا نام على الشق الأيمن فإنه يقلق ولا يستغرق في النوم لقلق القلب، وطلبه مستقره وميله إليه. قالوا: وكثرة النوم على الجانب الأيسر - وإن كان أهناً - مضر بالقلب بسبب ميل الأعضاء إليه، فتتصب المواد فيه.¹

فمن خلال هديه الشريف في قواعد النوم وآدابه، نستخلص أن النوم على الجانب الأيسر يزيد من الحاجة إلى النوم أكثر، ويثقل جسم الإنسان؛ مما يزيد خمولا وكسلا، وكذا بيان تأثير الطعام والشراب قبل النوم، وأنه غير صحي، ومن شأنه تعويد الجسم على الخمول وقلة النشاط والميل نحن الراحة أكثر.

لقد اغتنم الصحابة رضي الله عنهم أوقاتهم وعمرها بما يعود عليهم بالنعيم، فاقصدوا في ساعات نومهم، واتبعوا النهج النبوي في النوم وفي تحديد أوقاته النافعة وتجنب الضارة منها.

مر عبد الله بن العباس بالفضل ابنه وهو نائم نومة الضحى، فركله برجله وقال له: قم؛ إنك لنائم الساعة التي يقسم الله فيها الرزق لعباده، أما سمعت ما قالت العرب فيها؟ قال: وما قالت العرب فيها يا أبت؟ قال: زعمت أنها مُكْسِلَةٌ مُهْرَمَةٌ منسئة للحاجة، ثم قال: يا بني! نوم النهار على ثلاثة؛ نَوْمٌ حُمُقٍ؛ وهي نومة الضحى، ونومة الحُلُقِ؛ وهي التي روي: قيلوا فإن الشياطين لا تقيل، ونومة الحُرْقِ؛ وهي نومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون.²

إن التدبير الأمثل لوقت النوم في السيرة النبوية يتجلى من خلال اقتصار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على سويعات بالليل، وتعريضها بفترة القيلولة زوالاً. وبين شُرَّاح السيرة الحكمة من تقليص ساعات النوم والاكتفاء بالقليل منها؛ يقول القاضي عياض: "كثرة النوم دليل

¹ - المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أبو العباس القسطلاني، (المكتبة التوفيقية - القاهرة، د.ت)، 227/2-228. بتصرف

² - المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر الدينوري، (تحقيق: مشهور آل سلمان، دار ابن حزم - بيروت، 1419هـ). 221/5.

على الفسولة [كسل النفس] والضعف، وعدم الذكاء والفتنة، وتضييع العمر في غير نفع، وقساوة القلب، وغفلته وموته.¹

إن مفتاح النجاح وصناعة التميز متوقف على المعاملة التدبيرية لوقت الإنسان والجدولة الزمنية لساعات يومه، وذلك بالتخطيط المسبق والمنظم لتصريف ساعات اليوم وفق استراتيجية متبعة وفعالة. وقد تبين ما لاستغلال وقت الفراغ ومحاربة التسويف بالإقدام والإرادة القوية من انعكاس إيجابي على تحقيق الفرد لأهدافه وبلوغ مبتغاه.

وفي الختام؛ فإننا بعد هذه الجولة القصيرة نزيد اقتناعاً بأن السيرة النبوية عبارة عن مدرسة تربية ترسخ المبادئ الحياتية والكونية المعينة للفرد على نجاحه في الدنيا والآخرة، وأنها لم تغفل في ثنايا صفحاتها الإشارة إلى هذا المورد الغالي والنفيس في حياة الكائن الإنساني.

¹ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، عياض بن موسى اليحصبي السبتي، (دار الفيحاء - عمان، ط2-1407 هـ)، 185/1.

الفرع الثالث: مهارة التعلم الذاتي

العنصر الأول: الدعوة إلى التعلم الذاتي

لقد دعا المربي الأول -صلى الله عليه وسلم- أصحابه إلى التعلم المستمر، وترك العنان لقدرات المتعلم ومهاراته في مباشرة عملية التعلم الذاتي من تلقاء نفسه.

إن أول دعوة للتعلم الذاتي في السيرة النبوية تتجلى في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام بتعلم القرآن أولاً وتعليمه للناس؛ إذ كان هذا الأخير المسألة الأولى الجديرة بالتعلم - ولا تزال-، ثم أمره لهم بتعلم الفرائض وتعليمها للناس.

ولعل هذا ما يدل عليه قوله عليه السلام: «تعلموا القرآن وعلموه الناس، وتعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلموها الناس، فإني امرؤ مقبوض، وإن العلم سينقص حتى يختلف الاثنان في الفريضة، فلا يجدان من يفصل بينهما»¹.

وإذا كان مبدأ وأساس التعلم الذاتي قائماً على اكتشاف علم أو فن جديد، وامتلاك مهارات خاصة تعود بالنفع على المتعلم أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بتعلم القرآن وعلم الفرائض، وذلك لأهميتهما الكبيرة في حياة الإنسان أولاً، ثم إيمانه عليه الصلاة والسلام بأنه غير مخلد في الدنيا، وأنه ميت لا محالة، فحرص أن يبقى كل من القرآن وعلم الفرائض في صدور أصحابه بعد هلاكه.

لقد وصف صلى الله عليه وسلم فئة من الناس بالخيرية، وذلك لتعلمهم القرآن وتعليم غيرهم إياه.

¹ - السنن الكبرى، النسائي، كتاب الفرائض، الأمر بتعليم الفرائض، 6/ 97، ح: 6271.

قال عليه السلام: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»¹، وتأملنا لمعنى هذا الحديث نقف على "المعنى الذي استحق به من تعلم القرآن وعلمه الخيار على من سواه من أمثاله، فوجدنا أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الأمم، ووجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فضل القرن الذي بعث فيه منها على بقيتها، ثم فضل القرن الذي يليه على بقيتها بعده بقوله: " خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم... وكان في هذا الحديث إعلام رسول الله الناس ما يكونون به خيار القرن الذين هم منه، وإنيهم الذين تعلموا القرآن، وعلموه، ولما كانوا بذلك خيارا قد فضلوا عن سواهم من أهل القرن الذين هم منه".²

لقد شحذ عليه السلام هم صحابته الكرام بأمره لهم بتعلم القرآن، وكانت بداية التعلم الذاتي في عصر النبوة متمثلة في بذل الصحابة جهدهم في تعلم القرآن، فهو مصدر المعرفة ومنهج الحياة الجديدة التي أنارت ظلمات الجاهلية.

وكانت الغاية من حثه عليه السلام أصحابه بتعلم القرآن تقلدهم مسؤولية نشره وتعليمه للناس، وقد ساعدهم في عملية التعلم حضورهم لنزول الوحي، وتمكنهم التام من اللغة العربية التي نزل بها القرآن، فما كان منهم إلا أن أعمالوا ذكراهم لحفظه وضبطه، ثم انتقلوا فيما بعد إلى مرحلة التنغي به وتجويده.

ومن أمثلة دعوته عليه السلام إلى التعلم الذاتي -أيضا- ما رواه عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما قال عبد قط، إذا أصابه هم أو حزن: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهب همي، إلا أذهب الله همه

¹ - صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، 6/192، ح: 5027.

² - شرح مشكل الآثار، الطحاوي، (تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط1 - 1415 هـ)، 13/117.

وأبدله مكان حزنه فرحا». قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات؟، قال: «أجل، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»¹.

فالسيرة النبوية زاخرة بالدعوة إلى التعلم الذاتي والاستقلالي، ولم يقتصر الأمر على أمور الدين فحسب، بل كان الحث أيضا في سيرته على تعلم فنون الحياة المختلفة؛ من ذلك دعوته عليه السلام إلى تعلم الرماية، قال صلى الله عليه وسلم: "ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا"²، ومعلوم أن الرماية من الأمور التي تعلمها الصحابة من تلقاء أنفسهم، دون تدخل من معلم يعلمهم الرمي، فبرعوا فيها نظرا للحاجة إليها في الحروب والغزوات، حفظا للنفس والدين والوطن...

العنصر الثاني: الرغبة المستمرة في التعلم

إن أول خطوة تشحذ طاقة الإنسان للإقبال على التعلم الذاتي تبدأ من إيمان الفرد بضرورة تحصيل العلم والمعرفة، وتطوير الإرادة القوية للقيام بعملية التعلم وامتلاك المهارات، ثم عدم اعتقاد الإنسان بأنه بلغ من العلم ما يكفيه، بل الحاجة إلى التعلم تبقى ببقاء الإنسان على أديم الأرض. لقد ظنّ كلّيم الله موسى عليه السلام أنه أعلم من في الأرض، فنبهه الله أن هناك عبدا من عباده أتاه من العلم ما لم يؤت كلّيمه، فكانت رغبة موسى في مزيد التعلم ملحّة ومستمرة، فقال: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا)³.

وقد استنبط علماء التربية فوائد كثيرة من قصة موسى والخضر عليهما السلام⁴ تضيء معالم

¹ - صحيح ابن حبان، كتاب الأدعية، ذكر الأمر لمن أصابه حزن أن يسأل الله ذهابه عنه وإبداله إياه فرحا، 253/3، ح: 972.

² - صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، 38/4، جزء من الحديث: 2899.

³ - سورة الكهف: الآية 65.

⁴ - أنظر: أصول الدعوة وطرقها 2، (مناهج جامعة المدينة العالمية، مرحلة البكالوريوس، جامعة المدينة العالمية)، صص: 76-77. بتصرف.

الطريق للمتعلم قصد بلوغ مراده، نذكر من بينها:

- أن العلم بحر لا ساحل له، ومحيط لا نهاية له، قال تعالى: (وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا فَلَيْلًا)¹.

- على المتعلم ألا يغترّ بما عنده من علوم، وأن لا يزهو ويفتخر بما لديه من معارف.
- مشروعية الرحلة في التعلم، والعزم والإصرار على تحصيل العلم، وتكبد المشاق والصعاب في سبيله، وأن يظلّ الإنسان طول عمره يتزوّد بالثقافة؛ ويؤخذ هذا من قول موسى: (لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا)².

- على المتعلمين وطلاب العلوم والمعارف: أن يتحلّوا بالصبر والطاعة، قال تعالى عن موسى - عليه السلام - قوله: (فَالسَّاجِدِينَ إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)³.

لقد كان دأب الصحابة رضوان الله عليهم استمرار الرغبة في التعلم، ودوام العزم بامتلاك المعارف التي تنفعهم في دينهم ودنياهم.

فهذا أبو بكر الصديق يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: علّمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: " قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم"⁴.

وذلك؛ أبو الدرداء يرغب في تعلم كلمات يعيش بهن في حياته، يقول: " يا رسول الله، علّمني

¹ - سورة الإسراء: جزء من الآية 85.

² - سورة الكهف: جزء من الآية 59.

³ - سورة الكهف: الآية 68.

⁴ - صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، 1/166، ح: 834

كلمات أعيش بهن، ولا تكثر علي فأنسى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تغضب»¹.

وانظر إلى ابن مسعود يريد اكتشاف سر الضرع المنتفخ باللبن بعدما مسح عليه رسول الله بيديه، يقول رضي الله عنه: "يا رسول الله، علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي، وقال: "يرحمك الله، فإنك غليم معلم"².

وكلنا يعلم قصة المسيء في صلاته، بعدما صلى أمام النبي صلى الله عليه وسلم، فأمره عليه السلام بإعادة الصلاة في كل مرة، فقال رضي الله عنه سائلاً ومتعلماً: "والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا، عَلَّمَنِي"³.

وقد بَوَّب الخطيب البغدادي كتابه "تقييد العلم"، وذكر فيه قصة ابن دأب مع طلب العلم والاستمرارية في التعلم، قال الخطيب: حدثني إبراهيم بن المنذر، حدثني أيوب بن عباية، قال: قيل لابن دأب: يَا أَبَا الْوَلِيدِ إِنَّكَ رُبَّمَا حَمَلْتَ الْكِتَابَ وَأَنْتَ رَجُلٌ بَجْدُ فِي نَفْسِكَ ، قَالَ: «إِنَّ حَمَلَ الدَّفَاتِرِ مِنَ الْمُرُوءَةِ»⁴.

وروى أيضا: أخبرنا الحسن بن علي الجوهري، أخبرنا محمد بن عمران بن موسى، حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عيسى المكي ، حدثنا أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد قال: قال ابن عباس: العلم كثير ولن تعيه قلوبكم ولكن ابتغوا أحسنه ، ألم تسمع قوله تعالى: {الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب} ⁵.

1 - موطأ مالك، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في الغضب، 295/2. ح: 2591.

2 - مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، 82/6، ح: 3598.

3 - صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، 297/1، ح: 45.

4 - تقييد العلم، أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي، (إحياء السنة النبوية - بيروت، د.ت)، ص: 139.

5 - تقييد العلم، الخطيب البغدادي، ص: 141.

فكانت حياة صحابة رسول الله وتابعيهم كلها تعلم وتطلع لارتشاف عبق العلم والمعرفة، لا يرضون بالقليل، ولا يستغنون عما يجهلوه. وما إن يأخذوا شرارة المعرفة، وأمر نبيهم بالتعلم حتى يُشَمِّرُوا على سواعدهم، ويجتهدوا في التعلم وطلب العلم.

وقد سلكوا -رضي الله عنهم- منهجا أصيلا في التعلم الذاتي، سأحاول استنباطه من خلال ملامح من ملامح التعلم الذاتي في السيرة النبوية.

العنصر الثالث: منهج التعلم الذاتي في السيرة النبوية

إن المتعمق في السيرة النبوية يجد الكثير من صور التعلم الذاتي لدى الصحابة -رضوان الله عليهم-، ودائما ما ترتبط الحاجة إلى التعلم الذاتي بحضور فكرة ملحة في ذهن المتعلم، يسعى هذا الأخير من خلالها إلى بذل الجهد الذاتي الداخلي قصد تحصيلها والتمكن منها، وذلك باعتماده على وسائل مختلفة في ذلك.

ولعل أمر النبي صلى الله عليه وسلم زيدا بن ثابت رضي الله عنه بأن يتعلم اللغة السريانية أوضح مثال على هذا، وذلك ليتمكن صلى الله عليه وسلم من معرفة ما كتبه اليهود في كتبهم، (إذ كانت لغتهم المعتمدة حينئذ السريانية)، وليتمكن كذلك من إرسال كتب بلغتهم بواسطة رسله وسفرائه. قال صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت: "يا زيد أتحسن السريانية؟، إنه تأتيني كتب بها" فقال زيد: لا يا رسول الله. فقال له صلى الله عليه وسلم: "تعلمها". يقول زيد رضي الله عنه: فتعلمتها في سبعة عشر يوماً.¹

من خلال القصة يمكننا استنباط منهج التعلم الذاتي الذي انتهجه زيد بن ثابت رضي الله عنه، ويتجلى هذا المنهج في الخطوات الآتية:

¹ - سنن الترمذي، أبواب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في تعليم السريانية، 68/5، ح: 2715.

1. تبلور الفكرة في الذهن: أي؛ فكرة تعلم اللغة السريانية.
 2. الحافز المشجع على تحقيق الفكرة: أمر الرسول صلى الله عليه وسلم لزيد: "تعلّمها"، وكون اللغة لغة المخالف، والحاجة إليها ملحة لفهم كتب الآخر، وتحقيق التواصل الحضاري معه.
 3. الوسائل المعتمدة في التعلم: الإرادة القوية وإعمال قوى الإدراك، والاعتماد على الذات (فتعلّمها).
 4. تدبير الوقت وأهميته في تحقيق الفكرة: تعلم اللغة السريانية في وقت وجيز (سبعة عشر يوما)، ويدل هذا الوقت الوجيز على حسن تدبير زيد -رضي الله عنه- للوقت واستغلاله الجيد له. وفي السيرة النبوية تجليات كثيرة لصور التعلم الذاتي، ولا سيما تعلم اللغات والانفتاح على الثقافات الأخرى.
- روى ابن سعد في طبقاته، قال: "أخبرنا عفان بن مسلم قال: حدثنا همام بن يحيى قال: حدثنا قتادة، عن عبد الله بن بريدة، عن سليمان بن الربيع قال: انطلقت في رهط من نساك أهل البصرة إلى مكة، فقلنا: لو نظرنا رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتحدثنا إليه، فدلنا على عبد الله بن عمرو بن العاص، فأتينا منزله، فإذا قريب من ثلاثمائة راحلة قال: فقلنا: على كل هؤلاء حج عبد الله بن عمرو؟ قالوا: نعم، هو ومواليه وأحباؤه، قال: فانطلقنا إلى البيت، فإذا نحن برجل أبيض الرأس واللحية بين بردين قطريين، عليه عمامة، ليس عليه قميص، قال: فقلنا: أنت عبد الله بن عمرو، وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجل من قريش، وقد قرأت الكتاب الأول، وليس أحد نأخذ عنه أحب إلينا..."¹.
- فكان عبد الله بن عمرو بن العاص قد تعلم التوراة وأتقنها، كما كان يجيد اللغة السريانية أيضا؛

¹ - الطبقات الكبرى، ابن سعد، (تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط1- 1968م)، 267/4.

روى ابن سعد عن عمرو بن عاصم قال: حدثنا همام بن يحيى قال: حدثنا قتادة، عن الحسن، عن شريك بن خليفة قال: "رأيت عبد الله بن عمرو يقرأ بالسريانية"¹.

إن التعلم الذاتي دائما ما ينطلق من فكرة تكون الحاجة إليها ملحة، وبصير تحقيقها أمرا مطلوباً، ويرتبط بمحفزات تشجع المتعلم على إقدامه على عملية التعلم تلك، ثم ينطلق -المتعلم- في اعتماد الوسائل والطرق المناسبة والمفضية لتحقيق غايته من عملية التعلم.

ويتمحور التعلم الذاتي بالأساس على المتعلم، بحيث يكون هذا الأخير محور العملية، والمسؤول الأول عنها، دونما تدخل من المعلم، إلا ما كان من قبيل الإشراف أو التوجيه. لذلك كان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم يشرف على حلقات تعلم القرآن والتي لا يباشر فيها التعليم بنفسه.

إن التعلم الذاتي باعتباره تعلماً نابعا من أعماق ذات المتعلم، وكونه تدريب لهذا الأخير على امتلاك مهارات معينة من عملية التعلم، يقتضي تحقيق الاستقلال في عملية التعلم، بحيث لا يتدخل المعلم في العملية إلا بالتوجيهات الأساسية القبلية، والإشراف على سير عملية التعلم للتأكد أنها في مسارها الصحيح. وهذا ما بات علماء التربية ينادي به اليوم، سيما بعدما أبانت طريقة التعلم الذاتي عن فعالية في تكوين المتعلم وتمكينه من مهارات الحياة الشخصية.

¹ - الطبقات الكبرى، ابن سعد، 266/4.

المطلب الثاني: مهارات التعامل مع الآخر في السيرة النبوية

الفرع الأول: مهارات وآداب التواصل

العنصر الأول: فن الإصغاء والاستماع

بينت في الباب النظري الفرق بين كل من مفهوم السمع ومفهوم الاستماع. إذ السمع مجرد استقبال الأذن لذبذبات صوتية معينة دون إعارتها انتباهها مقصودا، فهو عملية بسيطة تعتمد على فسيولوجية الأذن وقدرتها على التقاط هذه الذبذبات.

أما الاستماع فهو مهارة أعقد من ذلك، إنه أكثر من مجرد السمع؛ إنه عملية يعطى فيها المستمع اهتماما خاصا وانتباها مقصودا لما تلقاه أذنه من أصوات.¹

إن الباحث عن ملامح الإصغاء في سيرته صلى الله عليه وسلم يقف على صور بهية نال بها المرابي الحكيم قصب السبق في تعامله مع الآخر.

وأورد هنا قصة عتبة بن ربيعة لما جاء يقايض رسول الله صلى الله عليه وسلم في دينه ويغريه بالملك والجاه والمال، يقول عتبة: "يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه. أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أفرغت يا أبا الوليد؟" قال: نعم. قال: اسمع مني..."².

¹ - مهارات الاتصال والتفاعل والعلاقات الإنسانية، أماني عبد الفتاح، ص: 109.

² - السيرة النبوية، ابن كثير، 504/1.

إن هذا المشهد ليزيدنا تأكيداً بأن نبي الرحمة لم ينل شرف نيل الخلق العظيم عبثاً، بل لما كان عليه من مكارم الأخلاق، وحسن تواصله مع الآخرين أثناء دعوته إلى الله، ويتجلى ذلك من خلال حسن استماعه لترهات عتبة بن ربيعة، ولم يقاطعه أثناء حديثه حتى انتهى.

وقوله "أفرغت يا أبا الوليد؟" يدل على لباقتة صلى الله عليه وسلم في التواصل مع المخالف، ويؤسس من خلاله منهج التواصل مع الآخر.

ومن قواعد المرور المتعلقة بمهارات التعامل مع الآخرين: "دع الشخص الآخر ينتهي من التعبير عن فكرته قبل أن تقتحم الوضع محاولاً إنهاء ما يقول، وعندما يحين دورك للتكلم، فإنك تأمل في أن يمنحك كل شخص نفس القدر من اللياقة"¹. فالإصغاء فن يتطلب الممارسة، لأن كل شخص يجب أن يتكلم بأريحية إلى حين إتمام مراده من الكلام.

ومن خلال هذه الواقعة وأمثالها تعلم الصحابة -رضوان الله عليهم- من معلمهم الحكيم صلى الله عليه وسلم فن الإصغاء وآداب الاستماع.

العنصر الثاني: مهارة الإقناع

يُعدُّ الإقناع إحدى مهارات التعامل مع الآخرين، وهو بصورة أساسية القدرة على جذب الناس إلى جانبك، دون استخدام العنف أو التهيب، وتتم عملية إقناع الآخرين بإدخال حججك في ذاتهم، ثم اعتناقها لتصير جزءاً من معتقداتهم.

وتعد هذه المهارة من أبرز الوسائل التي استعملها رسول الله صلى الله عليه وسلم، سواء في دعوته لأصحابه أو لإقناع غير المسلمين باعتماد دين الإسلام. والسيرة النبوية زاخرة بصور الإقناع التي انتهجها عليه الصلاة والسلام مع صحابته، وكذا صحابته مع المخالفين في مراحل الدعوة

¹ - المهارات الأساسية الخمس للعلاقة مع الآخرين، إيلين نور منسي، ص: 147.

الأولى.

والكلام عن الإقناع في السيرة النبوية حديث ذو شجون، ومنه الكثير والكثير، مما يدل على عظمة الرسول الحكيم، وفطنته الكبيرة في التعامل مع الآخر.

وسأضرب أمثلة منتقاة من سيرته، أعرض من خلالها دور الإقناع في إنشاء جو التآلف والموافقة بين الذات والآخر.

ولإتقان هذه المهارة ثمة بعض العوامل الفعالة، والتي يشكل كلا منها مكونا من مكونات هذه المهارة، أعرضها معززة بتطبيقات نبوية على الشكل الآتي:

أولا: العواطف والانفعالات

تتسم مخاطبة العواطف أثناء عملية الإقناع بفعالية خاصة، ويتمثل المفتاح الأساسي هنا في استهداف وجدان المخاطب وإدماج عواطفه ضمن أسلوب الإقناع.

جاء في مسند الإمام أحمد أن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه. مه. فقال: «ادنه، فدنا منه قريبا». قال: فجلس قال: «أتجبه لأملك؟» قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتجبه لابنتك؟» قال: لا. والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتجبه لأختك؟» قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتجبه لعمتك؟» قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتجبه لخالتك؟» قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحسن فرجه» فلم يكن

بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء¹.

فاستهدف النبي صلى الله عليه وسلم الجانب العاطفي للشباب في القصة (أفتحبه لأملك... لإبتك... لأختك... لعمتك... لخالتك) كان وسيلة فعّالة وأسلوباً بالغاً في الأهمية، أبان عن نجاعة في صرف الشاب عن إتيان الفاحشة.

فانتهى الفتى عن هذه الفاحشة، وأصبح لا يلتفت إليها. فقد أقنعه صلى الله عليه وسلم إقناعاً تاماً، وردد، وكرر، حتى قبح هذا الفعل في نظر الرجل، فأبغضه وابتعد عنه، وهو صلى الله عليه وسلم بدعائه له زاد الأمر حسناً فلم يقف عند حد الإقناع، وإنما دعا له - وهو مستجاب الدعوة - فافتنع الرجل، وهداه الله... ولم يغضب -صلى الله عليه وسلم-، ولم يُثْر، وإنما كلّمه كلاماً سهلاً غاية السهولة، أقنعه كل الإقناع، وهذا من كمال العقل وفطنته².

إن من العدول عن توبيخ المخالف ومعارضته بشدة من منهج المربي الحكيم عليه الصلاة والسلام في التربية، ولعل الشاب اقتنع بشدة بخطورة الفعل الذي جاء يستأذن رسول الله في السماح له به، فافتنع بطريقة أراحت نفسه، وأنسته إقدامه على الزنا.

ثانياً: الجانب العقلاني

يعتبر عامل مخاطبة الجانب العقلاني في الإنسان أثناء عملية الإقناع من أقوى العوامل المؤثرة في المخاطب، ويتضمن هذا العامل استخدام حقائق وأرقام لا يرقى إليها الشك للتأثير في الجمهور المستمع إليك³.

¹ - مسند أحمد، تنمة مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو ويقال: ابن وهب الباهلي، عن النبي صلى الله عليه وسلم، 545/36، ح: 22211.

² - رد شبهات حول عصمة النبي صلى الله عليه وسلم في ضوء السنة النبوية الشريفة، عماد السيد، ص: 124.

³ - المهارات الأساسية الخمس للعلاقة مع الآخرين، إيلين نور منسي، ص: 165.

وبالعودة إلى قصة الإسراء والمعراج التي حدثت للنبي صلى الله عليه وسلم قبيل الهجرة، نجد أن المعاندين لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم كذبوا الحادثة وأنكروها، ووصل ببعض المسلمين أن ارتد عن دينه، فقالوا: "هذا والله الأمر البين، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة، وشهرا مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟"¹. فاستبعدوا حدوث ذلك وأنكروه لأن عقولهم عاجزة عن حدوثه وتصديقه.

إلا أن أبا بكر الصديق آمن بإمكانية ما حدثه عنه غير المصدقين، فقال رضي الله عنه: "والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه... فيومئذ [سُمِّي] الصديق"².

فقد أقنعهم أبو بكر الصديق بالمنطق نفسه الذي أنكروا به حدوث واقعة الإسراء والمعراج؛ حيث أنكروا وقوع ذلك قياسا على المدة التي تستغرقها العير من مكة إلى الشام، ليبطلوا بذلك خبر إسرائه ومعراجه عليه السلام في ليلة واحدة، أو في جزء منها. وصدّق أبو بكر الخبر قياسا على المدة التي يستغرقها الوحي أحيانا في النزول على رسول الله عليه السلام في نازلة من النوازل. وبذلك؛ خاطب فيهم الجانب العقلي الذي اعتمده في نفي الواقعة، وأقنعهم بمثيله.

ومن أمثلة ذلك أيضا أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، وُلِد لي غلام أسود، فقال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم، قال: «ما ألوانها؟» قال: حمر، قال: «هل فيها من أورك؟» قال: نعم، قال: «فأني ذلك؟» قال: لعله نزع عرق، قال: «فلعل ابنك هذا نزعه»³.

فاستخدام الأسلوب العقلي في الإقناع وسيلة جيدة تضمن وصول المعلومة إلى ذهن السامع، على ما أراده المتحدث... فضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثالا للأعرابي من أقرب الأشياء إليه

¹ - الروض الأنف، 255/3.

² - المصدر نفسه، 256-255/3.

³ - صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، 53/7، ح: 5305.

وهي إبله، كان من ورائه اقتناعه بإمكانية كون ابنه أسودا رغم كون والده غير أسود.¹

ثالثا: السلطة وبناء الثقة

يعمل الارتباط بسلطة ثابتة ومُعترف بها على تلبية حاجة أساسية لكل مستمع، فالناس يميلون إلى منصب يتسم بسلطة أو بقوة شرعية، ويمكن تحقيق ذلك عن طريق إظهار خلفيتك، وإتقانك للعمل في مجال معين، أو بتقديم نفسك.²

ويمكن أن تكون السلطة سلطة أخلاقية معنوية، أي اكتساب الإنسان لمكارم الأخلاق من الصفات والسمات التي يكون فيها بين الناس صاحب سلطة، تمكنه من إقناع المخاطبين بكلامه باستخدام السلطة تلك.

وأضرب مثلا حيا من السيرة النبوية يبين دور سلطة الصدق وبناء الثقة في إقناع المخاطب.

جاء في صحيح السيرة أنه صلى الله عليه وسلم لما أمر بالصدع أتى الصفا فهتف : «يا صباحاه» فقالوا: من هذا؟، فاجتمعوا إليه، فقال: «أرايتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جرينا عليك كذبا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» قال أبو لهب: تبا لك، ما جمعنا إلا لهذا؟³.

فالمنهج التي سلكه عليه السلام في إقناع قريش بأنه رسول من الله قائم على استفساره إياهم عن مدى صدقه في الإخبار، فلما تأكد أنه عندهم بموضع القبول والإقناع في القول أخذ في إشهاره نبوته صلى الله عليه وسلم.

¹ - المعلم الأول صلى الله عليه وسلم، فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب، (الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات)، ص: 120. بتصرف

² - المهارات الأساسية الخمس للعلاقة مع الآخرين، إيلين نور منسي، ص: 165.

³ - صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا}، 53/7، ح: 4971. وانظر: الروض الأنف، 175/3.

على هامش القصة فائدة لا تقل أهمية عما ذكرنا، وهي أن محاولة القيام بإقناع الآخرين بشيء ما لا يقتضي بالضرورة إذعائهم كلهم، وموافقتهم لما تحاول إقناعهم به. إذ هناك من تكفيه إشارات دالة للاقتناع وهناك من لا تنفع معه الوسائل المعتمدة في الإقناع، وهذا صنف آخر.

العنصر الثاني: لغة الجسد والتواصل غير الشفهي

أثناء انخراطنا في عملية التواصل مع الآخر يجب مراعاة اللغة غير المنطوقة، أي: الحركات والوضعيات والإيماءات والتصرفات الجسدية ... سواء كانت بإرادة الشخص أو عفوية غير مخطط لها.

وقد تبين من خلال الكتابات التي فصلت في هذه المسألة أهمية لغة الجسد، أو ما يطلق عليه بالتواصل غير اللفظي.

فلغة الجسد تعبر عن مشاعرنا الأكثر عمقا، حتى حين تتناقض هذه المشاعر مع ما نتفوه به من كلمات، وتعابير الوجه، والوضعية التي تتخذها الأذرع والسيقان والأيدي، والطريقة التي نجلس، ونقف، ونستمع إلى الآخرين، ونتكلم بها... كلها كفيلة بنقل درجات متباينة من الخداع، والصدق، والاهتمام أو اللامبالاة . بكل بساطة؛ نُقل ذخيرة هائلة من المعلومات.¹

ومما يزيد من اقتناعنا بالدور الفعال الذي تلعبه لغة الجسد أثناء عملية التواصل مختلف الدراسات والإحصائيات التي أبانت عن نجاعة هذا الأسلوب في مخاطبة الآخرين، ثم الوقوف على محطات في السيرة النبوية تؤكد لنا ما لأهمية هذا التواصل في تبليغ المراد وتمير الرسالة المرجو استيعابها.

وقد خلصت الدراسات إلى أن الكلمات التي تُوظف أثناء عمليات التواصل وجها لوجه،

¹ - المهارات الأساسية الخمس للعلاقة مع الآخرين، إيلين نور منسي، ص: 173.

تشكل بصورة نمطية 7% من المعنى المتلقي، أما نبرة الصوت فتشكل 38%، ولغة الجسد هي المسؤولة عما نسبته 55% مما يقصد قوله. وموجز القول إنه من المرجح أن يستجيب المستقبل للرسالة إما من خلال نبرة الصوت أو لغة الجسد، وليس عبر الكلمات التي يتم التفوه بها... وبكلمات أخرى: إن الناس يسمعون بأعينهم.¹

أما السيرة النبوية فزاحرة بلامح هذا الأسلوب؛ إذ تعددت وسائل استعماله وتوظيفه. وسأورد بعضاً منها قدر المستطاع.

أولاً: سحر الابتسامة

لا يخفى على الإنسان دور التبسم في وجه المخاطب أثناء عملية التواصل، وما تحدثه الابتسامة في نفسية الآخر. إنها سحر يأسر الآخر، ووسيلة تفتح آفاق الحوار والتواصل الفعال، فضلاً عن كونها (الابتسامة) من صنائع المعروف التي يؤجر عليها الإنسان في الآخرة.

قال الصادق المصدوق "تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ"²، وقد اعتبر الربون التربية

بالابتسامة إحدى المناهج المعتبرة في عملية التربية، بل ورد في صحيح السيرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يوظفها حتى مع المخطئ والمخالف.

فبالابتسامة الحانية يعاتب - صلى الله عليه وسلم - المخطئ ويوجهه ويقوم سلوكه، فحين تخلف كعب بن مالك الأنصاري عن النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم تبوك من غير عذر دخل عليه، وقد فاته الخير العظيم، بل رتع في الإثم الكبير الذي يوجب تأنيبه وتهذيبه، فالتخلف عن تلك

¹ - المهارات الأساسية الخمس للعلاقة مع الآخرين، ص: 174.

² - سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في صنائع المعروف، 339/4، ح: 1956.

الغزوة بلا سبب من كبائر الذنوب والآثام.¹

ولنصغ إلى كعب بن مالك وهو يصف لنا لقاءه بالنبي - صلى الله عليه وسلم - حين رجوعه من تبوك: فحجته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «تعال» فحجنت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك...»².

وفي السيرة النبوية نجد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصفون حبيهم صلى الله عليه وسلم دائماً بالمتبسم، وقد ورد ذلك في غير ما موضع؛ منها ما رواه جرير بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: «ما حجني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ولا رأني إلا ضحك»³.

فكان عليه الصلاة والسلام يتبسم لمخاطبه أثناء الحديث معه؛ جاء خبر من الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد إنا نجد: أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول أنا الملك، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الخبر⁴.

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يأخذون عن رسولهم صلى الله عليه وسلم الشمائل والصفات كما يأخذون عنه العبادات والمعاملات، فكانوا يتأسون بتبسمه عليه السلام؛ روت أمُّ الدرداء، عن أبي الدرداء أنه: كَانَ لَا يُحَدِّثُ حَدِيثًا إِلَّا تَبَسَّمَ فِي حَدِيثِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: فَقَالَ: «مَا

¹ - الدين المعاملة، منقذ بن محمود السقار، (رابطة العالم الإسلامي - سلسلة دعوة الحق - السنة 24، العدد 237، عام 1430 هـ)، ص: 73.

² - سيرة ابن هشام، 533/2. وأنظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، وقول الله عز وجل: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا}، 3/6، جزء من الحديث: 4418.

³ - صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه، 1925/4، ح: 2475.

⁴ - صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وما قدروا الله حق قدره}، 126/6، ح: 4811.

رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا إِلَّا تَبَسَّمَ فِي حَدِيثِهِ»¹.

فالاتسامة دالة على الصفاء القلبي ووسيلة مهمة ومجدية لإشاعة التواصل والدفء العاطفي بين الناس. ابتسامة لا تكلفك مالا تُخرجه من جيبك، ولا وقتا تنفقه من عمرك، ولا جهدا يُرهق بدنك. ابتسامة صادقة تغنم معها الأجر والثواب.²

بل حتى في مرضه وقبيل وفاته عليه السلام كان دائم التبسم ولم يترك الابتسامة، عن أنس بن مالك أنّ أبا بكر كان يصلي لهم في وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم ستر الحجره فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا قال: فبهتانا ونحن في الصلاة من فرح بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف، وظن أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خارج للصلاة فأشار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده: أن أتموا صلاتكم، قال: ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرخى الستة قال: فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه³.

فإذا ثبت مدى أهمية فعل التبسم داخل عملية التواصل مع الآخر، وتبينت أهمية الابتسامة في نشر الدفء وتحقيق التقارب بين المخاطبين، فإنه المفتاح الأول لتلطيف جو الحوار، وتغييره إذا ما انقلب إلى غير ما خطط له.

ثانيا: وضعية الجسد

مما يجب التنبيه عليه أثناء الحديث عن التواصل غير الشفهي بين الآخرين وضعيات الجسد؛ من

¹ - مكارم الأخلاق للطبراني، (دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1- 1989)، ص: 319.

² - فن التواصل مع الناس، حسن رقيق، ص: 46.

³ - شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أحمد بن عبد الفتاح زواوي، 364/2. وانظر: الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري، ص: 429.

قيام وجلوس واضطجاع... وأنه يجب إغارة الاهتمام لهذه الوضعيات؛ فهي محددة لنوعية الخطاب ومدى أهميته أثناءها.

إن وضعية الجسم تؤثر في المتلقي أثناء مخاطبته، إما إيجابا أو سلبا، فمثلا؛ لما نتأمل في حديث شهادة الزور، يمكننا القول أن تصرف النبي صلى الله عليه وسلم بتغيير وضعية الجسم كان مقصودا، وكان له أثر بالغ في تبليغ الرسالة التي أراد إيصالها.

فمن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: "الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور" فما زال يقولها، حتى قلت: لا يسكت".¹

فتحوله صلى الله عليه وسلم من وضعية الاتكاء إلى الجلوس إشعاره الصحابة رضي الله عنهم بخطر وقبح الأمر المنهي عنه "شهادة الزور"، وأنه يريد من ذلك جلب انتباههم وتحويله إلى عظم هذا الأمر.

يقول الشوكاني معلقا: " هذا يشعر باهتمامه - صلى الله عليه وسلم - بذلك حتى جلس بعد أن كان متكئا، ويفيد ذلك تأكيد تحريمه وعظيم قبحة"².

ومما يمكن الاستشهاد به -أيضا- هاهنا، تغيير الحالة التي عليها الغضبان، بالجلوس، أو بالاضطجاع، أو غير ذلك، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

¹ - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، 4/8، ح: 5976.

² - نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني، (تحقيق: عصام الدين الصباطي، دار الحديث، مصر، ط1-1413هـ)، 344/8.

وسلم قال لنا: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»¹، لما في تغيير حالة جسم المتحدث من أثر في تصريف كلامه والتمكن منه.

ثالثا: الحركات والإيماءات

تعد حركات الأيدي والإيماءات من أقوى الأساليب في تبليغ المخاطب، فهي المعينة على إيصال الرسالة كاملة إليه - وفي أحيان كثيرة - في شرح وتوضيح الرسالة المنطوقة.

فالنقطة الجوهرية في التواصل غير الشفهي تتمثل في " قيامك باستعمال جسدك كوسيلة من وسائل التواصل، تتطابق بشكل تام مع كلماتك، ولغة الجسد الفعالة من شأنها أن تبتث الحياة في أي عملية تواصل"².

لقد حرص المربون والمعلمون والخطباء البارزون على استخدام الإشارة بالجوارح وتحريكها في دروسهم وخطبهم لما يعلمون من أثرها البالغ في أنظار ونفوس المتعلمين والمخاطبين، وذلك موازاة مع الكلام.

وتكون كل إشارة أو حركة لها مدلولها الخاص، مُتساوقة مع الكلام، شارحةً ومؤكدةً له.³

والسيرة النبوية زاخرة بصور هذا الأسلوب في كثير من المواضع؛ فقد وظف عليه الصلاة والسلام حواسه في شرح وتقريب المعنى من أصحابه، وذلك حين بين لهم فضل كفالة اليتيم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»، وأشار بأصبعيه يعني: السبابة

¹ - مسند أحمد، مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، 278 / 35، ح: 21348.

² - المهارات الأساسية الخمس للعلاقة مع الآخرين، إيلين نور منسي، ص: 176.

³ - التميز في التعليم النبوي، يونس ضيف، ص: 42-43.

والوسطى".¹ كما أن التعلم بالإشارة أو الحركة يجعل المتعلم أسير كلام المعلم أو المحاضر منتبها إلى ما يقول، مُنساقا معه، وغالب هذه الإشارات والحركات ما تكون باليد، كما في أحاديث نبوية كثيرة.²

ونجد ذلك أيضا في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا» [قال الراوي]: ويشير إلى صدره ثلاث مرات³.
فبيّن لهم عليه السلام موضع التقوى (القلب)، وأنه موطن النية والإخلاص والعمل الصالح، معتمدا في بيانه ذلك على إشارتك لقلبه بيده.

رابعا: الرسومات والمبيانات التوضيحية

لا تخفى أهمية توظيف الرسومات والمبيانات التوضيحية في عملية التواصل، إذ تكتسي مكانة كبيرة داخل حقل التربية والتعليم، بل إن الكثير من المتعلمين قد لا يفهمون من خلال الخطابات أو الكتابات ما يفهمونه من الرسومات المعززة والمبيانات الموضحة.
بل إن الكثير من العلوم والتخصصات اليوم تولى أهمية قصوى للرسومات والمبيانات والصور...
وأن المتعلم داخل هذه التخصصات قد يفكك مدلول هذه الوسائل ويحللها تحليلا يمكنه من استخلاص كثير من الحقائق، والتوصل إلى نتائج كثيرة.

واقتناعنا بفعالية منهج النبي صلى الله عليه وسلم الموظف في التواصل مع الآخر والحرص على

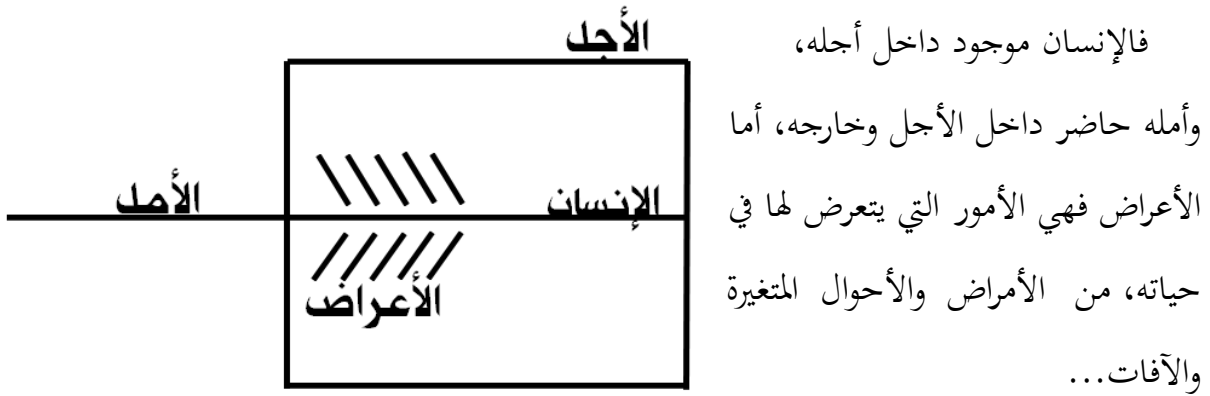
¹ - سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة اليتيم وكفالتة، 321/4. قال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".

² - التميز في التعليم النبوي، يونس ضيف، ص: 44.

³ - صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، 1986/4، ح: 32.

إفهامه، نجد أن سيرته العطرة سبق وأن تداولت هذه الوسيلة، كوسيلة لتسهيل فك شفرة الرسالة المراد تبليغها لهم من لدن نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام.

جاء في السيرة الخالدة أن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه خط خطا مربعا، وخط خطا وسط الخط المربع، وخطوطا إلى جنب الخط الذي وسط الخط المربع، وخط خارج من الخط المربع، قال: " هل تدرّون ما هذا؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " هذا الإنسان، الخط الأوسط، وهذه الخطوط التي إلى جنبه: الأعراض تنهشه من كل مكان، إن أخطأه هذا، أصابه هذا، والخط المربع: الأجل المحيط به، والخط الخارج: الأمل"¹.



والمقصود الذي أراد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام إيصاله هو بيان حال الإنسان في الدنيا، وأنه لا يفوت الأجل لكونه محيطا به من الجوانب كلها، وأنه معرض للأعراض قبل ذلك، ومع ذلك يمني نفسه، ويأمل في ما قد يجاوز أجله.

ولعل الفكرة المراد تبليغها من طرف المعلم الحكيم اتضحت أكثر الآن بعد الاطلاع على الرسم، وأنه يمكن من خلاله -فقط- فهم الكثير وتحصيل الفائدة الجمّة، أكثر من سماع الكلمات أو قراءتها.

¹ - مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، 6 / 163-164، ح:

من خلال ما سبق؛ يمكننا القول أن قواعد وآداب التواصل، رغم كثرة الكتابات المنتشرة حولها، والمنادية بتعددية الوسائل الموظفة أثناء عملية التواصل، إلا أن السيرة النبوية سجلت في غير ما موضع ملامح حية وخالدة، تؤكد دوماً أسبقيتها في تناول المهارات الحياتية وتوظيفها في الحياة اليومية.

لقد أصل المبعوث رحمة للعالمين لتلك القواعد والوسائل الناجعة في التعامل مع الآخر، وقد نقل الصحابة رضي الله عنهم وقائع استعماله لهذه الوسائل عن طريق الأحاديث الصحيحة التي وصلتنا محفوظة، لتكون شاهدة على عظمة شخصية الرسول الأمي الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

الفرع الثاني: مهارة عمل الفريق

بالعودة إلى السيرة النبوية العطرة نجد أن فريق العمل النبوي كان يتسم بسمات منقطعة النظير في العمل الجماعي، إذ كان قائماً على مجموعة من المهارات والخصائص الفعالة والمطلوبة اليوم في عمل الفريق، وما كان لهذه المهارات أن تتحقق لولا القيادة الرشيدة لقائد الفريق ومدى حنكته في تنظيم وتسيير الفريق.

العنصر الأول: الحاجة إلى فكرة ملحة

إن أول ما يوقد شرارة العمل الجماعي أو تكوين فريق عمل متماسك تحقيق فكرة ملحة تعود على الفرد والمجتمع بالخير والنفع، والناظر في السيرة النبوية العطرة يجد أن أول ما بدأت به الدعوة الإسلامية تكوين فريق وجماعة من المسلمين واجتماعهم بدار الأرقم بن أبي الأرقم للتفقه في الدين وصناعة رجالات وأعلام هذه الرسالة السامية.

ففي السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل دار الأرقم بن أبي الأرقم يعبد الله تعالى فيها سرّاً من قومه، ودخل معه جماعة حتى تكامل المسلمون أربعين رجلاً وكان آخرهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فلما تكاملوا أربعين رجلاً خرجوا فلما أسلم عمر قال: يا رسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق ويظهر دينهم وهم على الباطل؟ فقال: يا عمر إنا قليل. فقال عمر: "فو الذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان".¹

فاجتماع الصحابة في دار الأرقم كانت تفرضه الضرورة الملحة (التفقه في الدين ونشر الدعوة)، وقول الفاروق يدل على تأكيد الفكرة والسعي نحو تحقيقها وتطويرها بنشرها خارج الفريق.

وكذلك الأمر نفسه في قصة بناء المسجد النبوي في السنة الأولى للهجرة، بعدما كان النبي صلى

¹ - سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، 319/2.

الله عليه وسلم يصلي حيث أدركته الصلاة، فما إن طرح فكرة بناء المسجد حتى تهيأ لها فريق الصحابة بالتأييد والقبول، ثم بالإقدام على العملية.

إن فكرة تكوين فريق العمل تنبع من الحاجة إليه في تحقيق هدف أسمى يخدم مصالح أعضائه، ويتعدى نفعه إلى الآخرين، فكما كان الصحابة رضي الله عنهم يجتمعون في فرق عمل معا من أجل أخذ العلم والتعلم، كانوا أيضا يعملون جماعة من أجل تنمية مهارات الحياة التي تنفعهم وتعود على الأمة جمعاء بالخير، ومثال ذلك؛ اجتماعهم لتعلم الرمي، وذلك لحاجتهم له في الحروب والمعارك، دفاعا عن الوطن والدين.

العنصر الثاني: الانخراط والمشاركة

من أولى المهارات الواجب توفرها في كل فرد من أفراد فريق العمل الانخراط والمشاركة التامة من لدن كافة الأعضاء. جاء في السيرة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد بناء المسجد الشريف، قال: يا بني النجار ثامنوني بجائطكم، قالوا: لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، فأبى ذلك صلى الله عليه وسلم وابتاعها بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان قد خرج من مكة بماله كله، وعمل فيه المسلمون، وكان عمار بن ياسر ينقل لبنتين، لبنة عنه ولبنة عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام: "للناس أجر ولك أجران".¹

من خلال قصة بناء المسجد النبوي وتعاون فريق الصحابة عليه نستنبط إسهام الصحابة المنقطع النظير في سبيل تحقيق الهدف؛ فبنو النجار آثروا الإسهام بالأرض، وأبو بكر أسهم بدفع المقابل لهم، وعمار بن ياسر ضاعف مجهوده إعفاءً للنبي صلى الله عليه وسلم من المشاركة.

عن عكرمة، قال لي ابن عباس ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد فاسمعا من حديثه، فانطلقنا

¹ - شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، 178-175/2.

فإذا هو في حائط يصلحه، فأخذ رداءه فاحتبي، ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى ذكر بناء المسجد، فقال: كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فينفض التراب عنه، ويقول: «ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونهم إلى النار» قال: يقول عمار: أعود بالله من الفتن¹. فكان المبعوث رحمة للعالمين أيضا منخرطا في عملية البناء.

لقد كانت مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم في عملية البناء ككل العمال الذين شاركوا فيه، وليس بقطع الشريط الحريري فقط، وليس بالضربة الأولى بالفأس فقط، بل غاص بعلمية البناء كاملة، فقد دهش المسلمون من النبي صلى الله عليه وسلم وقد علت غيرة، فتقدم أسيد بن حضير - رضي الله عنه - ليحمل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أعطينيه؟ فقال: «أذهب فاحتمل غيره فإنك لست بأفقر إلى الله مني» فقد سمع المسلمون ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبه، فزادوا نشاطا واندفاعا في العمل.²

فقد انخرط رسول الله صلى الله عليه وسلم في العمل كأبي واحد من أصحابه، حتى لبس ثوبا من الأتربة والغبار على جسمه فما تفرقه عن أي عامل آخر من صحبه وإخوانه، يرتجزون لينشط بعضهم بعضا، فيرتجز معهم، ويتعبون ويجوعون فيكون أولهم تعباً وجوعاً.³

فمن الحقائق الثابتة أن النبي صلى الله عليه وسلم شارك أصحابه العمل والبناء، فكان يحمل الحجارة وينقل اللبن على صدره وكتفيه، ويحفر الأرض بيديه كأبي واحد منهم، فكان مثال الحاكم العادل الذي لا يفرق بين رئيس ومرؤوس، أو بين قائد ومقود، أو بين سيد ومسود، أو بين غني وفقير...

إنه مشهد فريد من نوعه ولا مثيل له في دنيا الناس، وإذا كان الزعماء والقياد قد يقدمون على

¹ - صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد، 97/1، ح: 447.

² - السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، الصلابي، ص: 308-309.

³ - فقه السيرة النبوية، سعيد رمضان البوطي، ص: 219.

المشاركة أحياناً بالعمل لتكون شاشات التلفزيون جاهزة لنقل أعمالهم، وتملاً الدنيا في الصحف ووسائل الإعلام كلها بالحديث عن أخلاقهم وتواضعهم، فالنبي صلى الله عليه وسلم ينازع الحجر أحد أفراد المسلمين، ويبين له أنه أفقر إلى الله تعالى، وأحرص على ثوابه منه. وقد تفاعل الصحابة الكرام تفاعلاً عظيماً في البناء وأنشدوا:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المضلل.¹

وفي قصة حفر الخندق قسم النبي صلى الله عليه وسلم منطقة الحفر على أصحابه: لكل عشرة منهم أربعون ذراعاً، واشتغل هو بالحفر أيضاً، كأبي فرد منهم، بل كان المسلمون يستعينون به عندما يصادفون بعض المصاعب والعقبات أثناء الحفر، كظهور الصخور، فيحضر بنفسه لتفتيتها... وقد سيطر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بنفسه على العمل، فلا يعود مسلم من عمله في الحفر إلا بموافقة شخصياً.²

لقد حقق مفهوم فريق العمل في السيرة النبوية صورة استثنائية بين ما يتداول اليوم في الدراسات الحديثة التي تضع لقائد الفريق صلاحية الإشراف والتوجيه فقط، إذ المرابي الحكيم كان يشرف ويوجه ويسهم في مهام الفريق بنفسه.

إن التفاعل بين أعضاء العمل الجماعي أمر مطلوب في بناء فريق العمل، وهذا التفاعل يتم عبر هندسة متكاملة يعود بناؤها إلى قائد الفريق الذي يوزع المهام ويحدد الأفراد المناسبين للمهام المراد إنجازها، ويشرف على العملية حتى تكتمل وتتم كما خطط لها.

¹ - السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، الصلابي، صص: 308-309

² - الرسول القائد، محمود شيت خطاب، صص: 228-229.

العنصر الثالث: الشخص المناسب في المهمة المناسبة والتكامل بين الأدوار

أول سمات القائد الناجح في الفريق توزيعه لأدوار الأعضاء حسب مناسبة كل واحد منهم للمهمة المنوطة به، وحسب إتقانه وتخصصه في الدور الذي سيقوم به.

ونظرا إلى أن الحاجة إلى اعتبار التميز في مجال من المجالات ملحة واليقين بأنه ليس بوسع كل فرد من أفراد الفريق القيام بكل المهمات التي يُتطلب إنجازها، فإن وضع الشخص المناسب في المكان المناسب من أهم المفاتيح المهمة في نجاح الفريق وتحقيقه التميز.

يؤدي أفراد فريق العمل في أية مهمة واجبات متخصصة، وعندما يزداد حجم الفريق فإن الحاجة لتقسيم العمل إلى نشاطات منفصلة تزداد كذلك. وحيث إن فردا واحدا لا يمكنه القيام بكل شيء، فإن الآخرين يشتركون معه ويتم تقسيم العمل، ولكن بمجرد تقسيم العمل يصبح من الضروري إيجاد الطريقة المثلى لتجميعه كله في الشكل النهائي.¹

فتوظيف المواهب وتوزيع المهام من سمات التنظيم المحكم والتخطيط الناجح في العمل الفريقي، لأن المهام عندما توزع على أفراد معينين تنظم الجهد والوقت، وتسرع من إنجاز المهمة، ولا ريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرف الناس بجنده وبطاقات كل واحد منهم رجالا ونساء، وقد سبق بذلك علماء الإدارة، وقعد القواعد، ووضع التصور الصحيح لاختيار الرجل المناسب في المكان المناسب، وبالتأمل في حدث هجرته صلى الله عليه وسلم وتوظيفه لفريق العمل من أهله وأصحابه في إنجاز هذه العملية نجد أنه استخدم:

-أبا بكر ليكون له صاحب؛

-علي بن أبي طالب للتعمية والتمويه ورد الأمانات؛

-عبد الله بن أبي بكر للاستخبارات؛

¹ - فن التعامل مع الزملاء، نورمان سي هيل، ص: 15. بتصرف

- أسماء رضي الله عنها للإمداد والتموين؛

- عائشة رضي الله عنها كاتمة السر؛

- عبد الله بن أريقط الدليل الخريت؛

- عامر بن فهيرة للإخفاء والتمويه؛

- سراقه بن مالك المصدق الموعود بسواري كسرى.¹

فتقسيم المهام على أعضاء الفريق الواحد يثبت إعمال القدرات وتنمية مهارات الفرد الواحد

داخل الفريق، كما يحرك عزيمة الأفراد وينبذ الخمول والالتكال على الآخر في كل شيء.

يقول شوقي ضيف: "الأعمال الشاقة المتعبة على الجماعة ينبغي أن تقسم حتى لا يتواكل

الناس فيما بعضهم على بعض. وتلك سنة الأنبياء في مثل ذلك. وجاء في تفسير قوله تعالى: {إِنَّا

دَهَبْنَا نَسْتَبِقُ} أن كانوا اقتسموا الأعمال من احتطاب واحتشاش ورعي وحراسة، فهو معنى

الاستباق... ولهذا من فرغ "من" حصته قبل صاحبه أعان من لم يفرغ بلا تنقيص ولا تغيير.²

كما لا ينبغي لقائد الفريق أن يغلب العاطفة في اختيار الشخص المناسب لأداء مهمة ما، بل

عليه أن يعمل الجانب العقلي والنقدي في عملية الاختيار. وتتجلى في السيرة العطرة سمات هذا

المبدأ جلية واضحة.

عن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال:

«يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى

¹ - مقال "صناعة التميز وتنمية المهارة: الآليات والمحفزات في ضوء السنة النبوية"، ص: 279.

² - الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر النمري، (تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، ط2 - 1403

هـ)، (إحالة المحقق)، ص: 169.

الذي عليه فيها»¹.

ففي الكثير من الأحيان نتفاعل عاطفياً وليس منطقياً عند التعامل مع بعضنا البعض. إن العواطف مثل الخوف والغضب والإحباط وحتى الحب قد تؤثر بشكل مختلف على أعمالنا... وإذا تمكنا من تطوير العقل الذي تسانده العاطفة، وكذلك العاطفة التي يوجهها العقل ويشذبها، فإن التوازن الذي نحققه سيعمل بصورة معقولة.²

فالقائد العظيم صلى الله عليه وسلم غلب مبدأ المحبة والصحبة على المصلحة العامة للفريق، فنهى أن يتقلد أبو ذر الغفاري الولاية، لأنه أدرك بأصحابه وفريقه، وأعلم بالأجدر بالتعيين من غيره، وأعرف بالشخص المناسب لكل مهمة.

إن الفريق الناجح هو المستثمر لجميع الطاقات، إذ ليس بوسع الفرد الواحد أن يقوم بكل الأدوار، فلا بد من الاستفادة من طاقات الجميع، وحسن التنسيق بينهم؛ حتى يكون العمل أكثر قوة وتنوعاً.

ففي قصة بناء المسجد النبوي نرى أن قائد الفريق صلى الله عليه وسلم قسم المهام ووزع الأدوار بين أصحابه، فوضع كل شخص مثقلاً المهمة التي يجذب فيها.

روى الإمام أحمد ويحيى بن الحسن عن طلق بن علي رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يبني المسجد، والمسلمون يعملون فيه معه، وكنت صاحب علاج وخلط طين، فأخذت المشحاة أخلط الطين والنبى - صلى الله عليه وسلم - ينظر إليّ ويقول: «إن هذا الحنفي لصاحب طين». وكان يقول: «قربوا اليمامي من الطين فإنه أحسنكم له مسكا وأشدكم

¹ - صحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب كراهة الإمامة بغير ضرورة، 3/ 1457، ح: 16.

² - فن التعامل مع الزملاء، نورمان سي هيل، ص: 73-74.

منكبا»¹.

والسيرة النبوية زاخرة بصور تعيين الرجل المناسب لكل مهمة من المهمات، والمتخصص في كل فن من الفنون، فكان فريق الصحابة عبارة عن كتلة واحدة ولحمة متحدة؛ وَحَدَّهَا قَائِدُهَا الْعَظِيمِ رَغْمَ اخْتِلَافِ الْمَهَامِ وَالتَّخَصُّصَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ الَّتِي بَرَزَ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ألا وإن لكل أمة أمينا وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح"².

العنصر الرابع: الشورى

إن أي فريق أو تنظيم يَنْشُدُ التميز والنجاح، لا بد أن تكون الشورى سمته ومنهجه؛ لأن بالشورى تُكْتَشَفُ الْحَقَائِقُ، وَيُسْتَنْبَطُ الصَّوَابُ، وَيَصْحُحُ الرَّأْيُ، وَتَتَضَافَرُ الْجُهُودُ، وَتَتَوَزَعُ الْمَسْئُولِيَّةُ، وَتَقْوَى شَوْكَةُ الْفَرِيقِ؛ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ بِالشُّورَى تَنْبَعُثُ عَوَامِلُ الْأَلْفَةِ وَالْمُودَةِ وَالْحُبَّةِ وَالتَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصِحِ، وَتَتَشَابِكُ الْأَيْدِي لِحُلِّ الْمَعْضَلَاتِ، وَبِالشُّورَى يَصِلُ أَعْضَاءُ الْفَرِيقِ إِلَى مَا يَصْبُونَ إِلَيْهِ مِنْ نَجَاحٍ وَتَمَيُّزٍ فِي مَهَامِهِمْ.

روي عن أبي هريرة، قال: «ما رأيت أحدا أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم»³.

لقد جسّدت مواقف السيرة النبوية مبدأ الشورى، وطبّقها الرسول صلى الله عليه وسلم

¹ - سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، 3/ 337.

² سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي، وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، ح:

3791.

³ - شرح السنة، البغوي، 10/ 118.

وأصحابه تطبيقاً عملياً في كثير من المواقف والأحداث، والمنقب في سيرته يجد تجليات اعتماد هذا المبدأ، وانعكاس تطبيقه على أداء الفريق. فليس كالشورى وسيلة لتكثيف الجهود وتوحيد صفوف الفريق لتحقيق أهدافها

ومن ملامح تجليات مبدأ الشورى في السيرة ما ورد في قصة حفر الخندق، لما اجتمعت الأحزاب وتآمرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتماعهم وخروجهم إليه شاور أصحابه، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق، فرضي رأيه¹. إن اعتماد القائد المربي على الشورى واتخاذها إيهاً مبدأً من مبادئ العمل الجماعي، فإنه بذلك يفتح باب الحوار والإسهام في إثراء النقاش بين أصحابه حول مهمة من المهمات المستهدفة، فأفراد الفريق يختلفون من حيث الأصل واللغة والخبرات والمهارات... ولعلّ هذا ما يستنبط من فكرة سلمان الفارسي بحفر الخندق، ومعلوم أن المسلمين لم يكونوا يعرفون قبل ذلك حفر الخنادق، فاقترحتها سلمان رضي الله عنه نقلاً عن عادة الفرس وتجاربهم في حفر الخنادق، "وهنا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يحترم قيم وعادات الآخرين وتجاربهم، بالرغم أن هذه تجارب المجوس ومع ذلك أفاد منها، وهذا فيه ما فيه من بناء روح الفريق، وصناعة روح التميز"² والانفتاح على ثقافات الآخر المخالف.

فبالشورى تتجمع الآراء والمقترحات وتتحد لتفرز حلولاً قد تسهل تحقيق المهمة المنشودة، فحين تتلاقح الأفكار ويتبادل الأفراد خبراتهم ومقترحاتهم فيما بينهم، ستكون الحصيلة كمّاً هائلاً من الأفكار المتنوعة التي تحقق تقدماً في مسيرة الفريق.

يقول "نورمان سي هيل" في فن التعامل مع الزملاء في فريق العمل: "تكمن جذور التفاعل

¹ - الروض الأنف، السهيلي، 195/6.

² - مقال "صناعة التميز وتنمية المهارة: الآليات والمحفزات في ضوء السنة النبوية"، مرجع سابق، ص: 289.

الإيجابي بين أفراد الفريق في العلاقات التعاونية، حيث نجد أن المرونة شيء أساس فيما يتعلق بالاعتماد المتبادل الذي يتيح للناس أن يتشاركوا الآراء والأفكار والالتزامات بشكل مفتوح".¹

والسيرة النبوية زاخرة بصور هذا التفاعل الإيجابي بين أفراد الفريق، وقبول الرأي الآخر واعتماده؛ ففي غزوة بدر لما تأهب المسلمون للحرب نزلوا بمنزل، فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمتزلا أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة"، فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نعور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد أشرت بالرأي". فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فعورت وبني حوضا على القلب الذي نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية.²

وللحباب بن المنذر موقف آخر عمل فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام برأيه، وذلك في غزوة خيبر... فكان قائد فريق الصحابة -صلى الله عليه وسلم- يقبل رأي أصحابه الخبيرين في الشؤون العسكرية، وفي طبيعة الأراضي التي تتطلبها طبيعة المعركة دون أن يقول لهم: إني رسول الله، وحسي أن أمر بكذا، وأنهي عن كذا، إذ قبل منهم مشورتهم، وآراءهم فيما لم ينزل عليه وحي.³

لقد سعت السيرة العطرة إلى تنمية الوعي بأهمية العمل الجماعي، وسيادة مبدأ الشورى؛ لأن في الشورى تجسيد لإرادة الجماعة، وإشراك لجميع أفرادها في حمل المسؤولية وتحقيق الهدف. وهو ما طبقه الرسول -صلى الله عليه وسلم- وسار عليه الخلفاء الراشدون.

وقد عمل عمر الفاروق رضي الله عنه الشورى ليعين للناس من يصلح لهم في دين رسول الله

¹ - فن التعامل مع الزملاء، نورمان سي هيل، ص: 59. بتصرف

² - الروض الأنف، 77/5-78.

³ - السيرة النبوية: دروس وعبر، مصطفى بن حسني السباعي، (المكتب الإسلامي، ط3-1405 هـ)، ص: 117-118.

صلى الله عليه وسلم للقيام بأمر أمته عليه السلام، وليرجعوا إلى وصاياه وعهوده فيمن يصلح لذلك في دينه وشريعته¹. وبعد وفاته -رضي الله عنه- بقي هذا المبدأ، فأخذ به المهاجرون والأنصار واعتمدوه في تعيين خليفة المسلمين بعد وفاة عمر.

والأهمية الشورى داخل الفريق ودورها في توحيد الجهود وإرساء مبدأ الاتفاق المرضي لجميع الأطراف، أمرنا صلى الله عليه وسلم بتأخير فرد على الفريق في الحل والترحال، يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا خرج ثلاثة إلى سفر فليؤمروا أحدهم»، يقول البغوي: وإنما أمرهم بذلك، ليكون أمرهم جميعاً، ولا يتفرق بهم الرأي، فيحملهم ذلك على الخلاف، والشقاق².

فالشورى أسس العمل الجماعي وقاعدته المتينة، وتغيبها يتشتت الجهد وتبرز الفردية في العمل والعشوائية في التسيير، واحتكار القيادة وتعددتها.

وفي الختام؛ وبعد معاينة ملامح العمل الفريقي داخل صفحات السيرة النبوية يمكن القول أن العمل بروح الفريق له من المزايا والفضل ما لا يتحقق في العمل الفردي القائم على اتباع الهوى والتصرف الذاتي المفتقر لمجموعة من الأصول التي يتميز بها الفريق الجماعي، كما تتجلى هذه الأهمية في أنه ليس في وسع كل فرد أن يقوم بكل شيء، فلا بد من اكتشاف صاحب الخبرة والموهبة الملائم للعمل، حتى لا تُهدر الطاقات وتتلأشى.

كما أن من مزايا العمل الجماعي أنه يربي ويحث على تقبل الآخر والانفتاح عليه، سواء اختلف مع الفريق في اللغة أو الدين أو العرق... فمن أسس المجتمع المتميز الصالح احترام أفرادهِ للآخر والاعتراف بحضوره. وهذه مهارة أخرى من مهارات صناعة المجتمع سنقوم بدراستها واستجلاء صورها من خلال السيرة النبوية فيما سيأتي.

¹ - تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي، (دار المصطفى - القاهرة، د.ت)، 1/ 251. بتصرف

² - شرح السنة للبغوي، 7/11.

الفرع الثالث: مهارة التنوع وقبول الآخر

العنصر الأول: مجالات التنوع

من المجالات التي اخترنا الحديث عنها بيانا لأبعاد التنوع في السيرة النبوية: مجال التعارف والمعرفة، مجال الفهم، مجال القبول، ثم مجال السلوك. وسنبين العلاقة الرابطة بين كل واحد منها، والتسلسل المبني عليها.

أولاً: المعرفة والتعارف

إن الأساس الذي نطلق منه هاهنا هو قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾¹.

لقد وجه القرآن الناس إلى وحدة أصلهم، وبين أن تعدديتهم ضرورة لتعارفهم وتكاملهم. ففي الآية تذكير بأصناف عدة من الناس، ودعوة إلى التعارف بينهم، وتنحية الاختلافات (سواء في الدين أو في الجنس أو في الطبقات أو في الشعوب والقبائل...).

فبغير التعارف لا يمكن للمعرفة أن تحصل، وإذا لم يتمكن الإنسان من معرفة الآخر لا يمكنه تفهم أفكاره ومشاعره ودوافعه. فالمعارف تمثل أساس باقي المجالات (الفهم، القبول، السلوك).²

ثانياً: الفهم

مما يتبوأ مقام الأهمية في فهم الآخر معرفة لغته التي يحدث ويتكلم بها، إذ هي مفتاح معرفة وفهم

¹ - سورة الحجرات: الآية 13

² - مهارات الحياة وبناء مجتمع المعرفة، يحيى علي زهران، ص: 92.

طريقة تفكيره وعيشه وتصرفاته وسلوكه وتصوراته.

وقد مرّت معنا في السيرة النبوية واقعة تترجم قوة معرفة اللغة ودور فهمها في التعرف على الآخر وعلى خلفياته وأمور حياته.

ولعل أمر النبي صلى الله عليه وسلم زيدا بن ثابت رضي الله عنه بأن يتعلم اللغة السريانية أوضح مثال على هذا، وذلك ليتمكن صلى الله عليه وسلم من معرفة ما كتبه اليهود في كتبهم، (إذ كانت لغتهم المعتمدة حينئذ السريانية)، وليتمكن كذلك من إرسال كتبه بلغتهم.

قال صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت: "يا زيد أتحسن السريانية؟، إنه تأتيني كتب بها" فقال زيد: لا يا رسول الله. فقال له صلى الله عليه وسلم: "تعلمها". يقول زيد رضي الله عنه: فتعلمتها في سبعة عشر يوماً.¹

ثالثا: القبول

لقد تقبل النبي صلى الله عليه وسلم الآخر المختلف؛ سواء في اللون أو الجنس أو الدين أو العرق أو اللغة...

فعايش اليهود بالمدينة وضمن حقهم في العيش الكريم، وامتنع التجارة مع الرجال والنساء، وكان من سكان المدينة من العرب وغيرهم، ولم يفوت عليه السلام أن يأمر باعتبار وحدة الأصل، والدعوة إلى المشترك الإنساني.

جاء في حجة الوداع: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ،

¹ - سبق تخرجه.

أَبْلَغْتُ؟ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...¹.

رابعاً: السلوك

السلوك هو الثمرة النهائية لمجالات التنوع، وهذه الثمرة هي التي تعكس القدرة على التعامل مع المختلفين، وصياغة طرائق آمنة للتعامل معهم، وذلك من خلال ثقافة مشتركة من الاحترام والتفهم والقبول المجتمعي.

فبالسلوك يمكن أن يتحول الاختلاف إلى الائتلاف، وتُؤَسَّسَ أرضية التعارف بدل التعارك. ونستحضر هنا قصة أبي الوليد لما دخل على نبي الله صلى الله عليه وسلم ممثلاً سفير قريش محاولاً رده عن دعوته ومحاولاً إغرائه بالمال والجاه والملك... فاستمع له عليه السلام حتى أكمل حديثه، فقال: "أفرغت يا أبي الوليد، فاسمع مني".² والشاهد هنا سلوكه وتصرفه صلى الله عليه وسلم مع المخالف عقدياً، وردة فعله الحكيمة التي أبداهها أمام عقبة، واحترامه لحقه في التحدث حتى أكمل. والناظر في واقع سلوك المنتسبين إلى الإسلام اليوم نجد أن "التزام المسلمين بقيم السلوك الإسلامية نادر ومغمور، وأن الأغلبية المطلقة تسير على النقيض من ذلك، حتى الحريصون على أداء الشعائر الدينية في أوقاتها وبسننها الشكلية، نسبة غير يسيرة منهم لا تولي اهتماماً للوازع الديني في شؤون العلاقات بالعباد بدءاً من واجبات الوظيفة والمهنة إلى أعراض الناس وحقوقهم الفردية والجماعية مروراً بالتعامل مع قوانين السير مثلاً والبيئة والصحة العامة...".³

فالسلوك هو مفتاح التنوع وثمرته المرجوة، إذ منه المبتدأ وإليه المنتهى في التنوع والتعامل مع الآخر، وقد يشكل تمثله السلبي عقبة أمام حصول عملية التنوع وإقبال الآخر على المنفتح عليه، وإن كان

¹ - مسند أحمد، أحاديث رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، 474 / 38، جزء من الحديث: 23489.

² - سبق تخرجه.

³ - مقال "مسألة النفس ومراجعة الذات" أحمد الخليلي، مرجع سابق، ص: 24

هذا الأخير يتمثل أصول الدين العظمى!

ومن صور قبول الآخر المختلف من خلال السيرة النبوية قصة الأعرابي الذي بال بالمسجد؛ روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه أن أعرابيا بال في المسجد، فقام إليه بعض القوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوه ولا تزموه» قال: فلما فرغ دعا بدلو من ماء فصبه عليه¹، وعند البخاري؛ قال الأعرابي: "اللهم ارحمني ومحمدا، ولا ترحم معنا أحدا"².

والأعرابي هو الذي يسكن البادية، ومعروف عن الأعراب الجفاء وقلة تمكنهم من ذوقيات المخالطة وأدبيات التعامل مع الآخر، فراعى صلى الله عليه وسلم وضعيته، وتقبل حصول التنوع بين البشر، فكان تعامله معه نابعا عن حكمة وحصافة عقل، ولهذا ضيق الأعرابي شمول الرحمة وحصرها عليه وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسلوك هذا الأخير وحسن تعامله معه.

من الصور البهية كذلك في بيان أهمية السلوك داخل عملية الانفتاح وتقبل الآخر المختلف، ما ورد في عفوه صلى الله عليه وسلم عن الأسرى في فتح مكة، وقد أجلسوا بالمسجد الحرام وأصحابه ينتظرون أمره فيهم.

جاء في سيرة ابن هشام أنه صلى الله عليه وسلم قال: "يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم}، ثم قال يا معشر قريش ما ترون أي فاعل فيكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء"³.

قال ابن عربي: فلا ملك أوسع من ملك محمد فإن له الإحاطة بالمحاسن والمعارف والتودد والرحمة

¹ - صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء، من غير حاجة إلى حفرها، 236/1، ح: 98.

² - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، 10/8، ح: 6010.

³ - الروض الأنف، 232/7.

والرفق.¹

ففي الرحمة كان على قمة تمثل السلوك القويم الذي يمهد لفتح قنوات التعارف والتنوع وقبول الآخر وعدم إقصائه؛ فكان يقر بوجود التنوع داخل المجتمع؛ بل كانت المدينة تتسع وتضم إلى جانب المسلمين قبائل هائلة من اليهود، وفي السيرة ملامح تجليات تعامله وسلوكه صلى الله عليه وسلم معهم، سواء في المجال الاقتصادي أو في الحياة المعيشية العامة (كمناداته بحقوق الجار مسلماً كان أو غير مسلم...)، والأمثلة في هذا الباب كثيرة من أن تحصى.

والمنقب في السيرة النبوية يقف عند صور تعامله عليه السلام مع المخالفين في المجتمع المدني، ويجد من الملامح الدالة على قبوله التنوع ودعوته إلى الانفتاح وتقبل الآخر ما يسعف الباحث في الإيمان باتساع الدعوة المحمدية ومناسبتها للعيش المشترك لبني الإنسان.

العنصر الثاني: التنوع وقبول الآخر في مجتمع المدينة

إن المتصفح لصفحات السنة المطهرة يجد أن مفهوم الوطن فيها يستوعب كل الأطياف ويرسي مبدأ التعايش ويحترم المشترك الإنساني. ولعل من بين تجليات هذا التعايش ما جاء في وثيقة المدينة التي سطرها محمد بن عبد الله بين المسلمين واليهود، والتي أسست للعيش المشترك بين مواطني دولة المدينة التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتولى إدارة شؤونها وقيادتها، فأخى بين المهاجرين والأنصار على اختلاف قبائلهم وتعدد عشائهم فأقام دولة مستقلة تحوي مزيجاً بين المسلمين وغيرهم.

يتكون سكان المدينة من المسلمين واليهود فضلاً عن بعض المشركين، فكانت أعراقهم متنوعة وثقافتهم متفاوتة، ومن هنا فقد جاءت وثيقة المدينة الدستورية لتعلن مبادئ وأسس حكم الدولة وواجبات مواطنيها والعلاقة بينهم وبين رئاسة الدولة، متمثلة في الرسول عليه الصلاة والسلام وكل ما

¹ - الشماثل الشريفة، السيوطي، ص: 220.

لهم وما عليهم من حقوق وواجبات دستورية.

فصحيفة المدينة تحث على القيم الكبرى، بل هي نفسها مظهر من مظاهرها، فكليات الشريعة ونصوصها تشهد أن صحيفة المدينة شرط فيها رسول الله لكل مكونات مجتمع المدينة واشترط عليهم، وهي مؤهلة لأن تكون مرجعا لعلاقة المسلمين بالمنخالف ديانة، لأن مضامينها لا تخالف نسا ولا تنقض مقصدا، فكل بند منها إما أنه أتى يرحم الخلق، أو يقرر حكمة، أو يأمر بعدل، أو يحقق مصلحة لا تتعلق فقط بالمسلمين، بل هي مصلحة الإنسان الذي يعيش بينهم مهما كان عرقه وديانته، ويدراً مفاصد العدوان وسفك الدماء، ويصون الأنفس والأموال والحريات ويضمن حرية المعتقد والممارسة لكل طائفة.¹

والمطلع على هذه الوثيقة يجد نفسه أمام نصوص دستورية لم يسبق لها وجود في تاريخ الفكر الإنساني المؤسس للعيش المشترك داخل الوطن الواحد، كما يستنبط المنهج النبوي الناجح في سياسة الدولة والحفاظ على بيضة الوطن.

لقد وحّد محمد بن عبد الله مفهوم الوطن لدى كل الأطياف القاطنة بالمدينة، فجعل اليهود والمؤمنين جنبا إلى جنب؛ أمة واحدة، تشتركان في الوطن نفسه، وتختلفان في الديانة، ولعل هذا ما ينص عليه قوله في الوثيقة: " وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِيَهُودَ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ"². بند يرسي مبدأ التعايش والمشاركة الإنسانية، منبثق من الدستور الكوني (القرآن الكريم)؛ شعاره ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾³، وأُسُّهُ ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾⁴.

¹ - إعلان مراكش لحقوق الأقليات الدينية في العالم الإسلامي: الإطار الشرعي والدعوة إلى المبادرة، (منتدى تعزيز السلم في

المجتمعات المسلمة، 25-27 يناير 2016)، ص: 67-68.

² - الروض الأنف، 176/4.

³ - سورة الكافرون: الآية 6

⁴ - سورة الحجرات: جزء من الآية 13

والمأمل في سياسة نبي الله -عليه من الله أفضل الصلوات والتسليم- في تسيير الدولة وإدارتها يقف على الحنكة والحكمة في توحيد العيش بين مختلف الديانات في وطن واحد يمتص كل الخلافات التي قد تُنتجها العرقية والقبلية الموجودة حينئذ.

وقد نجح صلى الله عليه وسلم في الحفاظ على اللحمة الوطنية لمواطني المدينة نجاحاً يُترجمه استقرار الدعوة وانتشارها بمدينته. ولعل تحقيق هذه التعددية في العيش المشترك داخل الوطن الواحد هو ما يدندن حوله مختلف قياد الدول اليوم لما ينتج عنها من درء التجاذبات التي قد تهدد استقرار الدولة وتسبب في شرخ بيضة الوطن.

إن سياسة القائد العظيم محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم فتحت أبواب التعارف والتنوع بين الشعوب المختلفة التي كان المجتمع المدني يضمها، فلم يكن الاستقلال الديني حائلاً أو مناقضاً لمبدأ التعايش وقبول الآخر المختلف، فكانت المواطنة توحد الصفوف المختلفة المعتقدات والأجناس والأعراق... وكان احترام حقوق الآخر -كيفما كان أصله ونوعه ولونه- حاضراً في مجتمعه المثالي.

المطلب الثالث: مهارات صناعة المجتمع في السيرة النبوية

الفرع الأول: مهارة الانتماء والمواطنة

العنصر الأول: حب الوطن والحنين إليه

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وأتمودجا مثاليا في حبه لوطنه ووفائه له والحنين إليه.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاؤُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدَّنَا ، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ ، وَخَلِيلُكَ ، وَنَبِيُّكَ ، وَإِنِّي عَبْدُكَ ، وَنَبِيُّكَ ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ ، وَمِثْلِهِ مَعَهُ ، قَالَ : ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدِهِ لَهُ ، فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ"¹.

وما يبين إخلاصه وحبه عليه السلام لوطنه أنه يدعو له بالبركة، ويتأسى بخليل الله إبراهيم عليه السلام لما دعا لمكة، فدا عليه السلام للمدينة؛ لوطنه الثاني، بعدما أخرج من وطنه الأم مكرهاً.

ومن علامات حب الوطن؛ حب مرافقه وعمرانه وجغرافيته ومجاله الطبيعي وكل مكوناته؛ ففي السيرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى جَبَلٍ أُخِذَ، فَقَالَ: هَذَا جَبَلٌ يُجْبِنُنَا وَنُحِبُّهُ، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي حَرَّمْتُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا"². "هذا جبل يجبننا ونحبه" عبارات تكشف عن حب عميق، وتعلق كبير بالوطن، بحلّه وحرّمه، بجباله ووديانه، برمّاله وصخوره.

¹ - صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها بالبركة، 1000/2، ح: 1373.

² - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أُخِذَ يُجْبِنُنَا وَنُحِبُّهُ، 103/5، ح: 4084. وأنظر أيضا الأحاديث: 2889، 2893، 3367، 4083، 5425، 7333.

يقول ابن الرومي يبين العلة في حب الأوطان:

وحبّ أوطان الرّجال إليهم ××× ما ربّ قضاها الشّباب هنالك¹

ولا غرابة أن تجد حب الوطن مغروسا في نفس المواطن؛ ليس كونه يستجيب لمقومات رغد العيش ورفاهية الحياة، بل لأن النفس مجبولة على حب تلك الرقعة من الأرض فحسب.

وقد قال بعض الفلاسفة: "فطرة الرجل معجونة بحبّ الوطن"²، بل إن "من علامة الرّشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها توّاقة"³.

أما الحنين إلى الوطن؛ فيكفي التأكيد أن أغلب موضوعات الحنين تتعلق وترتبط بالحنين إلى الوطن.

والمطلع على معاجم اللغة العربية يجد علماء اللغة عرفوا الحنين بتلك ال كتابة التي تأخذ النَّفس بسبب البعد عن الوطن⁴، فضلا عن كون كلا من الشوق والحنين من أهم أغراض الشعر العربي قديمه وحديثه، وذلك عائد لما مر به العرب وأوطانهم من ويلات وظلم وقهر واضطهاد بسبب الكثير من المهجرات لأشخاص ومجموعات بشرية كبيرة، وبسبب تلك الرابطة المقدسة التي تدعى (حب الوطن) والتي تنشأ بين الإنسان وبين تلك البقعة من الأرض التي ترعرع فيها هو وأبناء جلدته، والتي أُجبر لظرف ما على الرحيل منها مخلّفا الأهل والمال والوطن⁵.

ومن تجليات الحنين إلى الوطن في السيرة النبوية ما أخرجه الإمام البخاري أن رسول الله صلى الله

¹ - الأزمنة والأمكنة، الأصفهاني، (دار الكتب العلمية - بيروت، 1417هـ) ص: 8.

² - الرسائل، عثمان أبو عمرو الجاحظ، (تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط1384هـ)، 387/2.

³ - المرجع نفسه، 385/2.

⁴ - معجم اللغة العربية المعاصرة، 574/1.

⁵ - ابن خلدون أديبا، يوسف قطريب، (دار الكتب العلمية - لبنان، 2016م)، ص: 39.

عليه وسلم كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ ، فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ ، أَوْضَعَ نَاقَتَهُ ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَكَهَا قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : زَادَ الْحَارِثُ بْنُ عُمَيْرٍ ، عَنْ حُمَيْدٍ : حَرَكَهَا مِنْ حُبِّهَا¹ .

العنصر الثاني: نعمة الوطن ودورها في تحقيق الأمن الروحي

يعتبر الوطن من بين النعم التي يُحمد عليها، ذلك أنه يُعدّ من أهم مقومات العيش؛ أن يكون للإنسان بيت يأويه فوق بقعة جغرافية آمنة مستجيبة للعيش الكريم. وقد جاء عنه عليه السلام أنه كان يحمد الله على نعمه الظاهرة والباطنة؛ من مأكَل ومشرب ومسكن، روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَأَوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيٌّ»²، معناه: لا وطن له ولا سكن يأوي إليه³ .

والم تأمل في سورة قريش يجد أنها أجملت ولخصت علاقة الوطن بتحقيق الأمن العام.

يقول تعالى : (لَا يَلْفُ فُرَيْشٍ ﴿١﴾ اِيْلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ اِلذِيْ اَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ ﴿٤﴾ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٥﴾)⁴ . فرغد الرزق، والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى⁵ . فقد ضمن الله لهم مقومات العيش، وأسبل عليهم الأمن، فأمرهم بإفراد العبادة له وعدم الشرك به، شكرا له على هذه النعم التي تستحق الشكر.

¹ - صحيح البخاري، أبواب العمرة، باب من أسرع ناقته إذا بلغ المدينة، 7/3، ح: 1802

² - صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، 2085/4، ح:

2715.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - سورة قريش كاملة: الآيات 1-4

⁵ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ص: 935.

بَوَّبَ الإمام البخاري باباً في أدبه المفرد أسماه " باب من أصبح آمناً في سربه " وأورد ضمنه حديث سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُحْصِنِ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَافَى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامٌ يَوْمَهُ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»¹. فجعل كلا من تحقيق الأمن في الوطن، والعافية في الجسد وتوفير طعام اليوم تحقيقاً للدنيا كلها.

لقد عاقب الله بني إسرائيل بأن جعلهم يتيهون في الأرض بلا وطن، أربعين سنة عقوبة لهم ، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْفُؤَمِ الْبَاسِيفِينَ﴾².

فسمى الله عز وجل فترة إبعادهم عن وطنهم بالتيه في الأرض، حيث حرمانهم من نعمة الأمن والأمان والاستقرار.

وقال فرعون: ﴿ءَأَمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ- اذَنْ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا بِسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾³، ومعلوم عند جميع العقلاء أن مفارقة الوطن والنعمة المألوفة من أصعب الأمور، فجمع فرعون بين الشبهتين اللتين لا يوجد أقوى منهما في هذا الباب⁴.

ففرعون كان يدرك نعمة ملازمة الأوطان، كما يعرف مذلة التنقل عبر البلدان؛ إخراجاً ونفياً.

قيل لبعض الأعراب: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان. قيل: فما الدّلة؟ قال: التنقل في البلدان، والتنحّي عن الأوطان⁵.

1 - الأدب المفرد، البخاري، باب من أصبح آمناً في سربه، ح: 300.

2 - سورة المائدة: الآية 28.

3 - سورة الأعراف: الآية 122

4 - مفاتيح الغيب، الرازي، 14/339. بتصرف

5 - الرسائل، الجاحظ، 2/407.

فنعمة لزوم الأوطان اطمئنان مادي ومعنوي، لا يستشعره إلا من أبعد وأخرج من وطنه، ولعل هذا الاطمئنان ما يدل عليه قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا فَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفَعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾¹، "فإذا اطمأنتم": أي إذا "رجعتم إلى الوطن"².

جاء في وثيقة المدينة: "وَأِنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنًا، وَمَنْ قَعَدَ آمِنًا بِالْمَدِينَةِ"³، بهذا البند ذيل عليه السلام دستور المدينة؛ بند يضمن فيه الأمن - في الحل والترحال - لكل من ينتمي للوطن المشترك، ولكل من صادق على شروط وبنود الدستور المنظم لحياة المواطنين بالمدينة، مع اختلاف أعراقهم ودياناتهم.

هي دعوة صريحة لشمولية السلم على كل المنتمين لهذا الوطن؛ دعوة محمدية تحت مواطني المدينة على أن ﴿وَدَخُلُوا فِي السَّلْمِ كَأَقْبَةِ﴾⁴، ضمانتهم في ذلك انضواؤهم تحت لواء دستور الدولة، وتمثل المواطنة الصالحة.

إن وعد الرسول الأكرم لمواطني المدينة بالأمن المجتمعي داخل الوطن وكذا بالسلم العالمي خارجه رهين بإخلاص ولائهم لوطنهم وتمثلهم لفعل المواطنة؛ وذلك بالاستجابة لبنود الوثيقة وشروطها. ولعل هذا ما يُكسب المواطنة شرعية تحقيق الأمن لمواطنيها وتمتعهم بحقوقهم، سواء كانوا فوق ترابها أو خارجه.

¹ - سورة النساء: جزء من الآية 102.

² - باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، أبو القاسم النيسابوري، (تحقيق: سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي، جامعة أم القرى، 1419هـ)، 386/1.

³ - الروض الأنف، 177/4.

⁴ - سورة البقرة: جزء من الآية 206.

العنصر الثالث: مفارقة الأوطان وتأثيرها على الإنسان

من مظاهر واقعية الشريعة الإسلامية لفطرة الإنسان أن أي الوحي تتعامل مع هذا الكائن بفطرته المزدوجة، لكن في كيان واحد متكامل؛ فهناك جسم وروح، لذلك وجه الإسلام الإنسان أن يقضي ضرورياته بالمزاج المترابط من الجسم والروح معا. من هذا المنطلق وجبت مراعاة كلا الجانبين أثناء دراسة حالة من حالات تفاعل الإنسان مع مجتمعه ومجاله الذي ينتمي إليه.

لا يخفى ما لأمن المواطن واستقراره بوطنه من شعور وإحساس بالطمأنينة تجاه وطنه الذي يعيش فيه، وما كان لهذا الاستقرار وهذا الإحساس بطمأنينة النفس أن يتحققا لولا تشبُّع نفسية الفرد بالمواطنة الصادقة التي يحققها تعلقه بذلك الوطن، حبا وحنينا، انتماء واعتزازا.

أولا: تأثيرها على الجانب النفسي والروحي

بينت السيرة النبوية في أحداثها تلکم العلاقة المتوطدة بين كلا من حب الوطن وتحقيق الأمن الروحي للمواطن، حيث يصير الثاني متعلقا بتحقيق الأول، والعكس؛ فيرتبط كلاهما بالآخر وجودا وعدما.

فالأمن الروحي مطلب إنساني، وحب الوطن والانتماء إليه طريق لتحقيق هذا الأمن في نفس المواطن.

ويعد الإخراج من الوطن من الأمور الشاقة على النفس، بل يُعدّ مما لا طاقة للإنسان به، فقد فسّر قوله تعالى: (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) بالغرابة، وقيل: النزوح عن الوطن¹.

فالغرابة قسوة شديدة الوقع على النفس، واضطراب داخلي يُعكّر صفوها ويُسعِرُها بالتيه والنقص بعيدا عن موطنها. يقول إبراهيم بن أدهم: «عَاجَلْتُ الْعِبَادَةَ، فَمَا وَجَدْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِزَاعِ

¹ - تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، 581/2.

النَّفْسِ إِلَى الْوَطَنِ»¹، وقال: «مَا قَاسَيْتُ فِيمَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ مُفَارَقَةِ الْأَوْطَانِ»².

وقصة الصحابي الجليل أصيل - لما وفد المدينة قادمًا من مكة - خير دليل يجسد هذا الألم الذي تلحقه مفارقة الإنسان لوطنه بالقلب والنفس. "عَنْ بُدَيْحٍ قَالَ: " قَدِمَ أَصِيلُ الْهُدَلِيُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنْ مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَصِيلُ، كَيْفَ تَرَكْتَ مَكَّةَ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَسَنَ أَبْطَحُهَا وَأَنْتَشَرَ سِلْمُهَا، وَأَعَدَّقَ ثِمَارَهَا، وَأَحْجَرَ إِذْخِرَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْهًا يَا أَصِيلُ، دَعِ الْقُلُوبَ تُقِرُّ قَرَارَهَا»³.

لقد استوقف رسول الله صاحبه القادم من مكة بعدما أخذ في وصف حال مكة بعد الهجرة. وقوله: "ويها يا أصيل" دليل على صدّ تجديد الذكرى بالوطن الأم وتأثر النفس بذلك بعدما تحركت سماعا بأحوال وطنها الذي أخرجت منه مجبرة. وما قوله: "دع القلوب تقرر قرارها" إلا إشارة إلى أن قلبه نزع إلى مكة وأخذ في اختراق الجسد ليتصل بمحله الذي ألفه.

يقول أحد الشعراء في هذا الصدد:

ومغترِبٍ بالمرج يبكي لشجوه ××× وقد غاب عنه المسعدون على الحب

إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه ××× تنفس يستشفي برائحة الركب⁴

والمأمل في قصة بدء الوحي يقف عند ذهوله واستغرابه عليه السلام من فكرة إبعاده عن وطنه وإخراجه منه. جاء في حوار ورقة بن نوفل مع رسول الله عليه السلام: " لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ

1 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، 380/7.

2 - المرجع نفسه.

3 - أخرجه أبو الفتح الأزدي في "المخزون في علم الحديث"، 46/1، والأزرق في "أخبار مكة"، باب "تذكرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ مَكَّةَ"، 154/2 وابن أبي الدنيا في "المطر والرعد والبرق"، باب المطر، ح: 80.

4 - المحاسن والمساوي للبيهقي، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - القاهرة، 1380هـ)، فصل محاسن الحنين إلى الوطن، ص: 139.

قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَوْ مُخْرَجِي هُمْ؟»، قَالَ: نَعَمْ¹.

"أَوْ مُخْرَجِي هُمْ؟" دَلِيلٌ عَلَى حُبِّ الْوَطَنِ وَشِدَّةِ مُفَارَقَتِهِ عَلَى النَّفْسِ (...). فَلِذَلِكَ تَحَرَّكَتْ نَفْسُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْخُرُوجِ مِنْهُ مَا لَمْ تَتَحَرَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ فَقَالَ: "أَوْ مُخْرَجِي هُمْ؟". وَالْمَوْضِعُ الدَّالُّ عَلَى تَحَرُّكِ النَّفْسِ وَتَحَرُّقِهَا إِذْ خَالَ الْوَاوِ بَعْدَ أَلْفِ الْإِسْتِفْهَامِ مَعَ اخْتِصَاصِ الْإِخْرَاجِ بِالسُّؤَالِ عَنْهُ وَذَلِكَ أَنَّ الْوَاوِ تُرَدُّ إِلَى الْكَلَامِ الْمُتَقَدِّمِ وَتُشْعِرُ الْمُخَاطَبَ بِأَنَّ الْإِسْتِفْهَامَ عَلَى جِهَةِ الْإِنْكَارِ أَوْ التَّفَجُّعِ لِكَلَامِهِ أَوْ التَّأَلُّمِ مِنْهُ².

وبعد إخراجها عليه السلام من وطنه أقسم على إخلاص حبه لمكة، فحوّل انتماءه للوطن الثاني (المدينة) وصار يدعو الله أن يحبها إليه كما حُببت إليه مكة.

جاء في حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ حَمْرَاءَ قَالَ: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَاقِفًا عَلَى الْخُرُورَةِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيِّرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ"³.

وفي حديث آخر عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَكَّةُ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مَا خَرَجْتُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا مِنْ حُبِّ الْمَدِينَةِ مِثْلَ مَا جَعَلْتَ فِي قُلُوبِنَا مِنْ حُبِّ مَكَّةَ"، وَمَا أَشْرَفَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى الْمَدِينَةِ قَطُّ إِلَّا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ الْبِشْرُ وَالْفَرْخُ"⁴.

لا يقتصر تأثير الجلاء من الأوطان على الجانب المعنوي في الإنسان بل يتعداه إلى إصابة جسده بالسقم أيضاً، وسنين حال صحابة رسول الله وتدهور صحتهم بعد انتقالهم إلى المدينة.

¹ - صحيح البخاري، بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، 7/2، جزء من الحديث: 3.

² - الروض الأنف، 273/2.

³ - سنن الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب في فضل مكة، ح: 3925. قال الترمذي: "حديث حسن صحيح، غريب".

⁴ - المعجم الكبير، الطبراني، باب العين، محمد بن زيد، عن ابن عمر، 361/12، ح: 13347.

ثانيا: تأثيرها على الجانب الصحي

تحدثنا أمنا عائشة رضي الله عنها عن حالة كل من أبي بكر وبلال رضي الله عنهما لما قدما المدينة ولم يألوا المكان، كما يترجم الأثر حجم الألم والسقم الناتج عن تغيير صحابة رسول الله لوطنهم، مجبرين على ذلك غير مخيرين؛ قَالَتْ رضي الله عنها: " لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَعَكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَّى يَقُولُ:

كُلُّ امْرِيٍّ مُصَبَّحٍ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنِي مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أُفْلِعَ عَنْهُ الْحُمَّى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ وَيَقُولُ :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَّ لَيْلَةً بَوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ خَرْتُ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرَدَنْ يَوْمًا مِيَاةً مَجْنَّةً وَهَلْ يَبْدُونَ لِي شَامَةً وَطَفِيلُ

يقول بلال: اللَّهُمَّ الْعَنْ شَيْبَةَ بَنَ رَيْعَةَ ، وَعُتْبَةَ بَنَ رَيْعَةَ ، وَأُمَيَّةَ بَنَ خَلْفٍ ، كَمَا أَخْرَجُونَا مِنْ أَرْضِنَا إِلَى أَرْضِ الْوَبَاءِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَّنَا ، وَصَحَّحَهَا لَنَا ، وَانْقُلْ حُمَاهَا إِلَيَّ الْجُحْفَةَ، قَالَتْ : وَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَهِيَ أَوْبًا أَرْضِ اللَّهِ "1.

يقول ابن بطال معلقا على الحديث: " أما حديث عائشة حين وُعد أبو بكر وبلال وإنشادهما في ذلك؛ فإن الله لما ابتلى نبيه بالهجرة وفراق الوطن ابتلى أصحابه بما يكرهون من الأمراض التي تؤلمهم (...)، فتعزى أبو بكر عندما أخذته الحمى بما ينزل به الموت في صباحه ومساءه (...)، أما بلال فإنما تمنى الرجوع إلى مكة وطنه الذي اعتاده ودامت فيه صحته. فلما رأى رسول الله ما نزل بأصحابه من الحمى والوباء خشي كراهية البلد، لما في النفوس من استئصال ما تكرهه، فدعا الله في

1 - صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي صلى الله عليه وسلم أن تعرى المدينة، 323، ح:

رفع الوباء عنهم، وأن يجب إليهم المدينة كحبهم مكة وأشد¹.

لقد تأكد لنا في غير ما مرة أن أصحابه صلى الله عليه وسلم كانوا يستعينون - وهم خارج أوطانهم - بالالتجاء إلى الله بالدعاء في أن يبارك الله لهم في وطنهم، ليتبين بعد ذلك أن نعمة استقرار الإنسان - سواء في مكونه الجسدي أو النفسي - من أكبر النعم الذي يستظل الإنسان تحت ظلها، إذ بدونها لا يمكن للإنسان أن يعيش مرتاح الكيان. لذلك استحقت شكر الله وحمده عليها.

وختاماً؛ فقد تبين لنا أن هذا التأصيل لحب الأوطان كشف عن الذخائر التي تخترتها السيرة النبوية، وأنها أعظم قانون وأجمع دستور ينظم حياة الإنسان في علاقته مع الآخر داخل المجتمع، ولو وظفت هذه الذخائر توظيفاً علمياً لكانت أمة الإسلام قائدة العالم في تمثيل مبدأي الانتماء والمواطنة وبالتالي تحقيق الأمن والاستقرار بالمجتمع، وكذا الحفاظ على اللحمة المجتمعية المتماسكة.

ولا يفوتني أن أذكر أن الانتماء للوطن في السيرة النبوية لا يُعرّف داخل الدائرة الضيقة، ولا يتعارض وباقي الانتماءات الأخرى المترابطة (الانتماء للدين، للأسرة، للمجتمع ثم للبشرية)، وإنما يعرف داخل مجموعة من الدوائر المتكاملة فيما بينها.

إن حب الوطن والانتماء إليه مهارة تنمى، يبدأ اكتسابها منذ السنوات الأولى من عمر الإنسان، وتعمل المؤسسات المجتمعية (الأسرة، المدرسة، المسجد، الإعلام...) على زرعها في وجدان الفرد منذ نعومة أظفاره حتى يضطلع إلى مستوى المواطن الصالح المتعلق بوطنه الخاص وينخرط في الوطن الكوني الشامل.

فإذا استشعر انتماءه وحبه لوطنه فإن تقبله لباقي القيم المجتمعية الأخرى يهون ويسهل عليه، ويسر له انخراطه في منظومة السلوكيات التي تصب في مصلحة مجتمعه؛ كاحترام بيئته وتفاعله الإيجابي مع محيطه ومجاله (سواء في علاقته بالطبيعة أو الإنسان أو الحيوان).

¹ - شرح صحيح البخاري، ابن بطال، 558/4.

الفرع الثاني: مهارة الحفاظ على البيئة والموارد

العنصر الأول: في العناية بالمجال المائي

لقد ربط الخالق عز وجل حياة كل شيء بالماء، وجعل هذا الأخير من أولى المقومات الضرورية لاستمرارية الكائنات الحية؛ باختلاف أنواعها وأجناسها. والمطلع على سيرة العرب في الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية يجد أن هذا المورد يحظى بمكانة سامية جعلت مالكة حينئذ يفخر به على من سواه.

فقد كان بره عبد مناف يفخرون على قريش بما ولوا عليهم من السقاية والرفادة ، وكذا بززم حين ظهرت لهم . وكانت قريش قبل حفر زمزم قد احتفرت بئارا بمكة¹ ، فلما ظهرت زمزم هيمنت على البئر التي كانت قبلها والتي كانت تسقي الحجاج ، وانصرف الناس لمكائنها بالمسجد الحرام . إن المتعمق في معجزة زمزم ومعالجتها في ضوء الآية "وجعلنا من الماء كل شيء حي" يجد أنه فضلا عن كون الماء أساس حياة البشر والحيوان والنبات وكل الكائنات الحية... فإنه أيضا أساس حياة العمران وبناء الحضارات وازدهار البلدان.

وقد كان لهاجر الفضل -بعد الله تعالى- في الحفاظ على زمزم وبقائها إلى اليوم، وذلك أنها لما تفجرت ينابيع المياه بين يديها أخذت تزمزما وتنشئ لها حوضا لتحديدتها والمحافظة عليها، وقد كان هذا المورد (ماء زمزم) أساس تشكل الجماعة السكنية التي نزلت عند هاجر وابنها واستقرت بالقرب منهما، فكانت بداية تشكل مجتمع صغير مرتبطة بوجود مصدر الحياة.

وحفظا لهذا العنصر البيئي الهام في جزيرة العرب، ابتدع عمارها أساليب لحماية هذه المادة من التلف أو النفاد، كإيكاء القرب، وإحكام سد أفواه الآبار، وصنع الحياض لتجميع الماء، أو تغويره

¹ - يرجع إليها بالتفصيل في: الروض الأنف، 77/2-79.

في باطن الأرض إغناء للفرشة المائية وحماية من التبخر، كما يؤثر عن العرب إيداع الماء في جرار وقلال طينية، وأوعية جلدية وبيض النعام أحيانا وطمره تحت الثرى إبعادا عن الحرارة والضوء، وإبقاء على طراوته وحفظا لبرودته¹.

فلما بزغت شمس النبوة أكدت على ضرورة الحفاظ على هذا المورد الهام في حياة الكائنات، وأرشدت بني الإنسان إلى تقنين التعامل معه بسلوك عقلاني يضمن بقاءه ويرسخ ثقافة المحافظة عليه.

ومن صور المحافظة على الماء واستغلاله داخل مبدأ التوازن (بحيث لا إفراط ولا تفريط) أنه صلى الله عليه وسلم كان يقتصد في تعامله مع الماء حتى في استعماله له من أجل الطهارة الواجبة على الإنسان المسلم، فكان عليه السلام يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع²، وعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد، تختلف أيدينا فيه من الجنابة»³.

إن هذا الترشيد النبوي في استعمال الماء يؤكد لنا التأصيل الأول لمهارة المحافظة على موارد البيئة، وعدم الإسراف في استغلالها، كما يؤكد لنا الرؤية الإصلاحية التي جاءت بها السيرة النبوية لإشعار الإنسان بقيمة الماء والحفاظ على هذا الكنز الضامن لحياة مخلوقات الكون.

ومن المؤسف حقا أن تطال اليوم ظاهرة الإسراف في استعمال الماء المجتمعات الإسلامية، بل من المؤسف أكثر أن تستفحل في بيوت الله؛ حيث إن كميات هائلة من الماء تهدر في عملية

1 - تلوث البيئة وأثره على قضايا التغذية المعاصرة من المنظور الشرعي، ص: 87.

2 - سنن ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في مقدار الماء للوضوء والغسل من الجنابة، 99/1. ح: 269.

3 - صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة، وغسل الرجل والمرأة في إناء واحد في حالة واحدة، وغسل أحدهما بفضل الآخر، 256/1، ح: 45.

الوضوء. وقد تنبأ عليه السلام بحال أمته وتعاملها المححف مع الماء، فقال: «إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء»¹.

كما نهي عليه السلام أن يلوث الإنسان هذا المورد المشترك، فنهى أن يبول الإنسان في النهر الدائم (الذي لا يجري)، فقال: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسل فيه»²، وذلك حفظاً له من التلوث وإلحاق الأذى بالآخر، ذلك أن الماء مشترك إنساني حثت الشريعة الغراء على وجوب تقاسمه مع الآخرين من جهة الاقتصاد على ما يلي حاجة الفرد إليه. فعن رجل، من المهاجرين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال: غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً أسمعته، يقول: "المسلمون شركاء في ثلاث: في الكأ، والماء، والنار"³.

واليوم؛ نجد أن مختلف المنظمات والهيئات المختصة في الحفاظ على البيئة أخذت تنادي بضرورة ترشيد استعمال الماء والاقتصاد في تناوله، غير أن السيرة النبوية كان لها فضل السبق في هذه الدعوة قبل أزيد من أربعة عشر قرناً، ويعد هذا السبق قيمة حضارية كونية تحسب للمجتمع النبوي.

العنصر الثاني: في العناية بالمجال النباتي

من مظاهر العناية بالبيئة والمحافظة عليها من خلال السيرة النبوية وصيته عليه الصلاة والسلام بالإحسان إلى المجال النباتي وعدم إتلافه أو إلحاق الضرر به؛ فقد أوصى لما خرج مشيئاً لأهل مؤتة بتجنب قطع الشجر وإتلاف المحاصيل الزراعية، فكان مما أوصى به: "... لا تقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانياً ولا تقربن نخلاً ولا تقطعن شجراً ولا تهدمن بيتاً"⁴.

¹ - سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب الإسراف في الماء، 24/1، ح: 96.

² - صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، 57/1، ح: 239.

³ - سنن أبي داود، أبواب الإجارة، باب في منع الماء، 278/3، ح: 3477.

⁴ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، 6/146.

فحتى في خضم الحرب أمر المربي الحكيم باحترام البيئة بمجالها؛ سواء البيئة الطبيعية (النخل والشجر) أو المشيدة (من عمران وبيوت).

وكما دعا عليه السلام إلى إغناء المجال النباتي وإحياء الأرض الميتة بالغرس، بين كذلك أن من مقاصد هذه الدعوة إسهام الكائن الإنساني في استمرارية باقي الكائنات. قال صلى الله عليه وسلم: «من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر وما أكلت العافية [الطير] منها، فله فيها صدقة»¹.

وربطه صلى الله عليه وسلم بين العناية بالمجال النباتي وبين حصول الإنسان على الأجر إزاء عنايته تلك دليل على اعتبار المجال الحيواني وسد احتياجاته من أجل ضمان العيش المشترك لمختلف الكائنات.

ويكفي في بيان أهمية هذا المجال داخل أسوار السيرة النبوية حثه عليه السلام الإنسان على المشاركة في عملية الغرس والزرع حتى آخر رمق في حياة الإنسان.

قال صلى الله عليه وسلم: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»². ففي الحديث مبالغة في الحث على غرس الأشجار وحفر الأنهار لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدّها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها فكما غرس لك غيرك فانتفعت به فاغرس لمن يجيء بعدك لينتفع وإن لم يبق من الدنيا إلا صباة»³.

وسيرا على هذا المبدأ، دأب المسلمون على إحياء الأراضي وتعميرها بالغرس، رجاء في تعدي النفع للأجيال والأمم التي تخلفهم، وقد روي أن معاوية رضي الله عنه أخذ في إحياء أرض وغرس

¹ - سنن الدارمي، كتاب البيوع، باب من أحيا أرضا ميتة فهي له، 1700/3، ح: 2649.

² - الأدب المفرد، باب اصطناع المال، ص: 168.

³ - فيض القدير، 30/3.

نخل في آخر عمره فقيل له فيه فقال: ما غرسته طمعا في إدراكه ، بل حملني عليه قول الأسدي: ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ... ولا يكون له في الأرض آثار.¹

فما أحوج المجتمع المعاصر إلى الأخذ بثقافة الحفاظ على المجال النباتي وضرورة الإسهام في تنميته وصناعته، والحال أن الواقع اليوم يشهد نقيض هذه الثقافة؛ وذلك بعدما استفحلت عملية قطع الأشجار واجتثاثها استنادا على بعض المسوغات البشرية بين الاضطرار والاختيار، وتعزى كثير من عوامل التدمير والحرق والقطع والاجتثاث إلى أسباب اقتصادية وأوضاع اجتماعية، حيث: "يلجأ السكان في البلاد النامية إلى قطع الأشجار بطريقة جائرة، وذلك لاستخدامها كوقود لإدارة جميع أحوال حياتهم اليومية، مثل: الطهي، التدفئة، الإنارة وغيرها، كما يتم استخدامها في بناء الأكواخ وحظائر الحيوانات"².

إن فلسفة استخلاف الإنسان في الأرض تقوم على تعقله وقيامه بالدور المنشود في الإصلاح والتعمير، نيابة عن باقي الكائنات غير العاقلة، فهو المسؤول عن إعداد مختلف المجالات الحيوية وهو أيضا المسؤول عن المحافظة عليها ورعايتها، لاحتياج مختلف المخلوقات لها بما فيهم الإنسان والحيوان.

¹ - فيض القدير، 30/3.

² - أنظر: تلوث البيئة وأثره على قضايا التغذية المعاصرة من المنظور الشرعي، ص: 131، نقلا عن "البيئة والمشكلة السكانية"، لحسن أحمد شحاتة، ص: 115.

العنصر الثالث: في العناية بالمجال الحيواني

إن من تكريم الخالق لبني الإنسان أن سخر له الكون كله لخدمته، ومما سخر له المجال الحيواني المتنوع؛ فقال: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا)¹، وقال: (وَالْأَنْعَامَ خَلَفَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْعِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)². وقال: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)³.

لقد جعل الله المجال الحيواني بتعدد ألوانه وصنوفه في خدمة الإنسان المستخلف في الأرض لكي يقوم بمهمته على الوجه المطلوب، وأمر صلى الله عليه وسلم في المقابل بالإحسان لهذا المجال واحترام كائناته والرفق بها. والسيرة النبوية في مجموعة من المحطات تنص في غير ما مرة على الدعوة إلى المعاملة الحسنة للدواب والحيوانات. وسنعرض بعضا من هذه المحطات النابضة برحمة الرسالة الحمديّة تجاه مخلوقات الكون.

فعن أنس بن مالك أن رجلا من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا رسول الله، إن لي بعيرا قد شرد عليّ وهو في أقصى أرضي، وأنا لا أستطيع أن أدنو منه خشية أن يتناولني... فقال صلى الله عليه وسلم، يا فلان! بعيرك يشكوك فأحسن إليه"⁴.

فكان عليه السلام يوصي أصحابه بالإحسان في علف الدابة وسقيها، وعدم إرهاقها وتكليفها ما لا تطيق، وعدم اتخاذها غرضا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا سافرتم في الخصب، فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السنة، فأسرعوا عليها السير..."¹.

¹ - سورة النحل: جزء من الآية 14.

² - سورة النحل: الآية 5.

³ - سورة النحل: الآية 8.

⁴ - إمتاع الأسماع، 5/ 257-258.

بل أكثر من ذلك أنه عليه السلام يتحرى الرفق والإحسان حتى أثناء عملية الذبح والنحر، فقال: " إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته"². وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من رحم ولو ذبيحة، رحمه الله يوم القيامة»³.

إن استحضار جانب الرحمة في مقام التعامل مع مختلف الكائنات الحية ليدل على عالمية الرحمة التي أرسل المبعوث صلى الله عليه وسلم لتمثلها والدعوة إليها.

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه مر على رجل واضع رجله على صفحة شاة وهو يجد شفرته وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال: «أفلا قبل هذا تريد أن تميتها موتتين؟»⁴.

إن ربط الأجر بالإحسان إلى الحيوانات داخل المنظومة الإسلامية ينطوي على الجانب التعبدي التحفيزي، ومن ثم فمثالية الرسالة المحمدية تتجسد في نيل الفرد الأجر والثواب لامثاله وإعماله لمهارات الحياة المختلفة من جهة (مهارة المحافظة على البيئة واستغلال مواردها على النحو الأمثل) والإحسان في التعامل مع الكون ومكوناته من جهة ثانية.

ففي صحيح البخاري؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً، فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فمالأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي،

¹ - صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب مراعاة مصلحة الدواب في السير، والنهي عن التعريس في الطريق، 3/ 1525، جزء من الحديث : 178.

² - صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة، 1548/3، ح: 57.

³ - الأدب المفرد، باب رحمة البهائم، ص: 138، ح: 381.

⁴ - المعجم الأوسط، باب الرء، من اسمه روح، 4/ 53، ح: 3590.

فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له "، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»¹.

إن مجرد التأمل في قصة المرأة البغي ورحمتها بالكلب، ونيلها المغفرة على حسابه ليدل على أهمية أعمال الرحمة مع مخلوقات الكون ومقام صاحبها عند الله؛ أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة أن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر، قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها [خُفَّها] فغفر لها².

إن ثقافة سقي الماء سنة قديمة بقدم الرسالة المحمدية، وقد كان سكان الجزيرة العربية وقتئذ يفتخرون بامتلاكهم السقاية وإشرافهم عليها. ولا غرو في ذلك؛ كون سقي الماء من أفضل الصدقات التي يتقرب بها إلى الله، عن سعد بن عبادة قال: قلت: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»³.

ويدخل في سقي الماء هنا كل الكائنات الحية، ففي كل كبد رطبة أجر، وقد انتشرت في أوساط الأحياء اليوم ظاهرة إنشاء السقايات ووضع خزانات تبريد المياه وجعلها رهن احتياج المارة على قارعة الطريق، وكذا ملء الأواني بالمياه وتوفيرها للحيوانات من الدواب والطيور عندما يشتد الحر، وهذه سنة محمودة مستقاة من النهج النبوي، وفيه من الأجر والثواب ما يستهين به المرء.

لقد تجاوزت شفقة النبي صلى الله عليه وسلم ورحمته جانب التعامل مع بني الإنسان لتشمل كل الكائنات والمخلوقات الحية، والسيرة النبوية تؤكد هذا في كل مرة؛ ترصد علاقة نبي الرحمة وسائر الكائنات التي تتقاسم مع الإنسان هذا الكون الرحب.

1 - صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، 111/3، ح: 2363.

2 - صحيح مسلم، كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، 4/1761، ح: 154.

3 - سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب فضل صدقة الماء، 2/1214، ح: 3684.

فعن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فانطلق لحاجته فرأينا حُمْرَةً [طائر] معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمْرَة فجعلت تفرش، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها». ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: «من حرق هذه؟» قلنا: نحن. قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»¹.

وفي صحيح البخاري أنه عليه السلام لما كان بمنى خرجت حية من بين بعض الصخور، فأسرع بعض الصحابة لقتلها، غير أنها استطاعت أن تنسل بين شقوق الصخور، فقال صلى الله عليه وسلم الذي كان يراقب المنظر عن بعد: «وقاها الله شركم كما وقاكم شرها»².

فالرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يرى فيما همّ به الصحابة شراً، والمقتول وإن كان حية إلا أن لها مكاناً أيضاً في نظام هذه الدنيا، فأبي قتل غير ضروري سيضر بالتوازن البيئي، ويؤدي إلى أضرار لا يمكن تلافيها. والحقيقة أن إعلان الحرب على الحشرات باسم الزراعة والمحافظة عليها يعدّ جريمة بالنسبة للتوازن البيئي، والغريب أن هذه الجرائم ترتكب اليوم باسم العلم.³

وكما ارتبط الأجر والثواب بالإحسان إلى الحيوانات، فقد ينقلب إلى الإثم والعقاب إذا ما لم يُحسّن إليها؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً، فدخلت فيها النار» قال: فقال: والله أعلم: «لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها، ولا أنت أرسلتها، فأكلت من خشاش الأرض»⁴.

¹ - سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، 55/3، ح: 2675.

² - صحيح مسلم، كتاب السلام، باب قتل الحيات وغيرها، 1755/4، ح: 137.

³ - النور الخالد، ص: 257.

⁴ - صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، 112/3، ح: 2365.

لقد تشبع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بثقافة الإحسان إلى الحيوانات، وامتلوا لأوامر نبيهم صلى الله عليه وسلم في تعاملهم مع باقي المخلوقات. ولا أدل على ذلك من القول المأثور عن عمر بن الخطاب إذ يقول: "لو عثرت بغلة بالعراق لرأيتني مسؤولاً عنها أمام الله تعالى لم لم أسو لها الطريق"¹.

إننا اليوم بحاجة للعودة إلى السيرة النبوية من أجل النهل من المهارات الحياتية التي تسعفنا لصناعة المجتمع، ولما ابتعد مسلمو العصر الحديث عن دينهم ضيعوا الكثير من هذه المهارات، فامتلكها عوضهم الآخر [المخالف]، فصار يعيرهم بها ويستشنع تعامل المسلمين مع الدواب والحيوانات، وهذا يدمي القلب! وفي المقابل برع يتفنن في صور الإحسان والرفق بها، وتسلم زمام الأمر في تعامله معها.

العنصر الرابع: في العناية بالمجال العمراني والتراثي

إن أول ما تجب العناية وتكثيف الاهتمام به في المجال العمراني والطرق والسبل التي تنظم حركة السير فوق الأرض.

وبعودتنا للتوجيهات النبوية في السيرة النبوية والتي تؤكد على دعوة المربي الحكيم إلى امتلاك مهارات المحافظة على الطريق وإعطاء حقوقها نتيقن بحق أن المجتمع النبوي - منذ أزيد من أربعة عشر قرناً - قنن تعامل بني الإنسان مع الطريق، وقدم مختلف الحلول الناجعة والفعالة في تنظيم حركة الإنسان داخل المجال الطرقي. ولعل نخلفنا اليوم إزاء هذه المهارات سبب لنا قلقاً شديداً، ولخبطة في علاقتنا بالآخر في الطرق.

¹ - السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، عبد الرحمن على الحجى، ص: 104.

إن أول ما ينبئ عن فضل وعظمة احترام الطريق وتقديرها كون الإحسان لهذه الأخيرة من ضروب الإيمان وأصنافه؛ فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها لا إله إلا الله، وأوضعها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»¹.

ونجد كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر إمطة الأذى عن الطريق ضمن صور الصدقات ووجهها، روى مسلم بن الحجاج في صحيحه عن أبي هريرة: "... وتميط الأذى عن الطريق صدقة"².

لقد وعد رسول الله عليه الصلاة والسلام الحريص على نظافة الطريق واحترامها ليس بحصوله على الصدقة فحسب وإنما بنيل المغفرة، ففي السيرة النبوية؛ بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له³.

وبين شراح الحديث وجوه إمطة الأذى عن الطريق وأنها كثيرة متعددة، منها:

- إزالة ما يؤذي المارة من حجر أو شوك؛
- قطع الأحجار من الأماكن الوعرة؛
- كنس الطريق من التراب الذي يتأذى به المار؛
- ردم ما فيه من حفرة أو وهدة وقطع شجرة تكون في الطريق؛
- توسيع الطرق التي تضيق على المارة؛
- إقامة من يبيع أو يشتري في وسط الطرق العامة؛

¹ - سنن النسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، ذكر شعب الإيمان، 8 / 110، ح: 5005.

² - صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، 2 / 699، جزء من الحديث: 56.

³ - صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل التهجير إلى الظهر، 1 / 132، ح: 652.

- طم البئر التي في وسط الطريق التي يخشى أن يسقط فيها الأعمى والصغير والدابة¹.

- إقالة العثرات عن الطريق؛

- تمهيدته ونظافته من القاذورات والمهمات؛

- منع الدخان والأصوات المزعجة والعالية؛

- عدم تلويث الهواء بما يؤذي الإنسان من العوادم والغازات المضرة².

لقد وضع محمد بن عبد الله أسسا وقواعد إصلاح المجتمع وصناعة أفراده، فلم يترك جانبا من

جوانب الحياة العامة إلا ودعا لتقنين التعامل معه والسعي في تعميره بشتى المهارات الحياتية

المطلوبة. وقد دأب أصحابه -رضي الله عنهم- على نهجه الإصلاحية، وساروا على طريقه القويم،

فأخذوا يتعهدونه بالسؤال عن كل ما ينفعهم؛ عن أبي برزة الأسلمي قال: يا نبي الله علمني شيئا

أنتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»³.

إن للطريق حقوقا على الإنسان أن يحترمها ويلتزم بها، وقد بينها صلى الله عليه وسلم لما نهى

عن الجلوس بالطرقات، ثم أباح ذلك وقيدته بتوفر شروط وقواعد معينة. وسنعرضها واحدة واحدة

مع تحليلها وربطها بالواقع المعاصر وبيان ما تنطوي عليه من فوائد وعبر.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم والجلوس

بالطرقات» فقالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، فقال: «إذ أبيتم إلا المجلس،

¹ - أنظر: طرح التثريب في شرح التقریب، أبو الفضل زين الدين العراقي، 304/2.

² - التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، علي علي صبح، (المكتبة الأزهرية للتراث، ط1 - 2002م)، ص: 166.

³ - صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم، 4 / 2021، ح: 131.

فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»¹.

إن إذن الرسول عليه السلام لأصحابه بالجلوس في الطرقات كان مصحوبا بشروط وحقوق وجب توفرها إذا كان ولا بد من الجلوس فيها، وهي أربعة حقوق:

أولا: غض البصر

إن جعل غض البصر من أولى الشروط لينم عن حِكم في غاية الأهمية، ولعل من بينها: أن لا يتطلع الإنسان إلى أحوال باقي الأفراد الذين تجمعه بهم الطريق؛ من نظر إلى النساء، والاطلاع على العورات، والتطفل على شؤون الآخرين، وممارسة الهمز واللمز والغيبة والنميمة، وأيضا توجيه البصر نحو موضع السير ولا سيما عند قيادة العربات والسيارات ومراقبة إشارات المرور واحترامها، وكذا اجتناب كل ما يشتت الانتباه ويصرف النظر عن سبيل السير.

ثانيا: كف الأذى

وتحت هذا الشرط ما يعز استيفاؤه وحصر صورته؛ ومن بين صور إلحاق الأذى التي نشهدها اليوم في الطرقات ونعاني منها: التسبب في قطع الطريق بسبب ركن العربات في غير المواطن المخصصة لذلك مما يعرقل حركة السير، تنصيب فراشات للمتاجرة وسط الطريق والإسهام في صناعة الاكتظاظ، استغلال الأرصفة سواء بالتجارة أو بالاستحواذ عليها بجذائق قرب البيوت، حفر بئر أو قنوات مجاري المياه بالطرقات دون وضع إشعار للانتباه ووجود الخطر، سلك الطرقات الممنوعة والمحظور السير فيها إلا من اتجاه واحد لما يسبب ذلك من مخاطر وأذى بمن لهم الحق في السير، وكذا إهمال وتجاوز إشارات المرور وإلحاق الأذى بمن لهم الحق في الأسبقية، والحرص على

¹ - صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم...، 51/8، ح: 6229.

تجنب إيذاء باقي المخلوقات التي تشترك والإنسان في الطريق، قال عليه السلام: "...وإذا عرستم بالليل، فاجتنبوا الطريق، فإنها مأوى الهوام بالليل"¹.

قال أهل اللغة "التعريس النزول في أواخر الليل للنوم والراحة ... وهذا أدب من آداب السير والنزول أرشد إليه صلى الله عليه وسلم لأن الحشرات ودواب الأرض من ذوات السموم والسباع تمشي في الليل على الطرق لسهولتها ولأنها تلتقط منها ما يسقط من مأكول ونحوه وما تجد فيها من رمة ونحوها فإذا عرس الإنسان في الطريق ربما مر به منها ما يؤذيه فينبغي أن يتباعد عن الطريق"². إلى غير ذلك من صور إلحاق الأذى بالطرقات.

ثالثاً: رد السلام

إفشاء السلام أو رده من بين موجبات حصول المحبة بين أفراد المجتمع، وقد أوصى عليه السلام في غير ما حديث بإفشاء السلام على المعروف والمجهول، فنشر ثقافة السلام في الطرقات لها أثر مثمر في إصلاح العلاقات الاجتماعية وبنائها على قيم المحبة والسلام والإخاء، وذكره عليه السلام للفظ "رد السلام" بدل "إفشاء السلام" لكون السياق الذي يندرج فيه الحديث يقوم على جلوس الصحابة في الطرقات، وتبث في المرويات أن المار هو من يبدأ بإفشاء السلام على الجالس، وأن على هذا الأخير رده.

¹ - صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب مراعاة مصلحة الدواب في السير، والنهي عن التعريس في الطريق، 3/ 1525، جزء من الحديث: 178.

² - صحيح مسلم بشرح النووي، 13/ 69.

رابعاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهذا أصل كبير في الشريعة الإسلامية، لا يمكن الإحاطة بصوره أو تقييده بوجوه فعل الخير وتجنب الشر، إذ كل عمل صالح وتصرف لائق يدخل في الصنف الأول "المعروف"، وكل عمل مشين أو سلوك ذميم ولا أخلاقي يندرج ضمن "المنكر".

فهذا حديث جامع لحقوق الطريق التي أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم، وحث أصحابه على احترامها.

لقد أعطت السيرة النبوية الطريق حقوقها الكاملة، وبينت الحلول والبدائل المناسبة لتجاوز كوارث ومعيقات هذه النعمة المشتركة، ومن أولى الحقوق توسعتها واحترام السبل العامة للسير، وقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم إذا تشاجر الناس في الطريق أن يتركوا سبعة أذرع، أي: قضى بأن يجعل اتساعها ما بين البناء والبناء سبعة أذرع حتى لا تضر بالمارة وتسمح بمرور الأحمال ووسائل الركوب.¹

فهذا حكم من النبي في الألفية، إذا أراد أهل الأرض البنيان أن يجعل الطريق سبعة أذرع حتى لا يضر بالمارة عليها، وإنما جعلها سبعة أذرع لمدخل الأحمال والأثقال ومخرجها وتلاقها، ومدخل الركبان والرحال، ومطرح مما لا بد لهم من مطرحه عند الحاجة إليه، وما لا يجد الناس بدا من الارتفاق من أجله بطرقهم... وقد مرَّ عمر بكير حداد في السوق فأمر به فهُدِّم، وقال: يضيِّقون على الناس.²

¹ - أنظر لفظ البخاري في الصحيح، كتاب المظالم والغصب، باب إذا اختلفوا في الطريق الميئاء: وهي الرحبة تكون بين الطريق، ثم يريد أهلها البنيان، فترك منها الطريق سبعة أذرع، 135/3، ح: 2473.

² - شرح صحيح البخاري لابن بطال، 600/6-602.

هذه نماذج منتقاة من النهج النبوي القويم، تبين لنا أهمية الطريق وضرورة احترامها، كما تجدر الإشارة أن السيرة النبوية لم تغفل في المجال العمراني الدعوة إلى ضرورة الاهتمام بالمآثر التاريخية والتي تعد جزءاً من هوية الفرد داخل الوطن وداخل المجتمع.

لقد كان حب النبي صلى الله عليه وسلم لوطنه يشمل حبه لكل مرافقه وأماكنه التي قضى فيها مواطن الصبا، والتي شهدت أحداثاً ووقائع مشرفة يتجدد الفخر بإبصارها ومشاهدتها، وقد فصلنا القول في ذلك في المبحث السابق.

ومن صور ذلك حبه صلى الله عليه وسلم لجبل أحد، ففي الصحيح أنه عليه السلام مر على جبل أحد فقال لأصحابه: " هذا جبل يحبنا ونحبه"¹، ذلك "لأنه كان يبشره بلسان الحال إذا قدم من سفر بقربه من أهله ولقائهم، وذلك فعل المحب بمن يحب فكان يفرح إذا طلع له استبشاراً بالأوبة من السفر والقرب من الأهل"².

فقد كان جبل أحد معلمة تاريخية إسلامية سجلت أبرز الغزوات التي مر منها المسلمون واكتسبوا منها عبر وعظات لهم.

ويدخل في هذا حب أفراد المجتمع للمآثر التاريخية؛ من قصور وقصبات ومعالم أثرية سجلت انتصارات المقاومين السابقين على أذيال الاستعمار ومحاربة العدو، وقبور وزوايا الصالحين، ومساجد العصور الإسلامية السابقة، إذ حب مختلف المرافق العمرانية والأثرية داخل في حب الوطن، ومكون من مكونات الهوية الحضارية للمواطن داخل وطنه.

¹ - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه، 103/5، ح: 4083.

² - مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن بن خان المباركفوري، (إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الهند، ط3 - 1984م)، 544/9.

ويدخل أيضا في حب الأماكن والمجالات العمرانية التاريخية تلك التي تشكل الهوية الإسلامية فوق أي تراب كانت، والتي ترتبط بالأمن الروحي لكل مسلم، ونذكر على سبيل المثال: جبل عرفة، قبر النبي صلى الله عليه وسلم، الكعبة المشرفة، بيت المقدس، بئر زمزم...
فالواجب على الدول والمؤسسات اليوم أن تسهر على حماية هذه الأيقونات الإسلامية الروحية، وصيانتها من الضياع، والحرص على نظافتها وترميمها وإسبال وافر العناية عليها تقربا إلى الله تعالى، وسيرا على نهج النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

الفرع الثالث: مهارة صناعة مجتمع المعرفة

دعت السيرة النبوية ونصت في كثير من مواضعها على ضرورة بناء مجتمع كامل ومتكامل؛ متمسك بالثوابت الدينية في علاقته بالخالق، ومنفتح على الآخر ومشارك معه في صناعة المعرفة الكونية المتنوعة.

وسأعرض في هذه الفقرة الأخيرة من هذا الباب بعض تجليات صناعة مجتمع المعرفة من خلال السيرة النبوية، للتأكيد على أن هذه الأخيرة كانت مهداً سابقاً لصناعة العلم والمعرفة بالمجتمع الإسلامي.

العنصر الأول: المسجد الدعامة الأساس لصناعة مجتمع المعرفة

لما لاحت بوادر المجتمع الإسلامي في التشكل، كانت الاستعانة بمؤسسة المسجد في صناعة مجتمع العلم والمعرفة لما له من الوظيفة التربوية والتكوينية حينئذ.

إن أول ما قام به المربي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة بناء مسجد يجتمع فيه المؤمنون؛ فما إن أقام في المدينة لأيام قليلة حتى بنى مسجد قباء في منتصف الطريق بين "قباة" والمدينة.

وهذا يدلنا على أهمية المسجد في الإسلام ... فقد كانت له رسالة اجتماعية وروحية عظيمة الشأن في حياة المسلمين، فهو الذي يوحد صفوفهم، ويهذب نفوسهم، ويوقظ قلوبهم وعقولهم، ويحل مشاكلهم، وتظهر فيه قوتهم وتماسكهم ، ولقد أثبت تاريخ المسجد في الإسلام أنه منه انطلقت جحافل الجيوش الإسلامية لغمر الأرض بهداية الله، ومنه انبعثت أشعة النور والهداية للمسلمين وغيرهم، وفيه ترعرعت بذور الحضارة الإسلامية ونمت، وهل كان أبوبكر، وعمر،

وعثمان، وعلي، وخالد، وسعد، وأبو عبيدة وأمثالهم من عظماء التاريخ الإسلامي إلا تلامذة المدرسة المحمدية التي كان مقرها المسجد النبوي.¹

فلم يكن المسجد - في المجتمع النبوي - مقتصرًا على أداء الصلوات فحسب، بل كان مؤسسة تربوية تكوينية تضطلع بالقيام بمختلف الأدوار؛ سواء المتعلقة بمعرفة الخالق وعبادته أم تلك التي تخص أمر المسلمين ومعاشهم، فمن خلاله بدأت نواة صناعة مجتمع العلم والمعرفة.

يقول أبو شُهبة: " المساجد في صدر الإسلام ولا سيما المسجد النبوي كانت تؤدي خدمات دينية، وعلمية، واجتماعية، وصحية وحرية، فكانت متعبات يؤدي فيها المسلمون شعائر دينهم، وكانت تقوم مقام المعاهد والجامعات في التربية والتعليم والتهديب، ومقام الجمعيات الخيرية في جمع الصدقات والمساعدات والتعاون على البر والخير، وكانت تقوم مقام الملاجئ... يلجأ إليها الفقراء ممن لا مال لهم ولا دار، فيجد فيها المسكن والمأكل والمشرب".²

وهكذا نجد أن المسجد في ظل الإسلام كان يؤدي من الخدمات ما تقوم به جهات كثيرة في عصرنا الحديث.

أما كونه مكانًا لصناعة العلم والمعرفة فالمرويات في ذلك كثيرة من أن تحصى، أقتصر منها على ما يلي:

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم إلى المسجد، فوجد أصحابه عزين يتذاكرون فنون العلم، فأول حلقة وقف عليها وجددهم يقرؤون القرآن وجلس إليهم، فقال: «بهذا أرسلني ربي» ثم قام إلى الثانية فوجددهم يتكلمون في الحلال والحرام

¹ - السيرة النبوية: دروس وعبر، ص: 73.

² - السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، (دار القلم - دمشق، ط8 - 1427 هـ)، 2/.

وجلس إليهم ولم يقل شيئاً ثم قام إلى الثالثة فوجدهم يذكرون توحيد الله عز وجل ونفي الأشباه والأمثال عنه وجلس إليهم كثيراً ثم قال: «بهذا أمرني ربي» قال جابر: لأن التوحيد معرفة الله عز وجل، ومن لا يعرف توحيد الله فليس بمؤمن.¹

- وعن أبي إسحاق قال: رأيت رجلاً سأل الأسود بن يزيد وهو يعلم القرآن في المسجد فقال: كيف تقرأ هذه الآية "فهل من مدكر" أداً أم ذالاً؟ قال: بل دالاً، سمعت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: مدكر دالاً، ووصف بعض تلاميذ أبي موسى الأشعري تعليم شيخهم رضي الله عنه لهم فقال: (تعلمنا القرآن في هذا المسجد يعني مسجد البصرة وكنا نجلس حلقة حلقة، وكأنا أنظر إليه بين ثوبين أبيضين وعنه أخذت هذه السورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)، قال: وكانت أول سورة أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم.²

العنصر الثاني: إرسال سفراء الإسلام إلى المدينة المنورة قبل الهجرة

لقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعيين مصعب بن عمير سفيراً للمسلمين، وبعثه مع وفد العقبة إلى المدينة المنورة قبيل الهجرة النبوية؛ قال ابن إسحاق في معرض وصف حدث العقبة: "... فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة"³، فانتشر الإسلام في المدينة حينئذ انتشاراً كبيراً، ومهدّ لقدم النبي صلى الله عليه وسلم لها.

¹ - إذهاب الحزن وشفاء الصدر السقيم، ص: 45.

² - المرجع نفسه، ص: 103.

³ - سيرة ابن هشام، 58/2.

فإرسال مصعب بن عمير إلى المدينة قبل الهجرة جاء في إطار فكر استراتيجي يقوم على العلم والتعلم قبل قيام الدولة الإسلامية، تهيئةً لأهل المدينة على الانخراط في المجتمع النبوي المرتقب، والمؤسس على العلم الذي أنار أرجاء المدينة والعالم فيما بعد.

وفي العام الذي يليه حضر من الأنصار جماعة في موسم الحج فاجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم مستخفين، وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين، وبايعوه على النصرة والتأييد، وعلى أن يمنعه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وعادوا إلى المدينة بعد أن اختار منهم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم.¹ فقال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي»².

ولم يتوقف الرسول صلى الله عليه وسلم عند نشر العلم الموحى إليه في مجتمعه الصغير (مكة والمدينة) وإنما اجتهد في تعميمه على المجال العالمي، نشرًا للإسلام واختراقه لحدود الجزيرة العربية، ويتمظهر ذلك من خلال مراسلته لملوك العالم وعظمائه الكبار.

العنصر الثالث: مراسلة النبي لملوك وعظماء العالم

لقد اختار الرسول صلى الله عليه وسلم أسلوبًا جديدًا من أساليب نشر العلم والمعرفة وتعميمهما على أرجاء العالم، ويتجلى هذا الأسلوب في مراسلة الملوك ورؤساء الإمبراطوريات، ودعوتهم إلى الإسلام. هذه الخطوة تنم عن شجاعة كبيرة وقوة عقل عظيمة لنبي العالمية، ذلك أنه آمن بأهمية تبليغ هذا العلم الرباني الخالد إلى رؤوس الدول وملوكها، إذ هم أقطاب صناعة القرار المعرفي، وبامتلاكهم للمعرفة يسهل نشرها على رعاياهم.

¹ - السيرة النبوية: دروس وعبر، ص: 56.

² - فقه السيرة، محمد الغزالي السقا، (تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم - دمشق، ط1-1427هـ)، ص: 161.

يقول الصلابي: " وكان لأسلوب إرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء أثر بارز في دخول بعضهم الإسلام وإظهار الود من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدعوة الإسلامية ودولتها في المدينة؛ وبذلك حققت هذه الرسائل نتائج كثيرة ، واستطاعت الدولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرسائل أن تنتهج نهجًا سياسيًا وعسكريًا واضحًا ومتميزًا".¹

وقد التجأ عليه السلام في مراسلته للملوك والعظماء إلى تعيين سفيرا لكل ملك، وهم كالاتي:

- دحية الكلبي إلى هرقل عظيم الروم؛
- عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسية؛
- حاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس جريح بن مينا ملك الإسكندرية وعظيم القبط؛
- شجاع بن وهب إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق؛
- سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي؛
- أبو العلاء الحضرمي إلى المنذر بن ساوي العبدي أمير البحرين.

وأوردت المصادر بعد ذلك عددًا كبيرًا من المرويات عن رسائل أخرى لم تثبت من الناحية الحديثية.²

إننا في معرض الحديث عن مراسلة النبي صلى الله عليه وسلم للملوك لسنا في صدد بيان فحوى الكتب المرسلة ولا أسلوبه صلى الله عليه وسلم فيها أو ذكر اعتباراته في تلك الكتب... وإنما حسبنا الإشارة إلى فكرة النبي عليه السلام في نشر العلم الموحى إليه بين صفوف الملوك

¹ - السيرة النبوية؛ عرض وقائع وتحليل أحداث، ص: 714.

² - المرجع نفسه، ص: 714-717.

العظام، وسعيه الحثيث في صناعة مجتمع العلم والمعرفة، ليبين للناس ماجهلوها، مصداقا لقوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُونَ) ¹

وقوله: (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾ وَلِتَعْلَمَ نَبَأَهُ، بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٦﴾) ².

العنصر الرابع: فداء بعض أسرى بدر بتعليم أبناء الأنصار الكتابة

بعد معركة بدر الكبرى عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأسرى، وقبل منهم الفداء، وكان يفادي بهم على قدر أموالهم، وكان من لا شيء له منّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطلقه، وبعثت قريش في فداء الأسرى وإطلاق سراحهم.

وكان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة. ³ وكان زيد بن ثابت ممن تعلّم عن طريق الأسرى، وكان في ذلك تقدير للعلم وتشجيع على القراءة والكتابة، ذلك أن أهل مكة كانوا يعرفون القراءة والكتابة عكس أهل المدينة.

يقول الإمام السهيلي مبينا ذلك: "وكان في الأسرى من يكتب ولم يكن في الأنصار أحد يحسن الكتابة فكان منهم من لا مال له فيقبل منه أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة ويخلي سبيله فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلّة الأنصار" ⁴.

¹ - سورة النحل: جزء من الآية 44.

² - سورة ص: الآيتان 85-86.

³ - مسند أحمد، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، 92/4، ح: 2216.

⁴ - الروض الأنف، 167/5. وانظر: طبقات ابن سعد، 2/16.

ونشير على هامش قصة الأسرى وتعليمهم الأنصار القراءة والكتابة إلى بعض ملامح صناعة مجتمع العلم والمعرفة في العصر النبوي، والتي برز فيها زيد ابن ثابت، ونوردها على شكل مناقب:

- معرفته - رضي الله عنه - بللسريانية والعبرانية؛

- حفظه القرآن كله على عهد رسول الله؛

- كونه من أشهر كتّاب الوحي بين يدي رسول الله؛

- وهو الذي تولى كتابة القرآن في الصحف في عهد الصديق؛

- وكان أحد كتّابي المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه.

لقد كان المجتمع الإسلامي في ظل البعثة المحمدية نموذجاً لصناعة مجتمع العلم والمعرفة، وقد تعددت واختلفت ألوان هذه الصناعة بما تقتضيه حاجة المسلمين عصرئذ؛ إذ لم يقتصر على الدعوة إلى تعلم القراءة والكتابة، بل حاول النهل من علوم ومعارف الآخر المخالف، ويتجلى ذلك في تعلم لغاته.

يقول أبو شهبة: وأمر رسول الله زيدا بتعلم لغة اليهود وكتابتهم يدل على أن الإسلام يجب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم، ويتعرف على علومهم ومعارفهم.¹

من خلال هذه المحطات المشرفة والنيرة بنور العلم والمعرفة يتبين لنا كيف عاجلت السيرة النبوية مشكلة الجهل والأمية، وكيف سعى المنهج النبوي - المؤيد بالوحي - إلى نشر العلم والمعرفة في مجتمع كان يسوده الظلام، ويعرف تخبطاً في برائن الجهل والوثنية.

وفي الختام؛ تجدر التوصية بالاعتناء والتأسي بالمنهج النبوي في صناعة مجتمع العلم والمعرفة، وأن تسعى المجتمعات الإسلامية إلى بنائه تأسيساً على رؤية السيرة المشرفة، مع التأكيد على الانفتاح

¹ - السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، 2/ 249.

على باقي الثقافات والعلوم والمعارف النافعة، والمتوصل إليها من لدن الآخر المخالف، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وُجدت وُجد.

خاتمة:

من خلال البحث في هذا الموضوع، حاولت مقارنة "صناعة التميز وتنمية المهارات" انطلاقاً من النظريات والدراسات الحديثة، وبعد أن أصلت لمباحثه من خلال السيرة النبوية، خلصت إلى مجموعة من النتائج والتوصيات.

ومن بين النتائج التي توصلت إليها:

- أولاً: صناعة الإنسان داخل المنظومة الإسلامية هي الصناعة الكاملة التي تترجم حقيقته، وتجعله مضطعاً بمهمة الاستخلاف في الأرض، وتضفي على وجوده الفعالية.
- ثانياً: السيرة النبوية شكلت أول مصنع للتميز وإعمال المهارات الحياتية التي ينادي بها المختصون في المجال اليوم (سواء مهارات صناعة الذات، أو مهارات التعامل مع الآخر، أو مهارات صناعة المجتمع)، وبذلك فقد سبقت النظريات الحديثة بأربعة عشر قرناً لتناول هذه المواضيع.
- ثالثاً: المناخ العام السائد إبان العهد النبوي مناح قائم على شحذ الطاقات الإنسانية، وتنمية المهارات الحياتية، واستثمارها في صناعة التميز، وبالتالي يمكننا اعتباره نموذجاً مثالياً وكاملاً نعول عليه في صناعة التميز وتنمية المهارات.

-رابعاً: لم يقتصر النبي صلى الله عليه وسلم في صناعة التميز على الحث النظري، بل زكاه بجانب العمل والانخراط في التطبيق، وهذا الجانب هو ما نفتقده اليوم في التعامل مع هذا الموضوع.

-خامساً: أن كلا من التقاطع بين العلوم، والتكامل المعرفي، والانفتاح على مختلف الثقافات، واللغات الأجنبية... يعد ضرورة ملحة يفرضها الواقع، وقد تبين أن النبي صلى الله عليه وسلم تفتح على لغات الآخر واستقى من خبرات وتجارب الأقاليم المتقدمة في عهده.

-سادساً: لا غنى في صناعة الإنسان عن مجرد إعمال القوى الإدراكية لديه، بل لمقومات الصناعة دور كبير في كمال صناعة الشخصية الإنسانية، وأخص بالذكر مقوم القدوة، ومقوم القيم، ثم مقوم الأسرة.

أما عن التوصيات، فهي كالآتي:

-أولاً: الدعوة إلى تناول علوم التنمية الذاتية داخل مجال البحث الأكاديمي المبني على الحقائق.

-ثانياً: تشجيع الباحثين على البحث والتأليف في مجال السيرة النبوية حول الموضوعات المعاصرة.

-ثالثاً: توظيف مادة السيرة النبوية في مناهج ومقررات المؤسسات التعليمية لاستقاء

نظريات التربية والتعليم، ثم دعوة الأسر إلى العودة إليها (السيرة النبوية) لاستنباط أسس التربية الوالدية ومنهجها في تربية النشء.

–**رابعاً:** عقد ندوات وتنظيم أنشطة علمية حول مباحث السيرة النبوية المختلفة، وبيان مكانتها وأهميتها في حياة الإنسان، واقتراح فتح ماستر لتكوين الباحثين المهتمين في مجال السيرة النبوية.

–**خامساً:** دعوة الباحثين المهتمين بموضوع التنمية الذاتية لإفراد جزئيات هذا البحث بالدراسة والتوسع فيها، إذ كل جزئية فيه تحتاج إلى مؤلف خاص يُفصّل القول فيها، وحسبي أني عاجتها من خلال بعض الأمثلة فقط في السيرة النبوية، وإلا فتعزُّ الإحاطة باستغراق كل تجلياتها.

❖ فُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَبَىٰ ﴿٦١﴾

- سورة النمل: الآية 61 -

المصادر والمراجع

(مرتبة حسب الترتيب الألف بائي)

- القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.

أ. المصادر والمراجع العربية:

- أبناؤنا بين الإبداع والموهبة والتميز، عبد الرحمن بن علي الدوسري، (سما للتوزيع والنشر - القاهرة، ط1-2017م).
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، (دار ابن حزم - بيروت، ط1-1426هـ).
- إذهاب الحزن وشفاء الصدر السقيم، عبد السلام مقبل مجبري، (دار الإيمان - القاهرة، د.ت).
- آراء ابن الجوزي التربوية: دراسة وتحليلًا وتقويماً ومقارنة، ليلي عبد الرشيد عطار، (منشورات أمانة للنشر، ميرلاند- الولايات المتحدة الأمريكية، ط1-1419هـ).
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، شهاب الدين أحمد بن عبد الملك القسطلاني، (المطبعة الكبرى الأميرية - مصر، ط7-1323هـ).
- أزمة الإرادة والوجدان المسلم: البُعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة، عبد الحميد أبو سليمان، (دار الفكر - دمشق، ط1-2004).
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن ابن الأثير، (تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط1-1994م).
- أسرار الشخصية المؤثرة، عاطف عمارة، (الحرية للنشر والتوزيع - القاهرة، ط1-2003م).

- أطفال المسلمين.. كيف رباهم النبي الأمين، جمال عبد الرحمن، (دار طيبة الخضراء- مكة المكرمة، ط 7 - 2004م).
- أطفال عند القمة: الموهبة والتفوق العقلي والإبداع، زكرياء الشريبي ويسرية صادق، (دار الفكر العربي- القاهرة، ط 1-2002م).
- إعلان مراكش لحقوق الأقليات الدينية في العالم الإسلامي: الإطار الشرعي والدعوة إلى المبادرة، (منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة، 25-27 يناير 2016).
- الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن الميداني، (دار القلم- دمشق، ط 5-1999م).
- الأخلاق المحمدية والرؤية الواضحة، محمد الضعان، (مطبعة الخليج العربي - تطوان، ط 1-2015م).
- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية- بيروت، ط 3-1989).
- الأزمنة والأمكنة، الأصفهاني، (دار الكتب العلمية - بيروت، 1417هـ).
- الأسرة المتغيرة في مجتمع المدنية العربية: دراسة ميدانية في علم الاجتماع الحضري والأسري، عبد القادر القصير (دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت، ط 1-1999م).
- الأسرة وصحتها النفسية: المقومات- الديناميات- العمليات، مصطفى حجازي، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1-2015م).
- الإسلام والبيئة، خليل رزق، (دار الهادي- بيروت، ط 1 - 2006 م).
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، (تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1 - 1415 هـ).
- الإنسان بين الجوهر والمظهر، إريك فروم، (ترجمة سعد زهران، سلسلة عالم المعرفة 140، أغسطس 1989م).

- الإنسان روح لا جسد "بحث في العلم الروحي الحديث"، رؤوف عبيد، (دار الفكر العربي، ط2-1966م).
- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، (تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي - دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، (د.ت)).
- البداية والنهاية، ابن كثير، (تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، 1976م).
- البناء الاجتماعي للشخصية في المجتمع العربي، فادية عمر الجولاني، (مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية، ط1-1993م).
- البيئة والإنسان؛ دراسة في مشكلات الإنسان مع البيئة، زيد الدين عبد المقصود، (منشأة المعارف - الاسكندرية، ط2 - 1997م).
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (الدار التونسية للنشر - تونس، 1984 هـ).
- التخطيط الأسري من المنظور التربوي الإسلامي، كيان محمد البرغوثي، (جمعية العفاف الخيرية - الأردن، ط1 - 2006م).
- التربية الوالدية: الرؤية الإسلامية بتنظيماتها القيمية، المصطفى حدية، (مطابع الرباط نت، ط1 - 2013م).
- التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، علي علي صبح، (المكتبة الأزهرية للتراث، ط1 - 2002م).
- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، (دار الكتب العلمية - بيروت، ط1-1403هـ).
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، (دار الفكر المعاصر - دمشق، ط2-1418هـ).
- التفوق العقلي والابتكار، عبد السلام عبد الغفار، (دار النهضة العربية و دار غريب للطباعة - القاهرة، (د.ت)).

- التمهيدي لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي، (تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، 1387هـ).
- التميز في ضوء السنة النبوية (دراسة موضوعية)، مها أبو النمر، (رسالة لنيل درجة الماجستير في الحديث الشريف - كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة، 2011م / 1432هـ).
- التنمية الذاتية: تأصيلها الإسلامي وتطبيقاتها في دولة الإمارات العربية المتحدة، الباحثة الشيخة فاختة بنت سعيد آل نهيان (رسالة ماجستير تحت إشراف: دة. حياة البرهاتي، جامعة محمد الخامس أبو ظبي - ط1، 2017م).
- التوجيه والإرشاد النفسي، عبد السلام زهران، (عالم الكتب، ط3 - د.ت).
- التيسير بشرح الجامع الصغير، زين الدين المناوي، (مكتبة الإمام الشافعي - الرياض، ط3 - 1988م).
- الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر النمري، (تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، ط2 - 1403 هـ).
- الذكاء الصناعي وتحديات مجتمع المعرفة، حسان الباهي، (أفريقيا الشرق - الدار البيضاء، ط1 - 2012م).
- الذكاء الوجداني وتنميته في مرحلتي الطفولة والمراهقة، رشاد علي عبد العزيز، (عالم الكتب - القاهرة، ط1 - 2012).
- الذكاء الوجداني، صفاء الأعسر وعلاء الدين كفاي، (دار قباء للطباعة والنشر - القاهرة، 2000).
- الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري، (دار الهلال - بيروت، ط1 - نفس طبعة وترقيم دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع).
- الرسالة المحمدية، سليمان الندوي الحسيني، (دار ابن كثير - دمشق، ط1 - 1423 هـ).
- الرسائل، عثمان أبو عمرو الجاحظ، (تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط1384هـ).

- الرسول القائد، محمود شيت، (دار الفكر - بيروت، ط6-1422 هـ).
- الروح "في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة"، ابن قيم الجوزية، (دار الكتب العلمية- بيروت، (د.ت)).
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم السهيلي، (تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط1-2000م).
- الزهد والرفائق، ابن المبارك، (تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية - بيروت، د.ت).
- الزواج في ظل الإسلام، عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف، (الكويت، ط3 - 1988م).
- الزواج، محمد بن صالح العثيمين، (مدار الوطن- المملكة العربية السعودية، ط1 - 1425هـ).
- الزوجان والعلاقات الأسرية، قرطي فائزة، (رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية - قسم علم الاجتماع، جامعة وهران، 2015-2016).
- السيرة الحلبية [إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون]، أبو الفرج علي بن إبراهيم الحلبي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط2-1427هـ).
- السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شهبه، (دار القلم - دمشق، ط8-1427 هـ).
- السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، عبد الرحمن الحجى، (دار ابن كثير- دمشق، ط1 - 1420 هـ).
- السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، أحمد غلوش، (مؤسسة الرسالة، ط1-2003).
- السيرة النبوية: دروس وعبر، مصطفى بن حسني السباعي، (المكتب الإسلامي، ط3-1405 هـ).
- السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد محمد الصلّابي، (دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط7-1429 هـ).

- السيرة النبوية، ابن هشام المعافري، (تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشليبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2- 1375هـ).
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، عياض بن موسى اليحصبي السبتي، (دار الفيحاء - عمان، ط2- 1407هـ).
- الشمائل الشريفة، جلال الدين السيوطي، (حسن بن عبيد باحبشي، دار طائر العلم للنشر والتوزيع - د.ت).
- الطبقات الكبرى، ابن سعد، (تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1- 1990م).
- الطبقات الكبرى، ابن سعد، (تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط1- 1968م).
- الطريق إلى مجتمع المعرفة: نحو نموذج إسلامي للتواصل المعرفي والاتصال العلمي، محمد بابكر العوض، (هيئة الأعمال الفكرية، دار السداد للطباعة - الخرطوم، ط1 - 2012م).
- الطفل المغربي وأساليب التنشئة الاجتماعية بين الحداثة والتقليد، محمد مصطفى قباج، (سلسلة دفاتر في التربية، منشورات رمسيس - الرباط، 1997م).
- العادات السبع للأسر الأكثر فعالية، ستيفن آر كوفي، (مكتبة جرير - السعودية، ط7- 2010م).
- العادات السبع للناس الأكثر فعالية، ستيفن آر كوفي، (مكتبة جرير - المملكة العربية السعودية، ط21- 2009م).
- العين، الخليل الفراهيدي، (تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال - د.ت).
- الفوائد، ابن قيم الجوزية، (دار الكتب العلمية - بيروت، ط2 - 1973 م).
- القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، سعدي أبو حبيب، (دار الفكر - دمشق، ط2 - 1988م).
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري، (دار الكتاب العربي - بيروت، ط3 - 1407هـ).

- الكليات، أبو البقاء الحنفي، (تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت، د.ت).
- المتفوقون عقليا: خصائصهم، اكتشافهم، تربيتهم، مشكلاتهم، عبد الرحمن سيد سليمان وصفاء غازي أحمد، (مكتبة زهراء الشرق - القاهرة، ط 1-2001م).
- المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر الدينوري، (تحقيق: مشهور آل سلمان، دار ابن حزم - بيروت، 1419هـ).
- المحاسن والمساوي، البيهقي، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - القاهرة، 1380هـ).
- المحافظة على البيئة من منظور إسلامي، قطب الريسوني، (دار ابن حزم - بيروت، ط 1 - 2008 م).
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، (تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1- 1411 هـ).
- المعجم الأوسط، سليمان أبو القاسم الطبراني، (تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، د.ت).
- المعجم الكبير للطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، (تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط 2، د.ت).
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني، (تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي - مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية، (د.ت)).
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، (مطبعة دار الكتب المصرية - مصر، 1945م).
- المعلم الأول صلى الله عليه وسلم، فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب، (الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات).
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، ط 1-1412هـ).

- المهارات الحياتية للشباب " دليل تدريبي"، عصام علي، (مطبعة سيوبرس - 2014م).
- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أبو العباس القسطلاني، (المكتبة التوفيقية - القاهرة، د.ت).
- الموطأ، مالك بن أنس، (منشورات المجلس العلمي الأعلى - المملكة المغربية، ط1 - 2013 م).
- الموهبة والإبداع: طرائق التشخيص وأدواته المحوسبة، تيسير صبحي، (دار التنوير العلمي للنشر والتوزيع - عمان، ط1-1992م).
- النبوة اصطفاء وقدوة، أحمد مختار البزرة، (الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، طبعة السنة الثانية - 1390هـ).
- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، (تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ط1399هـ).
- النور الخالد [محمد مفعرة الإنسانية]، محمد فتح الله كولن، (دار النيل - القاهرة، ط8 - 2013م).
- إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تقي الدين المقرئ، (تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 - 1999 م).
- أهداف التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، (دار القلم، ط1 - د.ت).
- أيقظ قدراتك واصنع مستقبلك، إبراهيم الفقي، (دار الراية - سوريا، ط1-2008م).
- باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، أبو القاسم النيسابوري، (تحقيق: سعاد بنت صالح بن سعيد باقبي، جامعة أم القرى، 1419هـ).
- بغية الرائد فيما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، القاضي عياض، (تحقيق: صلاح الدين بن أحمد الإدليبي وآخرون، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، ط1 - 1975م).
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد الزبيدي، (تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د.ت)).
- تاريخ ابن خلدون "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، عبد الرحمن بن خلدون الاشيلي، (تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر - بيروت، ط2-1988م).

- تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي، (دار المصطفى - القاهرة، د.ت).
- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد المباركفوري، (دار الكتب العلمية - بيروت، د.ت).
- تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله ناصح علوان، (دار السلام، القاهرة، ط21-1412هـ).
- تفسير البغوي، أبو محمد الحسين بن الفراء البغوي، (تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1-1420هـ).
- تفسير الرازي، [مفاتيح الغيب، التفسير الكبير]، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط3-1420هـ).
- تفسير القرآن (اختصار تفسير الماوردي)، العز بن عبد السلام، (تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم - بيروت، ط1-1416هـ).
- تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن]، أبو عبد الله محمد شمس الدين، (تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2-1384هـ).
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م).
- تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان]، نظام الدين النيسابوري، (تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1-1416هـ).
- تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، محمد الأزدي، (تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة - القاهرة، ط1-1995م).
- تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين، الراغب الأصفهاني، (دار مكتبة الحياة - بيروت، ط1-1983م).
- تقييد العلم، أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي، (إحياء السنة النبوية - بيروت، د.ت).
- تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزي، (نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي و جمال الخياط - وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة الأولى (من 1979م - 2000م)).

- تلوث البيئة وأثره على قضايا التغذية المعاصرة من المنظور الشرعي، عبد العزيز فاضلي، (أطروحة دكتوراه تحت إشراف دة. بثينة الغلبزوري، تكوين الدكتوراه: الفكر الإسلامي العاصر وقضايا المجتمع والبيئة في العالم المتوسطي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط- 2019م).
- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، (تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط1-2001م).
- خلاصة في نقد الفكر الطبيعي، قراءة في كتاب "الطبيعة" مع مقالة في بناء الإنسان عند بديع الزمان النورسي، محمد خروبوات، (مقالات علمية- رقم: 2، المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، ط1- 2002م).
- حواطر، بليز باسكال، (ترجمة: إدوارد البستاني، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع- بيروت، ط1-1972م).
- دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب، (دار الشروق- القاهرة، ط10-1414هـ).
- دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، (دار النفائس - بيروت، ط2- 1425 هـ).
- دليل التدريب القيادي، هشام الطالب، (سلسلة التنمية البشرية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1-1995م).
- ديوان حسان بن ثابت، (تحقيق: علي مهنا، دار الكتب العلمية- بيروت، ط2-1414هـ).
- ديوان عامر بن الطفيل، (تحقيق: هدى جنهويتشي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1-1418هـ).
- ذكاء الروح، ديفيد بول، (قسم الترجمة بدار الفاروق- مصر، ط1 - 2010م).
- ذكاء المشاعر، دانيال جولمان، (ترجمة: هشام الحناوي، هلا للنشر والتوزيع- القاهرة، ط2 - 2012).
- روائع إقبال، أبو الحسن علي الندوي، (دار الفكر - دمشق، ط1- 1960م).
- روح البيان، إسماعيل أبو الفداء الخلوقي، (دار الفكر - بيروت، د.ت).
- زهرة التفاسير، محمد بن أحمد أبو زهرة، (دار الفكر العربي، د.ت).
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الشامي، (تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1- 1993م).

- سنن ابن ماجه، (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د.ت).
- سنن أبي داود، (تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، د.ت).
- سنن الترمذي، (تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط 1998 م).
- سنن الدارمي، (تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط 1-2000 م).
- سيكولوجية العلاقات الأسرية، محمد بيومي خليل، (دار قباء، القاهرة - د.ط 2000 م).
- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي الزرقاني، (تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، ط 1-1424 هـ).
- شرح السنة للبخاري، (تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، ط 2-1983).
- شرح النووي على مسلم، (دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط 2-1392 هـ).
- شرح رياض لصالحين، محمد بن صالح العثيمين، (دار الوطن للنشر - الرياض، 1426 هـ).
- شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف ابن بطلال، (تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، ط 2-1423 هـ).
- شرح صحيح مسلم، أبو الأشبال حسن الزهيري آل مندوه المنصوري، (مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية <http://www.islamweb.net>).
- شرح مشكل الآثار، الطحاوي، (تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 1-1415 هـ).
- شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أحمد زاوي، (دار القمة - الإسكندرية، د.ت).
- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد، (تحقيق: حسين بن عبد الله العمري وآخرون، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1420 هـ).
- صحيح ابن حبان مخرجا، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (مؤسسة الرسالة - بيروت، ط 2-1993).

- صحيح ابن حبان [الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان]، محمد بن حبان التميمي، (ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط1-1408 هـ).
- صحيح البخاري [الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه]، محمد بن إسماعيل البخاري، (تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط1-1422 هـ).
- صحيح مسلم " المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم "، مسلم بن الحجاج، (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، (د.ت)).
- طريقك إلى التميز والنجاح: التفكير الإبتكاري والإبداع، مدحت أبو النصر (المجموعة العربية للتدريب والنشر، القاهرة- ط2/2009م).
- علم النفس الاجتماعي، أحمد عبد العزيز سلامة وعبد السلام عبد الغفار، (دار النهضة - القاهرة، 1970م).
- علم النفس التربوي، محمد مصطفى زيدان ونبيل السمالوطي، (دار الشروق - مصر، ط3 - 1415هـ).
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد بدر الدين العيني، (دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت).
- عمل اليوم والليلة، النسائي، (تحقيق: فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2 - 1406هـ).
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، (محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت، 1379هـ).
- فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب الحسيني البخاري، (المكتبة العصرية بصيدا- بيروت، ط1-1992م).
- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، (دار ابن كثير- دار الكلم الطيب، دمشق- بيروت، ط1-1414هـ).

- فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، محمد سعيد رمضان البوطي، (دار الفكر - دمشق، ط25 - 1426 هـ).
- فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، (جامعة أم القرى، ط2-1413 هـ).
- فقه السيرة، محمد الغزالي السقا، (تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم - دمشق، ط1-1427 هـ).
- فن التعامل مع الزملاء، نورمان سي هيل، (ترجمة: دار القعيد للترجمة، دار المعرفة للتنمية البشرية - الرياض، ط1-1422 هـ).
- فن التواصل مع الناس، حسن رقيق، (أفريقيا الشرق - الدار البيضاء، ط1، 2009 م).
- في ظلال القرآن، (دار الشروق - القاهرة، ط17-1412 هـ).
- قانون البيئة، الهادي مقداد، (مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط1-2012 م).
- قراءة في الشخصية الإسلامية من خلال السيرة النبوية، مصطفى بن عمر المسلوقي، (منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر - أكادير، (د.ت)).
- كيف تربى ولدك، ليلي بنت عبد الرحمن الجريفة، (وزارة الأوقاف السعودية، د.ت).
- لسان العرب، أبو الفضل بن منظور، (دار صادر، بيروت، ط3-1414 هـ).
- مبادئ الصحة النفسية، صالح حسن الداھري، (دار وائل للنشر والتوزيع - عمان، ط2-2010 م).
- مجاز القرآن، أبو عبيدة، (تحقيق: محمد فواد سزكين، مكتبة الخانجي - القاهرة، 1381 هـ).
- مجالس التذكير من حديث البشير النذير، عبد الحميد بن باديس، (مطبوعات وزارة الشؤون الدينية - الجزائر، ط1 - 1983 م).
- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن بن خان المباركفوري، (إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الهند، ط3 - 1984 م).

- مسند أحمد، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، (تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1- 1421 هـ).
- مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد البزار، (تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من 1 إلى 9) وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من 10 إلى 17) وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء 18)، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط1 (بدأت 1988م، وانتهت 2009م).
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، (تحقيق: عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب - بيروت، ط1 - 1408 هـ).
- معجم ابن الأعرابي، عبد المحسن الحسيني، (دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية، ط1 - 1997م).
- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (عالم الكتب، ط1- 1429 هـ).
- مقاييس اللغة، ابن فارس القزويني، (تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399 هـ).
- مكارم الأخلاق للطبراني، (دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1- 1989).
- من الإنسان الأبتري إلى الإنسان الكوثر، طه عبد الرحمن، (جمع وتقديم: رضوان مرحوم، المؤسسة العربية للفكر والإبداع- بيروت، ط1- 2016م).
- منظومة القيم المرجعية في الإسلام، محمد الكتاني، (منشورات الرابطة المحمدية للعلماء، دار أبي رقرق للطباعة والنشر- الرباط، ط2- 2011م).
- منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور سويد، (دار طيبة- مكة المكرمة، ط3- 2000م).
- مهارات إدارة الوقت، أحمد محمد غنيم، (المكتبة العصرية للنشر والتوزيع - مصر، 2009م).
- مهارات الاتصال والتفاعل والعلاقات الإنسانية، أماني عبد الفتاح، (مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة، ط1 - 2012).

- مهارات الحياة وبناء مجتمع المعرفة، يحيى علي زهران، (المكتبة العصرية للنشر والتوزيع - مصر، ط1-2012م).
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شهاب الدين المقرئ التلمساني، (تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط1-1968م).
- نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني، (تحقيق: عصام الدين الصبابي، دار الحديث، مصر، ط1-1413هـ).

ب. المقالات:

- " الأسوة الحسنة في القرآن الكريم وتطبيقها في السيرة النبوية"، عماد الدين الرشيد، مجلة: جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 26، العدد الأول، (2010).
- " الاهتمام بالعمل الجماعي بدلا من الفردية"، عبد الرحمن بن سعيد الحازمي، تاريخ النشر: 24/2/2016، موقع الألوكة الاجتماعية، رابط المقال: https://www.alukah.net/social/0/99387/#_ftnref6.
- "أسرار الحياة الزوجية، ما يجوز كشفه منها وما لا يجوز"، محمد بولوز، (نشر بتاريخ: الأربعاء 11 مارس 2015، موقع هسبريس - رابط المقال: <https://www.hespress.com/writers/257689.html>).
- "إضاعة الوقت بين الغفلة والتهاون"، خباب الحمد، 3 ربيع الثاني 1430هـ، موقع المسلم: www.almoslim.net/node/109330.
- "اكتشاف المواهب وتنمية المهارات في السنة النبوية"، محمد زرمان، (ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية السادسة بعنوان: [صناعة التميز وتنمية المهارات في السنة النبوية]، والتي انعقدت بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي (أيام: 23-24-25 أبريل 2013م)).

- "إنسانية السنة النبوية في الحياة الزوجية"، سوسن الشريف، (نشر بتاريخ: 29 نوفمبر، 2017 الموقع الإلكتروني لمركز خُطوة للتوثيق والدراسات: (<http://www.khotwacenter.com>)).
- "التربية الروحية"، محمد المبارك، مجلة المعرفة السورية، (العدد الثاني- بتاريخ: 1 - 2 - 1947).
- "التمثل الاجتماعي سيرورة لإدراك الواقع وبنائه"، عبد الكريم بلحاج، (ندوة: تكوّن المعارف : دور القياس التمثيلي، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 117- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط1- 2005م).
- "التميز في صناعة الأهداف وتحقيقها في ضوء الهدى النبوي"، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، خالد محمد محمود الشerman، (العدد 2 - الجامعة الإسلامية بغزة، يوليو 2015).
- "الدين المعاملة"، منقذ بن محمود السقار، (رابطة العالم الإسلامي - سلسلة دعوة الحق - السنة 24، العدد 237، عام 1430 هـ).
- "الرعاية والإعداد الإلهي للنبي قبل البعثة ودورها في نجاح الدعوة الإسلامية"، يحيى معابده: Agri Islami (Ilimler Dergisi - AGIID- 1, 2017).
- "الروح والجسد في القرآن الكريم"، حسن حنفي، (مجلة عالم الفكر-العدد4، المجلد37، أبريل 2009م)
- "العلم والمعرفة في رؤية القرآن للعالم ودلالاتهما على مفهوم مجتمع المعرفة"، محمد بريمة إبراهيم، (جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2014).
- "تشكيل نظام القيم"، جليل شكور، (مجلة القيم الثقافية النفسية، العدد 8 ، 1991م)
- "صناعة التميز وتنمية المهارة: الآليات والمحفزات في ضوء السنة النبوية"، محمد إسماعيل الديهي، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة أسيوط (العدد 46- أبريل 2013).
- "ظاهرة الأمهات العازبات بين سؤال الثابت والمتغير داخل السياق الكوني: المجتمع المغربي والإيطالي نموذجين"، إبراهيم أحتشاو وجهاد فوزي الكرامي ، (أعمال الندوة العلمية الدولية: [الاجتهاد والتجديد في

- قضايا الأسرة في السياق الكوني: سؤال الثابت والمتغير]، منشورات مؤسسة رزان للدراسات الإستراتيجية حول الأسرة المجتمع، مطبعة شمس برانت - الرباط، ط1 - 2019م).
- "عن التمدن والعالم؛ جدل الفطرة والإنسانية"، هبة رؤوف عزت، (أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء حول موضوع: القرآن الكريم ورؤية العالم؛ مسارات التفكير والتدبير، يومي 03-04 يونيو 2014م- مطبعة المعارف الجديدة، الرباط).
- "كيف تجعل ابنك متميزاً؟"، مازن بن عبد الكريم الفريح، قسم المقالات/ التربية الأسرية، (الموقع الإلكتروني: www.naseh.net).
- "مبدأ التميز وأهميته في فهم الخطاب النبوي وتطبيقه"، محمد ناصيري، ضمن أعمال ندوة الحديث الشريف بدبي.
- "مراعاة الحاجات النفسية للطفل في ضوء السنة النبوية مدخل لصناعة التميز وتنمية المهارات"، عزيز البطيوي، ضمن أعمال ندوة الحديث الشريف بدبي.
- "مسألة النفس ومراجعة الذات"، أحمد الخليلشي، مجلة الواضحة (دار الحديث الحسنية، العدد 4-2008م).
- "معالم توظيف الذكاء العاطفي في السنة النبوية وآفاق تحصيله"، عبد القادر عثمان اسماعيل، ضمن أعمال ندوة الحديث الشريف بدبي.
- " مفهوم الأسرة وأنماط التغيير الاجتماعي: مقارنة سوسولوجية، سيكولوجية"، إبراهيم السهلي، منشورات مؤسسة رزان للدراسات الإستراتيجية حول الأسرة المجتمع.
- " مفهوم العدالة وسماتها في السيرة النبوية"، يحيى محمد علي وعلي عطية، (مجلة دراسات دولية، العدد: 69).
- " من إكرام النبي للمرأة خدمته لأهله"، هاني ضوّه، (الموقع الإلكتروني "مصراوي"، تاريخ النشر: الإثنين 28 نوفمبر 2016)، رابط المقال: https://www.masrawy.com/islameyat/Sera-Hdi_Nabawy/details/2016/11/28/992075/

- "من هدي النبي صلى الله عليه وسلم في صناعة المبدعين واكتشاف المتميزين"، محمد ورداني عبد الراضي، أعمال الندوة السادسة بدبي.

- معالم صورة الإنسان بين المرجعيتين الإسلامية والغربية، هيئة التحرير، (إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة 24، العدد 95، شتاء 1440هـ/2019م).

ج. المراجع الأجنبية:

- **Can you train yourself to get by on less sleep?**, Claudia Hammond; (21 March 2013). BBC Future.Web Site: <http://www.bbc.com/future/story/20130320-can-you-get-by-on-less-sleep>.
- **Cardinal princip of secondary education: A report of the commission on the reorganization of secondary education**, Appointed by the nation education association Bulletin, 1918, NO.35. »
- **In Search Of Excellence** (lessons from america's best-run companies) 1982, Thomas J. Peters & Robert H. Waterman, JR. HarperBusiness Essentials, First Edition published 2004.
- **Jeunesse, famille et développement, essai sur le changement socio culturel dans un pays de tiers monde (Tunisie)**, CAMILLERI Carmel, centre de recherche scientifique, France (1973).
- **Oxford Reference** : (www.oxfordreference.com).
- **Self-directed learning - a learning issue for students and faculty!**, Charlotte Silén and Lars Uhlin, (Teaching in Higher Education: Vol.13, No.4, August 2008, Routledge. 461-475).
- **Sociologie du couple**, Kaufmann J-C, (1ère édition, PUF,1993).
- **The family from tradition to companion ships**, Burgess,E, Locke, H, New york, 1950.
- **The free encyclopedia**, (<https://en.wikipedia.org/wiki/Eudaimonia>).
- **The lean startup**, Eric ries, Grown Buisness, NewYork, 2011.

- **What is the idea behind the quote "time is money"?**, Robert Charles Lee, Mar 18, 2018 .Quora web site:(<https://www.quora.com/What-is-the-idea-behind-the-quote-time-is-money>).
- **What makes giftedness ? Reexamining a definition**", By: JOSEPH S.Renzulli- in Phi Delta Kappan 60, No3 (November 1978).
- **Working with Emotional Intelligence**, Daniel Goleman; business book summaries service, 2001-2003.

فهرس المحتويات

3	إهداء:
4	شكر و تقدير:
6	مقدمة:

الباب الأول: الإصار النضر لصناعة التميز وتنمية المهارات

21	تمهيد:
24	الفصل الأول: أساسيات صناعة الإنسان ومقوماتها
24	المبحث الأول: صناعة الإنسان داخل المنظومة الإسلامية "المصطلح الأساسيات"
24	- المطلب الأول: صناعة الإنسان "مفهوما"
28	- المطلب الثاني: أساسيات صناعة الإنسان في منظومة الوحي
51	المبحث الثاني: مقومات صناعة الإنسان
51	- المطلب الأول: مقوم القدوة
70	- المطلب الثاني: مقوم القيم
76	- المطلب الثالث: مقوم الأسرة
93	الفصل الثاني: إستراتيجية صناعة التميز وتنمية المهارات

- 94.....المبحث الأول: صناعة التميز: "المصطلح والإستراتيجية".
- 95.....- المطلب الأول: "التميز": التأصيل ودلالات الإطلاق.
- 114.....- المطلب الثاني: إستراتيجية صناعة التميز.
- 125.....المبحث الثاني: تنمية المهارات: "المصطلح والأقسام".
- 126.....- المطلب الأول: "تنمية المهارات الحياتية": التأصيل ودلالات الإطلاق.
- 131.....- المطلب الثاني: إستراتيجية تنمية المهارات.

الباب الثالث: الإكثار والتصيغ لصناعة التميز وتنمية المهارات في السيرة النبوية

- 182.....تمهيد:
- 184.....الفصل الأول: صناعة الإنسان ومقوماتها في السيرة النبوية.
- 184.....المبحث الأول: تجليات صناعة الشخصية الإنسانية في السيرة النبوية.
- 185.....- المطلب الأول: الصناعة الربانية للشخصية النبوية.
- 189.....- المطلب الثاني: تجليات صناعة الإنسان في السيرة النبوية.
- 197.....المبحث الثاني: مقومات صناعة الإنسان من خلال السيرة النبوية.
- 197.....- المطلب الأول: صناعة مقوم القدوة.
- 199.....الفرع الأول: الصناعة الربانية لأنموذج الاقتداء (محمد صلى الله عليه وسلم) ..
- 205.....الفرع الثاني: الصناعة النبوية للقدوة.
- 213.....- المطلب الثاني: التميز بالقيم من خلال السيرة النبوية.

- 214 الفرع الأول: قيمة الحق وتحليلات معانيه في السيرة النبوية
- 227 الفرع الثاني: قيمة المسؤولية وتحليلات معانيها في السيرة النبوية
- 234 - المطلب الثالث: صناعة التميز الأسري في السيرة النبوية
- 235 الفرع الأول: فلسفة اختيار الشريك داخل السيرة النبوية
- 239 الفرع الثاني: تحليلات التنمية الأسرية داخل السيرة النبوية
- 269 الفرع الثالث: المناخ الأسري داخل السيرة النبوية
- 280 الفصل الثاني: صناعة التميز وتنمية المهارات من خلال السيرة النبوية
- 280 المبحث الأول: صناعة الأهداف في السيرة النبوية من خلال حدث الهجرة
- 283 - المطلب الأول: أهمية الإعداد القبلي والتدرج في صناعة الهدف
- 291 - المطلب الثاني: دور التخطيط والقيادة الرشيدة في صناعة الهدف
- 296 - المطلب الثالث: وسائل صناعة الأهداف في السيرة النبوية
- 307 المبحث الثاني: تنمية مهارات الحياة من خلال السيرة النبوية
- 307 - المطلب الأول: مهارات صناعة الذات في السيرة النبوية
- 307 الفرع الأول: مهارة الذكاء الوجداني
- 324 الفرع الثاني: مهارات إدارة الوقت
- 335 الفرع الثالث: مهارة التعلم الذاتي
- 343 - المطلب الثاني: مهارات التعامل مع الآخر في السيرة النبوية
- 343 الفرع الأول: مهارات وآداب التواصل
- 358 الفرع الثاني: مهارة عمل الفريق

369..... الفرع الثالث: مهارة التنوع وقبول الآخر

376 - المطلب الثالث: مهارات صناعة المجتمع في السيرة النبوية

376..... الفرع الأول: مهارة الانتماء والمواطنة

386 الفرع الثاني: مهارة الحفاظ على البيئة والموارد

403 الفرع الثالث: مهارة صناعة مجتمع المعرفة

411 خاتمة:

415 المصادر والمراجع

415 أ. المصادر والمراجع العربية:

429..... ب. المقالات:

432..... ج. المراجع الأجنبية:

434 فهرس المحتويات